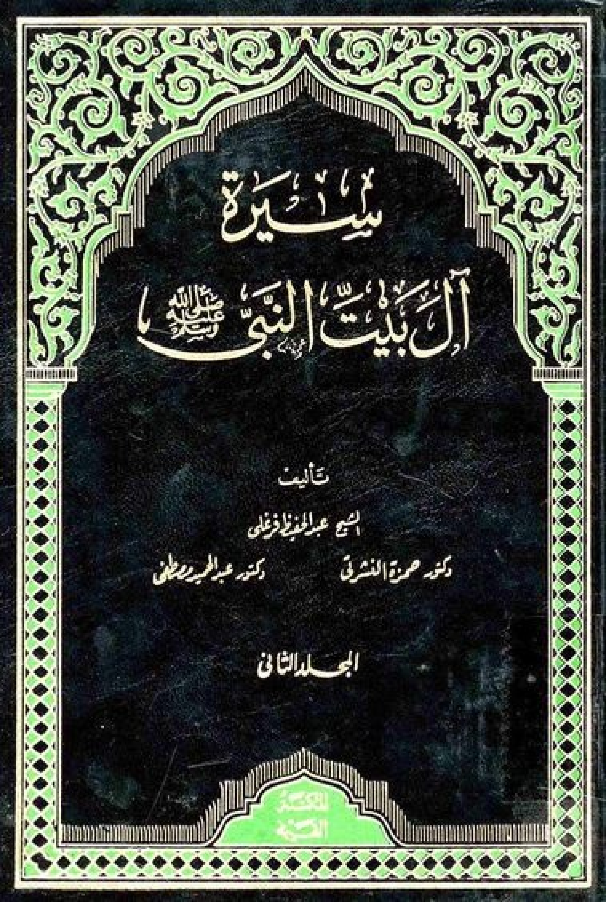

سيرة
آل بيت النبي صلى الله عليه وسلم
تأليف
الشيخ عبد الحفيظ فرغلي
دكتور حمزة النشرتي
دكتور عبد الحميد مصطفى
المجلد الثاني

سلسلة

آل بيت النبي صلى الله عليه وسلم



دكتور
حمزة النشرتي

الشيخ
عبد الحفيظ فرغلي

دكتور
عبد الحميد مصطفى

المجلد الثاني

فاطمة بعد الرسول

لم تصف الحياة لفاطمة بعد وفاة أبيها ، بل ظلت تطوى فؤادها على حزن كظيم زهاء ستة أشهر انتقلت بعدها إلى جوار ربها راضية مرضية . .

ولقد تحدث الرواة عن هذه الفترة وملئوها ببعض الأقوال والأحداث التى لانعتقد أن السيدة فاطمة ـ رضى الله عنها ـ التى تربت فى حضن أبيها على العفة والنزاهة والزهد والإعراض عن زهرة الدنيا ـ قد قالتها أو قامت بها . .

لقد حدث الرواة أن السيدة فاطمة غضبت من أبى بكر ـ رضى الله عنه ـ وخاصمته لأنه منعها ميراث أبيها فى فدك . .

وغضبت أيضاً لأن المسلمين لم يُنَصِّبوا زوجها على بن أبى طالب خليفة بعد رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ

وقد التقط بعض المغرضين ماحدث بعد وفاة الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ وضخموه وأضافوا إليه الكثير مما لا أصل له . . مع أن ماحدث لايزيد على مايحدث فى أى بيئة وفى أى وقت .

ولكن المنصفين من العلماء لم يرعوا اهتمامهم لتلك الإضافات المغرضة والمزايدات المشبوهة ، وجلُّوا الحقيقة أمام القراء لتكون حقاً شهادة للتاريخ النقى الذى يليق بكرامة أصحابه . .

لقد رد هؤلاء المنصفون كل ماقيل حول دور السيدة فاطمة ـ رضى الله عنها ـ وموقفها من أبى بكر ـ رضى الله عنه ـ

والحقيقة أن السيدة فاطمة كانت فى شغل عن كل ذلك الذى ذكر عنها

بمرضها الذى لزمها بعد وفاة أبيها ، وشُغِل علىٌّ معها فى ذلك بتمريضها . .

ولم يكن المسلمون متجنين فى اختيارهم أبا بكر أو مفتاتين على علىٍّ فى ذلك ، فقد كانت هذه البيعة طبيعية جداً وجاءت بالصورة المشرفة التى ارتضاها المسلمون جميعاً وارتضاها على وفاطمة ـ بل لقد كان أبوبكر نفسه فى شغل عنها . . .

وقد فرضت عليه فرضاً ، فقد قال له عمر : امدد يدك أبايعك ، وامتدت الأيدى جميعاً بعد ذلك لمبايعة أبى بكر . . ولم يتخلف علىٌّ نفسه عن البيعة بعد فراغه من غسل النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ ودفنه .

ولقد قال على ـ رضى الله عنه ـ لقد نظرنا إلى من اختاره النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ لديننا فاخترناه لدنيانا .

وهو يعنى بذلك أن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ أمر أبا بكر أن يصلى بالناس فى مرض موته . والصلاة عماد الدين ، ففهم المسلمون من هذا الاستخلاف معنىً ، جعلهم يقدمون على اختياره خليفة يقود المسلمين فى مسيرتهم نحو غاياتهم التى بعث النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ من أجلها . .

ولم يشذ أحد عن ذلك حتى أصحاب السقيفة الذين اجتمعوا قبل ذلك تفهموا الأمر وأسرعوا نحو بيعة أبى بكر ـ رضى الله عنه ـ وكان هذا اختياراً موفقاً رضيت عنه السماء ـ ولاشك أن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ قرت عيناه بذلك .

وليست فاطمة ـ رضى الله عنها ـ بالتى تقبل أن تشق هى عصا

المسلمين ، وتفرق جماعتهم وتنقض كلمتهم ، وهى أعلم بمنزلة أبى بكر - رضى الله عنه - من أبيها ، وقد سمعت قوله - صلى الله عليه وسلم - : « لو كنت متخذاً خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً ، ولكن إخاء وصحبة »

وقد سمعت ثناء الله عليه فى مواضع متفرقة من القرآن - وذكر مصاحبته النبى - صلى الله عليه وسلم - فى هجرته خير دليل يشهد بصدق أبى بكر وتقدمته .

وقد مرت الأيام وحمل الروافض لواء المعارضة للصاحبين الجليلين - أبى بكر وعمر - رضى الله عنهما - وحاولوا إثارة بعض ذرية أهل البيت وإيغار صدورهم ضد أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ولكن الذرية الطاهرة التى حفظها الله من سوء الظن ، ونجاها من غوائل الحقد والضغن كانوا يقظين يتنبهون لمثل هؤلاء الأدعياء ويردونهم على أعقابهم .

روى الفضيل بن مرزوق قال : سمعت الحسن بن الحسن يقول لرجل ممن يغلو فيهم : وَيْحَكُم - أحبُّونا لله - فإن أطعنا الله فأحبونا ، وإن عصينا الله فأبغضونا .

قال : فقال رجل : إنكم قرابة رسول الله وأهل بيته . فقال : ويحك لو كان الله مانعاً بقرابة من رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أحداً بغير طاعة ، لنفع بذلك من هو أقرب إليه منا أبا وأما ، والله إنى لأخاف أن يضاعف للعاصى منا العذاب ضعفين ، وإنى لأرجو أن يؤتى المحسن منا أجره مرتين ، ويلكم ، اتقوا الله فينا وقولوا فينا الحق فإنه أبلغ فيما تريدونه ونحن نرضى به منكم .

ثم قال : لقد أساء آباؤنا إن كان هذا الذى تقولون من دين الله ثم لم يطلعونا عليه ، ولم يرغبونا فيه .

فقال الرجل : ألم يقل رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ لعلى : « من كنت مولاه فعلى مولاه » ؟

قال الحسن : أما والله إنه لو يعنى بذلك الإمرة والسلطان لأفصح لهم بذلك كما أفصح لهم بالصلاة والزكاة وصيام رمضان وحج البيت ، ولقال لهم : أيها الناس هذا وليكم من بعدى ، فإن أنصح الناس للناس كان رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ولو كان الأمر ـ كما تقولون ـ أن الله ورسوله اختارا علياً لهذا الأمر ليقوم به بعد النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ لكان على أعظم الناس فى ذلك جرماً إذ ترك ماأمره به رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يقوم فيه كما أمره ، أو يعذر فيه إلى الناس » *

لقد أوضح حفيد فاطمة ـ رضى الله عنها ـ فى عبارته تلك ما التاث ـ أى ماصعب ـ فهمه على كثير من هؤلاء الذين فهموا من منطق الأحداث مالم تنطق به ، وانساقوا وراء الناعقين ليوسعوا هوة الخلاف بين المسلمين

لقد كان على ـ رضى الله عنه ـ نبيلاً حقاً ، وكان مؤمناً خالص الإيمان ، وكان نعم المستشار الناصح لكل من أبى بكر وعمر وعثمان فى خلافتهم المتعاقبة ، ولم ينقض على واحد منهم بيعته . .

« ولا يستطيع أحد أن يقطع بأن عليا كان فيما بينه وبين نفسه يجد على

(★) الطبقات الكبرى جـ٥ قسم ١ صـ٢٣٥

أبى بكر أو على عمر ، لأنهما استأثرا بالخلافة من دونه ، ذاك أنه لم ينبئنا أحد بشيء من ذلك فيما نطمئن إليه من أحاديث الرواة ، وعليّ أفضل فى نفسه وأكرم عند الله من أن يبايع الشيخين بلسانه ويضمر فى قلبه غير ماكان يظهر ، ونحن نعلم أنه نصح للشيخين فى أثناء خلافتهما ، وأن عمر بخاصة قد استعان به فى كثير من الأمور ، واستشاره فى كل ماكان يستشير فيه أعلام المهاجرين والأنصار »(*)

لقد تضخم هذا الأمر بعد عهد الخلفاء الراشدين ، وكثر الخلاف حتى ظهرت فرق الشيعة التى تدعى الحق لأبناء فاطمة ، وأن الخلافة حق لهم لاينازعهم فيها منازع ، وحتى نشأت الدولة الفاطمية فى المغرب العربى وامتد سلطانها على أماكن كثيرة ومن بينها مصر سنة ٣٦٠ هـ وكان لها شأن فى التاريخ الإسلامى .

.. هذا أحد الأمرين ـ وقد عرفنا منه أن فاطمة ـ رضى الله عنها ـ لم يحدث منها أى شيء مما أشاعه بعض الرواة الذين لم يشهدوا الأحداث ، وإنما اخترعوها أو أضافوا إليها أو بتروا منها حتى تتفق مع مايريدون ترويجه من آراء وأفكار .

أما الأمر الثانى فهو موضوع الميراث ..

فقد كانت « فدك » التى أفاء الله بها على رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بعد أن فتح خيبر ـ تحت يده ـ صلى الله عليه وسلم ـ

وفدك قرية يهودية قرب خيبر ـ صالح أهلها النبى ـ صلى الله عليه

(★) الشيخان لطه حسين صـ٣٧ ط التربية والتعليم ١٤١١ هـ

وسلم ـ على أن يحقن دماءهم ويخلو بينه وبين الأموال . ففعل النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ ذلك .

وينطبق على هذه القرية ماانطبق على بنى النضير الذين نزل فى حقهم قول الله تعالى :

﴿ مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ كَيۡ لَا يَكُونَ دُولَةَۢ بَيۡنَ ٱلۡأَغۡنِيَآءِ مِنكُمۡۚ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ﴿٧﴾ ﴾ (٧٣٥)

وكان النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ ينفق منها على المحتاجين ، ويزوج منها اليتامى والأرامل .

لقد فرق العلماء ـ بناء على مانزل من آيات بينات ـ بين الغنيمة والفيء ـ فالغنيمة ـ للمقاتلين أربعة أخماسها ، ولله ورسوله الخمس ـ مصداقاً لقوله ـ تعالى ـ

﴿ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمۡتُم مِّن شَيۡءٖ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ إِن كُنتُمۡ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَىٰ عَبۡدِنَا يَوۡمَ ٱلۡفُرۡقَانِ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ﴿٤١﴾ ﴾ (٧٣٦)

(★) الحشر ٧

(★) الأنفال ٤١

والفيء كله خالص لله والرسول . . وتعليل ذلك ماورد فى قوله تعالى :

﴿ وَمَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُۥ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ ۚ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾ ﴾ (*)

وينطبق ذلك على قرية فدك التى فتحت صلحا دون أن يجرد المسلمون فيها سيفاً أو يشرعوا رمحاً أو يُعملوا فيها خيلاً أو غير ذلك . .

وظل النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ يتصرف فيما يأتى من فدك وينفق منه على أهل بيته وفقراء المسلمين ، حتى لحق بالرفيق الأعلى .

فلما توفى طلبت فاطمة من أبى بكر ـ رضى الله عنه ـ ميراثها فى فدك .

فقال لها أبوبكر : إن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقول : « نحن معاشر الأنبياء لانورث ، ماتركناه صدقة »

وإنى والله لاأغير شيئاً من صدقة رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ عن حالها التى كان عليها .

ولكن حزن فاطمة ـ رضى الله عنها ـ على أبيها ، وشعورها أنها فقدت النصير بعده ، جعلها تنكر قول من ينكر عليها ميراثها . . إذ كيف يقول الله ـ تعالى ـ فى كتابه

« وورث سليمان داود »

ويقول زكريا « يرثنى ويرث من آل يعقوب » ولايكون لها هى الحق فى أن ترث أباها ؟

(*) الحشر ٦

ولم يشأ أبوبكر ـ رضى الله عنه ـ أن يغضبها وهو أعلم بمكانتها من أبيها ومنزلتها فى قلبه ، ومصابها الذى أصيبت به ، فحاول أن يقنعها بالحجة فقال لها : هذا أبوالحسن بينى وبينك ـ يقصد عليًا ـ كرم الله وجهه ـ وهو يعلم أن عليًا أعلم الناس بحديث رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وفهمه . .

ولاشك أن عليا ـ رضى الله عنه ـ قد سمع الحديث وفهم منه مافهمه أبوبكر . ولكن فاطمة ـ رضى الله عنها ـ قالت : إن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ كان يعطينا منها .

قال العقاد فيما نقله من شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد : إن أبا بكر قال لفاطمة ـ رضى الله عنها ـ : يابنة رسول الله ، والله ماورث أبوك ديناراً ولادرهماً ، وإنه قال : « إن الأنبياء لايورثون »

فقالت فاطمة : إن فدك كانت لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ

فقال أبوبكر ـ رضى الله عنه ـ : صدقت يابنة رسول الله كان رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يأخذ من فدك قوتكم ، ويقسم الباقى ويحمل منه فى سبيل الله ، فما تصنعين بها ؟

قالت فاطمة ـ رضى الله عنها ـ : أصنع كما كان يصنع بها أبى .

قال أبوبكر : فلك على أن أصنع كما كان يصنع فيها أبوك .

فقالت فاطمة ـ رضى الله عنها ـ : آلله لتفعلن ؟

قال : الله لأفعلن .

قالت : اللهم اشهد . .

. وقد رضيت فاطمة واستكانت ، وذهب ما كانت تشعر به من بعض الغضب نحو أبي بكر ، لأنها عرفت أنه يطبق سنة أبيها ، وما أمر به .

وظل أبو بكر - رضى الله عنه - يفعل ما عاهد الله عليه ، حتى توفى . فظل عمر يفعل مثلما فعل ، وكذلك فعل عثمان وفعل على - رضى الله عنهم - كانوا يدفعون لأهل بيت النبى نفقتهم وما يكفيهم ، ثم يقسمون الباقى بين فقراء المسلمين . .

لقد كان أبو بكر حزينا فى داخله أن رأى فاطمة غاضبة منه بسبب ذلك ، ولم يستقر وجدانه حتى أرضاها . .

وقد حدث أن قال عمر لأبى بكر : انطلق بنا إلى فاطمة فإنا قد أغضبناها . .

لقد شعر عمر أن فاطمة غاضبة ، ولم يشأ أن يحملها وزر هذا الغضب ، ولكنه أقر بأنه هو وأبو بكر هما اللذان أغضباها . وذهبا يستأذنان عليها فأبت أن تأذن لهما ، فكلما عليا فأدخلهما فتكلم أبو بكر فقال : يا حبيبة رسول الله ، والله إن قرابة رسول الله أحب إلىَّ من قرابتى ، وإنك لأحب إلى من عائشة ابنتى ، ولوددت يوم مات أبوك أنى مت ولا أبقى بعده . أفترانى أعرفك وأعرف فضلك وشرفك وأمنعك حقكِ وميراثك من رسول الله - ﷺ - ؟

ألا إنى سمعت أباك رسول الله - ﷺ - يقول : « لا نورث ، ما تركنا فهو صدقة » فقالت فاطمة : أرأيتكما إن حدثتكما حديثا عن رسول الله - ﷺ - تعرفانه وتفعلان به ؟

قالا : نعم .

فقالت : نشدتكما الله ، ألم تسمعا رسول الله - ﷺ - يقول : « رضاء فاطمة من رضائى وسخطها من سخطى » ؟

قالا : نعم سمعناه من رسول الله .

قالت : فلماذا لم ترضيانى ؟

لئن لقيت النبى - ﷺ - لأشكونكما إليه . فقال أبو بكر : أنا عائذ بالله تعالى من سخطه وسخطك يا فاطمة ، ثم أخذ أبوبكر يبكى حتى كادت نفسه تزهق . ثم خرج إلى الناس فاجتمعوا إليه ، فقال لهم : يبيت كل رجل منكم سعيداً مسروراً بأهله ، وتركتمونى وما أنا فيه ؟ ، لا حاجة لى فى بيعتكم ، أقيلونى بيعتى[1]

إن هذا الخبر يبين لنا كيف كان أبو بكر يعانى من موقفه العسير أشد العسر - « فهو إما أن يعطى فاطمة - رضى الله عنها - ما طلبت ، فيخالف عما أمر رسول الله - ﷺ - والموت أهون عليه من هذا - وإما أن يمنعها ما طلبت فيغضبها ، وأشد الأشياء كراهة له أن يغضبها ، فهى بنت أحب الناس إليه وأكرمهم عليه وآثرهم عنده ، ومع ذلك فقد غلبت طاعته لرسول الله - ﷺ - كل عاطفة أخرى فى نفسه ، فأبى على فاطمة ما طلبت واعتذر إليها ، وبكى وأمعن فى البكاء ، لأن قرابة رسول الله - ﷺ - أحب إليه من قرابته . . . »[2]

إلا أنا نميل إلى ما سبق أن أورده ابن أبى الحديد من أن فاطمة - رضى الله عنها - قبلت من أبى بكر أن يفعل فى فدك ما كان يفعله النبى - ﷺ - وكفت

---

(١) فاطمة والفاطميون صـ٥٨

(٢) الشيخان د طه حسين صـ٦٤

عن مغاضبتها لأبي بكر . واستكانت نفسها إلى العهد الذى قطعه على نفسه .

ولا نميل إلى رأى من يقول : إنها ظلت مغاضبة له حتى وافاها أجلها . لأن هذا أمر بعيد عن العقل وعن أخلاق الإسلام التى كان الجميع يتمسك بها . مع أن التاريخ يخبرنا أن التى كانت تمرض فاطمة فى مرضها هى أسماء بنت عميس ، وكانت فى ذلك الوقت زوجة لأبى بكر ـ رضى الله عنه ـ فقد تزوجها بعد استشهاد زوجها جعفر ـ رضى الله عنه ـ فى مؤته ـ

ماذا حدث لميراث فدك ؟

ظل هذا الميراث يقسم على حسب ما كان يفعل النبىّ ـ ﷺ ـ وذلك طيلة عهد الخلفاء الأربعة ـ رضى الله عنهم . ثم اختلف الحال بعض الشىء عن ذلك حتى جاء عمر بن عبدالعزيز الملقب بخامس الخلفاء الراشدين ، فرد الأمر إلى ما كان عليه فى عهد الرسول ـ ﷺ ـ والخلفاء من بعده

وهذا نص ما قاله عمر بن عبدالعزيز فى أول عهده بخلافة المسلمين : « إن فدك كانت مما أفاء الله على رسوله ولم يوجف المسلمون عليه بخيل ولا ركاب ، فسألته فاطمة أباها ، فقال لها : ما كان لك أن تسأليني وما كان لى أن أعطيك ، فكان يضع ما يأتيه منها فى أبناء السبيل ، ثم ولى أبو بكر وعمر وعثمان وعلى فوضعوا ذلك بحيث وضعه رسول الله ـ ﷺ ـ ثم اختلف الأمر بعد ذلك فأصبح للأمراء نصيب فى ذلك . وكانت لى حصة وهبها لى أبى ، فاستجمعتها ، وما كان لى من مال أحب إلىّ منها ، فاشهدوا أنى رددتها إلى ما كانت عليه »[٣]

---

(٣) فاطمة والفاطميون ص٦٠

وفاتها

كانت فاطمة ـ رضى الله عنها ـ واثقة من دنو أجلها حين توفى أبوها ـ ﷺ ـ وأسرع إليها المرض كما تسرع النار إلى الهشيم فوجد المرض جسما زاويا وضعفا عاما بسبب ما انتابها فى حياتها من الأحزان الكثيرة والأحداث الخطيرة ، وضاعف من ذلك فقدها أحب الناس إليها . .

وكانت فاطمة قد أنجبت من على ثلاثة ذكور وفتاتين ـ أنجبت الحسن ، ثم الحسين ، ثم محسن ، ثم زينب ، ثم أم كلثوم . . . وستتحدث عن هؤلاء الأولاد الذين عاشوا بعدها ـ ما عدا محسن الذى مات صغيراً . .

وقد وجدت فاطمة فى ظل زوجها الوفى حنانا زائدا وقد أحزنه كثيراً مرضها ، حتى لقد لازمها فى أثناء ذلك ، فلم يكن يخرج إلا لشهود الجماعة ثم يعود إليها محاولا التخفيف عنها ما أمكنه ، ولا شك أن أبا بكر قد عادها فى مرضها وجعل زوجته أسماء بنت عميس فى خدمتها ، وهذا يرد على من يقول : إنها ماتت ـ رضى الله عنها ـ مغاضبة له . .

جاء فى الطبقات : أن أبا بكر جاء إلى فاطمة حين مرضت فاستأذن فقال على : هذا أبوبكر بالباب ، فإن شئت أن تأذنى له .

قالت : وذلك أحب إليك ؟

قال : نعم ـ فدخل عليها ، واعتذر إليها وكلمها فرضيت ـ فقبلت منه ورضيت(٤)

وهذا هو الأشبه بأخلاق الصديقين الذين لا يكنون لأحد حقداً

---

(٤) الطبقات ٨ /١٧

ولا موجدة ، ولا شك أن فاطمة - رضي الله عنها - كانت أكرم من أن تُكِنَّ لصديق والدها العزيز شيئاً من الحقد أو الكراهية وهى تعلم أنه يطبق سنة أبيها - ﷺ - . . .

وقد ورد فى وفاتها وغسلها روايات .

فقد حدثت سلمى زوجة أبى رافع وكان مولى لرسول الله - ﷺ - قالت : مرضت فاطمة بنت رسول الله - ﷺ - عندنا ، فلما كان اليوم الذى توفيت فيه خرجت عَلِىٌّ ، فقالت لى : يا سلمى اسكبى لى غسلا ، فسكبت لها فاغتسلت كأحسن ما كانت تغتسل ، ثم قالت : ائتينى بثيابى الجدد ، فأتيتها بها ، فلبستها ، ثم قالت : اجعلى فراشى وسط البيت فجعلته فاضطجعت عليه واستقبلت القبلة ، ثم قالت لى : يا سلمى إنى مقبوضة الساعة ، وقد اغتسلت فلا يكشفن لى أحد كفنا

قالت : فماتت ، فجاء على فأخبرته ، فقال : لا والله لا يكشف لها أحد كفنا ، فاحتملها فدفنها بغسلها ذلك .(٥)

ولكن وردت روايات أخرى تفيد أن أسماء بنت عميس قد غسلتها . وصنعت لها نعشا . . وهى أول امرأة صنع لها نعش . . فقد حدث ابن الأثير أن أسماء بنت عميس تحدثت مع فاطمة عند اقتراب وفاتها .

فقالت أسماء : يا ابنة رسول الله - ﷺ - ، الا أريك شيئاً رأيته يصنع بأرض الحبشة ؟ فدعت بجرائد رطبة فحنتها . ثم طرحت عليها ثوباً . فقالت فاطمة : ما أحسن هذا وأجمله ، فإذا أنا مت فاغسلينى أنت

---

(٥) الطبقات ٨ / ١٨

ولا تدخل على أحدا . فلما توفيت فاطمة جاءت عائشة فمنعتها أسماء ، فشكتها عائشة إلى أبي بكر ، وقالت : إن هذه تحول بيننا وبين بنت رسول الله - ﷺ - .

فوقف أبو بكر على الباب فقال : يا أسماء ما حملك على أن منعت أزواج النبي - ﷺ - أن يدخلن على بنت رسول الله - ﷺ - وقد صنعت لها هودجا لم نعهده ؟

قالت : هي أمرتني ألا يدخل عليها أحد ، وأمرتني أن أصنع لها ذلك .
قالت : فافعل ما أمرتك به
وغسلها عليٌّ وأسماء(٦)
وأوصت أن تدفن ليلاً . .

وصلى عليها علي - رضي الله عنه - وقيل في بعض الروايات : صلى عليها أبو بكر فكبر أربعا(٧) . . وقيل : صلى عليها العباس - رضي الله عنه - ودفنت بالبقيع ، وقيل : دفنت في زاوية دار عقيل ، ونزل في قبرها علي والعباس وابنه الفضل - رضي الله عنهم - وتوفيت في اليوم الثالث من رمضان سنة إحدى عشرة من الهجرة وكان عمرها تسعا وعشرين سنة ، وقال بعضهم : ثلاثين سنة ، وقال بعضهم : خمسا وثلاثين سنة . .

ولقد روت فاطمة عن أبيها أحاديث رواها عنها أبناؤها . . . من ذلك . أنها قالت : « كان رسول الله - ﷺ - إذا دخل المسجد صلى على محمد وسلم ثم قال : « رب اغفر لي ذنوبي وافتح لي أبواب رحمتك - وإذا خرج صلى على

---

(٦) أسد الغابة جـ٧ صـ٢٢٦
(٧) الطبقات ٨ / ١٩

محمد وسلم ثم قال : رب اغفر لى ذنوبى وافتح لى أبواب فضلك »[8]

وقد تركت فاطمة ـ رضى الله عنها ـ بعدها ذرية طيبة مباركة أضاء بهم الزمن ، وبقوا منارات هدى للناس ، يضيئون لهم الحياة ، ويأخذ بأيديهم إلى طرق الحق والسعادة ، منهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلا . .

وستبقى العترة الطاهرة التى سنتحدث عن بعض أعلامها فيما يأتى إن شاء الله ـ تعالى ـ فى قلوب الناس ووجداناتهم . . تهفوا إليهم الأرواح ، وتشتاق لهم القلوب . وتسعد بالحديث عنهم الأقلام والألسن . . ولاشىء أحب من أن نختم حديثنا عن الزهراء بما رواه أبو جحيفة عن على قال : سمعت رسول الله ـ ﷺ ـ يقول : « إذا كان يوم القيامة نادى مناد من وراء الحجاب : يا أهل الجمع هذه فاطمة بنت محمد تمر . . . »[9]

شخصية السيدة فاطمة

وانطوت صفحة السيدة فاطمة فى الدنيا ، ولكنها تركت بعدها أثرا لا تمحوه الأيام والليالى ، وخلفت بعدها ذكرى طيبة عطرة تبقى على الدهور . .

وقد ذكر أن الأمام عليا بعد أن وسد الزوجة الطيبة الطاهرة التراب وخرج من القبر ، وشعر أن زوجته فارقته إلى رحاب مولاها استعبر وأخذ يبكى بحرقة وهو يقول :

أرى علل الدنيا علىَّ كثيرة ... وصاحبها حتى الممات عليل

---

(٨) مسند أحمد ٦ / ٢٨٢

(٩) أسد الغابة جـ٧ صـ٢٢٥

لكل اجتماع من خليلين فرقة ... وكل الذي دون الفراق قليل

وإن افتقادي فاطماً بعد أحمد ... دليل على ألا يدوم خليل

ودأب على زيارة قبرها يوميا كأنه وجد فى زيارة القبر سلوة وعزاء . وماله لا يجد ذلك وهو يدرك أن الروح باقية ، وأن الذكرى خالدة ، وأن الوداد لا يحول بينه الموت ولا تأخذ منه الأيام ؟؟

ونظر إلى أولاده منها فوجد فيهم صورة أمهم الحبيبة وجدهم العظيم ، فأخذ يحوطهم برعايته ويحفهم بعنايته ، ويحنو عليهم مثلما كان يفعله جدهم - ﷺ -

لقد كانت السيدة فاطمة ذات شخصية آسرة قوية ، اكتسبتها من وراثتها لأخلاق النبى - ﷺ - وما اتصف به من ورع ونبل وكرم وصبر وزهد ونأى عن طيبات الحياة وإقبال على ما عند الله .

روى الحاكم فى المستدرك بسنده أن رسول الله - ﷺ - دخل على فاطمة وقد أخذت من عنقها سلسلة سميكة من ذهب ، فقالت : هذه أهداها إلىّ أبو الحسن . فقال لها النبى - ﷺ - : « يا فاطمة أيسرك أن يقول الناس : فاطمة بنت محمد وفى يدك سلسلة من نار» ؟

ثم خرج ولم يقعد ، فعمدت فاطمة - رضي الله عنها - إلى السلسلة فباعتها واشترت بها عبداً فأعتقته .

فبلغ ذلك النبى - ﷺ - فقال : « الحمد لله الذى نجى فاطمة من زهو الدنيا . . » ومما يؤثر عنها أنها قالت فيما يرويه عنها ابنها الحسين - رضى الله عنه - : قال لى أبى رسول الله - ﷺ - : « إياك والبخل فإنه عاهة لا تكون فى كريم ، إياك والبخل فإنه شجرة فى النار وأغصانها فى الدنيا ، فمن تعلق

بغصن من أغصانها أدخله النار ، والسخاء شجرة فى الجنة وأغصانها فى الدنيا فمن تعلق بغصن من أغصانها أدخله الجنة »[10]

وكانت غاية فى الإيثار ـ فقد روى أن النبى ـ ﷺ ـ قدم لها ثوبا جديداً ليلة عرسها ، وكان لها ثوب آخر ، وإذا بسائل على الباب ، فأرادت أن تدفع إليه الثوب القديم ، فتذكرت قوله ـ تعالى ـ

﴿ لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ ۚ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِن شَىْءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٩٢﴾ ﴾[11]

فدفعت إليه الثوب الجديد[12]

وليس لمتحذلق أن يقول : إن هذه مبالغة فى الإيثار لسنا مطالبين بها ـ ذاك أن أهل بيت النبى يجب عليهم أن يكونوا قدوة لغيرهم ـ وهذا هو الإيثار الذى امتدح الله به أحبابه ـ فقال فى حقهم

﴿ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَـٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾ ﴾[13]

وإذا كنا قد شاهدنا فى حياتنا الواقعة المليئة بالأثرة والجشع والتسابق فى الاقتناص ـ صوراً من هذا الإيثار الكريم الذى

---

(١٠) فاطمة الزهراء توفيق أبوعلم صـ١٢١

(١١) آل عمران ٩٢

(١٢) فاطمة الزهراء صـ١٢١

(١٣) الحشر ٩

يضع أصحابه فى القمة بين أصحاب المثل العليا فليس ببعيد أن يحدث من فاطمة الزهراء التى تربت فى حجر والدها الذى هو المثل الكامل فى كل خلق كريم ـ مثل هذا وأكثر . . وهى التى روى الرواة أن الآيات الكريمة

﴿ وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ۝٨ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ۝٩ ﴾ (١٤)

نزلت فى حقها وحق زوجها على ـ رضى الله عنهما ـ

لقد سارت السيدة فاطمة فى حياتها مسيرة مريم ابنة عمران التى

﴿ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ۖ قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ۝٣٧ ﴾ (١٥)

روى أبو سعيد الخدرى قال :

سأل على فاطمة يوما : هل عندك شىء نأكله . . ؟ قالت : لا والذى أكرم أبى بالنبوة . . وما عندنا شىء منذ يومين ـ فخرج من عندها واثقا بالله ـ تعالى ، حسن الظن به فاقترض ديناراً ، فبينما الدينار ـ فى يده أراد أن يبتاع به ما يصلح له ، إذ عرض له المقداد ، فى يوم شديد الحر ، فقال له : يا مقداد ، ما أزعجك من رحلك فى هذه الساعة ؟

فقال له : ما أزعجنى إلا الجهد وقد تركت أهلى يبكون جوعا . .

---

(١٤) الانسان ٨ ، ٩

(١٥) آل عمران ٣٧

فدفع له على الدينار الذى معه ، ورجع حتى دخل على النبى - ﷺ - . . فلما قضى النبى - ﷺ - صلاة المغرب ، قال لعلى : يا أبا الحسن هل عندك شىء تعشينا به ؟

فأطرق على لا يحير جوابا حياء من النبى - ﷺ - ولكنه قال : حبا وتكريما . . وانطلقا معا حتى دخلا على فاطمة ، فإذا جفنة تفور دخانا

وبعد أن سلما وسلمت - قال النبى - ﷺ - لفاطمة : كيف أمسيت ؟ عشينا . غفر الله لك وقد فعل . . . . فأخذت الجفنة فوضعتها بين يديه .

فنظر إليها على ، وقال : أليس عهدى بك اليوم وأنت مجهدة ولا شىء عندنا منذ يومين ؟

فقالت فاطمة : الله يعلم أنى لم أقل إلا حقا .

قال : فأنى لك هذا الذى لم أر مثله ؟ ولم أشم رائحته ؟

فوضع النبى - ﷺ - كفه المباركة بين كتفى علىّ ، ثم هزه وقال : « يا على هذا ثواب الدينار - هذا من عند الله الذى يرزق من يشاء بغير حساب »

ثم استعبر النبى - ﷺ - باكيا وقال : « الحمد لله الذى لم يخرجكما من الدنيا حتى يجريك يا على فى المجرى الذى أجرى فيه زكريا ، ويجريك يا فاطمة فى المجرى الذى أجرى فيه مريم ، كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقا قال يا مريم أنى لك هذا قالت هو من عند الله »(١٦)

---

(١٦) فاطمة الزهراء توفيق أبو علم صـ٨١

الذرية الطيبة

أعقبت السيدة فاطمة من زوجها الإمام على ـ كرم الله وجهه ـ ذرية طيبة أصلها ثابت وفرعها فى السماء تؤتى أكلها كل حين بإذن ربها . .

وشاء الله القدير أن يحفظ نسل النبى ـ ﷺ ـ فى فاطمة ونسلها . . . وهذه خصيصة من خصائصه التى لا يشاركه أحد غيره فيها . . فكل رجل يحفظ نسبه ذكور أولاده . . أما النبى ـ ﷺ ـ فإن نسبه محفوظ فى ابنته . قال ـ ﷺ ـ : « كل بنى أنثى فإن عصبتهم لأبيهم ما خلا ولد فاطمة فإننى أنا عصبتهم وأنا أبوهم »[17]

وقال : « كل بنى آدم ينتمون إلى عصبة أبيهم إلا ولد فاطمة فأنا وليهم وأنا عصبتهم »[18]

ومن أجل ذلك كان يطلق على أبناء فاطمة أبناء الرسول . . واستحقوا أن يلتف حولهم الناس ، وأن يُولُوهم كل حب وبر لما توفر فيهم ـ أولا ـ من مكارم الصفات وعظيم الأخلاق التى ورثوها عن جدهم العظيم . والأنبياء لم يورثوا مالا ولكنهم ورثوا علما وحكمة وهدى وأخلاقا فاضلة نيرة .

ولما وضع الله فيهم ـ ثانيا ـ من أخلاق النبوة الموروثة من جدهم ـ ﷺ ـ والمدرجة بين جوانحهم ، مصداقا لقوله ـ تعالى ـ

« وورث سليمان داود »

وقوله ـ تعالى ـ على لسان زكريا ـ عليه السلام ـ « يرثنى ويرث من آل يعقوب »

---

(١٧)أخرجه الطبرانى فى الكبير جـ٣ صـ٢٦٣١

(١٨) أخرجه الخطيب البغدادى فى تاريخ بغداد جـ١١ صـ٢٨٥

قال العلماء فى معنى الوراثة فى هذه الآية :

الوراثة : وراثة النبوة ، وقيل : هى وراثة الحكمة : وقيل : وراثة المال . أما النبوة فلا تورث وكذلك المال للأنبياء لا يورث ؛ لأن النبى - ﷺ - يقول : « نحن معاشر الأنبياء لا نورث ما تركناه صدقه » فبقيت الحكمة التى ورثها آل النبى - ﷺ - عنه . . كما ورثها العلماء والصالحون من أمته - وميراث الآل أكبر لجمعهم بين العلم والنسب .

وقد يكون المقصود بوراثة النبوة وراثة آدابها والعمل بمقتضاها وإحياء مبادئها وتعاليمها - وهذا هو المقصود بناء على حديث الثقلين المشهور الذى رواه زيد بن أرقم - رضى الله عنه - وغيره من الرواة . عن النبى - ﷺ - قال : « أنا تارك فيكم ثقلين أولهما كتاب الله ، فيه الهدى والنور ، فخذوا بكتاب الله واستمسكوا به . . فحث على كتاب الله ورغب فيه ثم قال : « وأهل بيتى - أذكركم الله فى أهل بيتى ، أذكركم الله فى أهل بيتى ، أذكركم الله فى أهل بيتى . . فانظروا بم تخلفونى فيهما »

وفى رواية : كتاب الله حبل ممدود من السماء إلى الأرض وعترتى أهل بيتى وإنهما لن يفترقا حتى يردا على الحوض . . . . »[١٩]

ومما يشير إلى أن النبوة - بمعنى فهم تعاليمها وآدابها وإدراك المرامى البعيدة منها - هى التى يتوارثها الأبناء عن الآباء الأنبياء - ما يرويه الحصرى من أن أعرابياً لقى أبا جعفر محمد بن على بن الحسين - رضى الله عنه - فقال له :

هل رأيت الله حين عبدته ؟

---

(١٩) أحاديث الثقلين رواها كثير من الرواة وكتب السنة . فهى فى صحيح مسلم والترمذى ، وفى مسند الامام أحمد ، وفى الطبرانى ، وغيرها . .

فقال أبو جعفر : لم أكن لأعبد من لم أره .

قال : فكيف رأيته ؟

قال : لم تره الأبصار بمشاهدة العيان ، بل رأته القلوب بحقائق الإيمان ، ولا يدرك بالحواس ، ولا يُشَبَّه بالناس - معروف بالآيات ، منعوت بالعلامات لا يجور فى القضيات - ذلك الله الذى لا إله إلا هو .

فقال الأعرابى : الله أعلم حيث يجعل رسالته[٢٠] . .

وقد وضع الله محبة أهل البيت فى قلوب الناس لأن الله أحبهم . . . وإذا أحب الله عبداً نادى مناد فى السماء - إن الله يحب فلاناً فأحبوه فيحبه أهل السماء ، ثم يوضع له القبول فى الأرض - كما تحكى الآثار فى هذا المعنى .

وأهل البيت هم أحب أهل الأرض إلى أهل السماء لأنهم أحب أهل الأرض إلى الله - تبارك وتعالى -

وقد أحب النبى - صلى الله عليه وسلم - فاطمة وأولادها حباً شديداً ونادى بحبهم ، وجعل حبهم من حبه - فقد قال - صلى الله عليه وسلم - « أحبوا الله لما يغذوكم به من نعمة ، وأحبونى لحب الله وأحبوا أهل بيتى لحبى »[٢١] .

وقد وردت الأخبار أن النبى - صلى الله عليه وسلم - اختص بعض أهل بيته بمزيد من العناية والحب والتقدير ، فجعل لفاطمة وذريتها وزوجها منزلة عظيمة يجب على المسلمين حفظها .

---

(٢٠) زهر الآداب للحصرى جـ١ صـ١١٦

(٢١) أخرجه الترمذى والحاكم عن ابن عباس رضى الله عنهما - جامع الأحاديث برقم ٥٧٠

أخرج الطبراني بسندٍ رجاله ثقات أنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال لفاطمة : « إن الله غير معذبك ولا أحد من ولدك » .

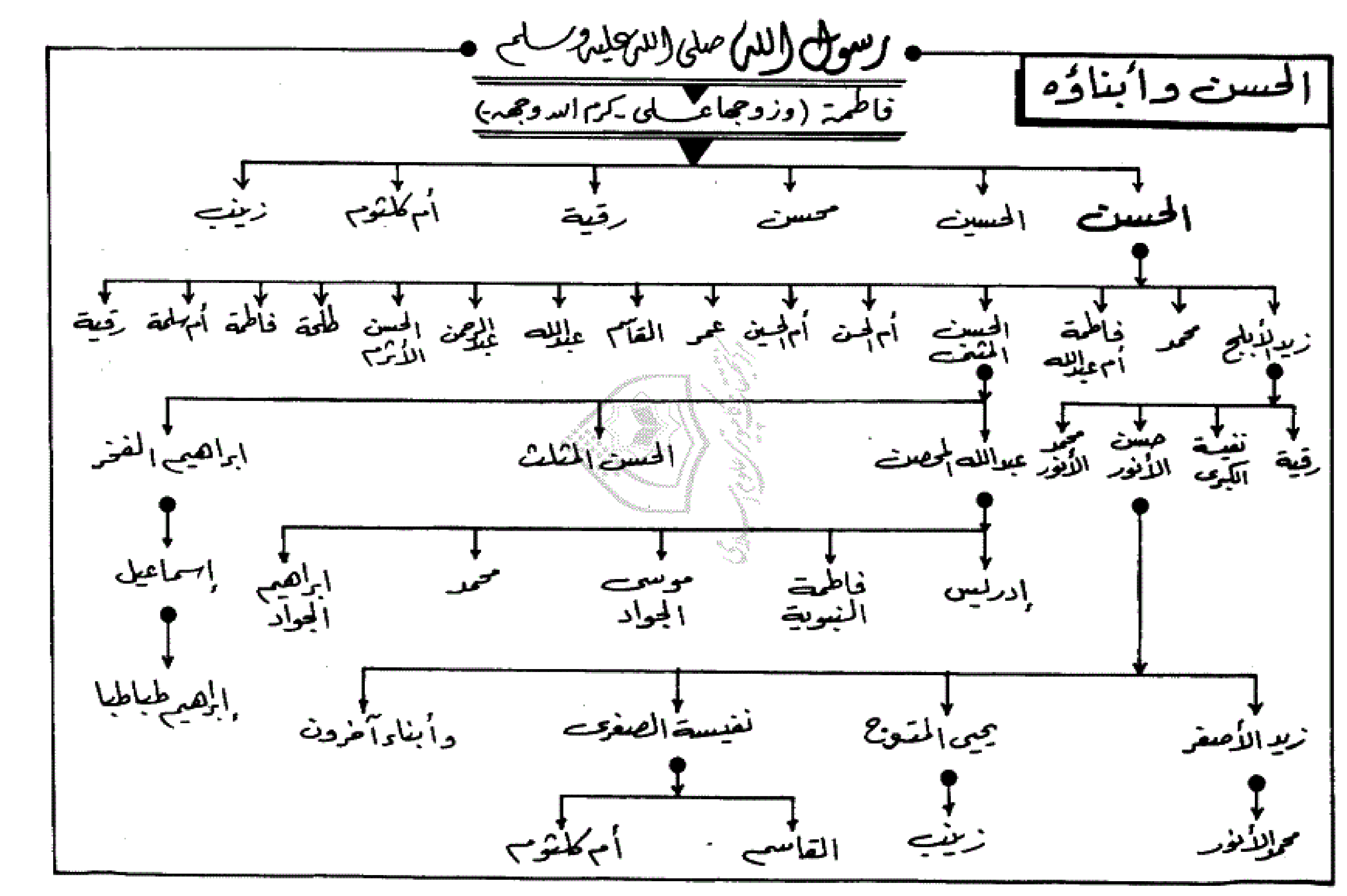
وروى عن مجاهد قال : خرج النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهو آخذ بيد فاطمة .

فقال : « من عرف هذه فقد عرفها ، ومن لم يعرفها فهي فاطمة بنت محمد وهي بضعة مني ، من آذاها فقد آذاني ومن آذاني فقد آذى الله[٢٢] » .

وبعد فقد آن لنا أن نتحدث عن هذه السلالة الطيبة التي نشأت عن فاطمة ـ رضي الله عنها ـ

(٢٢) نور الأبصار للشبلنجي صـ٤٥





الحسن وأبناؤه
رسول الله صلى الله عليه وسلم
فاطمة (وزوجها علي كرم الله وجهه)
الحسن
الحسين
محسن
رقية
أم كلثوم
زينب
زيد الأبلج
محمد
فاطمة أم عبدالله
الحسن المثنى
أم الحسن
أم الحسين
عمر
القاسم
عبدالله
عبد الرحمن
الحسن الأثرم
طلحة
فاطمة
أم سلمة
رقية
رقية
نفيسة الكبرى
حسن الأنور
محمد الأنور
عبدالله المحض
الحسن المثلث
ابراهيم الغمر
إدريس
فاطمة النبوية
موسى الجواد
محمد
ابراهيم الجواد
إسماعيل
ابراهيم طباطبا
زيد الأصغر
يحيى المفتوح
نفيسة الصغرى
وأبناء آخرون
محمد الأنور
زينب
القاسم
أم كلثوم

الامام الحسن بن علي ـ رضي الله عنه ـ

قال عنه النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ « إن ابني هذا سيد ولعل الله أن يصلح به بين فئتين كبيرتين من المسلمين »

هو أبو محمد الحسن بن علي بن أبي طالب .

وأمه هي فاطمة الزهراء ابنة رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ

وهو كأبيه خليفة من أبوين هاشميين ، ولم تجتمع هذه الميزة لكثير من الخلفاء ، اجتمعت في علي حيث ولده أبو طالب من فاطمة بنت أسد ، وكلاهما قرشي ،

واجتمعت في الحسن بن علي فقد ولد لأبوين هاشميين ..

واجتمعت بعد ذلك بأكثر من قرن من الزمان في الأمين العباسي الذي ولد من أبوين قرشيين هما هارون الرشيد وزبيدة ابنة عمه ..

ويلقب الإمام الحسن بريحانة رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ويمتاز بأنه كان أشبه الخلق بالرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ .

متى ولد ؟

ولد الحسن في منتصف رمضان سنة ثلاث من الهجرة ، فحنكه رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بريقه ، وسماه : حَسَن .

وهو اسم غير معروف في البيئة العربية إذ ذاك .

روى ابن الأعرابي عن المفضل قال : إن الله حجب اسم الحسن والحسين حتى سمى بهما النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال الراوي : فقلت له : فاللذَيْن باليمن ؟ قال : ذلك حَسْن ـ بسكون السين ـ وحَسِين ـ بفتح الحاء وكسر السين ـ لشخصين كانا يعرفان بهذين الاسمين ـ وقبل ولادته

رأت أم الفضل زوجة العباس ـ رضى الله عنه ـ رؤيا أفزعتها فأقبلت تقصها على النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ قالت : يا رسول الله رأيت كأن عضواً من أعضائك فى بيتى . فقال لها النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ « خيراً رأيت ، تلد فاطمة غلاماً فترضعينه بلبن قُثم »

فولدت فاطمة الحسن ـ رضى الله عنها ـ فأرضعته أم الفضل بلبن قثم ابن العباس .

وحين ولد الحسن أقبل النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلى بيت فاطمة يقول وهو متهلل الوجه : أرونى ابنى ما سميتموه ؟

قال على : سميته حربا .

فقال النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ بل هو حسن .

وحدث ذلك مرة أخرى حين ولد الحسين ـ رضى الله عنه ـ فقد جاء النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وقال : « أرونى ابنى ، ما سميتموه ؟ »

فقال على : سميته حربا .

فقال النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ بل هو حُسَيْن .

فلما وُلد الثالث قال النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ أرونى ابنى ما سميتموه ؟ »

فقال على : سميته حربا . .

فقال : « بل هو مُحَسِّن »

ثم قال النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ « سميتهم بأسماء ولد هارون : شَبَّر وشُبَّير ومُشَبِّر[٢٣] .

---

(٢٣) أسد الغابة جـ٢ صـ١١

ولسنا ندرى سبب إصرار على ـ رضي الله عنه ـ على تسميته أولاده بهذا الاسم «حرب» إلا إذا كان ذلك جرياً على ما كان البيئة العربية ـ حيث كان العرب يحرصون على أن يسموا أولادهم أسماءً فيها صلابة وقوة ، وقد سئلوا عن ذلك فقالوا : نحن نسمى أبناءنا لأعدائنا .

إلا أنا نميل إلى رأى من يقول : إن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ هو الذى سمى أولاد فاطمة ابتداء ، ولم يسبقه على بتسميةٍ .

فقد ورد أن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ سأل علياً : هل سميت الوليد المبارك ؟

فقال على : ما كنت لأسبقك يا رسول الله . .

فسماه النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ حسنا .

ويقال إن هذه التسمية جاءت من عند الله نزل بها جبريل ـ عليه السلام[٢٤]

إلا أن هناك رواية أخرى تفيد أن على بن أبى طالب كان راغباً أن يسمى ابنه باسم عمه الشهيد أسد الله وأسد رسوله ـ حمزة ـ فقد روى الإمام أحمد بن حنبل فى مسنده عن على بن أبى طالب أنه قال : لما ولد لى الحسن سميته باسم عمى حمزة ، ولما ولد الحسين سميته باسم أخى جعفر ، فدعانى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال : إن الله أمرنى أن أغير اسم هذين فسماهما حسنا وحسينا .

ومعنى ذلك أن الوليدين المباركين ظلاّ يدعيان حمزة وجعفرا فترة حتى صدر أمر النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ بتغيير اسميهما .

---

(٢٤) الحسن بن على ـ توفيق أبوعلم صـ١٦

ولكن المشهور عن أئمة الرواة أن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ كان يسمى المولود عقب ولادته مباشرة . .

وحمل النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ الحسن بين يديه ، قدمته إليه أسماء بنت عميس وكان ملفوفاً فى خرقة صفراء ، فقال لها : « ألم أعهد إليكم ألا تلفوا المولود فى خرقة صفراء » ؟

ثم أذن فى أذنه اليمنى وأقام فى أذنه اليسرى . .

فكان أول صوت سمعته أذناه هو صوت جده ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأول كلمات هى كلمات الأذان الذى يعلن به عن الصلاة ، ومن عادة الشيطان أنه إذا سمع الأذان ولَّى مدبراً . . فكان هذا الأذان إيذاناً بأن هذا المولود قد حصنه النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ ضد الشيطان قال تعالى :

« إن عبادى ليس لك عليهم سلطان » .

وعقَّ النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ عن الحسن وقال : « بسم الله عقيقة عن الحسن . اللهم عظمها بعظمه ولحمها بلحمه اللهم اجعلها وفاء لمحمد وآله[٢٥] »

وفى رواية عق عنه بكبشين أملحين ، وأعطى القابلة فخذا وديناراً ، وقال : يا فاطمة احلقى رأسه وتصدقى بزنة شعره فضة . ثم أمر النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يُخْتَن فى اليوم السابع من ولادته ـ وهى سنة طيبة مباركة ولئن كان النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ قد سمى المولود حَسَناً ـ فقد اشتهر بأن له ألقاباً كثيرة منها : التقى ، والطيب ، والزكى ، والولى ، والسبط ، والسيد ، وأمير المؤمنين ، وأشهرها السبط . .

---

(٢٥) الحسن بن على صـ١٧

وكان يكنى بأبي محمد ، وأبي القاسم . .

ولقب السيد ، لقبه به النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ

روى البخاري عن أبي بكرة ـ رضي الله عنه ـ قال : رأيت النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ على المنبر والحسن بن علي معه ، وهو يقبل على الناس مرة وعليه مرة ويقول : « إن ابني هذا سيد ، ولعل الله أن يصلح به بين فئتين عظيمتين من المسلمين[٢٦] .

ولقد صدق النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ في إخباره عن ذلك ، وصدق في تلقيبه الحسن بهذا اللقب ، فقد استحق الحسن بإصلاحه بين الطائفتين الكبيرتين من المسلمين لقب السيادة والفخر .

وقد لقب بذلك مرة أخرى ـ فقد روى عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ في حقه وحق أخيه الحسين قوله : الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة . .

حب النبي له

وكان النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ يحب الحسن والحسين حباً شديداً . وكان حبه لأبناء فاطمة جميعاً مضرب الأمثال في بر الآباء بالأبناء وتواضع الأنبياء والمرسلين . . . . . . فقد روى عن أسامة بن زيد ـ رضي الله عنهما ـ قال : طرقت باب النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ذات ليلة في بعض الحاجة ، فخرج إليّ وهو مشتمل على شيء لا أدري ما هو ، فلما فرغت من طلب حاجتي قلت : ما هذا الذي أنت مشتمل عليه ؟

---

(٢٦) البخاري كتاب الفتن

فكشف فإذا الحسن والحسين فقال : هذان ابناى اللهم إنى أحبهما فأحبهما وأحب من يحبهما[٢٧] » .

وعن شعبة عن عدى بن ثابت عن البراء قال : رأيت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ واضعاً الحسن بن على على عاتقه وهو يقول : « اللهم انى أحبه فأحبه » ولشدة محبة النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ للحسن والحسين أنه كان يقبل عليهما ولو كان فى أمر مهم .

عن أبى بريدة قال : كان النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ يخطبنا إذ جاء الحسن والحسين عليهما قميصان أحمران يمشيان ويعثران ، فنزل رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ من المنبر ـ، فحملهما ووضعهما بين يديه ، ثم قال : صدق الله « إنما أموالكم وأولادكم فتنة » نظرت إلى هذين الصبيين يمشيان ويعثران فلم أصبر حتى قطعت حديثى ورفعتهما[٢٨] .

وقد ورد عن عائشة وأم سلمة ـ رضى الله عنهما ـ أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ اشتمل على الحسن والحسين وأمهما وأبيهما فقال : « اللهم هؤلاء أهل بيتى فأذهب الرجس عنهم وطهرهم تطهيرا[٢٩] » .

وروى سعد بن راشد عن يعلى بن مرة قال : جاء الحسن والحسين يسعيان إلى رسول الله ـ ﷺ ـ فجاء أحدهما قبل الآخر فجعل يده تحت رقبته ثم ضمه إلى إبطه ، ثم جاء الآخر فجعل يده الأخرى فى رقبته ثم ضمه إلى إبطه ، وقَبَّل هذا ثم قَبَّل هذا ثم قال : « اللهم إنى أحبهما فأحبهما » ثم

---

(٢٧) أسد الغابة جـ٢ صـ١٢

(٢٨) أسد الغابة جـ٢ صـ١٣

(٢٩) البداية والنهاية ٨ / ٣٥

قال : « أيها الناس ، إن الولد مبخلة مجبنة مجهلة »[٣٠]

مداعبة النبى له :

وكان النبى ـ ﷺ ـ يداعب الحسن مداعبة رقيقة ، فعن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ قال : سمعت أذناى هاتان ، وأبصرت عيناى هاتان رسول الله ـ ﷺ ـ وهو آخذ بكف الحسن وقدماه على قدم رسول الله ـ ﷺ ـ فيرقى الغلام حتى يضع قدميه على صدر الرسول ـ ﷺ ـ ثم يقبله . ويقول : اللهم أحبه فإنى أحبه .[٣١]

وربما شوهد النبى ـ ﷺ ـ ساجداً وطفل من الطفلين راكب على كتفيه ، فيتأنى النبى ـ ﷺ ـ فى صلاته ويطيل السجدة لكيلا يزحزحه عن كتفه ، وفى إحدى هذه السجدات يقول عمر بن الخطاب للطفل السعيد : نعم الجمل جملكما .[٣٢]

وروى الترمذى عن أبى الزبير عن جابر قال : دخلت على رسول الله ـ ﷺ ـ وهو يحمل الحسن والحسين على ظهره ويمشى بهما . فقلت : نعم الحمل حملكما . فقال : « ونعم العدلان هما »[٣٣]

وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : كنت مع النبى ـ ﷺ ـ فى سوق من أسواق المدينة ، فانصرف وانصرفت معه ، فجاء إلى فناء فاطمة فنادى فلم يجبه أحد ـ ثم الحسن بن على . قال أبو هريرة ظننا أن أمه حبسته لتجعل فى عنقه السخاب ،[٣٤] فلما دخل التزمه رسول الله ـ ﷺ ـ والتزم هو رسول

---

(٣٠) البداية والنهاى جـ ٨ صـ٣٥

(٣١) أهل البيت لمحمود الشرقاوى صـ٨٠

(٣٢) فاطمة والفاطميون صـ٤٢

(٣٣) البداية والنهاية جـ ٨ صـ٣٦

(٣٤) السخاب : قلادة تتخذ من قرنفل وسك ومحلب ليس فيها من اللؤلؤ شيء

الله - ﷺ - ثم قال الرسول : « إنى أحبه وأحب من يحبه » ثلاث مرات .

وفى رواية : عن أبى هريرة قال : خرج رسول الله - ﷺ - إلى سوق بنى فينقاع متكئا فى يدى ، فطاف فيها ، ثم رجع فاحتبى فى المسجد ، وقال : أين الحسن ؟ ادعو لى الحسن ، فجاء الحسن فاشتد حتى وثب فى حبوته فقبله ثم قال : اللهم إنى أحبه وأحب من يحبه .[٣٥]

وقد ضرب النبى - ﷺ - أكرم الأمثلة فى رحمة الأبوة وبرها ، ومن دلائل بره أن الحسن والحسين كانا يصطرعان بين يديه وهو يقول : هى حسن . . . فقالت فاطمة : لم تقول : هى حسن ؟

قال : إن جبريل يقول : هى حُسَين .

وكان النبى - ﷺ - لا يطيق أن يسمع بكاء الحسن أو الحسين . . خرج يوما فمر على بيت فاطمة فسمع حسينا يبكى فقال : « ألم تعلمى أن بكاءه يؤذينى » ؟[٣٦]

وكان يقول لفاطمة ادعى لى ابنيَّ ، فتدعوهما له ، فيضمهما ولا يبرح حتى يضحكهما ويتركهما ضاحكين . .

لقد كان النبى - ﷺ - يعتبر أن أبناء فاطمة أبناؤه . . . . ولما نزلت آية المباهلة - أى قوله تعالى :

« فقل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم . . . » دعا فاطمة وابنيها الحسن والحسين وعلياً وأقبل يباهل بهم . . وهذه هى .

---

(٣٥) البداية والنهاية جـ٨ صـ٣٤

(٣٦) أهل البيت للشرقاوى صـ٨١

قصة المباهلة .

كان فيما كتب النبى ـ ﷺ ـ من كتب ـ كتاباً إلى الحارث أسقف نجران ، وما أن فض الأسقف الكتاب حتى قال لغلامه : ادع لى الساعة شر حبيل .

وكان شرحبيل . هذا خازن أسراره وموضع مشورته ، وعاد الغلام ومعه شرحبيل . فقال له :

جاءنى اليوم كتاب من محمد بن عبدالله يدعونى فيه لدين يسمى الإسلام ، ثم يطلب منى إن أَبَيْتُ الجزية أو الحرب .

فقال شر حبيل : لست فى هذا يا مولاى بصاحب رأى ، على أننى قد علمت ما وعد الله به من النبوة فى ذرية إسماعيل ، فما تأمن أن يكون هذا هو ذاك ، ولكننى قلت : ليس فى النبوة رأى .

واستشار أبو الحارث ثانيا وثالثا ، فمازادوا على رأى صاحبهم شيئا ، فأمر أن تدق النواقيس وأن توقد النيران ، وجمع الناس وعرض عليهم أمر كتاب رسول الله ـ ﷺ ـ فانتهوا إلى أن يذهب وفد منهم يحاجون الرسول ويجادلونه ، ثم يرجعون بما يرون ، ومشى وفد نجران إلى المدينة يرأسهم شرحبيل زعيمهم وصاحب كلمتهم ، فما أن رأى رسول الهدى حتى قال له :

يا محمد ، لقد علمت أناً نصارى ، ويسرنا إن كنت نبينا أن نسمع ما تقول فى عيسى .

فقال ـ ﷺ ـ ما عندى فيه شىء فى يومى هذا فأقيموا حتى أخبركم ما يقول الله فى عيسى .

ولما أصبح الغد نزل قوله تعالى :

﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ (٥٩) ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ (٦٠) فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَـٰذِبِينَ (٦١) ﴾ (٣٧)

ولما نزلت خرج النبى - ﷺ - ومعه أحب الناس إليه : على بن أبي طالب - رضى الله عنه - وفاطمة الزهراء ، والحسن والحسين ، ودعا وفد نجران - وقرأ عليهم ما نزل فى أمر عيسى - عليه السلام - ثم دعاهم إلى المباهلة إن أبوا الاستجابة لدعوته .

ونظر شرحبيل إلى آل البيت النبوى يقدمهم النبى - ﷺ - فوجدهم يفيضون بالنور والتقوى والصلاح ، سيماهم فى وجوهم ، فهابهم القوم وخافوا أن يباهلوا رسول الله - ﷺ - وقال شرحبيل : دعونا نتشاور فيما بيننا ، نفضى إليك بما ينتهى إليه رأينا ورجع شرحبيل إلى أصحابه يقول لهم :

يا معشر النصارى لا تباهلوا محمداً فتهلكوا ، فإنى أرى معه وجوها لو سألوا الله أن يزيل جبلاً من مكانه لأزاله .

---

(٣٧) آل عمران ٥٩ : ٦١

ورضى القوم بأداء الجزية . .

وقال النبى - ﷺ - : « والذى بعثنى بالحق لو تباهلوا لأمطر الوادى عليهم ناراً .[٣٨]

الرسول يعلم الحسن :

وأخذ الرسول - ﷺ - يتولى الحسن بالرعاية والتثقيف . . . . فقد رأى النبى الحسن يوما وقد أخذ تمرة من تمر الصدقة فوضعها فى فيه . فأدخل النبى - ﷺ - إصبعه فى فمه وقال له أخرجها . ألا تعلم أنا أهل بيت لا تحل لنا الصدقة ؟

وهكذا كان النبى - ﷺ - يعلم الحسن ما يحل وما لا يحل لأهل البيت منذ نعومة أظفاره ، وربما خصه ببعض حديثه الذى رواه الحسن عن جده . . . .

فقد روى عن الحسن أنه قال : علمنى رسول الله - ﷺ - كلمات أقولهن فى الوتر : « اللهم اهدنى فيمن هديت ، وعافنى فيمن عافيت ، وتولنى فيمن توليت ، وبارك لى فيما أعطيت ، وقنى شر ما قضيت فإنك تقضى ولا يقضى عليك وإنه لا يذل من واليت ولا يعز من عاديت[٣٩] ، تباركت ربنا وتعاليت . . . . » - ومما نقله عن جده أيضا - ما كان يقوله دائما : « دع ما يريبك إلى ما لا يريبك فإن الصدق طمأنينة وإن الكذب ريبة » .

وهكذا نشأ الحسن على حب الصدق وكراهية الكذب ، والإقبال على الحب والخير واجتناب مواطن الريبة والشك .

---

(٣٨) أهل البيت للشرقاوى صـ٨٢

(٣٩) أهل البيت للشرقاوى صـ٨٣ أسد الغابة جـ٢ صـ١١

وبما علمه من جده المحافظة على العبادة والإقبال عليها بهمة ونشاط وكان يقول : سمعت من رسول الله ـ ﷺ ـ « من صلى صلاة الغداة فجلس فى مصلاه حتى تطلع الشمس كان له حجاب من النار ـ أو ستر من النار »[٤٠] .

ولقد دأب الحسن على الحج كل عام ، وكان يحج ماشيا على الأقدام ويقول : إنى أستحيى من ربى أن ألقاه ولم أمش إلى بيته . . وقاسم الله تعالى ماله ثلاث مرات ، وخرج من ماله كله مرتين . .

هذه أخلاق تعلمها من جده رسول الله ـ ﷺ ـ الذى علمه أن الدنيا لا تساوى عند الله جناح بعوضة ، وأن ما عند الله خير وأبقى .

قال الحصرى : كان الحسن ـ عليه السلام ـ جواداً كريماً لا يرد سائلا ، ولا يقطع نائلا ، وأعطى مرة شاعراً مالا كثيراً فقيل له : أتعطى شاعراً يعصى الرحمن ويقول البهتان ؟

فقال : إن خير ما بذلت من مالك ما وقيت به عرضك ، وإن من ابتغاء الخير اتقاء الشر .[٤١]

ظل الحسن فى كنف جده العظيم ثمانى سنوات تعلم فى خلالها الكثير من أخلاقه وهديه وسلوكه وتوجيهاته ، وكان ذا قلب واع وعقل حافظ وفهم ثاقب .

ولم تلبث أمه أن فارقت الحياة بعد وفاة جده بشهور ستة . . . وكان

---

(٤٠) أسد الغابة جـ٢ صـ١٢

(٤١) زهر الآداب للحصرى جـ١ صـ٩٧

الحسن يجد فى ظلها الأمن والدعة والرحمة فقد كانت قبسا من روح والدها تُؤثر بروحها فى أولادها وتلقنهم بالنظرة شوارد الحكمة . .

وكان الحسن يشعر بالأسى حين تغيب أمه عنه . ولا يستعيد أمنه إلا فى وجودها أو وجود جده ، وكانت الزهراء حريصة على أن تبث فى أبنائها روح الفضائل والآداب وحسن المعاملة التى ورثتها عن أبيها . .

ولا يهم فى التربية الحقة أن يلقن الأب والأم المعرفة تلقينا ، فإن القدوة هى خير معلم . قال الرواة : دخل رسول الله - ﷺ - على الزهراء مرة ، فقالت له : يا أبى إن لنا ثلاثاً ما طعمنا طعاماً ، وإن الحسن والحسين قد اضطربا من شدة الجوع ثم رقدا كأنهما فرخان - فأيقظهما النبى - ﷺ - وأجلسهما على فخذيه ، وجعل أمهما بين يديه وعليا بجانبهما وضمهم جميعا ورفع رأسه نحو السماء وقال : « هؤلاء أهل بيتى ، اللهم أذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً » .

فطابت النفوس بهذا الدعاء وأحست برده وسلامه وانحدرت دموع التسليم على الوجوه النضرة ، ولامست بركة الجد الولدين فأحسا بلطف خفى يروض نفسيهما ويروح قلبيهما ، فنظرا إلى ثلاثة من حولهما - قد عمر قلوبهم الإيمان فانطلق من وجوههم نور له هالة متلألئة ، فاستراحا للمنظر واهتزا له ، وخيمت عليهم جميعا الرحمة .[٤٢] وكأن الله قد أذهب الجوع ولوعته بذلك .

وعاد الحسن يوماً إلى البيت فوجد أمه قد فارقت الحياة فانكب على جثمانها

---

(٤٢) فاطمة الزهراء توفيق أبوعلم صـ٤٣

الطاهر يقبلها ويبكى . فاحتضنه والده فى رحمة غامرة وعطف شديد . .

يا لهذا الطفل الذى فقد قلبين حانيين جده وأمه فى أقل من عام . . ولكن السماء لم تكن لتتخلى عن هذا السيد الذى أعده القدر لدور عظيم لم يظهر بعد . .

كان الحسن يقول لجده يا أبى ، ويقول لأبيه يا أبا الحسين ، وفى ذلك دلالة على شدة تعلق الحسن بجده ـ ﷺ ـ فهو ينظر إلى جده على أنه أبوه وينظر إلى أبيه على أنه صديقه ، وما أعظم الأب حين يتحول إلى صديق . . . إذ تختفى حينئذ حالة الفزع والرهبة التى يستشعرها الابن فى حضرة والده ، وتحل محلها حالة من الأمن والسكينة والاطمئنان . .

وكان الحكماء يقولون : لاعبْ والدك سبعاً ، وأدبه سبْعاً وصادقه سبعاً ثم اترك له الحبل على الغارب .

فكان الحسن فى جوار أبيه على ـ رضى الله عنهما ـ كأنهما صديقان ـ وكثيراً ما كان يشير الحسن على أبيه ببعض الأراء . . ينظر إليها الإمام نظرة اعتبار ، ولكنه ـ رضى الله عنه ـ كان له رأيه الثاقب ، فكان يمضى من آراء ابنه ما شاء ويستقل برأيه ما شاء . .

وسيأتى بعد ذلك بعض الآراء التى أشار بها الحسن على أبيه . .

الحسن فى صحبة الشيخين :

كان الشيخان أبوبكر وعمر ـ رضى الله عنهما يحبان الإمام عليا ـ رضى الله عنه ـ حباً شديداً ، ويقربانه ويأنسان إليه ويستشيرانه فى كل أمر ، ومن أقوال عمر المأثورة : لولا على لهلك عمر . .

والأمور المستعصية عليهما كانا يعرضانها على الإمام على فيجد أن لديه الحل المستنير .

وكانا يحبان الحسن والحسين حبا شديداً .

وكثيراً ما كان أبوبكر يحمل الحسن على عاتقه ويقول :

وا بأبي شبيها بالنبي   لست شبيها بعلي

ويقبل أبوبكر على الناس قائلا : أيها الناس ارقبوا محمداً فى أهل بيته . .

ويخرج الحسن إلى المسجد كعادته . . ويرى الناس حشوداً حول المنبر يوم الجمعة ، وينظر إلى من يرتقى المنبر ، فإذا به أبوبكر . . . . . لقد تعود الطفل أن يرى أن الذى يرتقى هذا المنبر هو جده - ﷺ - وبكل صراحة الطفولة التى لا تعرف المواربة ولا الجبن يتجه إلى أبى بكر قائلا : انزل عن منبر أبى واذهب إلى منبر أبيك . .

لقد جاشت عاطفة هذا الطفل حين لم يجد جده - ﷺ - يخطب الناس كما كان يخطب ، وتذكر كيف كان جده يحمله معه إلى هذا المنبر ويضعه بين يديه . . فتملكه الأسى والحزن . . وقال لأبى بكر ما قال . .

ولم يغضب أبوبكر - رضى الله عنه - ونظر إلى الطفل الذى كان يحبه النبى - ﷺ - حبا شديداً - ثم قال : صدقت والله إنه لمنبر أبيك لا منبر أبى . (٤٣)

ومازادت هذه القصة أبابكر إلا حباً للحسن وأخيه وعطفاً عليهما .

ولم تطل الحياة بأبى بكر بعد النبى - ﷺ - فقد اختاره الله لجواره بعد

---

(٤٣) الحسن بن على ص٥٦

النبى بأقل من ثلاث سنوات ، كانت كلها مشغولة بجلائل الأعمال .

وجاء عمر بن الخطاب الذى سار على نهج الخليفة السابق فى معرفةِ حق أهل البيت وإكرامهم .

وفرض للحسن والحسين من العطاء مثل فريضة أهل بدر ، بل قدمهما على كثير من المهاجرين والأنصار حُباً لهما وتقديراً لقرابتهما من رسول الله - ﷺ - . . .

وحين دون الدواوين جعل أهل النبى - ﷺ - فى مقدمة الناس . وجاءت كسوة إلى عمر بن الخطاب فوزّعها على أصحابه ولم يرتض منها للحسن والحسين فأرسل إلى اليمن من استحضر لهما حللا فاخرة طابت نفسه بها حين لبساها .

وحين استسقى عمر بالعباس فى عام الرمادة خرج العباس وعلى أمامه والحسن عن يمينه والحسين عن يساره فاستسقى العباس فأمطرت السماء وأغرقت وأعطت عطاء لاحد له ببركة عم رسول الله - ﷺ - وابن عمه وسبطيه .

وميز عمر الحسن والحسين فى العطاء على ابنه عبدالله ، أعطى كل واحد منهما عشرة آلاف - فقال عبدالله بن عمر : لم فضلت علىَّ هذين الغلامين وأنت تعرف سبقى فى الإسلام وهجرتى ؟

فقال له عمر : ويحك يا عبدالله ائتنى بجد مثل جدهما وأب مثل أبيهما وأم مثل أمهما وجدة مثل جدتهما . . .

إن جدهما المصطفى - ﷺ - وأمهما فاطمة بنت رسول الله - ﷺ - وعمهما جعفر بن أبى طالب وخالهما إبراهيم ابن رسول الله - ﷺ - وخالاتهما زينب

ورقية وأم كلثوم بنات النبى - ﷺ - فأى نسب يماثل هذا النسب ؟ وأى فضل يضارع هذا الفضل ؟ . .

فى أيام الفتنة :

كان الحسن فى سن العشرين حين تولى عثمان بن عفان - رضى الله عنه - الخلافة ، وجرت أمور انتهت بمقتل الخليفة عثمان شهيداً ، وكان قد حوصر فى داره شهراً . وكان من المدافعين عنه الحسن بن على وأخوه الحسين ، كانا قد تقلدا سيوفهما ووقفا دونه يناضلان عنه ، وقد تسور الأشرار الدار فاغتالوا الخليفة من الداخل وحين علم الإمام على بما حدث أسرع فلطم الحسن ولكز الحسين وقال لهما : أيقتل الخليفة وأنتما حيّان ؟

ولكن الأمر كان أكبر من ذلك ، وقد نشبت الفتنة واشتعلت نارها حتى لم يستطع أحد أن يطفئها ، وكان أمر الله قدراً مقدوراً .

وحزن الحسن على مقتل عثمان حزناً شديداً ، وكان حزنه أشد على تفرق كلمة المسلمين ، وانصداع شلمهم ، وتشتت وحدتهم ، واجترائهم على خليفتهم .

ورأى أن ذلك يؤذن بفتنة عارمة ويفتح بابا يدخل منه الشر تباعاً يستعصى إغلاقه بعد ذلك .

وأشار على أبيه أن يخرج من المدينة فلا يقيم فيها بعد ذلك ، وألا يتعرض لبيعة المسلمين فإنه لا أمان من خلافهم بعد ذلك .

على أن ذلك ليس معناه أنه كان مقراً للسياسة التى أدت إلى هذه الفتنة التى انتهت بما انتهت إليه .

كان الحسن لا يحب أن يفتتن المسلمون بالمال هذه الفتنة التى أغلقت العيون عن قبائح الدنيا وزينت لهم بهجتها . وربما حبذ دعوة أبى ذر إلى التقشف ، وآلمه أن يخرج أبوذر من المدينة منفياً بعد أن نفاه معاوية من الشام .

فقد نفاه عثمان إلى الربذة ، فخرج أبوذر إليها ، وخرج فى توديعه على وابناه الحسن والحسين وأخوه عقيل بن أبى طالب .

وألقى الحسن بن علـى كلمـة فـى توديـع أبى ذر قال له فيها : ـ

لولا أنه لا ينبغى للمودع أن يسكت وللمشيع أن ينصرف لقصر الكلام وإن طال الأسف ، وقد أتى من القوم إليك ما ترى ، فضع عنك الدنيا بتذكر فراغها وشدة ما اشتد منها برجاء ما بعدها ، واصبر حتى تلقى نبيك وهو عنك راض .

وكان رد أبى ذر عليه هو : رحمكم الله يا أهل بيت الرحمة ، إذا رأيتكم ذكرت بكم رسول الله ـ ﷺ ـ مالى بالمدينة سكن ولا شجن غيركم ، إنى ثقلت على عثمان بالحجاز كما ثقلت على معاوية بالشام ، وكره أن أجاور أخاه وابن خاله بالمصرين فأُفْسِد الناس عليهما ، فسيَّرنى إلى بلد ليس لى به ناصر ولا دافع إلا الله ، والله ما أريد إلا الله صاحباً وما أخشى مع الله وحشة . .

ومضى أبوذر إلى الربذة حيث بقى فيها حتى مات وحيداً ، وصدقت بذلك نبوءة النبى ـ ﷺ ـ : « رحم الله أباذر يمشى وحده ويموت وحده ويحشر وحده .»[٤٤]

---

(٤٤) أسد الغابة جـ٦ صـ١٠١

فى خلافة والده :

وعلى الرغم من أن الحسن ـ رضى الله عنه ـ قد أشار على أبيه ألا يقبل البيعة إلا أنه لم يشأ أن يتخلى عن أبيه بعد أن بويع .

والحق أن عليا لم يتهافت على الخلافة ، وكان يفر من الناس من حائط إلى حائط حتى بايعوه وهو كاره .

وخرج على إلى الكوفة فخرج معه ابناه الحسن والحسين ، وخاضا معه الحروب التى خاضها حتى انتهت الأحداث باستشهاده ـ رضى الله عنه ـ عَلَى يد خارجى هو عبدالرحمن بن ملجم ـ كما سبق أن ذكرنا .

وكان على ـ رضى الله عنه ـ فى خلافته مثلا أعلى فى العفة والنزاهة والعدل ، فلم يعط أحداً من أبنائه أكثر من حقه ، بل ربما آثر بحقوقهم غيرهم من المسلمين .

بيعة المسلمين :

وبعد مقتل الإمام على بايع المسلمون الحسن ـ رضى الله عنه ـ فكان هو الخليفة الخامس بعد رسول الله ـ ﷺ ـ .

وقد قال الناس لعلى حين طُعِن : استخلف يا أمير المؤمنين فقال : لا ـ ولكن أدعكم كما ترككم رسول الله ـ ﷺ ـ يعنى بغير استخلاف ـ فإن يرد الله بكم خيراً يجمعكم على خيركم كما جمعكم على خيركم بعد رسول الله ـ ﷺ ـ وفى هذه العباره رد حاسم على من يزعم أن النبى ـ ﷺ ـ أوصى لعلى أو لغيره بالخلافة .

وبعد أن دُفِنَ الإمام على ـ رضى الله عنه ـ تقدم قيس بن سعد بن عبادة

إلى الحسن فقال له : ابسط يدك أبايعك على كتاب الله وسنة نبيه . فسكت الحسن فبايعه ، ثم بايعه الناس بعده .

كان ذلك فى اليوم الذى مات فيه أمير المؤمنين على ـ كرم الله وجهه . وهو يوم السابع عشر من رمضان سنة أربعين .

وقال المسعودى : كان ذلك بعد وفاته بيومين .

اتجاه إلى الصلح :

وكان قيس بن سعد أميراً على أذربيجان وتحت يده أربعون ألف مقاتل من خيرة الجند ، وقد بايعوا علياً على الموت .

وألح قيس على الحسن أن يأمر بالنفير . ولكن الحسن لم يكن فى نيته القتال ـ كان يريد أن يحفظ دماء المسلمين . إلا أنهم ألحوا عليه ، فسيرهم . . وجعل قيسا على مقدمتهم ، وساروا فى طريقهم إلى الشام . . ورأى الحسن رضى الله عنه أن الأمر لن يستقر له أو لمعاوية إلا بعد أن يفنى أكثر الناس . . ففضل أن ينزل عن الخلافة لمعاوية وألا تراق قطرة دم من المسلمين . .

قال البخارى فى كتاب الصلح : عن أبى موسى قال : سمعت الحسن يقول : استقبل والله الحسن بن على معاوية بكتائب أمثال الجبال ، فقال عمرو بن العاص : إنى لأرى كتائب لا تولى حتى تَقْتل أقرانها .

فقال معاوية : إن قَتَل هؤلاء هؤلاء ، وهؤلاء هؤلاء من لى بأمور الناس ؟ من لى بضعفتهم ؟ من لى بنسائهم ؟

فبعث إلى الحسن رجلين من قريش من بنى عبد شمس ـ عبدالرحمن بن سمرة ، وعبدالله بن عامر . قال لهما : اذهبا إلى الحسن فاعرضا عليه ،

وقولا له واطلبا إليه .

فأتياه فدخلا عليه ، فتكلما وقالا له وطلبا إليه .

فقال لهما الحسن : إنا بنو عبدالمطلب قد أصبنا من هذا المال ، وإن هذه الأمة قد عاثت فى دمائها . .

قالا : فإنه يعرض عليك كذا وكذا ويطلب إليك ويسالمك .

قال : فمن لى بهذا ؟

قالا : نحن لك به .

فما سألهما شيئا إلا قالا : نحن لك به . فصالحه . . . . .

لقد وجد مجىء هذين الرجلين فرصة يحقق بها ما جاش فى نفسه من رغبة فى الصلح وحفظ دماء المسلمين . .

قال الحسن : ولقد سمعت أبابكر يقول : رأيت رسول الله - ﷺ - على المنبر والحسن بن على إلى جنبه وهو يقبل على الناس مرة ، وعليه أخرى ويقول : « إن ابنى هذا سيد ولعل الله أن يصلح به بين فئتين عظيمتين من المسلمين » . (٤٥)

وهكذا حقق الحسن بن على مقالة جده - ﷺ - وحقن دماء المسلمين ، وتنازل عن الخلافة راضيا . لقد رآها أهون من أن يراق فى سبيلها قطرة دم من دماء المسلمين . .

بل إنه كان قد أشار على والده من قبل ألا يكلف نفسه عناء تحملها ، وطلب منه ألا يرحل إلى العراق للقاء طلحة والزبير ، كان يكره له أن يذهب إلى دار غربة ويتعرض للموت ، ولم يوافقه الإمام حتى بكى الحسن حين رأى ركاب أبيه يتوجه إلى العراق . ولكن الإمام قد أصبح خليفة ،

---

(٤٥) البداية والنهاية جـ٨ صـ٨٤

وأصبح من واجبه أن يقضى على الفتنة ويسكن الثائرين .

وكانت حجة الأمام على فى خروجه هى - كما يرويه ابن الأثير عن على - رضى الله عنه - قال : قبض النبى - ﷺ - فاجتمع المسلمون على أبى بكر فسمعت وأطعت ، ثم إن أبا بكر أصيب فجعلها فى عمر فسمعت وأطعت ، ثم إن عمر أصيب فجعلها فى ستة أنا أحدهم فولوها عثمان فسمعت وأطعت ، ثم إن عثمان أصيب فجاءوا فبايعونى طائعين غير مكرهين ، ثم خلعوا بيعتى ، فوالله ، ما وجدت إلا السيف[٤٦] كان الإمام على - كرم الله وجهه - معذوراً فى خروجه لتسكين الفتنة التى نشبت ، ومع ذلك لم يتخل عنه ابنه الحسن ولا ابنه الحسين ولا ابنه محمد بن الحنفية - رضى الله عنهم جميعاً -

وانتهت الأمور بما انتهت إليه .

ونظر الحسن بعد أن اختاره أنصار أبيه خليفة من بعده ، فإذا بالناس هم الناس ، ولئن أظهروا طاعة فإن نفوسهم تتطلع إلى أن تضع الحرب أوزارها ، وربما وجد من بينهم من تميل نفسه إلى الدنيا ويقبل الإغراء . . . .

لقد وازن الحسن الأمور موازنة دقيقة فوجد أن كفة الآخرة أرجح مهما برزت الدنيا أمامه بزخرف كاذب أو زينة باطلة ، وهذا هو الورع الحقيقى الذى يخرج من نفس تواقة إلى ما عند الله ، وما عند الله خير وأبقى .

قال ابن الأثير : دعاه ورعه وفضله إلى أن ترك الملك والدنيا ، رغبة فيما

---

(٤٦) أسد الغابة جـ٤ صـ١١٢

عند الله ـ تعالى ـ وكان يقول : ما أحببت أن ألى أمر أمة محمد ـ ﷺ ـ على أن يهراق فى ذلك محجمة دم ـ وكان من المبادرين إلى نصرة عثمان .[٤٧]

وكان أهم شرط من شروط هذا الصلح الذى قبله الطرفان : أن تكون الخلافة بعد معاوية للحسن ، وألا يطالب معاوية أحدا من أهل الحجاز والعراق بشىء مما كان أيام أبيه . .

بعض الناس يلومون الحسن

وربما وجد الحسن من يلومه على أنه ترك القتال ، ومن بين هؤلاء الإمام الحسين ـ رضى الله عنه ـ ولكن الحسن كانت له حجته الناصعة القوية ، وكان تصرفه هذا كان بإيحاء من جده ـ ﷺ ـ حين قال إن ابنى هذا سيد يصلح الله به بين طائفتين عظيمتين من المسلمين . .

أفيكون كلام المصطفى ـ ﷺ ـ هباء لا يتحقق ؟ كلا وألف كلا لقد أشارت الدلائل كلها على أنه لا ينطق عن الهوى ـ وأن كلامه لا يطلق على عواهنه ، بل هو من مكنون علم الله الذى يوحى إليه . .

وكان تصرف الحسن هذا بركة ورحمة على المسلمين ، فقد أصبح هذا العام الذى تم فيه الصلح وهو العام الحادى والأربعون يسمى عام الجماعة . . . . وفور إتمام الصلح ألقى المتحاربون أسلحتهم وأقبلوا يتعانقون كأن لم يكونوا بالأمس متقاطعين متناحرين .

قال ابن كثير : ترجل الحسن بن على ومعه أخوه الحسين وبقية إخوتهم وابن عمهم عبدالله بن جعفر من أرض العراق إلى المدينة المنورة ـ على ساكنها أفضل الصلاة والسلام ـ وجعل كلما مر بحى من شيعتهم يلومونه على

---

(٤٧) أسد الغابة جـ٢ صـ١٤

ما صنع من نزوله عن الأمر لمعاوية ، وهو فى ذلك البار الراشد ، وكان لا يجد فى صدره حرجا ولا تلوما ولا ندما ، بل هو راض بذلك مستبشر به ، وإن كان قد ساء هذا خَلْقا من ذويه وأهله وشيعتهم ، ولا سيما بعد ذلك بمدد ، وهلم جراً إلى يومنا هذا .

والحق فى ذلك اتباع السنة ومدحه من أجل ما حقن من دماء الأمة ، كما مدحه على ذلك رسول الله - ﷺ - »[48]

ضرورة الصلح

وربما كان الحسن بن على - رضى الله عنهما - مضطرا إلى هذا الصلح الذى دفعته إليه الظروف ، فقد أخبر أبو بكر بن دُرَيْد قال : قام الحسن بعد موت أبيه أمير المؤمنين فقال - بعد حمد الله عز وجل : إنا والله ماثنانا عن أهل الشام شك ولا ندم ، وإنما كنا نقاتل أهل الشام بالسلامة والصبر ، فَسُلبت السلامة بالعداوة ، والصبر بالجزع ، وكنتم فى منتدبكم إلى صفين ودينكم أمام دنياكم ، فأصبحتم اليوم ودنياكم أمام دينكم ، ألا وإنا لكم كما كنا ، ولستم لنا كما كنتم ، ألا وقد أصبحتم بين قتيلين : قتيل بصفين تبكون له ، وقتيل بالنهروان تطلبون بثاره ، فأما الباقى فخاذل ، وأما الباكى فثائر ، ألا وإن معاوية دعانا إلى أمر ليس فيه عز ولا نصفة ، فإن أردتم الموت رددناه عليه وحاكمناه إلى الله - عز وجل - بظبا السيوف - حدُّها - وإن أردتم الحياة قبلناه وأخذنا لكم الرضا ، فناداه القوم من كل جانب : البقية البقية ، أمض الصلح .[49]

---

(٤٨) البداية والنهاية جـ٨ صـ١٩

(٤٩) أسد الغابة جـ٢ صـ١٤

فها نحن أولاء نرى أن جنوده قد سئموا الحرب وملُّوها ، وهاهم أولاء يطلبون الإبقاء - فكيف يحارب بقوم هذه حالهم ؟

لقد كان ينفذ ما يراه صوابا ، وما فيه حقن للدماء - وكان فى هذا موافقاً لما سبق أن جرى به القدر من أنه سيكون سيداً يصلح بين فئتين عظيمتين من المسلمين . وقد كان .

مؤتمر فى الكوفة

وجاء معاوية بعد الصلح إلى الكوفة ، وكان الحسن لا يزال بها ، وأشار عمرو بن العاص على معاوية أن يطلب من الحسن أن يتقدم فيخطب بنفسه ويعلن أمر الصلح الذى اتفق عليه ، وقد ظن أنه بذلك يكسب معاوية شرفا وفخراً ، وتذهب مكانة الحسن بين أهل الكوفة . .

واستجاب معاوية لإشارة عمرو ، فقال للحسن : قم يا حسن فكلم الناس فيما جرى بيننا

فقام الحسن فى أمر لم يُرَوِّ فيه ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال فى بديهته : أما بعد - أيها الناس ، فإن الله هداكم بأولنا ، وحقن دماءكم بآخرنا ، ألا إن أكيس الكيس التقى ، وإن أعجز العجز الفجور ، وإن هذا الأمر الذى اختلفت أنا ومعاوية فيه ، إما أن يكون أحق به منى ، وإما أن يكون حقى تركته لله عز وجل ولإصلاح أمة محمد - ﷺ - وحقن دمائكم ، ثم التفت إلى معاوية وقال :

﴿ وَإِنْ أَدْرِي لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١١١﴾ ﴾ (٥٠)

---

(٥٠) الأنبياء ١١١

ووجم معاوية ثم نظر إلى عمرو بن العاص وقال له : .ما أردت إلا هذا .[٥١] أى ما أردت إلا أن تُظْهر أمام الملأ فضله وشرفه وسبقه .. ذلك أن حدس عمرو لم يصدق ، فإن الذى كان يظن به العجز عن مواجهة الموقف كان كلامه حجة ساطعة وقوة دافعة وبيانا محكما ، وقد زاد ذلك من تعلق القلوب به ومحبة الناس له ، ومعرفتهم بفضله وفضل أهل البيت .

لقد روى الرواة أن الحسن كان يقول لأهل الكوفة قبل دخول معاوية إليها بعد الصلح : أيها الناس ، إنما نحن أمراؤكم وضيفانكم ، ونحن أهل بيت نبيكم الذين أذهب الله عنه الرجس وطهرهم تطهيراً ، فكان الناس يبكون حين يسمعون ذلك .

أسباب الصلح

وبعد أن تحدثنا عن هذا الصلح الذى تكلم الرواة حوله كثيراً ، ووجهت إلى الامام الحسن فيه انتقادات من أقرب الناس إليه وأخص شيعته ... نجد أنه كان محقا تماما فى إجراء هذا الصلح ، وما زال هذا الصلح حتى الآن غرة فى جبين الحسن وفى تلك الحقبة التى عاشها . وكان علامة مضيئة على أن الخليفة الحق هو الذى يعمل على تجنيب شعبه إراقة الدماء ما أمكن ذلك ، وما دام غير متعارض مع مبادىء الإسلام وكرامة الأمة ..

وقد كانت أسباب الصلح الداعية إليه كفيلة بضرورة إتمامه .... ومن هذه الأسباب التى سبق أن أشرنا اليها ..

● تحقيق نبوءة المصطفى - ﷺ - فى سبطه العظيم من أنه سيد يتحقق به السلم وحقن الدماء بين فريقين عظيمين من المسلمين يتصارعان .

---

(٥١) أسد الغابة جـ٢ صـ١٥

● نظرة الإمام الثاقبة إلى جنده الذين بدت عوامل الوهن تدب فى نفوسهم ، وإدراكه أنهم لن يصبروا طويلا على الحرب بعد أن خاضوا قبل ذلك حربين ضروسين فى صفين والنهروان ، وتطلعهم إلى الراحة بعدهما . فى الوقت الذى كانت فيه قوة خصمه ما زالت على ما هى عليه .... فجنود معاوية لم يخوضوا بعد صفين معركة كمعركة النهروان ضد الخوارج .

● كان اغتيال الإمام على من الأسباب الداعية إلى الصلح ، فقد أثارت فى نفس الإمام الحسن الأسى والحزن ، وكان على مثلا أعلى بين جنوده صلاحا وتقوى وزهدا وعفة واجتهادا . وكان من غير الممكن أن يعتمد الحسن على جيش اغتيل قائده بينهم بهذه الصورة النكراء .. وليس ببعيد أن يغتال الولد كما اغتيل الوالد .

● كان الحسن مسالما بطبعه يميل إلى حقن الدماء وعدم إراقتها ، وكان من أجل ذلك من المبادرين للدفاع عن عثمان فى أيام حصاره ... وقد حزن حزناً شديداً على ذلك المصير الذى آل إليه عثمان ..

● لقد خشى الحسن من استمرار الحروب واستمرار نزف دماء المسلمين ، وذهاب كثير من أهل البيت وشيعتهم ضحية فى هذه الحروب .... ومن أقوال الإمام الحسن فى ذلك : لقد خشيت ألا يجتث المسلمون عن وجه الأرض »

وكان دائماً يقول فى خطبه التى يرد بها على ألسنة الناقدين : أيها الناس إن الأمر الذى أختلف فيه أنا ومعاوية إنما هو حق أتركه لإصلاح أمر الأمة وحقن دمائها .

● ريبة الحسن فى أهل العراق المناصرين له ، وعدم وثوقه منهم ، « فقد علم الإمام الحسن أنه إن حارب معاوية فإن العراقيين قد يسلمونه أسيراً إلى معاوية ، وأغلب الظن أنه لن يقتله بل يخلى عنه ويسجل بذلك مكرمة وفضلاً عليه ، ويسدى يداً بيضاء على عموم الهاشميين وقد صرح الإمام الحسن بهذه الخاطرة فقال : « والله لو قاتلت معاوية لأخذوا بعنقى حتى يدفعونى إليه سلماً ، والله لئن أسالمه وأنا عزيز أحب إلىَّ من أن يقتلنى وأنا أسير ، أو يمن علىَّ فتكون سبة على بنى هاشم إلى آخر الدهر ، ومعاوية لايزال يمن هو وعقبه على الحى منا والميت »(٥٢)

● وقد نظر الحسن فوجد كثيراً من الزعماء قد خانوه واتصلوا بمعاوية ، وأنه حُكم عليه بالكفر من قبل الخوارج ، وجرت محاولة لاغتياله ونهب أمتعته من قبل بعض جنوده . فكيف يمكنه أن يخوض الحرب بجيش هذه صفته ؟ ألا ترى أن هذه الأسباب كافية لأن يقدم على هذه الخطوة وهو مستريح القلب ، مطمئن الخاطر .

وكيف يوجه نقد إلى رجل حقن دماء المسلمين ؟

لقد كان الإمام الحسن محقاً تماماً فى أنه جنب الأمة ويلات الصراع ، وجعلهم يتفرغون لما هو أهم ـ وهو الجهاد فى سبيل الله ونشر دينه . . . . إن إراقة الدماء فى ميادين الجهاد والفتوح ونشر الدين شرف وبطولة ، جعل الله ثوابها حياة خالدة لاتفنى ـ قال تعالى :

﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ

---

(٥٢) الحسين بن على توفيق أبوعلم صـ١٦٠

﴿فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ وَيَسۡتَبۡشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمۡ يَلۡحَقُواْ بِهِم مِّنۡ خَلۡفِهِمۡ أَلَّا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴿١٧٠﴾ ۞ يَسۡتَبۡشِرُونَ بِنِعۡمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضۡلٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١٧١﴾﴾ (٥٣)

أما إراقتها فى ساحات التصارع الداخلى والعرض الدنيوى فقد قال فيه النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ « إذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول فى النار »

إلا أن يكون القتال الدائر بين الطائفتين مبعثه رد الباغى عن بغيه وإرجاعه عن نكثه . . . فالباغى ملعون والمقاتل له شهيد . .

ولقد انتصر الحسن انتصاراً مؤزراً بصلحه ، لأن شهادة التاريخ هى أصدق شهادة تقرؤها الأجيال وتنتفع بها وتتخذها ذكرى وتستخلص منها عظة وعبرة . .

وإننا لنقرأ الآن هذه الصفحات بعد حدوثها بقرون فنقول : ماذا كسب الحسن وماذا خسر ؟

إن الحسن قد خسر حكماً . .

والحكم قد يدوم وقد لايدوم . .

ولكنه مع ذلك كسب شرفاً ومجداً ، ومازال الناس يتحدثون عن هذا التصرف النبيل الذى فضل فيه الحسن سلامة المسلمين على تلفهم فى سبيل الظفر بكرسى الحكم . .

---

(٥٣) آل عمران ١٦٩ : ١٧١

أما خصوم الحسن فمكسبهم أقل كثيراً من مكسبه .

لقد تحول الحكم بعد ذلك إلى مايشبه الإرث . وأصبح مبدأ الشورى الذى نادى به الإسلام واحترمه وفرضه جبراً على ورق ، وضحى البعض فى سبيل نيل الحكم بكثير من القيم والمبادىء التى جاء الإسلام لإقامة دعائمها .

لقد رأى الحسن أنه حتى لو دام له الملك مائة عام . فان هذا لايساوى كلمة واحدة من كلمات النبى - صلى الله عليه وسلم - فى شأنه - « إن ابنى هذا سيد ولعل الله أن يصلح به بين طائفتين عظيمتين من المسلمين »

سياسة الحسن فى خلافته

كانت خلافة الحسن - رضى الله عنه - سبعة أشهر - من رمضان سنة أربعين إلى ربيع الأول سنة إحدى وأربعين .

ولم يتسع الوقت أمامه ليفعل أشياء جديدة فى خلافته ، ولكنه كان على نهج أبيه والشيخين من قبله .

وإنما يمتحن الخلفاء فى سياستهم بالعطاء وتوزيعه على مستحقيه ، ولم يكن لدى الحسن خزائن يجبى إليها شىء ، فقد استشهد أبوه وكان قد فرغ من توزيع العطاء على أصحابه ولم يبق فى بيت المال شىء . . .

حتى لقد روى عن على - كرم الله وجهه - أنه بعد أن أخلاه صلى فيه ركعتين تقرباً إلى الله ، وعسى أن تكون هذه الصلاة شهادة له عند الله أنه لم يحبس ديناراً ولادرهما عن مستحقيه .

فلما جاء الحسن لم يكن فى خزائن بيت المال شىء ، ولم تتسع المدة لمجىء أموال جديدة . . ولكن المعروف عن الحسن أنه كان سخياً جداً لايكاد يمسك شيئاً ، فلو أن هذه الخزائن كانت مملوءة ماأمسك منها شيئاً وماحرم

محتاجاً شيئاً . .

كانت السياسة الوحيدة التي أجراها في خلافته هي العمل على حقن دماء المسلمين ، وقد تم ذلك بصلحه المشهور حتى سمى العام الذى تولى فيه الخلافة وتنازل فيه لمعاوية بعام الجماعة .

روى عن الحسن أنه قال لعبدالله بن جعفر - رضي الله عنهما - : إني رأيت رأياً أحب أن توافقني عليه ؟

فقال عبدالله : ماهو ؟

قال : رأيت أن أعمد إلى المدينة فأنزلها وأخلى الأمر لمعاوية ، فقد طالت الفتنة ، وسفكت الدماء ، وقطعت السبل .

فقال عبدالله بن جعفر : جزاك الله خيراً عن أمة محمد .

وخطب الحسن في وفود أهل العراق فقال :

إنكم بايعتموني على أن تسالموا من سالمني وتحاربوا من حاربني ، وإني قد بايعت معاوية فاسمعوا وأطيعوا(٥٤)

وأي سياسة أرشد من هذه السياسة التي تقود الأمة إلى السلام وحقن الدماء والتفرغ للتعمير والإنشاء ونشر دين الله ؟

إننا لننظر في وقتنا هذا فنجد من الزعماء من يضحون بشعوبهم في سبيل مجد زائف وتحقيق مصالح ذاتية لهم ، وإذا أبى الشعب الاستجابة حاربه الحاكم بكل سبيل ، وقضى عليه بكل سلاح . .

الحاكم الرشيد هو الذى يضحى بمصلحته الخاصة في سبيل مصلحة

---

(٥٤) أهل البيت لمحمود الشرقاوي صـ٨٥

شعبه ، ويعمل جهده على أمن بلاده وسلامة أمته . وهكذا كان الحسن - رضى الله عنه -

كان أهم مايتوق إليه الحسن أن تنتشر كلمة الله فى الآفاق ، وكيف تنتشر وفرسان هذه الأمة يحارب بعضهم بعضاً ؟ لقد توقف الجهاد الإسلامى منذ أن حوصر عثمان ، ووقفت الفتوحات الإسلامية عند حدها الذى وقفت عنده قبل الحصار الذى فرض على عثمان رضى الله عنه .

وكان الحسن مجاهداً قبل حصار عثمان واشترك فى فتح طبرستان تحت قيادة سعيد بن العاص ، واشترك معه كثير من الصحابة الأجلاء وأهل البيت ، فقد كان فى هذا الجيش مع الحسن - عبدالله بن العباس ، وعمرو بن العاص والزبير بن العوام وغيرهم ، وكان هدف الحسن أن ينال ثواب الغزو فى سبيل الله وأجر السعى فى سبيل إعلاء كلمة الحق . .

وقد أراد الحسن بهذا الصلح أن يستأنف المسلمون جهادهم ويتفرغوا لهدفهم الأسمى فى نشر دين الله .

وهذه هى أعظم سياسة ينتهجها الحاكم الرشيد . .

ومن السياسة التى كان يسير عليها الحسن الصراحة والصدق . . . . فهو يكره الخداع والتضليل ، ويأنف من المكر والمخاتلة . . . . وسياسة الخداع والمكر هذه قد يلجأ كثير من الساسة إليها ، وقد أصبحت فنًا يدرسه القادة ويتعلمونه ويلقنه الكبير للصغير .

وقد ينجحون فى ذلك ولكنه نجاح دنيوى فقط .

قال المسيح لبعض تلاميذه : ماجدوى الإنسان إذا كسب العالم وخسر نفسه ؟

وهى كلمة حق ، فأى مكسب مهما كبر وضخم ليس بشىء مادام قد اكتسبه الإنسان بسقوط نفسه وضياعها وفقدان قيمتها فى نظر الناس . .

وشتان بين المروءة وعدمها ، وبين الوفاء والغدر ، وبين الشجاعة والجبن ، وبين الثقة والضعف وبين الصراحة والمخاتلة .

لقد كان الإمام علىٌ قمة فى المثل العليا ، وقد ورث أبناؤه عنه هذه المثل ، وسار الإمام الحسن على مخططات أبيه فى عالم السياسة والحكم ، لم يعتمد إلا على السياسة التى يقرها الدين ، ويحوطها الخُلُق وتوجهها الفضيلة . .

وكان يرى أن المكلفين بالأعمال لابد أن يكونوا قدوة طيبة ومثلاً عليا لغيرهم ، وقد نما إلى علم الإمام على أن عامله بالبصرة ـ سهل بن حنيف دُعِى الى مأدبة لكبار القوم فقط فأجاب . فكتب إليه يستنكر منه ذلك ، وقال له : أما بعد ، يابن حنيف فقد بلغنى أن رجلاً من فتية أهل البصرة دعاك إلى مأدبة فأسرعت إليها ، تستطاب لك الألوان وتنقل إليك الجفان ، وماظننت أنك تجيب إلى طعام قوم ـ فقيرهم مُبعد ـ وغنيهم مدعو ، فانظر إلى ماتقضمه ـ تأكله ـ من هذا المقضم ـ المأكل ـ فما اشتبه عليك علمه فألقه ، وما أيقنت بطيب وجوهه فكل منه(٥٥)

وصنع له الأشعث بن قيس حلوى وقدمها إليه ، فانتقد الإمام منه هذا التصرف وردها إليه . . وقد حكى الأشعث الحوار الذى دار بينه وبين الإمام فى ذلك . فقد قال الإمام : وإنى أعجب من طارق طرقنا بملفوفة فى وعائها ومعجونة ـ فقلت :

---

(٥٥) الحسن بن على ـ توفيق أبوعلم صـ١٧٨

أصلة أم زكاة أم صدقة ؟ فذلك محرم علينا أهل البيت .

فقال : لاذا ولا ذاك ولكنها هدية .

فقلت : هبلتك ـ ثكلتك ـ الهبول ـ والمبول التى لايعيش لها ولد ـ أعن دين الله أتيتنى لتخدعنى ؟ أمختبط أم ذوجِنَّة تُهْجَر ؟ ـ يعنى أمجنون أنت ـ ؟ والله لو أُعْطِيت الأقاليم السبعة بما تحت أفلاكها على أن أعصى الله فى نملة أسلبها جلب شعيرة مافعلت ، وإن دنياكم عندى لأهون من ورقة فى فم جرادة تقتضمها ، مالعلى ولنعيم ينفد ولذه لاتبقى ، نعوذ بالله من سبات ـ نوم ـ العقل وقبح الزلل وبه نستعين[56]

فهذا المثل الحى هو الذى وضعه الحسن أمام عينيه وسار عليه . .

ولو طالت مدة خلافته لرأينا الكثير من الخير فى تصرفاته مع العمال والولاة ، فقد كان يفرق عطاءه فى الناس وربما طوى جائعاً . . . . وهذه أمثلة من الناس قلما تتكرر . . .

شروط الصلح كانت مشرفة .

ولقد كانت شروط الصلح مشرفة للإمام الحسن ـ رضى الله عنه ـ وقد تضمنت تنازلات كثيرة من جانب خصومه . . .

ويكفى أن يكون أول شرط من شروطها هى أن يعمل الخليفة بكتاب الله وسنة رسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وسيرة الخلفاء الراشدين .

والشرط الثانى أن يكون الأمر من بعد معاوية للإمام الحسن ـ رضى الله عنه ـ وليس لمعاوية أن يعهد إلى أحد غيره .

---

(٥٦) المرجع السابق

والشرط الثالث أن يكفل معاوية ـ رضى الله عنه ـ الأمن للناس جميعهم وأن يحتمل عنهم معاوية مايكون من هفواتهم وألا يتبع أحداً بما مضى وألا يأخذ أهل العراق بإحنة .

والشروط التى بعد ذلك تتناول الكف عن الإساءة إلى أمير المؤمنين على ـ كرم الله وجهه ، وأن يوصل معاوية إلى كل ذى حق حقه ، وأن يكفل الأمن لشيعة على خاصة ، وأن يعطى أهل من قُتِلَ مع الإمام على فى يومى الجمل وصفين ما قيمته ألف ألف درهم . وألا يبغى لأحد من أهل البيت غائلة وغير ذلك من الشروط . .

ولقد وقع معاوية على هذه الشروط جميعها دون مناقشة ـ لقد كان هدفه الفوز بإقرار الحسن له بأن الأمر قد أصبح له . . . .

وفاز الحسن فى هذا الصلح بشهادة جده ـ ﷺ ـ ولاتزال له الذكرى الباقية والثناء العطر والحب العميق فى نفوس الناس جميعا ، ولم ينل خصومه شيئا من ذلك .

محاورة بين الحسن وبعض خصوم أبيه :

هذه المحاورة جرت بين الحسن رضى الله عنه ـ وبين بعض خصوم أبيه . . ونحن إذ نذكر ما جاء فى هذه المحاورة فإنما نذكر ذلك نقلا عما ذكره الرواة . وننبه إلى أن الرواة قد يتزيدون كثيراً فيما يروونه خصوصاً أيام الفتن والخلافات ، ولذا فإننا نرى أن تؤخذ هذه الروايات مأخذ الشك وعلى الأخص ما يرد فيها من عبارات قد تسيء أو تعرِّض ببعض أصحاب رسول الله ـ ﷺ ـ ذاك أن اختلاف الأهواء والأغراض بين الرواة ـ وفيهم الكثير ممن ليسوا بعيدين عن التهمة ، بل إن منهم من كان بعيداً عن الإسلام

ولا يريد الخير للمسلمين - . . . . . كل ذلك يجعلنا نقف موقف الشك والريبة لكل ما يجىء فى تلك الروايات مما يُنقص من قدر أصحاب رسول الله - ﷺ - أو يظهرهم بمظهر من يسيئون إلى بعضهم البعض ، أو يتهمون بعضهم البعض ، أو يعرض أحدهما بأخيه . .

فقد حدث الرواة أنه بعد أن تم الصلح اجتمع عند معاوية جماعة . من أتباعه فيهم عمرو بن العاص ، والوليد بن عقبة ، وعتبة بن أبى سفيان والمغيرة بن شُعْبه . وكان قد بلغهم أن الناس مازالوا يلهجون بالثناء على الحسن ، ويرفعون من ذكره - فذكروا ذلك لمعاوية وأشاروا عليه أن يجمعه بهم للتناظر والتحاور . . .

فقال لهم معاوية : لا تفعلوا فوالله ما رأيته قط جالسا عندى إلا خفت مقامه وعظمته - تذكروا أنه ألسن بنى هاشم .

قالوا : ابعث إليه على كل حال .

قال معاوية : إن بعثت إليه لأنصفنه منكم .

فقال عمرو بن العاص : أتخشى أن يغلبنا على أمرنا .

قال معاوية : أما إنى لو بعثت إليه لأمرته أن يتكلم بلسانه كله ، واعلموا أنهم أهل بيت لا يعيبهم العائب ولا يلصق بهم العار .

وجاء رسول معاوية إلى الحسن . فقال الحسن : يا جارية أحضرى ثيابى ، اللهم إنى أعوذ بك من شرورهم ، وأدرأبك فى نحورهم ، وأستعين بك عليهم ، فاكفنيهم كيف شئت وأنى شئت بحول منك وقوة يا أرحم الراحمين .

ولما دخل على معاوية أعظمه وقربه وأجلسه إلى جانبه - ثم قال له : يا أبا

محمد إن هؤلاء القوم بعثوا إليك وعصونى .

فقال الحسن : سبحان الله ، الدار دارك ، والإذن فيها إليك ، إن كنت أجبتهم إلى ما أرادوا وما فى أنفسهم إنى لأستحيى لك من الظلم وإن كانوا غلبوك على رأيك إنى لأستحيى لك من الضعف ، أما إنى لو علمت بمكانهم جئت بمثلهم من بنى عبدالمطلب ، ومالى أن أكون مستوحشاً منك ولا منهم ، إن وليى الله الذى نزل الكتاب وهو يتولى الصالحين .

فقال معاوية : إنى كرهت أن أدعوك ، ولكن هؤلاء حملونى على ذلك وإن لك منهم النصف ومنى ، وإنما دعوناك لنقررك أن عثمان قتل مظلوماً وأن أباك تساهل فى هذا الأمر فأجبهم ولا تمنعك وحدتك واجتماعهم أن تتكلم بكل لسان .

فقام أحد خصوم الحسن فذكر الإمام عليا - رضى الله عنه - واتهمه بالتساهل مع قتلة عثمان . وزعم أنه كره خلافة أبى بكر وبايعه مكرهاً وكذلك خلافة عمر - كما نال من الحسن أيضاً وسخر من تطلعه للخلافة .

وقام الوليد بن عقبة . فامتدح عثمان ، واتهم بنى هاشم بأنهم حسدوه وقال : والله إن بنى أمية خير لبنى هاشم من بنى هاشم لبنى أمية .

وقام عتبة بن أبى سفيان : فتحدث عن على - كرم الله وجهه - وكرر التهمة بأن بنى هاشم تهاونوا مع قتلة عثمان - وكذلك قال المغيرة بن شعبة .

فقام الحسن بن على - رضى الله عنه - وحمد الله وأثنى عليه وصلى على رسوله - ﷺ - ثم قال :

أما بعد . يا معاوية فما هؤلاء شتمونى ، ولكنهم رددوا كلاماً سمعته قبل

ذلك ولا أساس له من الصحة ، وأبى أرفع وأعظم من أن يتهم بمثل ما تزعمون .

ولكن اسمعوا منى :

أنشدكم الله أيها الرهط ، هل تعلمون أن الذى تتهمونه صلى إلى القبلتين .. فى الوقت الذى كنتم فيه تعبدون اللات والعزى ؟

وبايع البيعتين بيعة الفتح وبيعة الرضوان دونكم .

وأنشدكم الله هل تعلمون أنه أول الناس إيماناً وأنه كان صاحب راية رسول الله - ﷺ - يوم بدر ؟

ثم لقيكم يوم أحد ويوم الأحزاب ومعه راية رسول الله - ﷺ - ومعكم راية الشرك .

وفى كل ذلك يفتح الله ويفلج حجته وينصر دعوته ويصدق حديثه ورسول الله - ﷺ - فى تلك المواطن كلها عنه راض ، وأنه بات يحرس رسول الله - ﷺ - من المشركين ، وفداه بنفسه ليلة الهجرة ، حتى أنزل الله فيه « ومن الناس من يشرى نفسه ابتغاء مرضاة الله » وأنزل فيه « إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون » وقال له رسول الله - ﷺ - : « أنت منى بمنزلة هارون من موسى ، وأنت أخى فى الدنيا والآخرة .. ؟

ثم قال لعمرو بن العاص . إن أباك قام فقال : أنا شانىء الأبتر - يقصد رسول الله - ﷺ - محمداً الأبتر ، فأنزل الله فيه « إن شانئك هو الأبتر » وقاتلت رسول الله - ﷺ - فى بعض المشاهد وأذيته بمكة ، وكنت من أشد الناس له تكذيبا وعداوة ، ثم خرجت تريد النجاشى لتأتى بجعفر وأصحابه ، فأخطأك ما رجوت .

ثم اتجه إلى الوليد بن عقبة يقول له :

وأما أنت يا وليد فوالله ما ألومك على بغض على وقد قتل أباك بين يدى رسول الله ـ ﷺ ـ صبراً ، وجلدك ثمانين فى الخمر لما صليت بالمسلمين الفجر سكران ، وفيك يقول الحطيئة :

شهد الحطيئة حين يلقى ربه   أن الوليد أحق بالعذر
نادى وقد تمت صلاتهم   أأزيدكم سكراً وما يدرى
ليزيدهم أخرى ولو قبلوا   لأتت صلاتهم على العشر
فأبوا أباوهب ولو قبلوا   لقرنت بين الشفع والوتر
حبسوا عنانك إذ جريت ولو   تركوا عنانك لم تزل تجرى

ثم اتجه إلى عتبة بن أبى سفيان فقال له :

وأما أنت يا عتبة فوالله ما أنت بحصيف فأجيبك ، ولا عاقل فأحاورك وأعاتبك ، وما عندك خير يرجى ، ولا شر يتقى ، وما عقلك وعقل أَمَتِك إلا سواء . . . .

وكيف ألومك على بغض على وقد قتل خالك الوليد مبارزة يوم بدر وشارك حمزة فى قتل جدك عتبة ، وأوحدك من أخيك حنظلة فى مقام واحد .

ثم اتجه إلى المغيرة بن شعبة فقال :

وأما أنت يا مغيرة فلم تكن بخليق أن تقع فى هذا وشبهه ، وإنما مثلك مثل البعوضة إذ قالت للنخلة : استمسكى فإنى طائرة عنك ، فقالت النخلة : هل علمت بك واقعة علىَّ فأعلم بك طائرة عنى ؟ . . . . والله ما نشعر بعداوتك إيانا ، ولا حزنًا إذ علمنا بها ، ولا يشق علينا كلامك . .

ثم قام الحسن فنفض ثوبه وانصرف .

فتعلق عمرو بثوبه وقال لمعاوية : يا أمير المؤمنين قد شهدت قوله فى حقى ، وأنا مطالب له بالحد . .

فقال معاوية : خل عنه يا عمرو .

فتركه ، وانصرف الحسن وتركهم . .

فقال معاوية : قد أنبأتكم أنه ممن لا تطاق عارضته ، ونهيتكم أن تحاوروه فعصيتمونى ، والله ما قام حتى أظلم البيت عَلَّ ، قوموا عنى فلقد فضحكم الله وأخزاكم بترككم الحزم وعُدُولكم عن رأى الناصح المشفق .(٥٧)

فانظر كيف استطاع الحسن أن يتغلب على خصومه بقوة بيانه وفصاحه لسانه . . . لقد كان ـ رضى الله عنه ـ عف اللسان ، ولكنه إذا استُغْضب لم يكن فى وسعه أن يسكت ، وما يكون غضبه إلا للحق ، ولا يكون رده إلا لإسكات خصم معاند أو كبت لسان حاسد . .

وربما كان يوجز فى رده إيجاز البليغ ، ويسكت بالكلمة الواحدة مئات الكلمات التى توجه إليه . كما كان يعفو ويصفح كثيرا حدثت بينه وبين مروان بن الحكم خصومة فأغلظ مروان للحسن .

ولما مات الحسن بكى عليه مروان كثيراً ، فقال له الحسين : أتبكيه وقد كنت تجرعه ما تجرعه ؟

فقال : إنى كنت أسىء إلى من هو أحلم من هذا ـ وأشار إلى الجبل . . يعنى أن حلمه يفوق الجبل .

---

(٥٧) الحسن بن على ـ توفيق أبوعلم صـ١٨٥ ومابعدها

وفاته :

روى الأصمعى عن سلام بن مسكين عن عمران بن عبدالله ، قال : رأى الحسن بن على فى منامه أنه مكتوب بين عينيه « قل هو الله أحد » ففرح بذلك ، فبلغ ذلك سعيد بن المسيب فقال : إن كان رأى هذه الرؤيا فَقَلَّ ما بقى من أجله .

قال : فلم يلبث الحسن بعد ذلك إلا أياماً حتى مات .

ومات الحسن ـ رحمه الله ـ مسموماً ـ كما يذكر كثير من الرواة ـ دُسَّ إليه السم فكان يقطع أمعاءه .

عن عمر بن إسحاق قال : دخلت أنا ورجل من قريش على الحسن ابن على فقام فدخل المخرج ثم خرج ، فقال : لقد لفظت طائفة من كبدى أقلبها بهذا العود ، ولقد سُقيت السم مراراً ، وما سقيت مرة أشد من هذه .

وقال له الحسين : يا أخى من سقاك ؟

فقال الحسن : وما تريد بذلك ؟ فإن كان الذى أظنه فالله حسيبه وإن كان غير ذلك فما أحب أن يؤخذ بى برىء .

فلم يلبث بعد ذلك إلا ثلاثا حتى توفى ـ رضى الله عنه ـ

وذكر المسعودى أن امرأته جعدة بنت الأشعث بن قيس الكندى هى التى سقته السم .

وفى فعل جعدة يقول النجاشى الشاعر :

جعـــدة بكِّيــة ولا تســـأمى   بعــد بــكاء المعـــول الثــاكل

لم يســـبل الســـتر على مثــله   فى الأرض من حـــاف ومن ناعـــل

كان إذا شبت له ناره يرفعها بالنسب الماثل
كيما يراه بائس مرمل أو فرد قوم ليس بالآهل
يغلى بنىء اللحم حتى إذا أنضج لم تغل على آكل
أعنى الذى أسلمنا هلكه للزمن المستخرج الماحل

وفى ذلك يقول شاعر آخر شيعى بعد مقتل الحسين :

تأسى فكم لك من سلوة تفرج عنك غليل الحزن
بموت النبى وقتل الوصى وقتل الحسين وسم الحسن[٥٨]

وحين احتضر ـ رحمه الله ـ قال : أخرجونى إلى الصحن أنظر فى ملكوت السموات ، فأخرجوا فراشه ، فرفع رأسه فنظر فقال : اللهم إنى أحتسب نفسى عندك فإنها أعز الأنفس علىَّ .

فكان مما صنع أنه احتسب نفسه عند الله .

وقال أبونعيم : لما اشتد بالحسن الوجع جزع . فدخل عليه رجل فقال له ؛ يا أبامحمد ـ ما هذا الجزع ؟ ما هو إلا أن تفارق روحك جسدك فتقدم على أبويك على وفاطمة ، وعلى جديك النبى ـ ﷺ ـ وخديجة . وعلى أعمامك حمزة وجعفر ، وعلى أخوالك القاسم والطيب وابراهيم ، وعلى خالاتك رقية وأم كلثوم وزينب .

قال : فسرى عنه . .[٥٩]

وكان الحسن رضى الله عنه : ـ قد قال للحسين حين حضرته الوفاة : قد كنت طلبت إلى أم المؤمنين عائشة إذا مت أن تأذن لى فأدفن فى بيتها

---

(٥٨) مروج الذهب للمسعودى جـ١ صـ٦١٩
(٥٩) البداية والنهاية جـ٨ صـ٤٣

مع رسول الله - ﷺ - فاطلب ذلك إليها ، فإن طابت نفسها فادفنى فى بيتها ، وما أظن إلا القوم سيمنعونك إذا أردت ذلك ، فإن فعلوا فلا تراجعهم فى ذلك ، وادفنى فى بقيع الغرقد .

فلما توفى الحسن رضى الله عنه - أتى الحسين عائشة - رضى الله عنها - فطلب ذلك إليها فقالت : نعم وكرامة .

ولكن بعض خصومه من بنى أمية رفضوا - فبلغ ذلك الحسين فدخل هو ومن معه فى السلاح ، وتسلح بنو أمية أيضاً ، وكادت الفتنة أن تقع بين بنى هاشم وبنى أمية لولا كلمة من عبدالله بن جعفر لابن عمه الحسين . قال :

عزمت عليك بحقى ألا تكلم بكلمة .

ومضى بابن عمه الحسن إلى البقيع حيث دفنت أمه الطاهرة السيدة فاطمة - رضى الله عنها[٦٠] . . .

ونحن وإن كنا نذكر تلك الروايات التى ذكرها الرواة إلا أننا لا نسلم تسليماً مطلقاً بكثير منها ، وخصوصاً تلك التى تسىء إلى بعض أصحاب رسول الله - ﷺ - وقيل إن الذى أشار على الحسين بدفن الحسن فى البقيع هو سعد بن أبى وقاص وأبو هريرة وجابر وابن عمر .

وقدّم الحسين سعيد بن العاص أمير المدينة للصلاة عليه . . . ولعل ذلك يؤكد لنا أن كثيراً من الروايات التى ذكرها الرواة عن المحاورات التى دارت بين الحسن ومن كانوا خصومه من بنى أمية ، والتى تتخطى الحوار الحسن إلى

---

(٦٠) البداية والنهاية جـ٨ صـ٤٤ ـأهل البيت لمحمود الشرقاوى صـ٨٨

الإساءة إلى بعض أصحاب الرسول قد دخلها الكثير من التزيد والتشويه . .
وحزن الناس جميعا على وفاة الحسن . قال مساور مولى بنى سعد بن بكر : رأيت أباهريرة قائماً على مسجد رسول الله ـ ﷺ ـ يوم مات الحسن بن على وهو ينادى بأعلى صوته : يأيها الناس مات اليوم حِبُّ رسول الله ـ ﷺ ـ .

وقال ثعلبة بن أبى مالك : شهدت الحسن يوم مات ودفن فى البقيع ، فلقد رأيت البقيع ولو طرحت فيه إبرة ما وقعت إلا على رأس إنسان .

وتوفى الحسن سنة تسع وأربعين وقيل سنة خمسين ـ رضى الله عنه ـ وقد رثاه أخوه محمد بن الحنفية بقوله ـ وقد وقف على قبره :

لئن عزت حياتك لقد هدت وفاتك ، ولنعم الروح روح تضمنه كفنك ، ولنعم الكفن كفن تضمن بدنك ، وكيف لا تكون هكذا وأنت عقبة الهدى وخلف أهل التقوى وخامس أصحاب الكساء ، غذتك بالتقوى أكف الحق ، وأرضعتك ثدى الإيمان ، وربيت فى حجر الإسلام ، فطبت حيا وميتاً ، وإن كانت أنفسنا غير سخية بفراقك ، رحمك الله أبا محمد . .

وقيل : إنه أنشأ يقول :

أأدهن رأسى أم تطيب مجالسى ... وخدك معفور وأنت سليب
أأشرب ماء المزن من غير مائه ... وقد ضمن الأحشاء منك لهيب
سأبكيك ما ناحت حمامة أيكة ... وما اخضر فى روح الحجاز قضيب
غريب وأكناف الحجاز تحوطه ... ألا كل من تحت التراب غريب[٦١]

---

(٦١) مروج الذهب جـ١ صـ٦٢٠

معاوية حين بلغه الخبر

وحدث محمد بن جرير الطبرى ـ فيما ينقله المسعودى عنه ـ قال : وفد عبدالله بن العباس على معاوية ـ قال : فوالله إنى لفى المسجد إذ كبر معاوية فى الخضراء وقال : إنا لله وإنا إليه راجعون ـ فكبر أهل الخضراء ثم كبر أهل المسجد بتكبير أهل الخضراء ، فخرجت فاختة بنت قرظة بن عمرو بن نوفل بن عبد مناف من خوخة لها فقالت :

ياأمير المؤمنين ، ما هذا الذى بلغك فكبرت وكبر الناس ؟

قال : مات الحسن بن على.

فقالت : إنا لله وإنا إليه راجعون . ثم بكت وقالت : مات سيد المسلمين وابن بنت رسول الله ـ ﷺ ـ فقال معاوية : نعما والله ما قلت ، إنه كان كذلك وكان أهلا أن تبكى عليه.

ثم دخل ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ على معاوية فأخبره معاوية أن الحسن قد توفى فحزن عليه حزنا شديدا.

مناقبه

جاء فى أثناء حديثنا عن الحسن ـ رضى الله عنه ـ مايشير إلى فضائله ومناقبه ، وإنه لجدير بكل ثناء وحقيق بكل فضل . . . . . .

يروى الرواة أنه حين ترك الكوفة بعد الصلح ـ وذهب إلى المدينة المنورة استقبله أهلها أحسن استقبال وفرحوا به فرحاً شديداً . .

وخطب الحسن فى أهل المدينة قائلا :

« أيها الناس من عرفنى فقد عرفنى ، ومن لم يعرفنى فأنا الحسن بن على ابن أبى طالب ، أنا ابن نبى الله ، أنا ابن البشير النذير ، أنا ابن خاتم

النبيين والمرسلين وإمام المتقين ورسول رب العالمين ، أنا ابن من بعث إلى الجن والإنس ، أنا ابن من بعث رحمة للعالمين . . . .

أنا ابن مستجاب الدعوة ، أنا ابن الشفيع المطاع ، أنا ابن أول من ينفض رأسه من التراب ويقرع باب الجنة ، أنا ابن من قاتلت الملائكة معه ولم تقاتل مع نبى قبله ، أنا ابن من ذلت له قريش رغما . . .

. . ومن الأقوال المأثورة للإمام الحسن قوله : إن الخلافة لمن عمل بكتاب الله وسنة رسوله ، وليست الخلافة لمن خالف كتاب الله وسنة رسوله ، إنما مثل ذلك مثل رجل أصاب ملكا فتمتع به ثم انقطع عنه وبقيت تبعاته عليه .

لقد ظفر الحسن بحب الناس وثنائهم قبل خلافته وبعدها . . وأحبه الخلفاء الثلاثة أبو بكر وعمر وعثمان حبا شديداً . . . وكان ابن عباس يأخذ بركاب الحسن والحسين حين يركبان ، ويرى هذا من نعم الله عليه ، وكان الحسن والحسين إذا طافا بالبيت يكاد الناس يزهقونهما مما يزدحمون للسلام عليهما .

وكان الحسن رضى الله عنه ـ كثير العبادة حسن الثناء على الله ، شديد الوثوق به ، وكان إذا صلى الغداة فى مسجد رسول الله ـ ﷺ ـ يجلس فى مصلاه يذكر الله حتى ترتفع الشمس ، ويجلس إليه من يجلس من سادات الناس يتحدثون عنده ، ثم يقوم فيدخل على أمهات المؤمنين فيسلم عليهن ، ثم ينصرف إلى منزله .

مآثر تروى

ومن مآثره التى تروى أنه خرج حاجا ـ ومعه الحسين وعبدالله بن جعفر

ـ رضي الله عنهم ـ ، فلما كانوا ببعض الطريق جاعوا وعطشوا وقد فاتتهم أثقالهم ، فنظروا إلى خباء فقصدوه فإذا فيه عجوز .

فقالوا : هل من شراب ؟

فقالت : نعم .

فأناخوا رحالهم ، وليس عندها إلا شويهة .

فقالت : خذوها فاحلبوها واشربوا لبنها ـ ففعلوا ذلك ـ فقالوا لها : هل من طعام ؟

قالت : هذه الشويهة ، ما عندى غيرها ، فأنا أقسم عليكم بالله أن يذبحها أحدكم حتى أهيىء لكم الحطب فاشووها وكلوا . ففعلوا ذلك . وأقاموا حتى ذهب حر النهار .

فلما تهيئوا للارتحال من عندها قالوا : يا هذه ، نحن نفر من قريش نريد هذا الوجه ، فإذا وصلنا سالمين ، وأتيت إلينا يوما فإنا صانعون بك خيراً إن شاء الله تعالى :

ثم ارتحلوا ، وأقبل زوجها فأخبرته الخبر ، فغضب وقال لها : ويحك أتذبحين شاتنا لقوم لا نعرفهم ، ثم تقولين : نفر من قريش .

وبعد دهر طويل أصابت هذه المرأة وزوجها سنة وشدة ، واضطرتهما الحاجة إلى دخول المدينة ، فدخلا يلتقطان شيئاً يرزقان منه .

فمرت العجوز فى بعض سكك المدينة ومعها مكتلها فرآها الحسن ـ رضى الله عنه ـ وهو جالس على باب داره ، فنظر إليها فعرفها ، فناداها وقال لها : يا أمة الله ، هل تعرفيننى ؟

فقالت : لا .

فقال : أنا أحد ضيوفك يوم كذا ، سنة كذا فى المنزل الفلانى .
فقالت : بأبى أنت وأمى لست أعرفك .
قال : فإن لم تعرفينى فأنا أعرفك ، فأمر غلامه فاشترى لها كثيراً من الشياه ، وأعطاها ألف دينار ، وبعث بها مع غلامه إلى أخيه الحسين ـ رضى الله عنه ـ

فلما دخل بها الغلام على الحسين عرفها ، وقال للغلام : بكم وصلها أخى الحسن ؟

فأخبره الغلام بما وصلها به ، فأمر لها الحسين بمثل ذلك . ثم بعث بها مع الغلام إلى عبدالله بن جعفر ـ رضى الله عنهما ـ فقال :

والله لو بدأت بى لاتعبتهما ـ وأمر لها بقدر ما أعطاها الحسن والحسين معا ـ فرجعت وهى أغنى الناس (٦٢)

لقد كان الحسن جواداً كريماً ، يشرك الناس فى عطائه ويجود به على غيره ، وكان يضيق بالفقر ـ لا لأنه شديد عليه ، بل لأنه شديد على من يقصدونه فلا يجدون عنده شيئاً .

قال الحافظ السيوطى فى تاريخ الخلفاء ـ فيما ينقله النبهانى عنه ـ قال : أخرج البيهقى وابن عساكر من طريق أبى المنذر هشام بن محمد عن أبيه قال : أضاق الحسن بن على ـ وكان عطاؤه فى كل سنة مائة ألف ، فحبست ـ عنه فى إحدى السنين ، فأضاق إضاقة شديدة

قال : فدعوت بدواة لأكتب إلى الخليفة ـ معاوية بن أبى سفيان لأذكره نفسى ، ثم أمسكت . فرأيت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى المنام

---

(٦٢) أهل البيت لمحمود الشرقاوى صـ٨٦

فقال : كيف أنت ياحسن ؟

فقلت : بخير ياأبت ، وشكوت إليه ماتأخر من المال عنى .

فقال ـ صلى الله عليه وسلم ـ : أدعوت بدواة لتكتب إلى مخلوق مثلك تذكره ذلك ؟

فقلت : نعم ، يارسول الله ـ فكيف أصنع ؟

فقال ـ قل : « اللهم اقذف فى قلبى رجاءك ، واقطع رجائى عمن سواك حتى لا أرجو أحداً غيرك ، اللهم ـ وما ضعفت عنه قوتى وقصر عنه عملى ولم تبلغه مسألتى ، ولم يجر على لسانى مما أعطيت أحداً من الأولين والآخرين من اليقين ـ فخصنى به يارب العالمين »

قال : فوالله ماألححت بذلك أسبوعاً حتى بعث إلىّ معاوية بخمسمائة ألف ، فقلت : الحمد لله الذى لاينسى من ذكره ولايخيب من دعاه ـ فرأيت النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وحدثته بحديثى .

فقال : يابنى هكذا من رجا الخالق ولم يرج المخلوق[٦٣]

وذكر ابن كثير هذه القصة فى البداية والنهاية ، إلا أنه لم يذكر الدعاء ، ولكنه قال : إن الحسن رأى النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى المنام فلقنه النبى دعاء فدعا به ، فذكره معاوية وافتقده وقال : ابعثوا له بمائتى ألف ، فلعل له ضرورة فى تركه القدوم علينا[٦٤]

وقصص كرم الحسن أكثر من أن تحصى .... فقد روى سعيد بن عبدالعزيز قال : سمع الحسن بن على رجلا إلى جانبه يدعو الله أن يملكه

---

(٦٣) الشرف المؤبد لآل محمد للنبهانى صـ١٢٨

(٦٤) البداية والنهاية جـ٨ صـ٣٧

عشرة آلاف درهم فقام إلى منزله فبعث بها إليه .

وذكروا أن الحسن رأى غلاماً أسود فى حائط ، يأكل من رغيف لقمة ويطعم كلباً هناك لقمة .

فقال له : ماحملك على هذا ؟

قال : إنى أستحى منه أن آكل ولا أطعمه .

فقال له الحسن : لاتبرح من مكانك حتى آتيك .

فذهب إلى سيده فاشترى الغلام واشترى الحائط الذى هو فيه ، فأعتقه وملكه الحائط .

فقال الغلام : قد وهبت الحائط للذى وهبتنى له . .[٦٥] ـ أى لله تعالى

زوجاته وأولاده

ذكر الرواة أن الحسن ـ رضى الله عنه ـ تزوج كثيراً ، وكان لايفارقه أربع حرائر ، وكان مصداقاً ـ يعنى كثير الصداق ـ[٦٦]

وروى أن الإمام عليا كان يقول لأهل الكوفة لاتزوجوه حتى لايطلق . .

ولكنهم كانوا يقولون : والله ياأمير المؤمنين لو خطب إلينا كل يوم لزوجناه منا من شاء ابتغاء صهر رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ

وقال رجل من همذان : والله لنزوجنه ، فما رضى أمسك ، وما كره طلق .

كان يمسك زوجاته بمعروف ويفارقهن بإحسان .

ومن زوجات الحسن ـ رضى الله عنه ـ خولة بنت منظور ، وجعدة بنت

---

(٦٥) المرجع السابق

(٦٦) البداية والنهاية . جـ ٨ صـ ٣٨

الأشعث ، وأم كلثوم بنت الفضل بن العباس ، وأم إسحاق بنت طلحة ، وأم بشير بنت أبى مسعود الأنصارى ، وهند بنت عبدالرحمن بن أبى بكر ، وحفصة بنت عبدالرحمن بن أبى بكر

كان مجموع من تزوجهن خمس عشرة امرأة ، وكان الهدف من زواجه مايهدف إليه تعدد الزوجات قديماً من ربط الأسر بعضها ببعض ، وتوثيق العرا والعلاقات ، وقد كان هذا أمراً مألوفاً فى البيئة العربية القديمة ، مع تحرى العدل بين الزوجات الذى كان يدعو إليه الإسلام .

وكانت زوجاته ذوات رأى حسن وعقل صائب ، من طلق منهن ومن أبقى ، باستثناء تلك التى قيل إنها دست له السم .

قالوا عن خولة بنت منظور الفزارية إنها كانت من سيدات النساء فى وفور عقلها .

وقيل إنه فى ليلة بنائه بها كان معها على سطح الدار فشدت خمارها برجله وشدت الطرف الأخر بخلخالها . فلما استيقظ وجد ذلك فسألها عنه ، فقالت له معربة عن إخلاصها وحرصها على حياته : خشيت أن تقوم من وسن النوم فتسقط فأكون أشأم امرأة على العرب[٦٧]

وبقيت عنده حولا لم تتزين حتى ولدت منه « الحسن » المثنى فدخل عليها فرآها متزينة فقال لها : ماهذا ؟

فقالت : خفت أن أتزين وأتصنع فتقول النساء : تجملت فلم تر عنده شيئاً ، فأما وقد رزقت ولداً فلا أبالى . .

---

(٦٧) البداية والنهاية ٨ / ٣٨

وبقيت عنده حتى توفى ـ رضى الله عنه ـ فجزعت عليه جزعاً شديداً فقال لها أبوها يرثيه ويعزيها :

بنت خولة أمس قد جزعت من أن تنوب نوائب الدهر
لاتجزعي ياخول واصطبرى إن الكرام بنوا على الصبر[٦٨]

ولم يكن الحسن يطلق الا لسبب فقد قالوا ـ إنه طلق عائشة الخثعمية لأنها أظهرت الشماته بمقتل والده ، وقالت له : لتهنك الخلافة ـ فقال لها : ألقتل علىٍّ تظهرين الشماتة ؟ اذهبى فأنت طالق .

فتلفعت بثيابها وقعدت حتى انقضت عدتها ، فبعث لها بقية صداقها وعشرة آلاف درهم صدقة لتستعين بها على أمورها . فلما وصلت إليها قالت : متاع قليل من حبيب مفارق .

وأما أولاده فكثيرون :

أشهرهم ـ القاسم . استشهد مع الحسين فى كربلاء

ـ أبوبكر واسمه عبدالله ـ وأمه أم ولد يقال لها رملة ، واستشهد أيضاً ـ

زيد وكانوا يشبهونه بجده ـ صلى الله عليه وسلم ـ ويلقب بالأبلج وله ذرية صالحة .

ـ والحسن ـ وحضر كربلاء وجرح وعاد جريحاً إلى المدينة ويلقب ـ بالحسن المثنى ـ والعقب من هؤلاء الأولاد لزيد والحسن رضى الله عنهم وأرضاهم .

---

(٦٨) الحسن بن على ص٧٤

الإمـــام الحـــسين

متى ولد

رؤيا أم الفضل

في ساحة الجهاد

دفاعه عن عثمان

الحسين في خلافة والده

الحسين في وقعة الجمل

الحسين في صفين

الحسين مع أخيه الحسن

في عهد معاوية

موقف الحسين من بيعة يزيد

وفاة معاوية

الشيعة يلتفون حول الحسين

الإمام الحسين - رضى الله عنه -

« حسين منى وأنا من حسين أحب الله من أحب حسينا »[٦٩]

هو الحسين بن على بن أبى طالب ، وأمه السيدة فاطمة الزهراء . وجده لأمه المصطفى - صلى الله عليه وسلم - وجده لأبيه أبوطالب عم النبى - صلى الله عليه وسلم - الذى كان يدافع عنه فى دعوته ويصد عنه جحافل الشرك فى مكة على الرغم من أنه لم يسلم ، ولكن قريشا كانت تهابه . وقد قال النبى - صلى الله عليه وسلم - فيما يرويه ابن هشام فى سيرته : « مانالت منى قريش شيئا أكرهه حتى مات أبو طالب »[٧٠]

وكنية الحسين أبو عبد الله . وهو ريحانة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وهو سيد شباب أهل الجنة ، وهو خامس أهل الكساء .

وكان يشبه رسول الله - صلى الله عليه وسلم - مما أكسبه هيبة وجمالا وحبا فى قلب كل من يراه .

وحين ولد الحسين وجاء البشير للنبى - صلى الله عليه وسلم - بولادته أقبل النبى - صلى الله عليه وسلم - يقول : أرونى ابنى ماسميتموه ؟

فقال على - كرم الله وجهه : سميته حربا .

فقال النبى - صلى الله عليه وسلم - : بل هو حُسَين .

وكانت تسمية الحسن والحسين - كما تذكر بعض الروايات - من الله - جل

---

(٦٩) صحيح الترمذى جـ٢ صـ٣٠٧ - باب مناقب الحسن والحسين - وقال : هذا حديث حسن ، وفى جمع الجوامع للسيوطى برقم ١٣٢ /١٣٣٩٦ جـ٢ صـ١٥٤٥ - مجمع البحوث الاسلامية

(٧٠) سيرة ابن هشام جـ٢ صـ١٦٦

وعلا ـ فعن عمران بن سلمان ـ قال : « الحسن والحسين من أسماء أهل الجنة لم يكونا فى الجاهلية »[٧١]

متى ولد ؟

قال الرواة : قال الليث بن سعد : وَلَدتْ فاطمة بنت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ الحسين بن على لبضع ليال خلون من شعبان سنة أربع .

وقال الزبير بن بكار : ولد الحسين لخمس خلون من شعبان سنة أربع من الهجرة .

وقال جعفر بن محمد : لم يكن بين الحمل بالحسين بعد ولادة الحسن إلا مايقرب من شهرين أو ثلاثة .

وقال قتادة : ولد الحسين بعد الحسن بسنة وعشرة أشهر ، فكانت ولادته بعد ست سنين ونصف من الهجرة تقريبا[٧٢]

وأكثر الأقوال على أنه ولد فى الخامس من شعبان سنة أربع ، فقد حملت به أمه بعد أن ولدت أخاه الحسن ـ رضى الله عنه ـ بخمسين ليلة ، وهكذا صح النقل فى ذلك .[٧٣] وحنكه ـ صلى الله عليه وسلم ـ بريقه ، وأذن فى أذنه وعقَّ عنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ بكبش . وقال لأمه : احلقى رأسه وتصدقى بزنة شعره فضة كما فعلت بأخيه الحسن .

وللحسين ألقاب متعددة منها :

---

(٧١) أسد الغابة لابن الأثير ٢ / ١٩

(٧٢) المصدر السابق

(٧٣) نور الأبصار للشبلنجى صـ١٢٥

الرشيد ، والطيب ، والزكى ، والوفى ، والسيد ، والمبارك ، والسبط .

وأشهر هذه الألقاب الزكى ، وأعلاها رتبة مالقبه به ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى قوله ـ عنه وعن أخيه : « الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة »(٧٤) وهو لقب السيد .

وكذلك السبط الذى لقبه به النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ أيضا فى قوله : « حسين سبط من الأسباط »(٧٥)

وقد شهد له النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ بالجنة فى أحاديث متعددة منها غير ماسبق ....

ماروى ابن حيان وابن سعد وأبو يعلى وابن عساكر عن جابر ـ رضى الله عنه ـ قال : سمعت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقول : « من سره أن ينظر إلى رجل من أهل الجنة ـ وفى رواية ـ إلى سيد شباب أهل الجنة ـ فلينظر إلى الحسين بن على »

ونشأ الحسين فى حجر جده ـ صلى الله عليه وسلم ـ الذى كان يحبه وأخاه الحسن حبا شديدا .

قال واثلة بن الأسقع : والله لاأزال أحب عليا والحسن والحسين وفاطمة بعد أن سمعت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقول فيهم ماقال ، لقد رأيتنى ذات يوم وقد جئت النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى بيت أم سلمة ، فجاء الحسن فأجلسه على رجله اليمنى وقبله ، ثم جاء الحسين فأجلسه على

---

(٧٤) أخرجه ابن عساكر فى تاريخه وفى جمع الجوامع برقم ١٣٠ / ١٣٣٩٤

(٧٥) الجامع الصغير برقم ٣٧٢٧ بلفظ « الحسن والحسين سبطان من الأسباط ، والطبرانى فى الكبير ، والبخارى فى الأدب ، وأبو نعيم فى فضائل الصحابة عن ليلى بن مرة الثقفى .

رجله اليسرى وقبله ، ثم جاءت فاطمة فأجلسها بين يديه . ثم دعا بعلى ، ثم قال : « إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا »

ومما يشير إلى حب النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ للحسين مداعبته له . وحنينه إليه ، وإشفاقه عليه ـ وهذا ماتقصه الأخبار الآتية :

خرج النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ من بيت عائشة ـ رضى الله عنها ـ يوما ، فمر على بيت فاطمة ، فسمع حسينا يبكى فهرع إلى فاطمة وقال لها : « ألم تعلمى أن بكاءه يؤذينى »[٧٦]

ووقف رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى المسجد مرة يخطب ، وبينما هو يعظ المسلمين جاء الحسن والحسين وعليهما قميصان أحمران يعثران ويقومان ، فلم يملك رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ نفسه ، بل نزل إليهما ، وأخذهما وعاد إلى المنبر وهو يضمهما إليه ، ثم وضعهما فى حجره وقال : صدق الله « إنما أموالكم وأولادكم فتنة »[٧٧]

وعن أيوب الأنصارى قال : « دخلت على رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ والحسين والحسن يلعبان على صدره فقلت : يارسول الله أتحبهما ؟

فقال : « كيف لاأحبهما وهما ريحانتاى من الدنيا »[٧٨] وذكر أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ كان يخصُّ حفيديه الكريمين الحسن

---

(٧٦) الحسين بن على امام الشاهدين ـ محمد على قطب صـ٢٦

(٧٧) المرجع السابق

(٧٨) الحسين بن على للشيخ أحمد عبدالجواد الدومى صـ٧

والحسين - رضى الله عنهما - ويؤثرهما بحب كبير ، وكان يحنو ويعطف عليهما ويداعبهما ويلاطفهما - وكان دائم البشر عند لقائهما يؤذيه مايؤذيهما ، وكان يقول عنهما الكثير من كلماته المشرقة .

جلس رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يوما فطلع الحسن والحسين فاعتركا ، فجعل النبى - صلى الله عليه وسلم - يضحك ويقول : « هى حسن » فقال الإمام على - كرم الله وجهه : « يارسول الله أعلى حسين تواليه » . . . . . فابتسم الرسول - صلى الله عليه وسلم - ثم قال : هذا جبريل يقول : هى حسين [79] وكان صلى الله عليه وسلم - يقول عن الحسن والحسين : « هذان ابناى فمن أحبهما فقد أحبنى ومن أحبنى فقد أحب الله ، ومن أبغضهما فقد أبغضنى ومن أبغضنى فقد أبغض الله .

وعلى الرغم من قصر المدة التى قضاها الحسين - رضى الله عنه - فى كنف جده - صلى الله عليه وسلم - إلا أنه وعى فيها الكثير ، لقد رزقه الله الذكاء النادر والحافظة القوية والذاكرة الواعية ، فروى عن النبى - صلى الله عليه وسلم - بعض أحاديثه التى سمعها منه ورواها الرواة عن الحسين . .

فمن ذلك ماروته فاطمة بنت الحسين قالت : سمعت أبى الحسين بن على يقول : سمعت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول : مامن مسلم ولامسلمة تصيبه مصيبة وإن قدم عهدها فيحدث لها استرجاعا [80] إلا أحدث الله له عند ذلك وأعطاه ثواب ماوعده بها يوم أصيب بها » [81] »

---

(٧٩) المرجع السابق

(٨٠) أى يقول : إنا لله وإنا إليه راجعون .

(٨١) أسد الغابة جـ٢ صـ١٩ ومعنى أحدث استرجاعاً أى قال إنا لله وإنا اليه راجعون

ومن ذلك مارواه عنه طلحة بن عبيد الله قال : عن الحسين بن على قال : قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « أمان أمتى من الغرق إذا ركبوا البحر أن يقرءوا « بسم الله مجراها ومرساها إن ربى لغفور رحيم »[٨٢]

لقد تربى الحسين ـ رضى الله عنه ـ على الهدى النبوى ـ حتى إذا لحق النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ بالرفيق الأعلى . وجد فى أمه البتول الطاهرة سيدة نساء أهل الجنة ، وفى أبيه على ـ رضى الله عنهما ـ الساعد القوى الذى يأخذ بيده إلى مدارج الكمال . ويلقنه الكلم الطيب ، والتعاليم الصالحة ، والمثل العليا والشيم الغراء .

وكان يتردد على مسجد المدينة وهو القلعة الشماء التى يتعلم فيها كبار التابعين من صحابة رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ويروون الحديث الشريف ويتفهمون القرآن ويتدارسونه فيما بينهم .

لقد نشأ ـ رضى الله عنه ـ فى مجتمع المدينة الزاهر ، وهو يومئذ غض بتعاليم الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ مشرق بآثاره الطيبة . فواح بمبادئه الكريمة . . . . فتأثر الحسين ـ رضى الله عنه ـ بتلك البيئة الجميلة العظيمة وتربى على التقوى والصلاح والقيم الرائعة والتوجيهات السليمة وكان لديه حرص شديد على عبادة الله حق عبادته فهكذا كان أبوه ، وهكذا كانت أمه ، وهكذا كان الصحابة الأجلاء الذين يراهم أمامه . .

« ولاعجب فقد حفظ القرآن الكريم وهو حديث السن ، وفهمه وأدرك معانيه العظام ، فنشأ ورعا تقيا عابدا زاهدا ، فصيحا بليغا ، شجاعا مقداما ، عفيفا كريما ، إماما عظيما .

---

(٨٢) من آية ٤١ من سورة هود ، والخبر من المرجع السابق .

ولقد كان يسمع عن غزوات النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ من أبيه ، وكانت والدته الكريمة السيدة فاطمة ـ رضى الله عنها ـ تقص عليه مراحل الدعوة الإسلامية التى تابعتها منذ سن صغيرة ، وكانت ترى تطوراتها عن قرب فى حياة أمها العظيمة السيدة خديجة ـ رضى الله عنها ـ وحياة أبيها العظيم ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ فى أثناء وجودها فى مكة ، وبعد أن هاجرت إلى المدينة المنورة ، وكانت تحكى للحسين بطولات والده الإمام على ـ كرم الله وجهه ـ فى الدفاع عن الإسلام ، والتضحية بنفسه فى سبيل الله وفى سبيل رسوله الكريم ـ صلى الله عليه وسلم ـ فنشأ الحسين ـ رضى الله عنه ـ محباً للجهاد ، مستعجلاً ذلك اليوم الذى يشترك فيه مع الجيوش الاسلامية .

ورأى الحسين وهو صغير حروب الردة ، وتابع أحداثها الجسام عن كثب ، وكم تمنى قتال هؤلاء المرتدين ، ولكن الوقت كان لم يحن لذلك بعد .(٨٣)

لقد كانت سنه إذ ذاك فى حدود السابعة أو الثامنة ، وهى سن لا تؤهل صاحبها للاشتراك فى الحروب ، وإن كانت تثير فى نفسه الآمال والطموحات ، وبخاصة عند أصحاب النفوس الكبيرة التواقة إلى المثل العليا والقيم الشماء .

وكان الحسين ـ على صغر سنه ـ محوطاً بالجلال والحب من الصحابة الأجلاء الذين كانوا يَرْوْن النبى ـ ﷺ ـ يحبه ويؤثره ، وقد شعر الحسين بهذا الحب والإجلال من الصحابة فما زاده ذلك إلا حبًّا لهم وإكراماً لهم ،

---

(٨٣) الحسين بن على ـ للشيخ أحمد عبد الجواد

وبراً بهم ، وتواضعاً لهم ، فهم أصحاب جده - ﷺ - وهم الذين آمنوا به ، وأحبوه ، وجاهدوا معه ، وتفانوا فى سبيل الدين الذى جاء به . .

وكان الصحابة الأجلاء قد سمعوا النبى - ﷺ - يوصى بأهل بيته ، ويدعو إلى محبتهم ، وقرءوا القرآن الكريم الذى يقول .

﴿ ذَٰلِكَ ٱلَّذِى يُبَشِّرُ ٱللَّهُ عِبَادَهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ۗ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ ۗ وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُۥ فِيهَا حُسْنًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٢٣﴾ ﴾ (٨٤)

فأقبل هؤلاء الصحابة على أهل البيت بالتكريم والحب . . . . فها هو ذا أبوبكر الصديق رضى الله عنه - يقول « ارقبوا محمداً فى أهل بيته » .

وها هو عمر - رضى الله عنه - يفرض لأهل البيت عطاء جزيلاً ، ويبدأ ديوانه الذى دونه بهم ، فكان لهذا أثره فى نفس الحسين - رضى الله عنه - وما أجمل النشأة فى ظلال الحب والإيثار والتكريم ، إنها تأخذ بيد الناشىء إلى مدارج الرقى والكمال ، مادام هذا الحب لا يغمض عينيه عن مناهج التربية السليمة والمبادىء القويمة . .

إن الذى يعيب تربيتنا هو التدليل الذى يغض الطرف عن السلوك السيىء للطفل ، فينشأ وفى نفسه كبر غير سَوِىّ وتعالٍ على غيره ، وإهمال لكثير من القيم الصالحة والمبادىء الكريمة . . ويصبح ذلك جزءاً من نفسه يعسر تقويمه بعد ذلك ، فقد ورد فى الأمثال « التعليم فى الصغر كالنقش

---

(٨٤) الشورى ٢٣

على الحجر ، والتعليم فى الكبر كالنقش على الماء » . . وصدق شوقى إذ يقول :

قد ينفع الإصلاح والتهذيب فى عهد الصغر   والنشء إن أهملته طفلاً تعثر فى الكبر

فهذا الحب العظيم التى أكنه النبى - ﷺ - للحسن والحسين ، وأكنه لهما كل المحيطين بهما - من أب وأم وأقارب وصحابة أجلاء - لم يزد هذين السبطين الجليلين إلا أدباً وتهذيباً وكمالاً . لأنه حب خالص لله ، مصحوب بالتوجيه السديد والتربية الكاملة فنتج عنه شخصية سوية خالية من العقد ، صالحة للقيادة والريادة والأخذ بيد الناس إلى الطريق المستقيم .

نشأ الحسين - رضى الله عنه - فى هذا الجو الإسلامى الخالص المفعم بالحب والتقدير لأهل بيت رسول الله - ﷺ - . . . . . . ولاشك أن هناك صحابة أجلاء شاهدوا النبى - صلى الله عليه وسلم - وهو يحرص على إحاطة الحسن والحسين وأمهما وأبيهما بكل مظاهر الحب والعناية ، ورأوه طوال الأشهر المتوالية التى سبقت وفاته يمر على بيت فاطمة كل يوم فى طريقه إلى المسجد قائلاً : الصلاة الصلاة - إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً .

فنظر الناس إلى كل من الحسن والحسين على أنهما أحب خلق الله إلى رسول الله ، وذلك يعنى أنهما أحب خلق الله إلى الله - تعالى .

رؤيا أم الفضل :

ولقد سبق أن ذكرنا فى قصة مولد الحسن - رضى الله عنه - أن أم الفضل - رضى الله عنها - رأت كأن عضواً من أعضاء النبى - ﷺ - فصل ووقع فى حجرها - فارتاعت لهذه الرؤيا ، وقصتها على النبى - ﷺ - فقال

لها : أبشرى ستلد فاطمة طفلاً وترضعينه بلبن قُثَم . . فكان أن ولدت فاطمة الحسن ـ رضى الله عنه ـ وأرضعته أم الفضل . . . . . ولكن بعض الروايات تشير إلى أن هذه الرؤيا كانت للحسين ـ رضى الله عنه ـ فقد روى ابن كثير ما حدث به الأوزاعى عن أبى عمار شداد بن عبدالله عن أم الفضل بنت الحارث أنها دخلت على رسول الله ـ ﷺ ـ فقالت : يا رسول الله إنى رأيت حلماً منكراً الليلة .

قال : « وما هو » ؟

قالت : رأيت كأن قطعة من جسدك قطعت ووضعت فى حجرى .

قال : « رأيت خيراً ـ تلك فاطمة إن شاء الله تلد غلاماً فيكون فى حجرك » قالت : فولدت فاطمة الحسين ، فكان فى حجرى ، كما قال رسول الله ـ ﷺ ـ .

قالت : فَوَضَعْتُه فى حجرى ، ثم حانت منى التفاتة فإذا عينا رسول الله ـ ﷺ ـ تهريقان الدموع .

قالت : قلت يانبى الله بأبى أنت وأمى مالك ؟

قال : « أتانى جبريل ـ عليه السلام ـ فأخبرنى أن أمتى ستقتل ابنى هذا » .

فقلت : « هذا » ؟

قال : نعم

قال ابن كثير : وروى الإمام أحمد عن عفان عن وهيب عن أيوب عن صالح عن عبدالله بن الحارث عن أم الفضل قالت : أتيت رسول الله ـ ﷺ ـ فقلت : يا رسول الله ، إنى رأيت فى منامى أن فى بيتى ـ أو فى حجرى ـ عضواً من أعضائك .

قال : تلد فاطمة ـ إن شاءالله ـ غلاماً فتكفلينه .

فولدت له فاطمة حسيناً ، فجاءت به إلىَّ فأرضعته بلبن قثم .

قالت : فأتيت به رسول الله ـ ﷺ ـ يوماً أزوره ، فأخذه فوضعه على صدره فبال ، فأصاب البول إزار رسول الله ، فزخخت[٨٥] بيدى على كتفيه فقال : « أوجعت ابنى ـ أصلحك الله » أو قال : رحمك الله .

فقلت : أعطنى إزارك أغسله .

فقال : « إنما يغسل بول الجارية ويصب على بول الغلام » .

وهذا الحديث الأول يؤكد أن رؤيا أم الفضل كانت للحسين ، لما يتضمنه من أخبار بقتله ـ رضى الله عنه .

وينبغى الإشارة هنا إلى أن هذه الروايات لا تخلو من الشك فيها ـ ذاك أن أم الفضل هى زوجة العباس رضى الله عنهما ـ والرواة يذكرون أن العباس لم يهاجر إلى المدينة إلا قُبَيْل فتح مكة ـ فكيف تتفق هذه الرؤيا مع منطق الأحداث ؟

ولا تبرير لذلك إلا أن تكون أم الفضل قد سبقت بالهجرة قبل زوجها إلى المدينة .

وقد روى أن فاطمة ـ رضى الله عنها ـ جاءت والنبى ـ ﷺ ـ فى مرضه الأخير وابناها فى يديها . فقالت : يا رسول الله ، هذان ابناى فورثهما شيئاً .

فقال ـ ـ ﷺ ـ : أما الحسن فله هيبتى وسؤددى ، وأما الحسين فله جرأتى وجودى .

---

(٨٥) زَخَّ : دفع ، وضرب

ما أعظمه من ميراث وما أجمله من شرف .. ذلك هو ميراث النبوة العظيم ، لا ميراث أهل الدنيا الذى يفنى ولا يبقى له أثر ولا يترك فى نفوس الناس إلا الأحقاد والعداوات ..

في ساحة الجهاد :

سبق أن أشرنا إلى أن الحسين ـ رضى الله عنه ـ كانت نفسه تتوق للجهاد من صغره وطفولته .. ولم تتح له الفرصة فى خلافة الشيخين للمشاركة فى الجهاد حتى إذا كانت خلافة عثمان كان الحسن والحسين كلاهما قد بلغ أشده ..

وآن الأوان لميراث الحسين من النبى ـ ﷺ ـ أن يتحقق ، لقد ورث الحسين من جده ـ ﷺ ـ الجرأة ـ والجرأة لا تظهر إلا فى مواطن الشدة وميادين الحرب .

ولاحت الفرصة أمام الحسن والحسين حين أذن مؤذن الجهاد لفتح طبرستان وكان ذلك فى سنة ثلاثين .

يقول ابن كثير : فى سنة ثلاثين فتح سعيد بن العاص طبرستان وهو أول من غزاها ..

فقد ركب سعيد بن العاص ـ وهو القائد ـ فى جيش فيه الحسن والحسين والعبادلة . . . . . . (عبدالله بن عباس ، عبدالله بن عمرو ، عبدالله بن عمر ، عبدالله بن الزبير) وكثير من الصحابة ..

وأظهر الحسين من البطولة فى هذا الفتح ما حقق به صدق ميراثه من جده ـ ﷺ ـ

وعاد الجيش الإسلامى بالغنائم الوفيرة بعد أن رفع راية الإسلام فى صقع جديد من أصقاع المعمورة ، ونشر فيه كلمة لا إله إلا الله . . كما اشترك الحسن مرة أخرى فى الجيش الخارج لفتح القسطنطينية وكان ذلك سنة تسع وأربعين . . . . وكان رسول الله - ﷺ - قد قال - كما ثبت فى صحيح البخارى - : « أول جيش يغزو مدينة قيصر مغفور لهم » .

فأدى ذلك إلى تنافس المسلمين فى تلبية داعى الجهاد فى فتح مدينة القسطنطينية ، وخرج فى الجيش كثير من الصحابة من أمثال ابن عباس وابن عمر وابن الزبير وأبى أيوب الأنصارى وغيرهم . وخرج كذلك الحسن والحسين - رضى الله عنهما .

وفى هذه السنة توفى الإمام الحسن - رضى الله عنه - بعد عودته . ولكن أبا أيوب الأنصارى مات فى أثناء الغزو ، ودفن هناك وقبره يستسقى به . .

ومن العجيب أن قائد هذا الجيش كان هو يزيد بن معاوية ، ويدل ذلك على أن الحسن والحسين - رضى الله عنهما - كانا يجاهدان فى سبيل الله تحت لواء أى قائد كان مهما كان الخلاف معه ، لأن النية خالصة لله ، والخروج إنما هو فى سبيل إعلاء كلمة الله ، فليكن اللواء بيد من شاء الله .

واشترك الحسين أيضاً فى فتوح أفريقية[٨٧] ، وربما كان تحت قيادة عقبة بن نافع الفهرى الذى اختط القيروان ، وكانت غيضة تأوى إليها السباع والوحوش والحيات العظام فدعا الله فلم يبق فيها شىء من ذلك . حتى إن

---

(٨٦) البداية والنهاية لابن كثير جـ٦ صـ٢٣٠

(٨٧) الحسين بن على - الشيخ أحمد عبدالجواد الدومى صـ٢٣

السباع كانت تخرج تحمل أولادها ، والحيات تخرج من أحجارها هاربات ، وقد أسلم بسبب ذلك كثير من البربر حين عاينوا هذه الكرامة العظيمة .(٨٨)

دفاعه عن عثمان :

على أن الأمر الذى يحمد له حقاً كما يحمد لأخيه الحسن ـ رضى الله عنهما ـ هو دفاعهما عن الخليفة الثالث عثمان ـ رضى الله عنه فى أثناء حصاره الشديد .

ذلك أن الثوار الذين ثاروا ضده لأسباب مفتعلة أحاطوابالدار يريدون قتله ، فأقبل أبناء الصحابة بأمر آبائهم ، وقد حملوا أسلحتهم يدافعون عن الخليفة ، وفى مقدمة هؤلاء الحسن والحسين وعبدالله بن الزبير وعبدالله بن عمر .

وقد أصر هؤلاء على موقفهم من الدفاع عن الخليفة ضد هؤلاء الثوار حتى ولو أدى ذلك إلى استشهادهم . . . وكان هؤلاء المدافعون قريباً من سبعمائة . .

ولكن عثمان ـ رضى الله عنه ـ خشى أن ينشب قتال تراق فيه الدماء بين المسلمين بسببه . .

فقال لهؤلاء المناصرين له : أقسم على من لى عليه حق أن يكف يده وأن ينطلق إلى منزله ، وقال لخدمه : من أغمد سيفه فهو حر .

وكان سبب ذلك أن عثمان ـ رضى الله عنه ـ رأى رؤيا دلت على اقتراب

---

(٨٨) البداية والنهاية لابن كثير جـ٨ صـ٤٥

أجله ، فاستسلم لأمر الله رجاء موعوده ، وشوقاً إلى رسول الله ـ ﷺ ـ وليكون خير ابنى آدم حيث قال حين أراد أخوه قتله :

﴿ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٖ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢٨ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٢٩ ﴾ (٨٩)

وتحت إلحاح عثمان ـ رضى الله عنه ـ على هؤلاء المناصرين تفرق بعضهم . أو على الأقل أغمدوا سيوفهم . .

ولكن الثائرين من الخارج لم يكفوا سيوفهم ، بل ازداد شرهم وتصاعد خطرهم ، وتسور بعضهم جدار البيت من خلف فاقتحموا على عثمان ـ رضى الله عنه ـ غرفته فقتلوه وهو يقرأ فى مصحفه . وذلك فى أيام التشريق سنة خمس وثلاثين من الهجرة . .

الحسين فى خلافة والده .

وبايع المسلمون على بن أبى طالب ـ كرم الله وجهه ، وكان أحق المسلمين يومئذ بذلك .

ولكنه تولى الأمر فى أيام عصيبة ، كانت الفتنة قد نشبت ، وسعرَّها قوم كثيرون

فكان أن نقض قوم من الذين بايعوا الإمام عليًا بيعته ، وثاروا ضده ، وأخذو يطالبونه بالثأر لعثمان ـ رضى الله عنه ـ بل إنهم اتهموه بأنه هو الذى

---

(٨٩) المائدة ٢٨ ، ٢٩

يرفض أن يقتص من قتلة عثمان وغالى بعضهم فاتهمه بالتواطؤ معهم . . . .

فى وقعة الجمل

وكنا قد أشرنا فى أثناء حديثنا عن الإمام على ـ كرم الله وجهه ـ إلى موقعة الجمل ـ ولكنا لم نفصل القول فيها ، لأن الحديث عنها يتطلب الحديث عن قواد الإمام على فى تلك الموقعة ـ ومن أبرزهم أبناؤه الثلاثة ـ الإمام الحسن والإمام الحسين ، والإمام محمد بن الحنفية .

وسبب هذه الموقعة أن بعض أمهات المؤمنين كن قد خرجن لأداء الحج فى هذه السنة ، فلما بلغهن وهن فى مكة مقتل أمير المؤمنين عثمان ـ رضى الله عنه ـ أقمن بمكة انتظارا للأحداث .

ولم يلبث أن استأذن كل من طلحة والزبير علياً فى أداء العمرة فأذن لهما

وكان معاوية بن أبى سفيان على رأس المتحمسين للثأر من قتلة عثمان واتخذ من قميص عثمان الذى نصبه فوق منبر دمشق شعاراً يقاتل من أجله ويجمع الناس حوله .

وأصبح فى الشام جيش قوى تحت إمرة معاوية يطالب بدم عثمان . وفى الوقت نفسه كانت السيدة عائشة أم المؤمنين فى مكة تخطب الناس مطالبة بدم عثمان فاستجاب لها خلق كثير . .

وانضم إليها طلحة والزبير ومن شايعهما . . واتفقت كلمتهم على أن يتوجهوا إلى البصرة ، ليتعودا منها بالخيل والسلاح . .

وخرجت السيدة عائشة ـ رضى الله عنها ـ إلى البصرة فى جيش قوامه ألف فارس من أهل مكة تلاحق بهم الناس حتى أصبحوا ثلاثة آلاف .

وسارت معها أمهات المؤمنين يودعنها - حتى وصلن إلى ذات عرق ففارقنها هناك وبكين للوداع حتى سمى هذا اليوم بيوم النحيب .

وأسرع الركب فى طريقه حتى وصلوا إلى مكان فيه ماء يقال له : الحوأب ، فنبحت هناك كلاب كثيرة .

وسمعت السيدة عائشة نباح كلاب فقالت : ما اسم هذا المكان ؟

قالوا لها : إنه الحوأب .

فضربت بإحدى يديها على الأخرى وقالت : إنا لله وإنا إليه راجعون ما أظننى إلا راجعة .

فقالوا لها : ولم ؟

قالت : سمعت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول لنسائه « ليت شعرى أيتكن تنبحها كلاب الحوأب » ؟

ثم ضربت عضد بعيرها ، فأناخته ، وقالت لمن معها : ردونى ردونى ، أنا والله صاحبة الحوأب ..

فأناخ الناس حولها يوما وليلة ..

لقد تذكرت أم المؤمنين - رضى الله عنها - أنها ربما كانت على غير صواب فى خروجها هذا ، وأن النبى - صلى الله عليه وسلم - حين قال ما قال كان يحذر مِن أمر .. ولكن ابن أختها عبدالله بن الزبير جاء فقال لها : إن الذى قال لك إن هذا ماء الحوأب قد كذب عليك .. فقوى هذا عزمها على المضى إلى البصرة .

وكان قد بلغ عليًا - كرم الله وجهه - خبر القوم وأنهم قد بيتوا الأمر على حربه ، وجمعوا الجموع لذلك ، واتجهوا نحو البصرة لجمع المزيد من ذلك ،

فعوَّل على المسير إليهم ..

لقد رأى الإمام أن هؤ لاء القوم قد خرجوا على طاعة الإمام ونقضوا ما بايعوا عليه . وأحدثوا الفرقة بين المسلمين ، فلابد من محاربتهم حتى لا تستفحل الفتنة .

وكان الحسن ـ رضى الله عنه ـ قد أشار على أبيه بعدم الخروج من المدينة وقال له : الزم مكانك فإن جاءوا فحاربهم ..

وأزمع علىٌّ على المسير ، فجاء إليه ابنه الحسن فى الطريق ، فقال له : لقد نهيتك فعصيتنى ، تقتل غدا بمضيعة لا ناصر لك .

فقال له على : إنك لا تزال تحن علىَّ ، فما الذى نهيتنى عنه فعصيتك ؟

قال له الحسن : لقد أشرت عليك قبل مقتل عثمان أن تخرج من المدينة حتى لا يُقتل وأنت بها ، فيقول قائل أو يتحدث متحدث .. ـ يعنى بأنك اشتركت مع الثائرين أو تقاعست عن نصرته .

وأشرتُ عليك ألا تبايع الناس بعد مقتل عثمان حتى يبعث إليك أهل كل مصر ببيعتهم .

وأشرت عليك حين خرجت أم المؤمنين عائشة ، وطلحة والزبير أن تجلس فى بيتك حتى يصطلحوا فعصيتنى فى ذلك كله .

فرد عليه الإمام على بقوله :

أما قولك أن أخرج من المدينة قبل مقتل عثمان فلقد أحيط بنا كما أحيط به .

وأمام مبايعتى قبل مجىء بيعة الأنصار فقد كرهت أن يضيع هذا الأمر .

وأما قولك أجلس فى بيتى وقد ذهب هؤلاء فإنك تريد منى أن أكون كالضبع

التى يحاط بها ، ويقال ليست ها هنا حتى يشق عرقوبها فتخرج ، فإذا أنا لم أنظر فيما يلزمنى فى هذا الأمر ويعنينى فمن ينظر فيه . ؟

ولكن الحسن ـ رضى الله عنه ـ لم يجد بداً من مناصرة والده وقد تبين له أن الحق معه . .

فخرج الإمام على وكانت وجهته أولا الشام التى رفعت لواء الثورة عليه بقيادة معاوية ، ولكنه حين عرف أن أم المؤمنين عائشة ومعها طلحة والزبير توجهوا إلى البصرة قصد قصدهم واتجه إليهم »

وأرسل إلى الكوفة يستنصرهم ويحثهم أن يكونوا معه ليردوا الحق إلى نصابه فأجابوه . .

خطبة على فى جيشه :

كان الحسين ـ رضى الله عنه ـ على ميسرة الجيش فى موقعة الجمل ، وخطب الإمام على خطبة يبيِّن للناس ما هم مقدمون عليه ، ويبصرهم بحقيقة موقفهم حتى يكون قتالهم عن عقيدة واضحة لا لبس فيها فقال لهم بعد أن حمد الله وأثنى عليه وصلى على نبيه ـ صلى الله عليه وسلم ـ :

إن الله أعزنا بالإسلام ، ورفعنا به ، وجعلنا به قوة بعد ذلة وكثرة بعد قلة ، ومتوادين بعد تباغض وتباعد ، فجرى الناس على ذلك ما شاء الله ـ الإسلام دينهم ، والحق قائم بينهم ، والكتاب إمامهم ، حتى أصيب هذا الرجل بأيدى هؤلاء القوم الذين نزغهم الشيطان لينزغ بين هذه الأمة ، ألا وإن هذه الأمة ، لابد مفترقة كما افترقت الأمم قبلها ، فنعوذ بالله من شر ما هو كائن . .

ستفترق على ثلاث وسبعين فرقة شرها فرقة تحبنى ولا تعمل بعملى - وقد أدركتم ورأيتم فالزموا دينكم واهتدوا بهديى فإنه هدى نبيكم ، واتبعوا سنته ، وأعرضوا عما أشكل عليكم حتى تعرضوه على الكتاب ، فما عرفه القرآن فالزموه ، وما أنكره فردوه ، وارضوا بالله ربا وبالإسلام دينا ، وبمحمد نبيا ، وبالقرآن حكماً وإماما .

فقال له قائل : أى شيء تريد ؟ وأين تذهب بنا ؟

فقال : أما الذى نريد وننوى فالإصلاح إن قبلوا منا وأجابوا إليه .

قال : فإن لم يجيبوا ؟

قال : ندعهم ونعطيهم الحق ونصبر

قال : فإن لم يرضوا ؟

قال : ندعهم ما تركونا

قال : فإن لم يتركونا ؟

قال : امتنعنا منهم .

قال الرجل : فَنَعَم إذاً

لقد أوضح لجنوده المنهج ، حتى لا يسير بهم على غير هدىً .

لقد كان الطريق إلى موقعة الجمل هو المقدمة الكبرى لما جاء بعد ذلك من أحداث . هى حلقات متماسكة فى سلسلة واحدة انتهت بموقعة كربلاء التى ذهب فيها الحسين بن على - رضى الله عنهما - شهيداً وحيداً بعد ذلك بعدة سنوات . .

لقد خرج أبوه إلى الجمل فى خطة رشد ومنهج إصلاح يريد النصح وينشد

الحق . . وكذلك خرج ابنه بعد ذلك فى نفس الطريق ، وفى ذات الغاية التى خرج إليها أبوه . .

ودارت رحى الحرب على كره من الإمام على كرم الله وجهه ، وكان قد ذكرَّ كلاًّ من طلحة والزبير بما كانا قد نسيا من حديث رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فندما وتركا الحرب فاغتالهما من اغتالهما دون أن يكون للإمام على جريرة فى ذلك .

وانتهت المعركة برجحان كفة على ـ رضى الله عنه ـ وَعُقر الجمل الذى كانت تركبه أم المؤمنين عائشة ـ رضى الله عنها ـ وباسمه سميت الموقعة موقعة الجمل ـ وانتهت المعركة ، وعادت أم المؤمنين إلى المدينة .

الحسين فى صفين

واشترك الحسين مع أبيه أيضا فى موقعة صفين ، التى جرت بعد موقعة الجمل ، وجاهد فيها جهاد الأبطال ، وأبلى فيها بلاء حسنا .

وقد رجحت فيها كفة على ـ رضى الله عنه ـ وأوشكت الهزيمة أن تحيق بجيش خصومه لولا أن لجأ الخصوم إلى رفع المصاحف على أسنة الرماح وطلبوا التحكيم .

ثم جاءت موقعة النهروان ، وكانت ضد الخوارج الذين خرجوا على الإمام على ، وكان للحسين فيها دور مشهود لا ينكره أحد ، فقد استبسل فى الجهاد وقاتل قتالا عنيفا حتى هزمت طائفة الخوارج العاتية التى أثارت الفتن والقلاقل .

ومن العجيب أن يعتبروا مضرب المثل فى المغالاة فى العبادة ، ولكنها عبادة أخبر النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ عنها أنها لا قيمة لها ولا ثواب

عليها . يقول ـ صلى الله عليه وسلم : يخرج قوم من أمتى يقرءون القرآن ليس قراءتكم إلى قراءتهم بشيء ولا صلاتكم إلى صلاتهم بشيء ولا صيامكم إلى صيامهم بشيء يقرءون القرآن يحسبون أنه لهم وهو عليهم .

وفى رواية : يقرءون القرآن لايجاوز تراقيهم يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية . .

وهذا مثل لكل من يتظاهر بالتقوى ويعمل عمل أهل الشرك

الحسين مع أخيه الحسن :

وغضب الحسين ـ رضى الله عنه ـ غضبا شديدا حين تنازل الحسن عن الخلافة بعد أن بايعه الناس أميرا للمؤمنين سنة أربعين بعد أن قتل والده العظيم ـ رضى الله عنه ـ

وأشار على أخيه بمواصلة القتال ضد أولئك الذين نقضوا العهد وضيعوا الحقوق . لا سيما وقد كان تحت إمرة الحسن ، رضى الله عنه ـ جنود مخلصون ومقاتلون مجاهدون .

ولكن الحسن ـ رضى الله عنه ـ كان مسالما بطبعه ، وقد أراد الله له أن يكون محققا لقول جده ـ صلى الله عليه وسلم ـ فيه : « إن ابنى هذا سيد ولعل الله أن يصلح به بين طائفتين عظيمتين من المسلمين »

لقد كان كل من الحسن والحسين ينظر إلى الأمور نظرة مختلفة ـ نظر الحسن إلى كثرة ما أريق من دماء غزيرة وإلى ما أدى إليه هذا الصراع الشديد من تفرق كلمة المسلمين وتمزق وحدتهم .

ونظر الحسين إلى هؤلاء الذين نازعوا الأمر أهله ، ورفعوا راية الشتات

والفرقة بين الناس ، هؤلاء لابد من استمرار جهادهم كما كان يجاهدهم أبوه ـ رضى الله عنه ـ

وقال للحسن : لا تتنازل عن الخلافة ، وامض فى طريق الجهاد . . . . . .

ولكن الحسن كان قد وطد أمره على الصلح ، فلما ضيق عليه الحسين الخناق قال له : والله لقد هممت أن أسجنك فى بيت وأطين عليك بابه حتى أقضى بشأنى هذا وأفرغ منه ثم أخرجك .

وكان الحسين ـ رضى الله عنه ـ مطواعا لأخيه ، فسكت ، ولم يراجع الحسن بعد ذلك ، وآثر الطاعة والسكوت ، وهذا مثل كريم يضربه الإمام الحسين فى آداب الأسرة (٩٠)

لقد هم قوم أن يخرجوا على طاعة الإمام الحسن حين همَّ بمسالة خصومه والصلح معهم وترك الأمر لهم ، فمضوا إلى الحسين يقولون له : ابسط يدك نبايعك على مابايعنا عليه أباك وعلى حرب أعدائك من أهل الشام . .

فماذا كان رد الإمام الحسين عليهم ؟

قال لهم : معاذ الله أن أبايعكم ماكان الحسن حياً . . (٩١)

إن المسألة ليست مسألة حكم ، ولكنها مسألة مبدأ ومنهج . إن مخالفته للحسن فى رأيه ليس معناه التعطش للقتال . ولكن معناه الإيمان بالقضية التى خرج من أجلها الإمام على واستشهد فى سبيلها ، فكيف تترك هذه

---

(٩٠) أهل البيت لمحمود الشرقاوى صـ٩١
(٩١) الحسين بن على لمحمد قطب صـ٤٤

القضية دون أن تحل ؟ وهل إذا تركت الآن بحجة حقن الدماء فهل يضمن أحد الوفاء بما عاهد عليه الطرف الآخر ؟

إن الحل الأمثل فى رأى الحسين هو المضى فى طريق جهاد هؤلاء الخصوم وقتالهم حتى يقضى الله أمراً كان مفعولاً . .

ولكن الحسن قال له : إن الخير كل الخير فى حقن دماء المسلمين . . ومازال به حتى أقنعه برأيه ، فوافق الحسين على رأى أخيه الأكبر واقتنع به ، فليس من حقه أن يخرج عليه أو يعصيه مهما كانت الظروف . .

فأعلن تأييده لموقف أخيه ، وقف بجانبه حتى تم الصلح ، وتنفس الناس الصعداء ، واجتمعوا على إمام واحد هو معاوية بن أبى سفيان .

وهكذا استطاع الحسن أن يمتص غضبة أخيه الحسين بوقاره وحلمه وهدوء طبعه وسؤدده الذى ورثه من جده المصطفى ـ صلى الله عليه وسلم ـ

الحسين فى عهد معاوية

وقد أوتى معاوية كثير من الحلم وحسن السياسة ، وهو القائل : لو كان بينى وبين الناس شعرة من الود ما انقطعت إذا شدوا أرخيت وإذا أرخوا شددت .

وقد واصل معاوية فى خلافته العطاء للناس ، وأجزله لأهل البيت وفى مقدمتهم الحسن والحسين وعبدالله بن عباس وعبدالله بن جعفر ـ رضى الله عنهم ـ طلباً للألفة واستبقاء للأمن الذى يعيش فى ظله الناس . . .

وقد علمنا مما سبق أن الحسين جاهد فى سبيل الله تحت راية الأمراء الذين كان يعقد لهم معاوية راية الجهاد ، ومن بينهم يزيد بن معاوية . ولم يجد الحسين غضاضة فى ذلك ، لأن الجهاد لله لا لأحد من دونه .

ومات الحسن ـ رضى الله عنه ـ بالصورة التى مات عليها وتحدثنا عنها . وكانت هذه الصورة كفيلة أن تثير الحفائظ والأشجان . ولكنها ثورة بغير دليل مادى . إن هى إلا ظنون وشبهات ، وتجرع الحسين ـ رضى الله عنه ـ مرارة الحدث ، وقال لأخيه وهو فى نزعه : أخبرنى بمن فعل هذه الفعلة بك ؟

فقال له الحسن وهو يصارع الموت : لماذا ـ لتقتله ؟ كلا . . . . . فإن يكن الذى أعلم فالله أشد بأساً وأشد تنكيلاً . وإلا فلا أحب أن يؤخذ بى برىء .

كلمات نورانية خرجت من شفتى وارث السؤدد والمهابة من رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ .

ولكن الخلاف بدأ يظهر بين المسلمين مرة أخرى بعد موت الحسن ، وذلك حين استَخْلَفَ معاوية بن أبى سفيان ابنه يزيد ليتولى الأمر من بعده .

لقد أعلن معاوية أن الذى سيخلفه فى الحكم من بعده هو ابنه يزيد : وكانت شروط الصلح التى أبرمت مع الحسن ـ رضى الله عنه ـ تنص على أن يكون للحسن الأمر من بعده ؟

أما وقد مات الحسن ـ رضى الله عنه ـ فقد أصبح هذا الشرط لاوجود له . . وبهذا أصبح الطريق ممهداً أمام الخليفة معاوية بن أبى سفيان ليختار من يراه خليفة بعده . . فاستشار بعض أصدقائه الذين يحيطون به فيمن يستخلفه من بعده ، فأفضى إليه بعضهم بما يجب عليه نحو تولية ابنه من بعده . وقد يكون بعض هؤلاء قد قالوا ذلك تقرباً إليه وتملقاً له ، وقد يكون آخرون قد رأوا أن فى ذلك عصمة للمسلمين من الخلاف بعد موت معاوية كما حدث قبل ذلك .

وهذه كلمة سمعها معاوية من المغيرة بن شعبة . فقد قال لمعاوية : ياأمير المؤمنين قد علمت مالَقِيتْ هذه الأمة من الفتنة والاختلاف ، وفى عنقك الموت ، وأنا أخاف إن حدث بك حدث أن يقع الناس فى مثل ماوقعوا فيه بعد مقتل عثمان ، فاجعل للناس بعدك علماً يفزعون إليه ، واجعل ذلك يزيد ابنك(٩٢)

ولاشك أن هذه الكلمة سَرَّت معاوية . . . فليس أحب لدى المرء من أن يخلفه ابنه . . وربما كان معاوية ـ رضى الله عنه ـ يفكر فى ذلك ، ولكنه كان يريد أن يسمع هذا الرأى من غيره ، فلما سمعه شجعه ذلك على أن يقدم على تحقيق هذه الخطوة . .

فربما كان قبلها متردداً يخشى عدم الاستجابة ، ويخاف من عاقبة هذا الأمر الذى لم يحدث مثله فى الإسلام . .

إنها سابقة لم تحدث من قبل ، ولكن المغيرة سهل عليه الأمر . .

وأخذ معاوية يمهد لتحقيق مايريد ، وبدأ بأهل الشام حيث يوجد أنصاره وأهله الذين عرض عليهم مايريد أن يفعله ، وسرعان ماستجابوا له طائعين .

وفى يوم اجتمع فيه لديه الخطباء من الأمصار ، وأخذوا يتناوبون الخطابة حول هذا الشأن ويباركون الخطوة التى يجب على معاوية أن يخطوها ، وكان مما قاله الأحنف بن قيس ، بعد أن حمد الله وأثنى عليه .

أصلح الله أمير المؤمنين ، إن الناس لم ينسوا بعد ماسلَف من خلاف

---

(٩٢) الحسن بن على ، محمد على قطب ص٥١

وشقاق ، ويزيد بن معاوية نعم الخلف ، وقد حَلَبتَ الدهر أشطره ياأمير المؤمنين ، فاعرف من تسند إليه الأمر من بعدك ، ثم اعص أمر من يأمرك ، لايغررك من يشير عليك ولاينظر لك ، وأنت أنظر للجماعة وأعلم باستقامة الطاعة ، مع أن أهل الحجاز وأهل العراق لايرضون بهذا .

وقال المسعودى : كانت بيعة معاوية ليزيد سنة تسع وخمسين ـ فقد وفدت إليه وفود الأمصار من العراق وغيرها ، وخطب خطباؤهم يحثون معاوية على البيعة ليزيد ، وكان أخطب الخطباء فى رأى معاوية رجل من الأزد قام فقال : أنت أمير المؤمنين ـ وأشار إلى معاوية ـ فإذا مت فأمير المؤمنين يزيد ، فمن أبى فهذا ـ وأخذ بقائم سيفه فسلَّه .

فقال له معاوية : اقعد فأنت أخطب الناس(٩٣)

فلما سمع معاوية آراء هؤلاء أمر بنشر أمر هذه البيعة فى الأمصار وإعلام الناس بها .

وربما كان أحد من أقرباء معاوية يتطلع إليها ويرى أنه أحق بالأمر من يزيد . . وقد ذكر الرواة فى هذا الشأن مروان بن الحكم ـ فقد كان يرى أنه الأحق والأقدر على أن يحمل الأمر بعد معاوية .

وكان مروان أميراً على المدينة من قبل معاوية ، فلما وصل إليه خطابه بشأن البيعة ليزيد خرج مغضباً فى أهل بيته وأخواله من بنى كنانة حتى أتى دمشق فنزلها ، ودخل على معاوية يمشى بين السماطين ، حتى اذا كان بقدر مايسمعه صوته سَلَّم ، وتكلم بكلام كثير حمل فيه على معاوية . . . . . . وكان فيما قال له :

---

(٩٣) مروج الذهب جـ٢ صـ٢١

أقم الأمر يابن أبى سفيان ، واعدل عن تأميرك صغار السن ، واعلم أن لك من قومك نظراء ، وأن لك على مناوأتهم وزراء .

ولكن معاوية السياسى الحكيم استطاع أن يستل غضبته ، وقال له : أنت نظير أمير المؤمنين وعدته فى كل شديدة وعضده فى كل صعب ، وأنت الثانى بعد ولى عهده .

لقد جعله ولياً للعهد بعد يزيد ، ورده إلى المدينة ، وما أن وصل إليها حتى كان خطاب عزله عن ولايتها قد تبعه ، وصدر الأمر للوليد بن عتبة بن أبى سفيان ـ ابن أخى معاوية ـ بولايتها ـ وقيل : إنه ولَّى سعيد بن العاص .

وكان معاوية قد أراد أن يوطد الأمر ليزيد . . . . ولايتوطد الأمر له إلا برضاء بنى هاشم ، خصوصاً أن الخلافة كانت ستؤول إلى الحسن بعد معاوية وكان الحسين بن على غير راض عما يدور من أحداث ، فرأى معاوية أنه إذا وثق العلاقة ببنى هاشم ، واستطاع أن يحوز رضاهم فقد ضمن الأمن والاستقرار ليزيد .

ولكن ماطريقه إلى ذلك ؟ . . . لقد رأى أنه ليس هناك طريق إلا المصاهرة . . والمصاهرة هى التى تستأصل الإحن ، وتوثق الروابط ، وتبذر المحبة والمودة بين الناس . .

وخطا معاوية خطوة فى هذا الطريق ، بدأها قبل أن يبايع ليزيد ، فأرسل كتاباً إلى مروان يقول له :

أما بعد فإن أمير المؤمنين أحب أن يرد الألفة ويسل السخيمة ويصل الرحم ، فإذا وصل إليك كتابى فاخطب إلى عبدالله بن جعفر ابنته أم كلثوم على يزيد ابن أمير المؤمنين وأرغبه فى الصداق .

وأم كلثوم هذه ـ أمها زينب بنت علي ـ كرم الله وجهه ـ وأخت الإمام الحسين ـ رضي الله عنه ـ .

ولو تمت هذه المصاهرة لوثق يزيد علاقته برءوس بني هاشم جميعاً ، وفي مقدمتهم الحسين وعبدالله بن جعفر وعبدالله بن عباس . .

وربما رضي هؤلاء عن تولية يزيد الخلافة فقد أصبح منهم . .

وأسرع مروان ينفذ أمر الخليفة . . . لم يكن معاوية قد عزله بعد ، لأنه لم يكن قد أخذ البيعة ليزيد . .

ولم يخف على مروان ماأراده الخليفة ، فأحسن الكلام وزوّقه وتقدم لعبدالله بن جعفر يعرض ماأراده الخليفة ، مبيناً مافي إتمامه من رد الألفة وإصلاح ذات البيت وتوثيق العرا بين البيتين القرشيين الكبيرين .

وأجاب عبدالله بن جعفر قائلاً : ألم تعلم أن خالها الحسين بن علي . . . . وهو غائب في ينبع وليس هو بالذي لايؤخذ رأيه في مثل هذا الأمر المهم ؟

وجاء الحسين ـ رضي الله عنه ـ وعرض عليه الأمر ، ولم يغب عن فطنته الهدف من وراء ذلك . . فكان رده على هذا الأمر عملياً .

قام فدخل على ابنة أخته يقول لها : يابنية إن ابن عمك القاسم بن محمد بن جعفر يطلبك وهو أحق بك .

وجاء مروان وعرض ماسبق أن عرضه على عبدالله بن جعفر ، فقال الحسين : لقد زوجناها من القاسم بن محمد ـ ابن عمها .

وكأن مروان لم يرتض ذلك الرد ، بل ربما غضب مروان من هذا الرد . . وقال : أغدراً ياحسين ؟ ولكن الحسين لم يكن يرى أي غدر في هذا الأمر

فلم تكن هناك موافقة قد سبقت حتى يكون ذلك غدراً

وهم أهل بيت النبى وليس الغدر من طبيعتهم . .

إن ديدنهم الوفاء وحب المروءة والحرص عليها . .

ولو كانوا يحسنون الغدر والخديعة لكادوا لغيرهم ومكروا بخصومهم ولكن الله أنجاهم من كل ذلك لأنه قال فى حقهم

« إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً »

ولم يسكت الحسين على كلمة مروان التى وجهها له . . ولكنه أجابه فى صراحة واضحة :

أنت بدأت يامروان ، خطب الحسن عائشة بنت عثمان بن عفان واجتمعا لذلك ، فتكلمت أنت فزوجتها عبدالله بن الزبير - واحدة بواحدة . .

وعاد الرد إلى معاوية بما حدث ، فكان ذلك شديدا عليه . . وكان هذا سبباً فى تعجيل أمر البيعة ليزيد . كأنه أراد أن يكون ذلك جواب هذا الرفض الذى تلقاه .

موقف الحسين من البيعة ليزيد

وَقُرِىء خطاب البيعة أمام الحسين ، وطلب منه أن يبايع ، فامتنع . وكيف يبايع وهو يرى أن الأمر لايجب أن يتم بتلك الصورة . . . . . . إن رفض البيعة هو الأمر الطبيعى من جانب الحسين .

وبعث والى المدينة الجديد إلى معاوية يذكر له رفض الحسين للبيعة .

وكتب معاوية للحسين يقول له : أما بعد ، فقد انتهت إلىَّ منك أمور لم أكن أظنك بها رغبة عنها ، وإن أحق الناس بالوفاء لمن أعطى بيعته من كان مثلك فى خطرك وشرفك ومنزلتك التى أنزلك الله بها .

فلاتنازع واتق الله ، ولاتردن هذه الأمة فى فتنة ، وانظر لنفسك ودينك وأمة محمد وصالح الناس . .

وقد رد الحسين على معاوية بكتاب يقول له فيه : أما بعد ، فقد جاء كتابك تذكر فيه أنه انتهت إليك عنى أمور ولم تكن تظننى بها رغبة بى عنها وإن الحسنات لايهدى لها ولايسدد إليها إلا الله ـ تعالى ـ

وأما ماذكرت أنه رُقى إليك عنى فإنما رقاه الملاّقون المشاؤون بالنميمة المفرقون بين الجمع ـ وكذب الغاوون المارقون ، ماأردت حرباً ولا خلافاً ، وإنى لأخشى الله فى ترك ذلك منك ومن الذين معك . .

. . . . وقلت : لاتُرد هذه الأمة فى فتنة ، وإنى والله لاأريد لها إلا الصلاح والخير . .

وقلت : انظر لنفسك ولدينك ولأمة محمد ، وإنى والله ماأعرف أحداً أفضل منا فى ذلك . . وما أريد إلا الخير لأمة محمد ، وأستغفر الله لدينى وأسأله التوفيق لما يحب ويرضى

واعلم يامعاوية أن لله كتاباً لايغادر صغيرة ولاكبيرة إلا أحصاها . . .

والسلام ،

وفاة معاوية

ومات معاوية ـ رضى الله عنه ـ ولم يستقم أمر البيعة ليزيد كما يجب ـ كانت هناك جبهة شديدة للمعارضة .

وعلى الرغم من ذلك فقد بويع له بالشام وهى مقر الخلافة حينئذ . وفور توليه الخلافة كتب إلى ابن عمه الوليد بن عتبة بن أبى سفيان ـ وكان واليا على المدينة ـ يقول له بعد أن نعى إليه معاوية . .

أما بعد فخذ حسينا وعبدالله بن عمر وعبدالله بن الزبير بالبيعة أخذاً شديداً ليست فيه رخصة حتى يبايعوا والسلام .

وأرسل الوليد إلى الحسين ـ رضى الله عنه ـ فنعى إليه معاوية وأمره بالبيعة ليزيد .

فقال الحسين ـ رضى الله عنه ـ : إنا لله وإنا إليه راجعون ، ورحم الله معاوية . أما البيعة فإن مثلى لايعطى بيعته سراً ، ولا أراك تقنع بها سراً .

قال الوليد : أجل .

فقال الحسين : فإذا خرجت إلى الناس فدعوتهم إلى البيعة دعوتنا معهم فكان الأمر واحداً .[٩٤]

ويقول ابن كثير : إن الوليد حين وافاه كتاب يزيد استشار مروان فيه ، فأشار عليه بأن يدعو هؤلاء النفر الذين سماهم له يزيد ، ويعرض عليهم البيعة قبل أن يعلموا بموت معاوية ، فان أبوا ضرب أعناقهم . . فأرسل الوليد من فوره إلى الحسين وابن الزبير ـ وهما فى المسجد ـ رسولاً يقول لهما : أجيبا الأمير .

فقالا له : انصرف الآن وسنأتيه ، فلما انصرف عنهما قال الحسين لابن الزبير : إنى أرى معاوية قد هلك .

قال ابن الزبير : وأنا ماأظن غير ذلك .

ثم نهض حسين ، فأخذ معه مواليه وجاء باب الأمير فاستأذن فأذن له . فدخل وحده ، وأجلس مواليه على الباب وقال لهم : إن سمعتم أمراً

---

(٩٤) أهل البيت لمحمود الشرقاوى صـ٩١

يريبكم فادخلوا .

فسلم وجلس ومروان عنده ، فناوله الوليد الكتاب . فاسترجع الحسين وترحم على معاوية .

فعرض عليه البيعة فقال ماسبق أن ذكرناه من أنه لاينبغى أن يبايع سراً .

وكان الوليد يحب السلامة والعافية فقال له : فانصرف على اسم الله حتى تأتينا فى جماعة الناس .

فقال مروان : والله لئن فارقك ولم يبايع الساعة ليكثرن القتل بينكم وبينه ، فاحبسه ولاتخرجه حتى يبايع وإلا ضربت عنقه .

فنهض الحسين وقال : أنت تقتلنى ؟ كذبت والله وأثمت .

ثم انصرف الحسين إلى داره .

ولام مروان الوليد على تركه الحسين ينصرف ، فقال الوليد : ماأحب أن لى الدنيا ومافيها وأنى قتلت الحسين . سبحان الله . أقتل حسيناً أن قال لاأبايع ؟ والله إنى لأظن أن من يقتل الحسين يكون خفيف الميزان يوم القيامة[٩٥]

بين الحسين وابن الحنفية

وأشار محمد بن الحنفية على أخيه الحسين ـ رضى الله عنهما ـ برأى .

قال له : ياأخى أنت أعز أهل الأرض علىَّ ، وإنى ناصح لك ، لاتدخلن مصراً من هذه الأمصار ، ولكن اسكن البوادى والرمال ، وابعث إلى الناس ، فإذا بايعوك واجتمعوا عليك فادخل المصر ، وإن أبيت إلا سكنى المصر فاذهب إلى مكة ، فإن رأيت ماتحب وإلا ترفعت إلى الرمال والجبال .

---

(٩٥) البداية والنهاية جـ٨ صـ١٤٦

فقال له الحسين : جزاك الله خيراً فقد نصحت وأشفقت . . . . . وحمل حسين أهله وذويه لم يتخلف منهم أحد إلا محمد بن الحنفية ، وسار إلى مكة ، وكان ابن الزبير قد سبقه إليها . .

واجتمعا معا هناك . .

وبلغ يزيد تفريط الوليد بن عتبة فى أخذ الحسين وابن الزبير بالشدة التى طلبها منه . . . فعزله وولى مكانه عمرو بن سعيد بن العاص وكان واليا على مكة ، فاجتمعت له مكة والمدينة .

الشيعة يلتفون حول الحسين :

ونما إلى علم الناس أن الحسين رفض بيعة يزيد وأنه مقيم بمكة عائذ بالبيت ، فأقبلوا عليه يلتفون حوله . .

ولكنه لم يدعُ أحداً إلى بيعته . فإنه ما هاجر من المدينة مسقط رأسه ، وملعب أنسه ، ومثوى أمه وجده ، طلباً للدنيا ، ولكنه هاجر فراراً من الظلم ورغبة فى الأمن وأنفة من أن يساق إلى بيعة يزيد بهذه الصورة التى لا يرضاها لنفسه . وكانت هذه بداية الثورة ضد يزيد . .

لقد خرج الحسين من المدينة وهو كاره . . وقد ودَّع الروضة الشريفة وداعاً حاراً فما كان أصعب فراقها على نفسه . .

وأقبل يخاطب جده ـ رسول الله ـ ﷺ ـ وعبراته تسبقه وتسيل على خده :

بأبى أنت وأمى يا رسول الله ، لقد خرجت من جوارك كرهاً ، وكنت لا أريد أن أفارق المكان الذى أنت فيه . . ولكنى لا أستطيع أن أبايع بالطريقة التى يريدونها لى .

فهأنذا خارج من جوارك كرهاً فعليك السلام منى يا رسول الله . .

ما أشده من فراق ، وما أصعبه من وداع وما أصدقه من حزن . . ثم أخذ الحسين أهبته فى طريقه إلى مكة . .

ولقيه فى الطريق عبدالله بن مطيع القرشي . فقال له :

إنى أنصحك إذا دخلت مكة فلا تبرحن منها ، فهى حرم الله والأمان للناس ، فأقم فيها وتألف أهلها ، وخذ البيعة على كل من دخلها من الناس ، وَعِدْهم بالعدل ، وارفع الجور عنهم ، وأقم فيها خطباء تخطب وتذكر على المنابر ، وتبين شرفك وتشرح فضلك . .

وإياك أن تذكر الكوفة فإنها بلد مشئوم ، قتل فيها أبوك ، ولا تبرح من حرم الله تعالى فإن معك أهل الحجاز واليمن كلها ، وسيقدم إليك الناس من الآفاق وينصرفون إلى أمصارهم . (٩٦)

وتلقى الحسين هذه النصيحة بالقبول والاستبشار ودعا لصاحبها بخير .

وجاشت فى نفس الإمام الحسين المشاعر الحزينة ، لقد تذكر سلسلة الأحداث التى مرت عليه . من لدن وقوفه على باب عثمان ليرد عنه غوائل المهاجمين ، ويفاجأ بالثوار يتسورون الجدار من خلف فيقتلون الخليفة الذى أثنى عليه النبى ـ ﷺ ـ ثناء عاطراً فى مناسبات عدة ، ودعا له وبشره بالجنة ، وزوجه من ابنتيه ، ولقبه الناس بذى النورين . .

ثم من بعد ذلك بيعة الناس لأبيه الإمام على ونقض بعضهم بيعته ثم اعتداء الخوارج عليه واستشهاده فى المسجد وهو يوقظ الناس لأداء الصلاة ، ثم تنازل أخيه الحسن عن الخلافة طائعاً ـ رغبة فى جمع الشمل وتوحيد

---

(٩٦) الحسين بن على لمحمد قطب صـ٧٥

« الصف وحقن الدماء .. ثم وفاة الحسن بالطريقة التى ذكرناها ـ نقلا عن كثير من الروايات ـ دون أن يفصح عن اسم من دس له السم ..

ثم استخلاف معاوية ابنه يزيد وأخذه البيعة له ، ثم محاولة إجباره على مبايعة يزيد الذى يرى كثير من الناس عدم جدارته بهذا المنصب الخطير . وأن هناك من المسلمين وأصحاب رسول الله من هو أجدر منه بذلك الأمر .

ثم محاولة هذا الخليفة الجديد أن يجبره على مبايعته ، فيأمر عامله على المدينة أن يأخذه بذلك أخذاً شديداً ..

إنها سلسلة من المآسى يتبع بعضها بعضاً ، بل يأخذ بعضها برقاب بعض ، فكيف يستسيغ هذا الضيم ؟ وكيف يقبل هذا الذل ؟ ..

كيف « وهو ذو طبيعة جياشة ثائرة ، يربطها بالحق ولاء وثيق عجيب ، وتستمد من فضائل الدين العالية ومن تراث حسبه العريق زاداً لا يفنى من الصمود والمثابرة ، ولن يجد فى كيانه ذرة تصبر على رؤية من ليس أهلا للأمر يجلس حيث جلس من قبل أبوبكر وعمر وعثمان وعلى .

وإذا كانت الطبول تدق فى دمشق معلنة قيام خلافة يزيد الذى يرى الكثير من الناس أنه ليس جديراً بالخلافة فلابد أن يجد الإسلام من يدافع عنه .

ولابد أن يجد المسلمون مخرجاً لذلك .[٩٧]

ولا شك فى أن الحسين كان يرى فى نفسه أنه أحق بالخلافة من يزيد ..

---

(٩٧) أبناء الرسول فى كربلاء خالد محمد خالد صـ١٠٢

فقد توافرت فيه كل الصفات التى تؤهله لذلك ـ من النبل والشهامة والمثل العليا . .

وقد كان الحسين عابداً متفانياً فى العبادة ، مقبلاً على الله بكل كيانه ، يخشى الله ويتقيه حق تقاته . .

وكان نبيلاً شهماً ذا مروءة ووفاء ، يرعى حق اليتامى والفقراء والمساكين ، ويأخذ بيد الضعفاء والمظلومين .

والناس يعرفون تماماً أن الحسين أهل لكل فضيلة ، ولكن القدر الذى يصرفه الله حسبما يشاء يريد أمراً آخر . . . . ولله فى خلقه وأحكامه شئون .

وهكذا أخذ الناس ينظرون إلى أن فى مكة ابن بنت رسول الله ـ ﷺ ـ وقد امتنع عن بيعة يزيد . . وأخذوا يوازنون بين الرجلين . أيهما أحق بالخلافة . .

أيكون خليفة المسلمين ذلك الذى ورثه أبوه الملك دون جدارة ، ودون سابقة تشهد له بالكفاءة ؟

أم ذلك الذى شهد المسلمون جميعاً له بالصلاح والتقوى والعمل على مصلحة الإسلام والمسلمين ، ثم هو قبل كل ذلك وبعده ريحانة رسول الله ـ ﷺ ـ وحِبُّه ، وقد أخبر عنه بأنه سيد شباب أهل الجنة ؟

وكان من أكبر المناهضين ليزيد المناصرين لسبط الرسول أهل الكوفة الذين أرسلوا للحسين بن على يستقدمونه إليهم . . .

وقد أدت تلبيته لدعوتهم إلى مأساة كربلاء التى نتحدث عنها فيما يأتى : ـ

مأساة كربلاء :

استقر الحسين ـ رضى الله عنه ـ فى مكة ، ولكن رسل أهل الكوفة بدأت تتوافد إليه ، ويلح هؤلاء الرسل عليه أن يقصدهم فإنهم ناصروه ومبايعوه ولن يرضوا بغيره أميراً للمؤمنين . .

وكتبوا إليه قائلين على ألسنة زعمائهم :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، إلى الحسين بن على بن أبى طالب من سليمان بن صُرَد الخزاعى ، والمسيب بن نجيبة ، ورفاعة بن شداد البجلى ، وحبيب بن مظاهر الأسدى ومن معه من المسلمين .

سلام عليك ورحمة الله وبركاته .

فإنا نحمد الله الذى لا إله إلا هو ، ونصلى على محمد وآل محمد ، واعلم يا بن محمد المصطفى ، وابن على المرتضى أن ليس لنا إمام غيرك ، فاقدم إلينا ، لنا مالك ، وعليك ما علينا ، فلعل الله أن يجمعنا بك على الحق والهدى .

واعلم أنك تقدم على جنود مجندة وأنهار متدفقة ، وعيون جارية ، فإن لم تقدم على ذلك فابعث إلينا أحداً من أهل بيتك يحكم بيننا بحكم الله تعالى ، وسنة جدك رسول الله ، واعلم أن النعمان بن بشير فى قصر الإمارة ، ولسنا نشهد معه جمعة ولا جماعة ، ولو أنك أقبلت إلينا لكنا أخرجناه إلى الشام . . والسلام . .

وتوالت الرسل والرسائل إلى الحسين ، وكلها تلح عليه فى الإقبال على الكوفة ، فإن بها جنداً كثيفاً ينصرونه على الحق ، ويخوضون معه الحرب

ضد الباطل ، ويضربون على يد البغى ويجاهدون معه فى سبيل الله حق الجهاد .

ولم يتسرع الحسين - رضى الله عنه - فى إجابة هؤلاء القوم ، بل أخذ يفكر فى دعوتهم ، ويمعن النظر فى رسائلهم ، ويناقش رسلهم ، وقد تبين له - من حيث الظاهر - صدقهم ، وأنهم جادُّون فى أمرهم . ألم يقولوا له فى أحد كتبهم :

« أما بعد فقد اخضرت الجنان ، وأينعت الثمار ، فإذا شئت فأقدم على جند لك مجندة والسلام عليك »[٩٨] .

لقد بلغت الكتب التى أرسلت إليه والوفود التى قدمت بها نحواً من مائة وخمسين . . فماذا بقى بعد هذا الإلحاح إلا أن يستخير الله ويستجيب . ؟

ولكنه على الرغم من ذلك فقد أراد أن يرسل إليهم رسولاً من قبله يستوثق له من أمرهم ، ويكتب إليه بحقيقة ما يراه من شأنهم .

إرساله مسلم بن عقيل إلى الكوفة :

واختار ابن عمه مسلم بن عقيل فأرسله إليهم ، وكتب معه رسالة لهم يقول فيها :

« بسم الله الرحمن الرحيم . من الحسين بن على إلى الملأ من المؤمنين .

أما بعد ، فإن هانياً وسعيداً قدما إلى بكتبكم ، وكانا آخر من قدما إلىَّ من رسلكم ، وقد فهمت ما ذكرتموه أنه ليس لكم إمام غيرى ، وتسألونى القدوم إليكم ، لعل الله يجمعكم على الحق والهدى ، وإنى باعث إليكم

---

(٩٨) البداية والنهاية جـ ٨ صـ ١٥١

أخى وابن عمى - المفضل عندى من أهل بيتى - مسلم بن عقيل ، وقد أمرته أن يكتب إلىَّ بحسن رأيكم وما أنتم عليه ، وأنا أقدم إليكم إن شاء الله تعالى . »

وهذه هى الأناة المطلوبة ، والتصرف السليم . . فإن سكوته على بيعة يزيد بهذه الصورة غير مستساغة ، وإعراضه عن دعوة من يدعونه لنصرته نكوص عن الواجب ، ولكن التأنى فى الاستجابة لهذه الدعوة أمر يفرضه الحزم . وإرساله ابن عمه إلى هؤلاء القوم هو عين الصواب . ولم يبق إلا أن يستشير أخصاءه وأقرب الناس إليه ، فإنه لا خاب من استخار ولا ندم من استشار . .

وكان مسلم بن عقيل حين ذهب إلى الكوفة رأى مظهراً يشير إلى صدق هؤلاء القوم فيما يدعون إليه . فكتب إلى ابن عمه يستدعيه .

وكان عبدالله بن الزبير فى مكة ، وأشار على الحسين رضى الله عنه - أن يبقى فى مكة ولا يبارحها ، وتعهد بأن يجمع له الناس فيها ليبايعوه .

ولكن الحسين رفض ذلك قائلاً : « والله لأن أقتل خارجاً منها بشبر أحب إلىَّ من أن أقتل داخلاً منها بشبر ، وأيم الله لو كنت فى جحر هامة من هذه الهوام لاستخرجونى حتى يقضوا علىّ والله ليعتدُنَّ علىَّ فى أى مكان كان . .

لكأنه كان يستشف الغيب ، ومن يدرى فلعل الله قد ألهمه ما سيكون عليه أمره . . . . ألم تحك الروايات أن النبى - ﷺ - أخبره بمصيره وأن جبريل أتى له بتربة حمراء من تراب الأرض التى يستشهد فيها ؟ . .

أجمع الحسين أمره على الخروج إلى الكوفة ، ولكنه مع ذلك أحب أن يسمع رأى الناصحين . .

وجاءه رجل فقال له : يا ابن بنت رسول الله ، لقد بلغنى أنك تريد الكوفة ، وإنى مشفق عليك أن تأتى بلداً فيه عمال يزيد وأمراؤه ، ومعهم بيوت المال ، وإنما الناس عبيد الدرهم والدينار ، فلا آمن عليك أن يقاتلك من وعدك نصره ، ومن أنت أحب إليه ممن يقاتلك معه ، وذلك عند البذل وطمع الدنيا .

ولم يرفض الحسين - رضى الله عنه - مقالة الرجل ونصحه ، ولكنه أصغى إليه ورده أحسن رد . . . . . قال له : - جزاك الله من ناصح ، لقد تحدثت يا ابن عم بنصح ، وتكلمت بعقل ، ولم تنطق إلا عن حكمة ، وسوف يكون ما هو كائن أخذت برأيك أم تركت - مع أنك عندى أحمد مشير وأعز ناصح .

وجاء عبدالله بن عباس ، وألح على الحسين - رضى الله عنه - فى عدم الخروج - قال له : « إنى أعيذك بالله من خروجك إلى أهل الكوفة . . . . . . أخبرنى - رحمك الله - : أتسير إلى قوم قد قتلوا أميرهم وضبطوا بلادهم ونفوا عدوهم ؟؟

فإن كانوا قد فعلوا ذلك فسر إليهم .

وإن كانوا إنما دعوك إليهم وأميرهم عليهم قاهر لهم ، وعماله تجبى بلادهم ، فإنهم إنما دعوك إلى الحرب والقتال ، ولا آمن عيك أن يغروك ويكذبوك ويخالفوك ويخذلوك وأن يستنفروا إليك ويكونوا أشد الناس عيك » .

وكانت هذه نصيحة غالية صادرة من نفس مشفقة محبة صادقة . ولكن أمر الله كان قدراً مقدورا .

وعاد ابن عباس بالنصح مرة أخرى للحسين فقال له : يا بن عم إنهم أهل غدر ، وإنما يدعونك للحرب فلا تعجل ، وإن أبيت إلا محاربة هؤلاء وأردت الخروج من مكة فأشخص إلى اليمن ، فإنها فى عزلة ولك فيها أنصار وإخوان ، فأقم بها وبث دعاتك ، واكتب إلى أهل الكوفة وأنصارك بالعراق فليخرجوا أميرهم ، فإن قدرواعلى ذلك ونفوه عنها ، ولم يكن بها أحد يعاديك أتيتهم ، وما أنا لغدرهم بآمن .... وإن لم يفعلوا أقمت بمكانك إلى أن يأتى الله بأمره ، فإن فى اليمن حصوناً وشعاباً ..

فقال الحسين : يا بن عم ، إنى لأعلم أنك لى ناصح وعلى شفيق ، ولكن مسلم بن عقيل كتب إلىَّ باجتماع أهل المصر على بيعتى ونصرتى ، وقد أجمعت على المسير إليهم

قال ابن عباس : فإن أبيت إلا الخروج إلى الكوفة فلا تخرجن نساءك وولدك معك .. فوالله إنى لخائف أن تقتل كما قتل عثمان ونساؤه وولده ينظرون إليه ..[٩٩] .

وجاء أبو بكر بن الحارث بن هشام فقال له : يابن عم ، كان أبوك أقدم سابقة وأحسن فى الإسلام أثرا ، وأشد بأسا ، والناس له أرجى ومنه أسمع وعليه أجمع ... فسار إلى معاوية والناس مجتمعون عليه إلا أهل الشام ، وهو أعز منه ، فخذلوه وتثاقلوا عنه ،حرصاً على الدنياوضناً بها ، فجرعوه

---

(٩٩) مروج الذهب للمسعودى جـ٢ صـ٤٢ ط التحرير

الغيظ ، وخالفوه ، حتى صار إلى ما صار إليه من كرامة الله ورضوانه .

ثم صنعوا بأخيك بعد أبيك ماصنعوا ، وقد شهدت ذلك كله ورأيته ثم أنت تسير إلى الذين عَدَوْا على أبيك وأخيك تقاتل بهم أهل الشام ، وأهل العراق ، ومن أكثر عدة منك وأقوى ، والناس منه أخوف وله أرجى .

فلو بلغهم مسيرك إليهم لا ستطغوا الناس بالأموال ، وأكثر الناس عبيد الدنيا ، فيقاتلك من وعدك أن ينصرك ، ويخذلك من أنت أحب إليه ممن ينصره ، فاذكر الله فى نفسك .

فقال الحسين : جزاك الله خيرا يابن عم ، فقد أجهدك رأيك ومهما يقض الله يكن .(١٠٠)

لقد وطد الحسين ـ رضى الله عنه ـ عزمه ، وأجمع أمره . . وقد أدرك أن هؤلاء القوم لم يكذبوه النصيحة ـ ولكنه أدرك أن خصومه لن يتركوه على أى حال ومن أجل ذلك كان قراره بالخروج

فلأن يموت ثائراً ـ هو خير له من أن يموت محاصَراً ، ولأن يموت بعيدا عن مكة ملبيا دعوة من دعاه ، أحب إليه من أن يموت متخاذلا فى مكة حرم الله .

ومضى الحسين ـ رضى الله عنه ـ فى طريقه إلى الكوفة .

ولقيه فى الطريق عبد الله بن مطيع الذى كان قد أشار عليه قبل ذلك ألا يبرح مكة ، فقال له : ألم أتقدم إليك بالقول ؟

ألم أنهك عن المسير إلى هذا الوجه ؟

---

(١٠٠) المرجع السابق

اذكر الله ـ تعالى ـ فى حرمة الإسلام أن تُنتهك ، أنشدك الله ـ تعالى ـ فى حرمة قريش وذمة العرب ، والله لئن طلبت ما فى يد خصومك ليقتلنك ، وإن قتلوك لا يهابون بعدك أحداً أبداً ـ والله إنها لحرمة الإسلام ، وحرمة قريش وحرمة العرب ، فالله الله لا تفعل ، ولاتأت الكوفة ، ولا تعرض نفسك لخصومك .(١٠١)

وشكر الحسين لعبد الله بن مطيع نصيحته ، ودعا له ، وقال له : إنى رأيت رؤيا وأُمرت فيها بأمر أنا ماض له ، علىَّ كان أوْلِيَ . .

ولم يعلم عبد الله بن عمر بخروج الحسين إلا بعد أن جاوز مكة ، فركب راحلته وحث السير وراءه حتى أدركه على بعد ثلاثة أيام .

وقال له : أين تريد ؟

فقال له الحسين ـ رضى الله عنه ـ أريد الكوفة ، هذه كتب أهلها وبيعتهم .

فقال له ابن عمر ـ إنى محدثك حديثا : إن جبريل أتى النبى ـ ﷺ ـ فخيره بين الدنيا والآخرة ، فاختار الآخرة ولم يرد الدنيا ، وإنك بضعة من رسول الله ـ ﷺ ـ ، والله ما يليها أحد منكم أبدا ، وما صرفها الله عنكم إلا للذى هو خير لكم .

ولكن الحسين مع ذلك لم ينقض عزمه ، وأصر على المضى .

فضمه ابن عمر إلى صدره وقبَّله ، وقال له وهو يبكى : أستودعك الله من قتيل .

---

(١٠١) الحسين بن على ـ محمد على قطب صـ ٩٨

كل هذه المحاولات ـ على الرغم من صدقها ، وعلم الحسين ـ رضى الله عنه ـ بصدقها ـ لم تثنه عن طريقه ، ولم ترجعه عن عزمه .

« ذلك أن القضية التى خرج الحسين حاملا لواءها لم تكن من وجهة نظره قضية شخصية تتعلق بحقه فى الخلافة ، أو ترجع إلى عداوة شخصية يضمرها ليزيد ، كما أنها لم تكن قضية طموح يستحوذ على صاحبه ويدفعه إلى المغامرة التى يستوى فيها احتمال الربح والخسران .

كانت القضية عنده أجل وأسمى وأعظم .

كانت قضية الإسلام ومصيره والمسلمين ومصيرهم .

وإذا صمت المسلمون جميعهم تجاه هذا الأمر الذى أنكره البعض بلسانهم وأنكره آخرون بقلوبهم ، فمعنى ذلك أن الإسلام قد كف عن إنجاب الرجال . وأن مصير الإسلام والمسلمين قد أمسى معلقا بالقوة ، فمن غلب ركب ، ولم يعد للقرآن ولا للحقيقة سلطان .

« هذه هى القضية التى هيمنت على الحسين . وبهذا المنطق أصر على الخروج »(١٠٢)

لقد أدرك الحسين أن خصومه لن يتركوه فى مكة ، فخشى أن تستباح مكة وهى البلد الحرام الآمن بسببه . . فآثر أن يخرج حتى إذا قضى الله أمراً فيه ، كان بعيداً عنها ـ وكان قوله فى ذلك : لأن أقتل خارجاً منها بشبر أحب إلىّ أن أقتل داخلا منها بشبر . .

ولقد صدق ظن الحسين فى عدم تورع الخصوم من استباحة الحرم

---

(١٠٢) أبناء الرسول فى كربلاء خالد محمد خالد صـ ١٢٢

الأمن ، فقد استباحوها بعد مصرع الحسين بقليل ولم يتورعوا عن حصار ابن الزبير فى الكعبة وضربها بالمنجنيق ..

مسلم بن عقيل فى الكوفة

ولنعد إلى الوراء قليلا لنعرف ماذا صنع مسلم بن عقيل فى الكوفة ـ وقد سبق أن عرفنا أنه أرسل كتابا للحسين ـ رضى الله عنه ـ يستدعيه ويخبره بصدق أهل الكوفة فى طلبهم له ..

لقد توجه مسلم بن عقيل إلى الكوفة يحمل كتاب الحسين ـ رضى الله عنه ـ إلى أهلها ، وكان معه دليلان يدلانه على الطريق ، فمات الدليلان عطشا ، وتطيَّر مسلم من مسيرته ، ولكنه مضى لوجهه حتى وصل الكوفة بعد مشقة شديدة ، ونزل على رجل من شيعة أهل البيت اسمه « سليمان بن صرد » .....

وكان الأمير على الكوفة من قبل يزيد هو النعمان بن بشير .

ووصل مسلم إلى الكوفة ليلا ، فما أن اصبح الصبح حتى كان الناس قد تهامسوا بقدومه ، وأقبلوا عليه يبايعونه حتى بلغ عدد المبايعين له اثنى عشر ألفا ـ بل قيل : أكثر كثيرا من ذلك ، وكان النعمان بن بشير رجلا ذا مروءة ودين ، ولا يحب سفك الدماء ، ولم يقف من أمر مبايعة الناس لمسلم بن عقيل ـ رسول الحسين ـ موقفا حاسما ..

فسعى رجل إلى يزيد فأبلغه الخبر .

فكتب يزيد إلى عبيد الله بن زياد واليه على البصرة أن يتولى أمر الكوفة أيضا وقال له فى كتابه : أما بعد ، فقد بلغنى أن أهل الكوفة قد اجتمعوا على البيعة للحسين ، وقد كتبت إليك كتابا ، فإنى لا أجد سهما أرمى به

عدوى أجرأ منك وقد عزلت النعمان بن بشير عن الكوفة ، ووليتك عليها فإذا قرأت كتابى فارتحل من وقتك وساعتك ، وإياك والتوانى واجتهد ولا تبق من خصومنا أحدا ، واطلب مسلم بن عقيل فاقتله ، وابعث إلىَّ برأسه والسلام .

ولجأ عبيد الله بن زياد إلى خطة ليستطيع الدخول إلى الكوفة . فقد ركب إلى الكوفة فى أهله وحشمه وعليه عمامة سوداء قد تلثم بها وهو راكب بغلة وكان الناس فى الكوفة يتوقعون قدوم الحسين ، فجعل ابن زياد يسلم على الناس وهم يظنونه الحسين فيقولون : وعليك السلام يابن رسول الله ، قدمت خير مقدم ، حتى وصل إلى قصر النعمان بن بشير فتحصن النعمان فى القصر وأشرف عليه وخاطبه ـ وهو يظنه الحسين ـ يابن رسول الله مالى وأنت ؟ وماحملك على قصد بلدى من بين البلدان ؟

فحسر ابن زياد اللثام عن وجهه وقال : لقد طال نومك يانعيم ؟
فعرفه النعمان ، ففتح له القصر ، وتنادى الناس : ابن مرجانة وحصبوه بالحصباء ، ففاتهم ودخل القصر . .

وعرف النعمان أنه عُزِل وأن عبيد الله هو أمير الكوفة منذ الآن . . . ضمها إليه يزيد مع البصرة ـ فترك له الأمر . .

وخطب ابن زياد فى أهل الكوفة ينذرهم ويتوعدهم إن خلعوا بيعة يزيد ، وهددهم بقتل رجالهم وسبى نسائهم . .

فأخذ الناس يتسللون لواذا قائلين : ما لنا والدخول بين السلاطين ؟
وشدد ابن زياد قبضته على رؤساء الشيعة ، وقتل هانىء بن عروة المرادى الذى كان يركب فى أربعة آلاف دارع وثمانية آلاف راجل ، فتخاذل الناس

من حول مسلم وتركوه حتى بقى وحده . . فخرج متخفيا فى طرقات الكوفة لا يجد مأوى يأوى إليه حتى وقف على باب بيت لمولاة الأشعث بن قيس فاستسقاها ماء فسقته ورقت له ، فأعلمها بحاله فآوته ، ولكن ابنا لها دل ابن زياد عليه ، فجاء جيش عرمرم كثيف وأحاط بالبيت ، فخرج إليهم مسلم وهو مصلت سيفه فقاتلهم وحده قتالا عنيفا ، وجعل يرتجز قائلاً : ـ

أقسم لا أقتل إلا حراً ... وإن رأيت الموت شيئاً مرًّا
كل امرىء يوماً ملاق شرا ... أخاف أن أكذب أو أغرَّا

وظل يقاتل أعداءه ـ وقد أبلى بلاء حسنا حتى انتهى الأمر بأن تكاثروا عليه وأعطوه الأمان ، ثم قتلوه غدرا وألقوا برأسه من أعلى القصر ، ثم أتبعوا الرأس الجسد ـ وفى مقتل كل من هانىء بن عروة ومسلم بن عقيل قال الشاعر يرثيهما :

إذا كنت لا تدرين ما الموت فانظرى ... إلى هانىء فى السوق وابن عقيل
إلى بطل قد هشم السيف وجهه ... وآخر يهوى فى طمار قتيل
أصابهما أمر الأمير فأصبحا ... أحاديث من يسعى بكل سبيل[103]

محاولة مسلم إنذار الحسين

وحاول مسلم بن عقيل أن يجد شخصا من هؤلاء الآلاف الذين بايعوه كى يحمّله رسالة إلى الحسين يطلب إليه فيها ألا يقدم إلى الكوفة . . . فلم يجد أحدا . . ذلك لأنه كان قد كتب إليه قبل ذلك أن يقدم بعد أن بايعوه ، ورأى من مظهرهم مدى حبهم وولائهم لأهل البيت ، ولم يدر أن

---

(١٠٣) مروج الذهب جـ ٢ صـ ٤٥

الجبن هو ما يستقر فى وجدانهم ، وأنهم شجعان عند الأمان ، فإذا جد الجد فإن التخاذل والنكوص على الأدبار هو خير شعار . .

لقد كانت الصورة التى لقى بها مسلم بن عقيل مصرعه غاية فى الفظاعة والتشفى والانتقام ، ورسم ذلك لأهل الكوفة مثلاً يتخذه بعض الحكام لتأديب رعاياهم وإخماد أنفاسهم ، وسلب حرية التفكير من نفوسهم إن حاولوا التعبير عما يجول بخواطرهم ، أوبث شكواهم أو إظهار نجواهم .

لقد أحاطت بابن زياد جماعة أعانته على بلوغ غايته فسفك الكثير من الدماء ، وقتل الشرفاء تثبيتا لسلطان الخلافة ـ ولم يراع فى سبيل ذلك عهداً ولا ذمة ولا رحمة ـ بل كان الهدف هو القضاء على كل من يحاول أن يعترض أو يخالف

ومن المؤسف أن يكون من بين هؤلاء القاتلين والمقتولين أبناء صحابة أجلاء . . إنها الفتنة التى يغذيها الشيطان بين الحين والحين ليضرب بها وحدة الإسلام والمسلمين .

لقد نظر مسلم بن عقيل فى لحظاته الأخيرة وهو مكبل بالحديد ، ومجرد من سلاحه ، ومسوق إلى القتل ـ إلى عمر بن سعد بن أبى وقاص ـ وكان فى الجانب المعادى له ، ولكنه توسم فيه خيراً فهو ابن صحابى جليل مبشر بالجنة ـ هو سعد بن أبى وقاص ـ فدعاه إليه وقال له : يا عمر ، إن بينى وبينك قرابة ، ولى إليك حاجة وهى سر ، فقم معى إلى ناحية حتى أقولها لك .

فلم يقم عمر من مكانه حتى أذن له ابن زياد .

فقال له مسلم : إن علىّ فى الكوفة دينا قيمته سبعمائة درهم فاقضها عنى

وعندما أقتل لا تجعل أحداً يمثل بى بل عليك أن تواريني التراب وابعث إلى الحسين ، فإنى كنت قد كتبت إليه أن الناس معه ولا أراه إلا مقبلا .

ولم يكتم عمر هذه الوصية وكان بوسعه أن يكتمها دون أن يجد من يلومه على ذلك .

ولكنه أفضى بما أسره إليه مسلم إلى قائده بن زياد . . ولكن ابن زياد على الرغم من شدته لم يرتض من عمر إفشاء هذا السر وقال له : قبحك الله من مستودع سراً ، والله لو أنه باح لى بسره لكتمت عليه وقضيت حاجته .

. . . ثم قال له أما مالك ياعمر فهو لك ولسنا نمنعك أن تصنع فيه ما تشاء ، وأما حسين فإن لم يردنا لم نرده ، وإن أرادنا لم نكف عنه .

ثم أضاف ابن زياد قائلاً : أما وقد أفشيت السر يا عمر فلن يخرج لحرب الحسين إلا أنت .

وقال مسلم بن عقيل وهو يساق إلى الموت :

جزى الله عنا قومنا شر ما جزى	شرار الموالى بل أعق وأظلما
هـو منعـونا حقنـا وتظاهـروا	علينا وراحوا أن نـذل ونرغما
أغاروا علينا يسفكون دماءنا	ولم يرقبوا فينا ذماما ولا دما
فنحن بنو المختار لا خلق مثلنا	نبى أبت أركانه أن تهدما[١٠٤]

قال ابن كثير : كان عمر بن سعد يحب الإمارة . . وفى الفتنة التى جرت قبل ذلك حاول أن يحمل أباه على أن يشترك فى القتال الدائر بين على

---

(١٠٤) الحسين بن على صـ ١٢٧

ومعاوية قائلا له : يا أبى ، قد بلغت ما كان من الناس بصفين وقد حكم الناس أبا موسى الأشعرى وعمرو بن العاص ، وقد شهدهم نفر من قريش فاشهدهم فإنك صاحب رسول الله ـ ﷺ ـ وأحد أصحاب الشورى ، ولم تدخل فى شىء كرهته هذه الأمة ، فاذهب إلى هناك فإنك أحق الناس بالخلافة . . . ولكن سعدا ـ رضى الله عنه ـ أبى إباء شديداً ورفض ذلك . . واستعان عمر بأخيه عامر ليقنع أباه ، فقال له : يا أبه الناس يقاتلون على الخلافة وأنت هنا ؟

فقال له : يا بنى ، أفى الفتنة تأمرنى أن أكون رأسا ؟ ورفض أن يذهب . . . قال ابن كثير : وكان عمر بن سعد يحب الإمارة . . . ولم يزل هذا دأبه حتى كان هو أمير السرية التى قتلت الحسين بن على ـ رضى الله عنه ـ[١٠٥]

ولم يدر الحسين ما حدث لابن عمه مسلم بن عقيل فى الكوفة ، وقد كان فى طريقه إليه تلبية للرسالة التى كان قد كتبها مسلم إليه يستدعيه فيها ويذكر له إجماع أهل الكوفة على بيعته وانتظارهم لمقدمه . .

فى الطريق إلى الكوفة

وفى الطريق إلى الكوفة لقى الحسين الفرزدق الشاعر راجعا منها ، فسأله الحسين ـ رضى الله عنه ـ : كيف تركت الناس وراءك ؟

فأجابه الفرزدق : تركتهم قلوبهم معك وسيوفهم مع خصومك كلمة صدق تعبر عن الواقع المرير . .

---

(١٠٥) البداية والنهاية جـ ٧ صـ ٢٨٣

لقد جاء الزمن الذى لا يستطيع الناس فيه أن يكونوا صادقين مع أنفسهم . ولقد تحققت الكلمة التى قالها الناصحون للحسين ـ رضى الله عنه ـ حين قالوا له : لا يبعد أن يقاتلك من وعدك بالنصر ويخذلك من أنت أحب إليه ممن ينصره .

ولم يزد الحسين على أن قال جوابا لكلام الفرزدق « لله الأمر من قبل ومن بعد »

إنه استسلام لقضاء الله وقدره . .

واستمر الحسين فى مسيرته إلى الكوفة وفى الطريق لقيه رجل من بنى أسد وكان قادما من الكوفة فسأله الحسين أيضا عن أخبارها . فأخبره بمقتل مسلم بن عقيل وهانىء بن عروة . .

وهذان الخبران كفيلان بأن يجعلا الجبال تتزلزل فى موقعها ، ولكنهما لم يزيدا الحسين ـ رضى الله عنه ـ إلا تصميما على موقفه ، وقال ما أدب الله به عباده المؤمنين : « إنا لله وإنا إليه راجعون » ثم أتبعه بقوله : عند الله نحتسب أنفسنا ، لا خير فى العيش بعد هؤلاء . .

رسول من مسلم للحسين

وكان محمد بن الأشعث قد استيقظ ضميره بعد أن كان سببا فى خذلان مسلم ، فقد أمنه ثم تخلى عنه حتى حدث ما حدث من تداعيات هذا الموقف الذى أدى إلى مصرع مسلم بهذه الصورة البشعة .

وفى اللحظات الأخيرة قال مسلم لابن الأشعث ؛ هل عندك من خير فقال ابن الأشعث : ما تريد ؟

قال مسلم : أن تبعث . رجلا على لسانى يبلغ حسينا عنى رسالة ؟ فإنى لا أراه إلا قد خرج إليكم اليوم أو غدا هو وأهل بيته ، وإن ما تراه من جزعى لذلك . .

قل له : يقول لك مسلم بن عقيل : ارجع بأهلك ولا يغرنك أهل الكوفة فإنهم أصحاب أبيك الذين كان يتمنى فراقهم بالموت أو القتل ، وإنهم قد كذبوك وكذبونى وليس لكاذب رأى . .

وصدق ابن الأشعث فأرسل إياس بن العباس الطائى ـ وكان شاعراً ـ بهذه الرسالة الشفوية من مسلم إلى الحسين .

ولقى هذا الشاعر الحسين بموضع اسمه « زبالة » على أربع ليال من الكوفة فبث إليه الخبر .

فقال الحسين ـ رضى الله عنه ـ فى حزن ويقين : كل ما حم نازل ـ عند الله نحتسب أنفسنا . . . .

رسالة من الحسين إلى أهل الكوفة

وأرسل الحسين إلى أهل الكوفة كتابا مع شخص من أتباعه اسمه قيس ابن مسهر الصيداوى ، يقول فيه : « بسم الله الرحمن الرحيم ، من الحسين بن على إلى إخوانه من المؤمنين والمسلمين ، سلام عليكم ، فإنى أحمد الله الذى لا إله إلا هو .

أما بعد فإن كتاب مسلم بن عقيل كان قد جاءنى يخبرنى فيه بحسن رأيكم واجتماع . ملئكم على نصرنا والطلب بحقنا ، فنسأل الله أن يحسن لنا الصنيع ، وأن يثيبكم على ذلك أعظم الأجر ، وقد شخصت إليكم من

مكة يوم الثلاثاء لثمان مضين من ذى الحجة يوم التروية ، فإذا قدم عليكم رسولى فاكتموا أمركم ، وجدوا فإنى قادم عليكم فى أيامى هذه إن شاء الله ـ تعالى ـ والسلام » .

ووقع الرسول فى قبضة عبيدالله بن زياد ، وأمره ابن زياد أن يصعد إلى أعلى القصر ويهاجم الحسين ويدعو الناس إلى عدم تأييده . . . .

ولكن هذا الرسول كان من المخلصين للحسين فلم يخش المصير السىء الذى يوشك أن يتردى فيه على يد خصوم الحسين ، وأظهر الموافقة على مايريد عبيدالله منه ، وما أن اعتلى القصر ونظر إلى الجموع الغفيرة التى يغص بها الميدان الذى يتوسطه قصر الإمارة ـ وقد كانت هذه الجموع قبل أن يأتى ابن زياد تهتف باسم الحسين وتنتظر مقدمه ، فاذا بها بين عشية وضحاها قد تحولت عن هذا الموقف وأيدت عبيدالله وتبرأت من الحسين وزعمت أنها كانت مضللة بزعمائها ـ

نظر قيس بن مسهر الصيداوى رسول الحسين إلى هذه الجموع ، ثم صاح بأعلى صوته : « أيها الناس ، إن الحسين بن على من خير خلق الله ، فأجيبوه وانصروه ولا تطيعوا عبيدالله والعنوه وخالفوه وكذبوه ، فشتان بينه وبين الحسين »(١٠٦)

وامتلأ عبيدالله غيظاً من هذه الكلمة التى هى أقوى من مئات الخطب التى يقولها كل يوم للناس يخوفهم بها ويحذرهم وينذرهم . .

---

(١٠٦) البداية والنهاية لابن كثير جـ ٨ صـ ١٦٨ بتصرف

كلمات قلائل ، ولكنها أوجزت الموقف تماماً ، ووازنت بين الرجلين تمام الموازنة وبينت فضل الحسين على غيره . . وكيف لايكون كذلك وهو سبط الرسول - صلى الله عليه وسلم - وابن على بن أبى طالب وفاطمة بنت الرسول - صلى الله عليه وسلم - وسيدة نساء أهل الجنة ؟ كيف يتخلى عنه هؤلاء الناس ويسلمونه لخصمه عبيدالله بن زياد

وجن جنون ابن زياد وأمر بإلقائه من فوق القصر ، فألقى ، فتقطعت أوصاله وتكسرت عظامه ، فقام إليه عبدالملك بن عمير البجلى ، فقتله . . وقال : إنما أردت أن أخفف آلامه . .

وتقدم الحسين - رضى الله عنه - نحو الكوفة وهو لايعلم بمصير رسوله قيس . .

وألقى الحسين رجاله فى مكان يسمى « زرود » وهناك سمع بمصرع قيس . .

لقد عرف الحسين الآن أنه لافائدة فى الكوفة ، وأن مسيرته إليها كانت مجازفة ، وأن أهلها هم أهلها الذين تبرم بهم أبوه ولم يثق بهم أخوه ، وكان فى إمكانه أن يعود لولا أن ابن زياد قد ضيَّق عليه الخناق ، وبث حوله العيون والأرصاد ، وصمم على اقتناصه بأى وسيلة .

وماكان الحسين ليفر من ميدان ، فأسلم أمره إلى الله . . . . ولكنه أراد ألا يغرر بمن تبعه من الناس ، فتوجه إليهم قائلاً : أيها الناس ، لقد خذلتنا شيعتنا ، فمن أحب منكم الانصراف فلينصرف من غير حرج عليه ، وليس عليه منا ذمام .

فتفرق الناس عنه أيدى سبأ - يميناً وشمالاً - حتى لم يبق معه سوى

أصحابه الذين جاءوا معه من مكة وأهله .

قال محمد بن سعد فى سند له : حدثنى من شافه الحسين قال : رأيت أخبية مضروبة بفلاة من الأرض فقلت : لمن هذه ؟ قالوا : هذه لحسين .

قال : فأتيته فإذا شيخ يقرأ القرآن والدموع تسيل على خديه ولحيته . قال ـ قلت : بأبى أنت وأمى يابن بنت رسول الله ، ماأنزلك هذه البلاد والفلاة التى ليس بها أحد ؟

فقال : هذه كتب أهل الكوفة إلىَّ ، ولا أراهم إلا قاتلى ، فإذا فعلوا ذلك لم يَدَعوا لله حرمة إلا انتهكوها ، فيسلط الله عليهم من يذلهم حتى يكونوا أذل هذه الأمة . . .

قال ابن سعد : وأخبرنا على بن محمد عن الحسين بن دينار عن معاوية ابن قرة قال : قال الحسين : والله لتعتدنَّ علىَّ كما اعتدت بنو إسرائيل فى السبت .

وقال جعفر بن سليمان الضبعى : قال الحسين : والله لايَدَعُونى حتى يستخرجوا هذه العلقة من جوفى ، فاذا فعلوا ذلك سلط الله عليه من يذلهم حتى يكونوا أذل هذه الأمة . .

لقد صمم الحسين على الاستشهاد فى سبيل قضيته بعد أن تبين له أن القوم غير تاركيه ، وأن أشياعه غير ناصريه . .

لم يبق بدٌّ من المضى فى طريق القتال وليكن مايكون ، أما أن يفر فهذا مالايمكن أن يكون . .

إلا أن المضى إلى القتال قضيته وحدَه لاينبغى أن يزج فيها بأحد من أولئك الذين تبعوه أو ساروا معه نحو الكوفة ، وهم لايحسبون أن الأمر

سينتهى بهذه الصورة المأسوية ، فعزم عليهم أن يعودوا . . وأبرأ ذمته منهم ، ويبقى وحده ومعه أهله وخاصته .

ومضى الحسين فى طريقه حتى وصل إلى كربلاء ـ وسأل عن اسم المكان ـ فقيل له : كربلاء ـ فقال : كرب وبلاء . .

والتقى الحسين قبل أن يصل إلى هذا المكان بكتيبة لابن زياد عليها الحر بن زيد التميمى ، فلما رآهم الحسين قادمين نحوه يتصببون عرقاً من شدة الحر وقد يبست شفاههم من العطش أمر فتيانه أن يستقبلوهم بالماء فشربوا حتى رووا . .

لقد بدأ الحسين بالذى هو أولى به من إحسان ومعروف ، ولم يقبض يده عما تعودته من البذل والإيثار . . . فقدم مالديه من ماء لهؤلاء القوم الذين جاءوا يقاتلونه ويفرضون عليه الاستسلام لابن زياد .

وحانت صلاة الظهر ، فأمر الحسين مؤذنه فأذن . .

ثم خطب الناس قائلاً : أيها الناس ، إنى لم آتكم حتى أتتنى كتبكم ورسلكم أن أقدم علينا فليس لنا إمام لعل الله يجمعنا بك على الهدى والحق ، وقد جئتكم ، فإن تعطونى ماأطمئن إليه من عهودكم ومواثيقكم أقدم مصركم ، وإن لم تفعلوا أو كنتم لقدومى كارهين انصرفت عنكم إلى المكان الذى أقبلت منه .

فلم يجبه أحد .

فقال للمؤذن : أقم الصلاة .

وسأل الحسين الحر بن زيد : أتريد أن تصلى أنت بأصحابك وأصلى بأصحابى ؟

فقال الحر : بل نصلي جميعاً بصلاتك .[107]

فصلى بهم الحسين - رضى الله عنه -

ولازم جيش الحر الحسين بن علي ، وأصروا على أن يأخذوه إلى ابن زياد ، وأن يصدوه عن وجهته . . .

ولكن الحسين أبى أن يستجيب لما أراده الحر منه ، وهو المضى معه إلى أمير الكوفة .

فقال الحسين : والله لاأتبعك .

فأجاب الحر : وأنا والله لاأدعك .

فقال الحسين : إنها الحرب إذن ؟

فلانت عريكة الحر وقال للحسين : إنى والله لاأريد قتالك ولم أومر به ، وإنى لأرجو الله أن يرزقنى فيك العافية ، لاأبتلى بشيء من أمرك ، ولقد أمرت إن أنا لقيتك ألا أفارقك حتى أخبر الأمير ابن زياد ، فإن رأيت فاتخذ طريقاً لاتدخلك الكوفة ولاتردك عنها حتى يأتينا رأى الأمير .

ومضى ركب الإمام الحسين ، يضرب فى تلك الرقعة يميناً ويساراً وفرسان الحر بإزائه حتى وافت رسالة ابن زياد للحر تقول له :

أما بعد ، فشدد على الحسين فى المكان الذى يوافيك عنده كتابى ، ولا تنزله إلا بالعراء فى غير حصن وعلى غير ماء ، وقد أمرت رسولى ألا يفارقك حتى يأتينى بإنفاذ أمرى . . والسلام .

وخشى الحر من عيون الرقيب ، فأصر على تنفيذ أوامر ابن زياد ، فمنع

---

(١٠٧) الحسين أبوالشهداء للعقاد صـ٧٤

الحسين أن يتقدم بأهله وذويه إلى مسيل ماء هناك . واضطره إلى النزول فى المكان الذى هو فيه ، وكان اسمه كربلاء . .

فى كربلاء

واسترجع الحسين ذكرياته ، فإذا به يتذكر أن أباه فى أثناء طريقه إلى صفين مر بهذا المكان فوقف فيه وقال : هنا محط رحالهم ومهراق دمائهم .

تذكر الحسين ـ رضى الله عنه ـ ذلك ، فارتسمت الصورة كاملة أمامه ، وأدرك أن القضاء قد حم ، وأن القدر لابد أن ينفذ بما هو مسطور ، ومرت على خاطره الآية الكريمة

﴿ ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّن بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَائِفَةً مِّنكُمْ ۖ وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ ۖ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ الْأَمْرِ مِن شَيْءٍ ۗ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ ۗ يُخْفُونَ فِي أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ ۖ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَاهُنَا ۗ قُل لَّوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ ۖ وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿١٥٤﴾ ﴾ (١٠٨)

وكأن ذلك قد أثلج صدره ، فقد عرف النهاية ، فلا داعى للتردد . . . .
وقد يئس من أن يجد خيراً عند هؤلاء القوم ، واليأس إحدى الراحتين على أى حال .

وقام من معه يشدون الخيام ، فقد آن لهم أن يستريحوا بعض الوقت من

---

(١٠٨) آل عمران ١٥٤

عناء التجوال ومشقة السفرو ووعثاء الطريق، وأخذ يتلو قوله ـ تعالى ـ

﴿ إِنَّ وَلِـِّۧيَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلۡكِتَٰبَۖ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ ١٩٦ ﴾[(١٠٩)]

ولم يكتف ابن زياد بكتيبة الحر بن زيد ـ مع أن فيها كفاء للقتال ، إنها مكونة من ألف فارس ، والحسين ومن معه لايجاوزون المائة ـ ولكن ابن زياد كان يقدر شجاعة الحسين ويعرف أنه كفء لعشرات بل لمئات الجنود ، كما كان يقدر قوة رجال الحربن زيد ويعرف أنهم لايستطيعون الوقوف أمام القوة المعنوية التي يحصن بها الحسين ومن معه ، فدفع بآلاف أخرى تحت قيادة عمر بن سعد ، وانضم الجيشان جيش الحر وجيش عمر ، وأخذ القائدان يحاوران الحسين ويناورانه ، وأنباء ذلك تصل إلى ابن زياد . . .

وكان الحسين فى أثناء المحاورة قد قال لعمر بن سعد :

اختر بين إحدى ثلاث خصال ، إما أن تتركنى أرجع كما جئت ، فإن أبيت هذه فسيرنى إلى الخليفة يزيد فأضع يدى فى يده فيحكم فىَّ مايرى ، فإن أبيت هذه فسيرنى إلى الترك فأقاتلهم حتى أموت . .

وأرسل عمر إلى ابن زياد بذلك .

وربما مال ابن زياد إلى خصلة تسييره إلى يزيد ،ولو فعل لكان ذا رأى موفق ، وقد هم بذلك ، ولكن مستشاره شمر بن ذى الجوشن منعه من ذلك ، وقال له : لا ـ إلا أن ينزل على حكمك . .

فكتب ابن زياد كتاباً وأعطاه لشمر قال فيه لعمر بن سعد : أما بعد فإنى لم أبعثك إلى حسين لتكف عنه ، ولا لتطاوله ، ولا لتمنيه السلامة والبقاء ،

---

(١٠٩) الأعراف ١٩٦

ولاتقعد له عندى شافعاً ، انظر فإن نزل حسين وأصحابه على الحكم واستسلموا ، فابعث بهم إلىَّ سِلْما . وإن أبوا فازحف إليهم حتى تقتلهم وتمثل بهم ، فإنهم لذلك مستحقون لأنهم عاقون شاقون .

ياسبحان الله . الحسين عاق شاق ظلوم ؟

لقد كان القوم مصرين على منازلة الحسين وأصحابه ، غير قابلين منه خطة الرشد التى عرضها عليهم . ولقد ضيقوا عليه الخناق حتى أضجروه . . على أن رَفْضَهم كل ماعرضه الحسين مع مافيه من إنصاف أحنق بعض أنصار ابن زياد ، فقد كان مع عمر بن سعد قريب من ثلاثين رجلا من أعيان الكوفة ، فقالوا له : يعرض عليكم ابن بنت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ثلاث خصال فلا تقبلوا منه شيئا ؟ . . . ثم تحولوا مع الحسين يقاتلون معه . (١١٠)

ولم يقف الأمر عند هذا الحد ، بل إن الحر بن زيد نفسه أنف أن يقف فى المعسكر المعادى للحسين وانضم إليه .

فقد قال أبو زرعة : حدثنا سعيد بن سليمان ، ثنا عباد بن العوام عن حصين قال : حدثنى هلال بن يساف أن ابن زياد أمر الناس أن يأخذوا مابين واقصة إلى طريق الشام إلى طريق البصرة حفظاً - فلا يدعون أحداً يلج ولا أحداً يخرج ، وأقبل الحسين ولا يشعر بشىء ، حتى أتى الأعراب فسألهم عن الناس فقالوا : والله ماندرى غير أنك لاتستطيع أن تلج ولاتخرج .

---

(١١٠) البداية والنهاية جـ٨ صـ١٧٠

-ومعنى ذلك أنه أصبح محاصراً فى مكانه الضيق-

قال : فانطلق يسير نحو يزيد بن معاوية ، فتلقته الخيول بكربلاء فنزل يناشدهم الله والإسلام .

قال : وكان ابن زياد قد بعث إليه عمر بن سعد وشمر بن ذى الجوشن وحصين بن نمير ، فناشدهم الله والإسلام أن يسيروه إلى أمير المؤمنين يزيد فيضع يده فى يده فقالوا : لا - إلا أن تنزل على حكم ابن زياد ، وكان فى جملة من معهم الحر بن يزيد الحنظلى - على خيل - فلما سمع مايقول الحسين ، قال لهم : الا تتقون الله ؟ الا تقبلون من هؤلاء مايعرضون عليكم ؟ والله لو سألتكم الترك والديلم ماحل لكم أن تردوهم .

فأبوا إلا حكم ابن زياد .

فضرب الحر وجه فرسه وانطلق إلى الحسين ، فظنوا أنه جاء ليقاتلهم فلما دنا منهم قلب ترسه وسلم عليهم ، ثم كر على أصحاب ابن زياد فقتل منهم رجلين ، ثم قتل - رحمه الله -(١١١)

لابد مما ليس منه بد

لقد استبان للحسين - رضى الله عنه - أن القوم مصممون على نزاله مالم يرض النزول على حكم ابن زياد ، وأنى له أن يقبل ذلك ؟ إن الموت أشرف من هذا وأعظم ، وصمم على مجابهة القوم وليكن مايكون .

لقد أصبح قائد الأعداء شمر بن ذى الجوشن ، وقد امتلأ قلبه حقداً على الحسين ومن معه ، لا لسبب يعرف إلا كراهة الشرف . فلم يُذْكَر عن

---

(١١١) المرجع السابق

الحسين أنه أساء إليه أو قدم له أذى فى يوم ما . . وقد طبع الحسين على الكرم وحسن العشرة والصفح والمروءة وتعشق المثل العليا ، ولكن قوماً غرس الله فى طباعهم كراهة الفضائل وأصحابها ، وحبب إليهم العيش على انتقاص الناس وإيذائهم وتبييت الشر لهم دون سبب ، إن مثلهم فى ذلك مثل الحشرات التى لاتعيش إلا فى الأوحال ولا تتغذى إلا على الفضلات . وإن نقلتها إلى مكان طيب ماتت . .

لم يكن شمر بن ذى الجوشن إلا واحداً من هؤلاء . . وأصر شمر على تضييع كل فرصة يمكن أن تؤدى إلى حل سلمى لايرفضه الخليفة يزيد بن معاوية ، بل يرحب به لو بلغه . .

وأصبح لامفر أمام الحسين ـ رضى الله عنه ـ من القتال .

ونظر الحسين حوله ، فإذا بخيول ابن زياد تحيط به من كل جانب ، فرفع يديه إلى السماء ، وأقبل يهتف إلى ربه بالدعاء : « اللهم أنت ثقتى فى كل كرب ، ورجائى فى كل شدة ، وأنت لى فى كل أمر نزل ثقة وعُدة ، فكم من هَمٍّ يضعف عنه الفؤاد ، وتقل فيه الحيلة ، ويخذل فيه الصديق ويشمت فيه العدو ، فأنزلته بك ، وشكوته إليك ، رغبة فيه إليك عمن سواك ، ففرجته وكشفته وكفيتنيه ، فأنت لى ولىُّ كل نعمة ، وصاحب كل حسنة ، ومنتهى كل غاية »[١١٢]

لقد كانت هذه ساعة لابد من اللجوء فيها إلى الله . .

وما قصر الحسين عن اللجوء إلى الله لا فى شدة ولا فى رخاء ، ولكن الله

---

(١١٢) البداية والنهاية جـ٨ صـ١٦٩

كان قد ادخر له منزلة الشهداء ، فكيف يبلغها إلا بتلك المحنة التي يتعرض لها الآن ؟

وجلس أمام خيمته وقد احتبى بسيفه فى انتظار المعركة القادمة ، وإذا به يغفو إغفاءة يرى فيها رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقول له : إنك تروح إلينا . .

ويقص الحسين مارآه على أخته زينب ـ رضى الله عنها ـ فصاحت فى أسى وحزن قائلة : ياويلتاه . . (١١٣)

ولكنه يكفكف عنها ، ويردها إلى مايجب أن تتحلى به من صبر وأناة فى هذه اللحظة الحاسمة . .

لقد كان مع الحسين أولاده جميعاً ومعه بعض أولاد عمه وإخوته وأولادهم كانوا قريباً من مائة رجل فيهم لصلب علىٍّ خمسة ، ومن بنى هاشم ستة عشر ، ورجل من بنى سليم حليف لهم ، ورجل من بنى كنانة حليف لهم أيضاً .

وكان شمر بن ذى الجوشن له عمة قد تزوجها على بن أبى طالب ـ رضى الله عنه ـ وأعقب منها أولاداً هم العباس وعبدالله وجعفر وعثمان .

فقال رجل من أهلها لابن زياد : أصلح الله الأمير ، إن بنى أختنا مع الحسين فإن رأيت أن تكتب لهم أماناً فعلت فقال ابن زياد : نعم . .

ثم أمر كاتبه أن يكتب لهم أمانا ، وانطلق إلى حيث يعسكر الحسين بأصحابه ، ونادى على العباس وعبدالله وجعفر وعثمان أولاد على قائلاً

---

(١١٣) البداية والنهاية جـ ٨ ص ١٧٠

لهم : هذا أمان بعثه خالكم إليكم . .

ولكن أبناء على هم أبناء علىٍّ فقد رفضوا فى شمم وإباء هذا الأمان الخائب . . أيكونون هم فى مأمن وأخوهم الحسين ابن فاطمة الزهراء معرض للموت على يد هؤلاء الذين أمنوهم ؟

فردُّوا على هذا الرجل قائلين : اقرىء خالنا السلام ، وقل له : لا حاجة لنا فى أمانكم ، أمان الله خير من أمانكم .

وجاء شمر نفسه حتى وقف على أصحاب الحسين ونادى : أين بنو أختنا ؟ فخرج إليه بنو على يقولون مالك ؟ وما تريد ؟

فقال : أنتم يابنى أختى آمنون .

قالوا : لانقبل أمانك . . . لئن كنت خالنا أتؤمننا وابن رسول الله لاأمان له ؟(١١٤)

بدء المعركة

وبدأ عمر بن سعد المعركة بقوله : يا خيل الله اركبى . .

وهى عبارة قالها المصطفى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى غزوة له مع المشركين . .

وكان المهاجرون والأنصار تحت راية رسول الله يجاهدون فى سبيل الله وينشرون لواء الإسلام . . فإذا بابن سعد يتخذها شعاراً يحارب به أبناء رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ . .

وطلب الحسين من أخيه العباس أن يسأل هؤلاء القوم مرة أخرى . . .

---

(١١٤) الحسين بن على لمحمد على قطب صـ١٥٠ .

ماذا يريدون ؟ حتى يعذر نفسه فى قتالهم .

فعاد العباس بعد أن سألهم يقول : إنهم يقولون ماسبق أن طلبوه من الحسين ـ أن ينزل على حكم ابن زياد . .

ونظر الحسين ـ رضى الله عنه ـ إلى أهله وأصحابه وناشدهم أن يتفرقوا عنه سالمين ، ولا يغرروا بأنفسهم ، ولايعرضوا أنفسهم للتهلكة ، فأبوا ، وأصروا على ملازمته ، وافتدائه بأنفسهم ومهجهم . . وشكر الحسين لأصحابه هذا الموقف النبيل ، ولكنه مازال يحس بألم شديد فى داخله أن عرض هؤلاء الأبرياء لهذا الخطر الجسيم . .

وقال الحسين للعباس : ارجع فارددهم هذه العشية لعلنا نصلى لربنا هذه الليلة ونستغفره وندعوه ، فقد علم الله أنى أحب الصلاة له وتلاوة كتابه والاستغفار والدعاء .

وأوصى الحسين فى هذه الليلة إلى أهله . . . ومرة أخرى أراد أن ينصح لمن معه فقال لهم : هذا الليل قد غشيكم فاتخذوه حجلا ـ ستاراً ـ ليأخذ كل منكم بيد رجل من أهل بيتى ثم اذهبوا فى بسيط الأرض فى سواد الليل إلى بلادكم ومدائنكم ، فإن القوم إنما يريدوننى ، فلو قد أصابونى لهوا عن طلب غيرى ، فاذهبوا حتى يفرج الله ـ عز وجل ـ

فقال له إخوته وأبناؤه وبنو أخيه : لابقاء لنا بعدك ولا أرانا الله فيك مانكره .

فقال الحسين : يابنى عقيل حسبكم بمسلم أخيكم ، اذهبوا فقد أذنت لكم .

قالوا : فما تقول الناس ـ سيقولون تركنا شيخنا وسيدنا وبنى عمومتنا خير

الأعمام لم نرم معهم بسهم ، ولم نطعن معهم برمح ، ولم نضرب معهم بسيف ، رغبة فى الحياة الدنيا ؟ لا والله لانفعل ، ولكن نفديك بأنفسنا وأموالنا وأهلينا ، ونقاتل معك حتى نرد موردك . فقبح الله العيش بعدك .

وكذلك قال أصحابه الذين خرجوا معه .

قال له سعيد بن عبدالله الحنفى : والله لانخليك حتى يعلم الله أنا قد حفظنا غيبة رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فيك ، والله لو علمت أنى أقتل دونك ألف قتلة ، وأن الله يدفع بذلك القتل عنك وعن أنفس هؤلاء الفتية من أهل بيتك لأحببت ذلك ، وإنما هى قتلة واحدة[١١٥]

لقد أصروا جميعاً على مرافقته وعلى الوقوف معه وعدم التخلى عنه . .

وأقبل الحسين يناجى نفسه بأبيات يتمتم بها ، ويقول :

يا دهر أف لك من خليل   كم لك بالإشراق والأصيل
من صاحب أو طالب قتيل   والدهر لايقنع بالبديل
وإنما الأمر إلى الجليل   وكل حى سالك السبيل

وسمعته أخته زينب ـ رضى الله عنها ـ وهو يردد هذه الأبيات ، فقالت : واثكلاه . . ليت الموت أعدمنى الحياة ، اليوم ماتت أمى فاطمة وأبى على وحسن أخى ، ياخليفة الماضى وثمال الباقى . .

فنظر إليها فى إشفاق وعطف ، وهو يقول لها : ياأخية لايذهبن حلمك الشيطان . . وأخذ يعزيها . .

وبات الحسين ليلته يصلى ، ويستغفر ربه ويدعو ويتضرع ، وخيول

---

(١١٥) البداية والنهاية جـ٨ صـ١٧٦

العدو تحيط بهم من كل مكان . .

محاورة قبل القتال

ونادى الحسين مقاتليه : أيها الناس ، اسمعوا منى نصيحة أقولها لكم ، فأنصت الناس كلهم ، فقال ـ بعد أن حمدا لله وأثنى عليه ـ : أيها الناس إن قبلتم منى وانصفتمونى كنتم بذلك أسعد الناس ولم يكن لكم علىّ سبيل ، وان لم تقبلوا منى « فاجمعوا أمركم وشركاءكم ثم لايكن أمركم عليكم غمة ثم اقضوا الى ولا تنظرون » « ان ولى الله الذى نزل الكتاب وهو يتولى الصالحين » .

ثم أقبل عليهم يذكرهم بشرفه ونسبه فيقول لهم :

راجعوا أنفسكم وحاسبوها ، هل يصلح لكم قتال مثلى وأنا ابن بنت نبيكم ؟ وليس على وجه الأرض ابن بنت نبى غيرى ؟ وعلىٌ أبى ، وجعفر ذو الجناحين عمى ، وحمزة سيد الشهداء عم أبى ؟ وقال لى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ولأخى : هذان سيدا شباب أهل الجنة ، فإن صدقتمونى بما أقول فهو الحق ـ فوالله ماتعمدت كذبة منذ علمت أن الله يمقت على الكذوب ، وإلا فاسألوا أصحاب رسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ

ثم اتجه إلى هؤلاء الذين كتبوا إليه يستقدمونه وقد أصبحوا الآن فى جيش العدو يحيطون به ، ويطلبون دمه ، فنادى : ياشبث بن ربعى ، ياحجار بن أبجر ، ياقيس بن الأشعث ، يازين بن الحارث ، ألم تكتبوا إلىَّ أنه قد أينعت الثمار واخضر الجناب فأقدم علينا فإنك إنما تقدم على جند مجندة ؟

فقالوا : لم نفعل .

قال : سبحان الله ، والله لقد فعلتم .

ثم قال : يأيها الناس إذ قد كرهتمونى فدعونى أنصرف عنكم . فقال له الأشعث بن قيس : ألا تنزل على حكم بنى عمك فإنهم لن يؤذوك ، ولاترى منهم إلا ماتحب ؟

فقال له الحسين : أنت أخو أخيك ، أتريد أن تطلبك بنو هاشم بأكثر من دم مسلم بن عقيل ؟ لا والله لاأعطيهم بيدى إعطاء الذليل ولا أقر لهم إقرار العبيد .(١١٦)

المعركة

وجاء يوم العاشر من المحرم ، يوم عاشوراء .

وبعد صلاة الفجر حيث أم الحسين قومه ، ثم أخذ يعبىء رجاله وما أقلهم عدداً ، ولكن ماأكثرهم إيمانا وتضحية . .

كانوا سبعين أو اثنين وسبعين ، وكان فى مواجهتهم أربعة آلاف .

وأبى أنصار الحسين على أهله أن يتقدموهم فى القتال ، بل أصروا على أن يكون أهل البيت من ورائهم ، فقد قالوا لأهل البيت : معاذ الله أن تموتوا ونحن أحياء نشهد مصارعكم ، بل نحن أولا ثم تجيئون على الأثر .

وفى هذه اللحظة الحاسمة تخلى الحر بن يزيد التميمى عن موقعه مع خصوم الحسين وأخذ مكانه إلى جانب الحسين ، لقد اقتنع بكلام الحسين ، وعرف أنه فى معسكر ابن زياد قد لايكون على حق . فما باله لايمضى إلى نصرة الحق ؟ ومضى فعلاً إلى معسكر الحسين ، واحتضن الحسين وهو يقول له ويبكى : -

---

(١١٦) المرجع السابق

قد كان منى بالأمس ماكان ، وقد استبان لى حقك ، فجئتك أفتديك بنفسى ، أفترى ذلك توبة لى مما صنعت ؟

فقال الحسين ـ رضى الله عنه ـ : إنها خير توبة فأبشر ، فأنت الحر فى الدنيا وأنت الحر فى الآخرة إن شاء الله »(١١٧)

وانضم إلى الحر بطل آخر هو يزيد الكندى الذى غادر مكانه فى جيش ابن زياد وانطلق إلى جانب الحسين ينصره ويفتديه . .

وكان أول سهم انطلق بكل أسف إلى رجال الحسين ـ هو سهم عمر بن سعد بن أبى وقاص . . ابن الرجل الذى بشره النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ بالجنة ، ودعا له أن يكون مستجاب الدعوة . . وإنه ليمت إلى الحسين بصلة قرابة ، فإنه من زُهرة وزهرة هم أخوال النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ

ولكن أطماع الدنيا تعمى العيون عن مآثر كثيرة ومعنويات كبيرة . . قاتل الله الدنيا ، كم قطعت من أواصر ، ومزقت من روابط ، وأشعلت النار بين ذوى القربى والأرحام .

ولانفيض فى الحديث عن المعركة التى يشيب من هولها الولدان . . لكنا نوجز القول بأن القلة التى كانت مع الحسين لم تنهزم بسهولة ، بل قاتلوا أعداءهم المحيطين بهم من كل جانب قتال الأبطال المغاوير ، وبارزوهم فجندلوا منهم أضعاف أعدادهم مرات ومرات . .

وكانت هذه الثلة الصغيرة التى لم تصل إلى أكثر من مائة فرد كفئاً فى

---

(١١٧) أبناء الرسول فى كربلاء لخالد محمد خالد صـ١٦٢

القتال لهؤلاء الأربعة آلاف الذين قاتلوهم بكل قوة وبدون رحمة أو هوادة

وكان الحسين ـ رضي الله عنه ـ كأبيه أسد الله الغالب ـ يتقدم إلى عدوه بقلب جسور ، فينحسرون أمامه متراجعين ، ولكن الكثرة فى العدد والعدة تتغلب على الشجاعة ـ مهما كانت ، وقد استغل خصوم الحسين هذه الميزة التى كانت لصالحهم . . فعندما فشلوا فى استخدام السيوف ولم يستطع الجيش الكثيف بسيوفه أن ينال من الحسين ومن معه شيئاً ، عدلوا إلى السهام يمطرون بها الجياد التى يمتطيها فرسان الحسين حتى عقروها ، وقد مكنتهم من ذلك كثرة العدد والعدة . واستمرت المعركة طول النهار . . . . . . وعلى الرغم من ضراوتها وشدتها لم تمنع الحسين ـ رضى الله عنه ـ عن واجب ربه ، فقد صلى فى الميدان صلاة الظهر ، صلاها صلاة حرب وقتال . .

ألم يكن من الواجب على هؤلاء الأعداء المحيطين به أن يدركوا أنهم يقاتلون قوماً يحافظون على الدين ، ولايغفلون عن أداء شعائره فى أشد الأوقات حرجاً وضيقاً فيكفوا عن قتالهم ؟

وتساقط أنصار الحسين صرعى واحداً إثر الآخر ـ حتى جاء دور الحسين البطل المثل الأعلى لأصحابه ـ رضى الله عنه ـ الذى اجتمع كل هؤلاء لقتله فقد كان هو الهدف الأول والوحيد .

وقد نظر إلى أعدائه فى تحد وهو يقول لهم :

أعَلَى قتلى تجتمعون ؟ إنى لأرجو الله أن يكرمنى بهوانكم ، ثم ينتقم لىَ من حيث لاتشعرون .

ويتكاثر الخصوم حوله من كل مكان مابين رام بسهم وضارب بسيف

وطاعن برمح حتى يسقط شهيداً ، وتصعد روحه إلى بارئها تشكو إليه بطش هؤلاء وجرأتهم وغلظتهم واستهانتهم بحرمة أهل بيت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ

لقد وصلت فظاعة هؤلاء القوم ـ إن صحت الروايات ـ ونتمنى أن لاتكون صحيحة . إلى مبلغ لايمكن التعبير عنه . فلم ينج من بطشهم الأطفال الذين لايعرفون شيئاً . .

قال هانىء بن ثبيت الحضرمى : إنى لواقف يوم مقتل الحسين عاشر عشرة ليس منا رجل إلا على فرس ، إذ خرج غلام من آل الحسين وهو ممسك بعود وعليه إزار وقميص وهو مذعور يلتفت يميناً وشمالاً . .

إذ أقبل رجل يركض فرسه حتى إذا دنا من الغلام مال عن فرسه ، ثم ضرب الغلام فقطعه بالسيف .

قال ابن كثير : قال هشام السكونى : هانىء بن ثبيت هو الذى قتل الغلام ، خاف أن يعاب ذلك عليه فكنى عن نفسه[١١٨]

وقال ابن كثير أيضاً : ثم إن الحسين أعياه التعب فقعد على باب فسطاطه ، وأتى صبى صغير من أولاده اسمه عبدالله ـ وكان يكنى به ـ فأجلسه فى حجره ثم جعل يقبله ويودعه ويوصى أهله ، فرماه رجل من بنى أسد بسهم فذبح الطفل ، فأخذ الحسين دمه فى يده وألقاه نحو السماء وهو يقول : رب إن تك حبست عنا النصر من السماء فاجعله لما هو خير ، وانتقم لنا من الظالمين . .

---

(١١٨) البداية والنهاية جـ ٨ صـ ١٨٦

واشتد ظمأ الحسين فحاول أن يصل إلى ماء الفرات ليشرب منه فما قدر .

فحاول مرة أخرى ، فلما خلص إلى شربة منه رماه رجل يقال له حصين ابن تميم بسهم فى حنكه فأثبته ، فانتزعه الحسين من حنكه ففار الدم ، فتلقاه بيديه ثم رفعهما إلى السماء وهما مملوءتان دماً ، ثم رمى به إلى السماء وقال : اللهم أحصهم عدداً ، واقتلهم بدداً ولا تذر من رماني بسهمه على الأرض . . . قال : فوالله مامكث هذا الرامى إلا قليلاً حتى رماه الله بالظمأ ، فجعل لايروى ، ويشرب ولا يروى ويصرخ قائلاً : ويلكم اسقونى قتلنى الظمأ ، فما زال هذا دأبه حتى انقد بطنه كما ينقد بطن البعير .

قال الرواة : لقد وُجد بالحسين حين قتل ثلاثاً وثلاثين طعنة وأربعاً وثلاثين ضربة .

ولم يكتف هؤلاء بما فعلوا ، بل أقدم أحدهم ـ كما تذكر بعض الروايات ـ إلى حز رأس الحسين ، وحملها وأسرع بها نحو فسطاط عمر بن سعد وهو يقول :

أوقر ركابى فضة وذهبا   أنا قتلت الملك المحجبا
قتلت خير الناس أما وأبا   وخيرهم إذ ينسبون نسبا

فتناوله عمر بالسوط وقال له : ويحك أمجنون أنت ؟ والله لو سمعك ابن زياد تقول هذا لضرب عنقك .

وما يضرب ابن زياد عنقه لأنه احتز رأس الحسين ، ولكن لأنه وصف الحسين بما وصف ، وإنها لأوصاف حتى جاءت على لسان هذا الخصم ، والفضل ماشهد به الأعداء ، وأقلام الحق ألسنة الخلق . . . . ولكن ابن

زياد لايرضى أن يوصف الحسين بذلك ؛ لأن هذا يزيد من ثورة الناس عليهم حتى وإن كان الحسين قد قتل .

ولايرضى كذلك أن يوصف أحد مع يزيد بأنه ملك محجب ، فالملك المحجب هو يزيد فقط وليس معه أحد . .

وإن كان بعض الرواة يروون أن الرجل الذى احتز رأس الحسين أسرع به إلى ابن زياد نفسه وهو يردد البيتين المتقدمين ، فأوفده ابن زياد بالرأس إلى يزيد بدمشق .

ولم يغضب عليه ابن زياد ، ولم يضرب عنقه .

فظاعة الجرم

ومهما حاول المدافعون أو المحايدون أن يبرروا هذا العمل فإنه لايمكن بأى منطق أن يكون مقبولاً . .

إن كثيرا من الرواة يقولون إن الحسين ـ رضى الله عنه ـ قد اضطر للخروج ، لأنه وجد من يطلبه ويصر على مبايعته ، ولأنه رأى كثيراً من المسلمين لايرتضون يزيد خليفة لهم بعد أن علموا عدم كفاءته لهذا المنصب الضخم . فليس له فى رأى الكثير من الناس صفات الجد والقوة التى يجب أن يتصف بها من يتولى هذا المنصب ، فالدولة فى حاجة إلى خليفة قوى يتمتع بثقة الناس ، ويستطيع أن يجمع أمرها ويوحد شملها . . وكان كثيرون أيضاً يرون أن اختيار يزيد لولاية العهد كان مساومة مكشوفة قبض كل مساهم فيها ثمن رضاه ومعونته سراً وعلانية ـ من المال أو الولاية أو المجاملة ـ ولو قبضوا مثل هذا الثمن ليبايعوا ولياً للعهد أقل من يزيد لماهمهم أن يبايعوا وإن تعطلت الحدود وتقوضت معالم الدولة .

وأعجب شيء أن يطلب إلى الحسين بن على أن يبايع بالقوّة خليفة لايرضى عنه ، وأن يطلب منه أن يؤيده ويزكيه أمام المسلمين ، ويشهد له عندهم أنه نعم الخليفة المأمول صاحب الحق فى الخلافة وصاحب القدرة عليها .

فلم يكن أمام الحسين مناص من خصلتين ـ المبايعة ، أو الخروج . ذاك لأنهم لم يتركوه بمعزل عن الأمر ، لا له ولا عليه [١١٩]

ولو وقف الأمر عند حد قتل الحسين لقال الناس : رجل خرج على الخليفة فقتل ، ولكن الأمر بلغ إلى حد محاولة استئصال الأسرة كلها من جذورها ـ كما تذكر بعض الروايات ـ فلم يترك الأطفال الذين لم يبلغوا الحلم والذين مازالوا يلهون ، ولا يعرفون القضية التى يتقاتل عليها الناس ، وقد قدمنا أمثلة لذلك . . وقد ذكرنا أيضاً فيما سبق أن هذه الروايات قد دخلها الكثير من المبالغة ، وأن الكثير منها محل شك . . . . فقد ذكرت الروايات أن العقاب قد وصل إلى التمثيل والتشفى فهذه أشلاء تمزق ، ورءوس تقطع وخيول تجرى فوق الأجساد المصروعة ذاهبة وآيبة ، فلا حرمة للموت ، ولا عبرة بالحدث . . .

ولو قلنا : إن جنود ابن زياد وقواده مأمورون بأمره مجبرون على تنفيذ أوامره ، وقد اجتاحتهم مطامع الدنيا ، وأغرتهم زخارف السلطة ، وأعماهم الشره وحب المال والمناصب .

فكيف يقبل الخليفة ذلك ؟

---

(١١٩) الحسين أبوالشهداء صـ٨٨

إن كثيراً من الرواة ينعون على الخليفة يزيد بن معاوية تقصيره فى هذا الأمر ، وأنه ترك لجنوده وقواده الحبل على الغارب ، ويحملونه مسئولية المغالات فى القتل والمبالغة فيه . . . ولكن بعض الرواة يدافعون عن الخليفة ويقولون إن العمل قد تم دون إرادته وبتصرف من جنوده وقواده دون الرجوع إليه وأنه عندما ذهبوا برأس الحسين إليه وعلم ماجرى سخط على ابن زياد وقال له : قبحك الله . . . لقد كنت أرضى من طاعتك بدون قتل الحسين . . . لكن البعض يأخذ عليه أنه لم يعزله عن عمله ولم يحاسبه على جريرته ، ومن هنا فإن تبرير المدافعين عن الخليفة لم يقنع الكثير ممن عارضوا هذا العمل وأدانوا هذا التصرف الذى ليس له مايبرره ـ ويرون أن محاولة تبرير هذه الأعمال لايستند إلا على أدلة متهالكة ، ولاتستند إلى سبب معقول . .

وإننا لنجد أن ابن كثير وهو من خيرة المؤرخين وأكثرهم اعتدالاً لايستطيع أن يدافع عن الذين اقترفوا هذه الفعلة . .

يقول : « وليس كل ذلك الجيش كان راضياً بما وقع من قتل الحسين ، بل ولا يزيد بن معاوية رضى بذلك ـ والله أعلم ـ والذى يكاد يغلب على الظن أن يزيد لو قدر عليه قبل أن يقتل لعفا عنه ـ كما أوصاه بذلك أبوه ، وكما صرح هو مخبراً عن نفسه بذلك ، وقد لعن ابن زياد على فعله ذلك وسخط عليه فيما يظهر ، ولكن لم ينقل أنه عزله أو عاقبه . .[١٢٠]

---

(١٢٠) البداية والنهاية جـ٨ صـ٢٠٢

بطولة نادرة

لقد انطوت صفحات التاريخ ومرت قرون وقرون على هذه المأساة ، ولكنها لم تمح من ذاكرة الناس .. ومازال الزمن يحفظ لهذه القلة النادرة فى البطولة التى وقفت فى مواجهة أربعة آلاف فارس وراجل ورام موقفاً خالداً يذكره التاريخ ...

ويذكر الرواة أن أصحاب الحسين لما رأوا أن الخصوم قد كثروا عليهم وأنهم لايقدرون على أن يمنعوا الحسين ولاأنفسهم ، تنافسوا أن يُقتلوا بين يديه ، فجاء عبدالرحمن وعبدالله ابنا عزرة الغفارى فقالا : ياأبا عبدالله ، عليك السلام ، جازنا العدو إليك فأحببنا أن نقتل بين يديك وندفع عنك .

فقال : مرحباً بكما ادنوا منى ، فدنوا فجعلا يقاتلان قريباً منه وهما يقولان :

قد علمت حقاً بنو غفار وخندف بعد بني نزار
لنضربن معشر الغدار بكل عضب قاطع بتار
ياقوم ذودوا عن بني الأخيار بالمشرفى والقنا الخطار

ثم أتاه أصحابه مثنى وفرادى يقاتلون بين يديه ، وهو يدعو لهم ويقول : جزاكم الله أحسن جزاء المتقين ، فجعلوا يسلمون على الحسين ويقاتلون حتى يقتلوا ..

ثم جاء عابس بن أبى شبيب فقال : ياأبا عبدالله ، أما والله ماأمسى على ظهر الأرض قريب ولابعيد أعز علىّ منك ، ولو قدرت أن أدفع عنك الضيم أو القتل بشىء أعز علىّ من نفسى ودمى لفعلته ، السلام عليك أبا عبدالله .

ثم مشى بسيفه صلتا وبه ضربة على جبينه ، وكان أشجع الناس فنادى :

ألا رجل لرجل ؟ ألا أبرزوا إليَّ .

فعرفوه فابتعدوا عنه .

ثم قال عمر بن سعد : ارضخوه بالحجارة . فرمى بالحجارة من كل جانب فلما رأى ذلك ألقى درعه ومغفره ، ثم شد على الناس ـ قال من رآه : والله لقد رأيته يطرد مايقرب من مائتين من الناس بين يديه .

ثم إنهم التفوا حوله من كل جانب حتى قتلوه ـ رحمه الله ـ فرأيت رأسه فى أيدى رجال ذوى عدد كل يدعى قتله ، فأتوا به عمر بن سعد ، فقال لهم : لاتختصموا فيه فإنه لم يقتله إنسان واحد .

وكان أول قتيل من أسرة الحسين هو ابنه على الأكبر .

طعنه أحدهم لأنه كان يقى أباه وهو يرتجز :

أنـــا علـى بـــن الحســـين نحـن وبيـت اللــه أولـى بالنـبى

ولما طعن هجم عليه أعداؤه فقطعوه بأسيافهم . فقال الحسين ـ رضى الله عنه ـ : قَتَل الله قوماً قتلوك يابنى ماأجرأهم على الله وعلى انتهاك محارمه ؟ فعلى الدنيا بعدك العفاء .(١٢١)

ولم تنته البطولة عند هذا الحد ، ولكنها استمرت فى النساء الباقيات . . .

وعلى الرغم مما أصاب البنات من يتم والنساء من ثكل وترمل إلا أنهن كن شامخات الرءوس ، عزيزات بالله ، محتسبات ماأصابهن من فقد أعز الرجال وخير ذرية الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ عند الله . .

وكانت مقالتهن فى الرد على خصومهم فيها فخر وعزة مازال يذكرها

---

(١٢١) البداية والنهاية جـ٨ صـ١٨٤ ـ مروج الذهب ج٢ صـ٤٧

التاريخ ويروجها بكل إجلال وإعزاز . . . وسيأتى ذكر ذلك عن الحديث عن السيدة زينب وبطولتها فى موقعة كربلاء إن شاء الله ـ تعالى ـ

حزن دفين

وأصاب الناس بمصرع الحسين بهذه الصورة التى قتل بها ذهول ، كان كثير منهم لايكادون يصدقون بأن هذا حدث . .

وأخذ أهل الكوفة يتلاومون فيما بينهم على ماحدث ، ولكن ماقيمة تلاومهم وهم الذين صنعوا المأساة أولا وأخيراً وما زالوا يتجرعون مرارتها حتى يومنا هذا . .

ولما جىء بالرأس الشريف إلى مسجد الكوفة عند ابن زياد ، ركب ابن زياد المنبر وأخذ يذكر مافتح الله عليه من قتل الحسين الذى أراد أن يسلبهم الملك ويفرق الكلمة ـ حسب قوله . .

فقام إليه عبدالله بن عفيف الأزدى فقال : ويحك يابن زياد تقتلون أولاد النبى وتتكلمون بكلام الصديقين .

فأمر ابن زياد بقتله وصلبه .

روى محمد بن سعد بسند له عن على بن أبى طالب ـ كرم الله وجهه ـ أنه مر بكربلاء عند أشجار الحنظل وهو ذاهب إلى صفين فسأل عن اسمها فقيل : كربلاء ، فقال : كرب وبلاء ، فنزل وصلى عند شجرة هناك ، ثم قال : يقتل ههنا شهداء هم خير الشهداء غير الصحابة ، يدخلون الجنة بغير حساب ـ وأشار إلى مكان هناك ـ فعلّموه بشىء ، فقتل فيه الحسين .

وروى كعب الأحبار آثاراً فى كربلاء . .

وحكى أبو الجناب الكلبى وغيره أن أهل كربلاء كانوا يسمعون نوح

النساء على الحسين وهن يقلن :

مسح الرسول جبينه فله بريق فى الخدود
أبواه من عليا قريش جده خير الجدود

فأجابهم بعض الناس فقالوا :

خرجوا به وفداً إليه فهم له شر الوفود
قتلوا ابن نبت نبيهم سكنوا به ذات الخدود(١٢٢)

وروى ابن عساكر فى تاريخ دمشق أنه وجد فى كنيسة مكتوباً :

أترجو أمة قتلت حسيناً شفاعة جده يوم الحساب ؟

وقال الإمام أحمد : حدثنا عبدالرحمن بن مهدى ، ثنا ابن مسلم عن عمار قال : سمعت أم سلمة ـ رضى الله عنها ـ قالت : سمعت الجن يبكين على الحسين ، وسمعت الجن تنوح على الحسين .

وروى الحسين بن إدريس عن هاشم بن هاشم عن أمه عن أم سلمة قالت : سمعت الجن تنوح على الحسين تقول :

أيها القاتلون جهلا حسيناً أبشروا بالعذاب والتنكيل

قال ابن كثير : وماروى من الأحاديث والفتن التى أصابت من قتل الحسين أكثرها صحيح ، فإنه قل من نجا من أولئك الذين قتلوه من آفة وعاهة فى الدنيا . . وأكثرهم أصيب بالجنون .

ابن عباس يخبر بقتله وهو فى مكة

قال ابن أبى الدنيا : حدثنا عبدالله بن محمد بن هانىء أبو عبدالرحمن

---

(١٢٢) البداية والنهاية جـ٨ صـ٢٠٠

النحوى ، ثنا مهدى بن سليمان ، ثنا على بن زيد بن جدعان ، قال : استيقظ ابن عباس من نومه فاسترجع وقال : قتل الحسين والله ، فقال له أصحابه : لم يابن عباس ؟

قال : رأيت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ومعه زجاجة من دم ، فقال : أتعلم ماصنعت أمتى من بعدى ؟ قتلوا الحسين وهذا دمه ودم أصحابه . . .

فكتبت ذلك اليوم الذى قال فيه ذلك وتلك الساعة ، فما مر أربعة وعشرون يوماً حتى جاءهم الخبر بالمدينة أنه قتل فى ذلك اليوم وتلك الساعة .

وقال الإمام أحمد : فى سند متصل بابن عباس قال : « رأيت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى المنام نصف النهار ومعه قارورة فيها دم ، فقلت : بأبى أنت وأمى يارسول الله ماهذا ؟ قال : هذا دم الحسين وأصحابه لم أزل ألتقطه منذ اليوم[١٢٣] قال عمار : فأحصينا ذلك اليوم فوجدناه قد قتل فيه .

وحين بلغ ركب نساء الحسين المدينة خرجت امرأة ناشرة شعرها واضعة كمها على رأسها وهى تبكى وتقول :

ماذا تقولون إن قال النبى لكم ماذا فعلتم وأنتم آخر الأمم
بعترتى وبأهلى بعد مفتقدى منهم أسارى ومنهم ضرجوا بدم ؟
ماكان هذا جزائى إذ نصحت لكم أن تخلفونى بسوء فى ذوى رحمى

---

(١٢٣) تفرد به أحمد وإسناده قوى

وسنتحدث بعد ذلك عن فضائل الحسين وقبره وأزواجه وذريته .

فضائل الحسين

ذكر ابن منظور فى لسان العرب : قال النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ لعلى ـ رضى الله عنه ـ : أوصيك بريحانتىَّ خيراً قبل أن ينهدَّ ركناك ، فلما مات رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال على : هذا أحد الركنين ، فلما ماتت فاطمة ـ رضى الله عنها ـ قال : هذا الركن الآخر .

وأراد بريحانتيه الحسن والحسين ـ رضى الله عنهما ـ

لقد صور النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ سبطيه العظيمين فى صورة الريحانتين ـ مثنى ريحانة ـ

والريحان يطلق على معانٍ عدة منها : كل بقل طيب الريح ، وقال الأزهرى : هو اسم جامع للرياحين الطيبة الرائحة ، ويطلق الريحان على الرزق ، كما يطلق على الرحمة ، ويطلق على الاستراحة والبَرْد . .

لقد كان الحسن والحسين بالنسبة للنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ مصدر راحة وأنس ومبعث شوق ورحمة ، إذا رآهما فرح وإذا غابا عنه سأل عنهما واشتاق إليهما ، وإذا جاءا ضمهما إليه ، وأقبل عليهما وشمهما كما يشم الريحان ، كأن بهما عبق الجنة وريحها ، وفيهما اجتمعت كل معانى السعادة بالنسبة للنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ

وفى الحسين يقول النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « حسين منى وأنا من حسين أحب الله من أحب حسيناً »(١٢٥)

---

(١٢٤) البداية والنهاية جـ٨ صـ١٩٨

(١٢٥) صحيح الترمذى جـ٢ صـ٣٠٧ ـ مناقب الحسن والحسين . وفى البخارى فى الأدب ، وعند ابن ماجة ، والحاكم . وفى جمع الجوامع جـ٢ صـ١٥٤٤

وهو حديث يشير إلى منزلة الحسين عند جده ـ صلى الله عليه وسلم ـ وقوله : حسين مني ـ يشير إلى ماورثه الحسين من جده من فضائل ، وقد ذكرت زينب بنت أبي رافع قالت : رأيت فاطمة بنت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أتت بابنيها إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ في مرضه الذى توفى فيه ، فقالت : يارسول الله هذان ابناك فورثهما ، فقال : « أما حسن فله هيبتى وسؤددى ، وأما حسين فله جرأتى وجودى »[١٢٦]

فهذا الميراث من جده ـ صلى الله عليه وسلم ـ بالإضافة إلى أنه ابن بنته ـ يوضح معنى قوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ حسين منى »

أما قوله : وأنا من حسين ـ ففيه إشارة إلى أن من أراد أن يتعرف إلى حضرة المصطفى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فلينظر إلى الحسين ، فهو أشبه الناس به خَلْقاً وخُلُقاً ، ورفعة وقدراً ، وجمالاً وجلالاً ، وكرماً وفِعَالاً . وفيه تنبيه على فضل الحسين وتعظيمه وكأن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ قد أحس بما سوف يتعرض له الحسين فى حياته من اعتداء ، فأراد أن يحذر الناس من ذلك ، فمن اعتدى عليه فقد اعتدى على جده ـ صلى الله عليه وسلم ـ ولذلك دعا إلى حبه ، وبيَّن أن من أحبه فقد أحبه الله . .

وصدق ما توقعه النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ بالنسبة لحفيده ، فقد اعتدى عليه المعتدون ، ولم يراعوا فيه حرمة جده ـ صلى الله عليه وسلم ـ ولم يحفظوا وصاته فيه . .

وقتلوه فى شهر حرام هو شهر المحرم ، وفى يوم الجمعة الذى أوصى الله

---

(١٢٦) أسد الغابة جـ٧ صـ١٣٠

بتعظيمه لأنه يوم عيد المسلمين الأسبوعى ، وفى يوم العاشر من المحرم الذى دعا النبى - صلى الله عليه وسلم - إلى صومه ، لما له من منزلة خاصة . وكان ذلك سنة إحدى وستين من الهجرة على أشهر الأقوال - وللحسين من العمر ثمان وخمسون سنة أو نحوها . .

ومن المفارقات العجيبة أن هؤلاء الذين استحلوا حرمته ، وقتلوه جاء منهم بعد ذلك بسنين من يسأل ابن عمر عن المُحْرِم يقتل الذباب - ما حكمه ؟ فأجابه ابن عمر- رضي الله عنهما - أهل العراق يسألون عن قتل الذباب وقد قتلوا ابن بنت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وقد قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فيه وفى أخيه : « هما ريحانتاى من الدنيا » ؟ ؟

وروى من طريق آخر أن السائل كان يسأل عن دم البعوض يصيب الثوب . فأجاب ابن عمر بما أجاب به[١٢٧]

وحسب الحسين وأخيه وأبيه وأمه من الفضل أن يظفروا بمحبة النبى - صلى الله عليه وسلم - وقد نظر النبى - صلى الله عليه وسلم - إلى حسن وحسين يوماً فقال : « من أحبهما فقد أحبنى ومن أبغضهما فقد أبغضنى »[١٢٨]

وقال فى حقهما مع أبيهما وأمهما « أنا حرب لمن حاربكم ، سلم لمن سالمكم »[١٢٩]

---

(١٢٧) البداية والنهاية جـ٨ صـ٢٠٥ - فتح البارى لابن حجر جـ١٠ باب الأدب
(١٢٨) أخرجه الامام أحمد فى مسنده عن أبى هريرة
(١٢٩) أخرجه الامام أحمد عن أبى هريرة

وسأله أحد أصحابه : أى أهل بيتك أحب إليك ؟ قال : « الحسن والحسين »[130]

وحسب هؤلاء أنهم أصحاب الكساء الذى جللهم به رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وقال فى حقهم : اللهم إنهم أهل بيتى اللهم أذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً .

ومن فضائل الحسين أنه بُشِّر بالجنة ، وقد سبقت له بذلك السعادة . . . .

والأحاديث فى ذلك متواترة ، وقد ذكرنا بعضها ، وللتذكير بها نشير إلى قول جابر بن عبدالله : وقد رأى الحسين داخلاً المسجد :

« من أحب أن ينظر إلى سيد شباب أهل الجنة فلينظر إلى هذا »

قال : سمعته من رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ[130]

ويؤيد هذا مارواه الترمذى عن حذيفة قال : إن أمه بعثته ليستغفر له رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ولها . قال : فأتيته ، فصليت معه المغرب ثم صليت حين صلى العشاء ، ثم انفتل فتبعته ، فسمع صوتى فقال : « من هذا ؟ حذيفة » قلت : نعم . قال : « ما حاجتك ؟ غفر الله لك ولأمك ؟ إن هذا ملك لم ينزل إلى الأرض قبل هذه الليلة ، استأذن ربه بأن يسلم علىَّ ويبشرنى بأن فاطمة سيدة نساء أهل الجنة ، وأن الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة »[132]

---

(١٣٠) أخرجه الترمذى من حديث أنس بن مالك

(١٣١) أخرجه أحمد فى مسنده من حديث جابر

(١٣٢) البداية والنهاية جـ٨ صـ٢٠٦

ولقد عرف الصحابة أجمعين فضل الحسن والحسين عند أهل الأرض وعند أهل السماء ، وقد اكتسبا ذلك من تزكية النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ لهما ، وبما أفاءه الله عليهما من نعمة الأدب وحسن الخلق . .

وكانوا يتحرون رضاهما ويجزعون لغضبهما . .

روى ابن الأثير فى ترجمة عبدالله بن عمرو بن العاص قال :

عن إسماعيل بن رجاء عن أبيه قال : كنت فى مسجد الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى حلقة فيها أبوسعيد الخدرى وعبدالله بن عمرو ، فمر بنا حسين بن على ، فسلم ، فرد القوم السلام ، فسكت عبدالله حتى فرغوا ثم رفع صوته وقال : وعليك السلام ورحمة الله وبركاته ، ثم أقبل على القوم فقال : ألا أخبركم بأحب أهل الأرض إلى أهل السماء ؟

قالوا : بلى

قال : هو هذا الماشى ، ماكلمنى كلمة منذ ليالى صفِّين ، ولأن يرضى عنى أحب إلىَّ من أن يكون لى حمر النَّعم .

فقال أبوسعيد : ألا تعتذر إليه ؟

قال : بلى

قال : فتواعدا أن يغدوا إليه .

قال : فغدوت معهما ، فاستأذن أبوسعيد ، فأذن له ، فدخل ، ثم استأذن لعبدالله ، فلم يزل به حتى أذن له .

فلما دخل قال أبوسعيد : يابن رسول الله ، إنك لما مررت بنا أمس حدث كذا وكذا . . فأخبره بالذى كان من قول عبدالله بن عمرو .

فقال حسين : أعلمت ياعبدالله أنى أحب أهل الأرض إلى أهل السماء ؟

قال : إى ورب الكعبة .

قال : فما حملك على أن قاتلتنى وأبى يوم صفّين ؟ فوالله لأبى كان خيراً منى .

قال عبدالله : أجل ، ولكن عمرو ـ يقصد أباه عمرو بن العاص ـ شكانى إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال : يارسول الله ، إن عبدالله يقوم الليل ويصوم النهار . فقال لى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : ياعبدالله ، صل ونم ، وصم وأفطر ، واطع عَمْراً .

قال : فلما كان يوم صِفّين أقسم على فخرجت ، أما والله مااخترطت سيفاً ولا طعنت برمح ، ولا رميت بسهم . . .(١٣٣)

لقد جزع عبدالله بن عمرو بن العاص من إعراض الحسين عنه ، واعتبر أن ذلك إعراض من النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ عنه أيضاً لأن حب النبى فى حب الحسين . وقد حرص لذلك على ترضيته .

كرم الحسين

وكان الحسين كريماً معطاء ، لايبقى من عطائه الذى يصل إليه شيئاً ، كان يفرقه على الفقراء والمساكين ، ويصل به الأقرباء ، ويواسى به المحتاجين وقد عرف الناس عنه ذلك ، وشهد له معاوية حتى كان لايقبض عنه شيئاً .

وقد روى ابن قتيبة قال : لما قدم معاوية المدينة منصرفاً من مكة بعث إلى الحسن والحسين وعبدالله بن جعفر وعبدالله بن عمر وعبدالله بن الزبير

---

(١٣٣) أسد الغابة جـ٣ صـ٣٥١

وعبدالله بن صفوان بن أمية بهدايا من ثياب وطيب وصلات من المال . ثم قال لرسله : ليحفظ كل رجل منكم مايرى ويسمع الرد .

فلما خرج الرسل من عنده قال لمن حضر : إن شئتم أنبأتكم بما يكون من القوم . قالوا : أخبرنا ياأمير المؤمنين .

قال : أمّا الحسن فلعله يعطى نساءه شيئاً من الطيب ، ويعطى مابقى من حضره ولاينتظر غائباً .

وأما الحسين فيبدأ بأيتام من قتل مع أبيه بصفين ، فإن بقى شىء نحر به الجُزُر وسقى به اللبن .

وأما عبدالله بن جعفر فيقول : يابُدَيْح ـ اسم مولاه ـ اقصد به ديني فإن بقى شىء فأنفذ به عداتى .

وأما عبدالله بن عمر فيبدأ بفقراء عدى بن كعب ، فإن بقى شىء ادخره لنفسه ، وأطعم به عياله

وأما عبدالله بن الزبير ، فإن أتاه رسولى وهو يُسَبّح فلن يلتفت إليه ، ثم يعاوده الرسول فيقول لبعض كفاته : خذوا من رسول معاوية مابعث به ، وصله الله وجزاه خيراً ، ولايلتفت إليها . . . .

وأما عبدالله بن صفوان فيقول : قليل من كثير ، وماكل رجل من قريش وصل إليه هكذا ، ردُّوا عليه . فإن ردَّ قبلناها .

فرجع رسل معاوية من عند هؤلاء بنحو ما قال معاوية . فقال : أنا ابن هند ، وابن أبي سفيان ـ أعلم بقريش من قريش[١٣٤]

---

(١٣٤) عيون الأخبار جـ٣ صـ٤٠

إن كرم الحسين ـ رضى الله عنه ـ هو ميراثه من جده ـ صلى الله عليه وسلم ـ وكان جده فى الكرم كالريح المرسلة . ألم يقل النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ : أما الحسين فله جرأتى وجودى ؟

ولقد أشار معاوية فى قصته تلك إلى كرم الحسين ، وإلى الطريق التى كان ينفق فيها أمواله التى تصل إليه . إنها طريق صلة الأرحام .

ووصل أسر الذين استشهدوا مع أبيه وقاتلوا معه وناصروه ، وهو ضرب من البر والوفاء يعز وجود مثله ، إلا أن يكون من ميراث النبوة .

لقد كان النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ يبر أصحابه وأسرهم من بعدهم ويتفقدهم ويصلهم ويواسيهم ، وكان يعطف على كل من يراه من أصدقاء خديجة ـ رضى الله عنها ـ وكانت عائشة ـ رضى الله عنها ـ تقول : « كان يذبح الشاة يرسلها إلى صدائق خديجة فيهديها لهن »(١٣٥)

وقال الأستاذ خالد محمد خالد فى حق الحسن والحسين : كانا يعودان بالكثير من أموالهما على نفر من الذين فقدوا ثرواتهم فى سبيل القضية التى ناصروا فيها الإمام . وكانا يغدقان برهما ونداهما على أولى الأرحام وعلى الفقراء والمساكين .(١٣٦)

لم يكن المال عند الحسين ـ رضى الله عنه ـ وسيلة للترف ، ولكنه وسيلة لأداء الحقوق الكثيرة التى وجد نفسه مكلفاً بها ، لقد كان يجود بكل مايملك ، وربما أثقله الدين فى سبيل أداء هذه الحقوق .

---

(١٣٥) أسد الغابة جـ٧ صـ٨٤

(١٣٦) أبناء الرسول فى كربلاء صـ٦٧

« لقد تراكم على الحسين دين ثقيل ، وانتهز معاوية الفرصة وعرض عليه قدراً كبيراً من المال يقضي به ديونه نظير بيعه عين ماء كانت للإمام بالمدينة ، وكان الإمام قد أهداها إلى فقراء المدينة وأهلها يرتوون منها بغير حساب . ورفض الحسين هذا العرض .

ففيم إذن كانت هذه الديون رغم وفرة العطاء لقوم لايحيون فى ترف ولاسرف ؟

إنها كانت بسبب حقوق مدخرة وعطايا مبرورة تعودها الكرام أبناء الكرام .[١٣٧]

لقد مر الحسين ـ رضى الله عنه ـ يوماً بمساكين يأكلون فدعوه على عادة العرب فنزل وأكل معهم ، ثم قال لهم : قد أجبتكم فأجيبونى . ثم دعاهم إلى الغداء فى بيته[١٣٨]

فهذه القصة ترشدنا إلى تواضعه ـ رضى الله عنه ـ وإلى كرمه ومكافأته البر بالبر والإحسان بالإحسان .

وكان الشعراء يرتادونه وبهم من الطمع فى إصغائه إليهم أكثر من الطمع فى عطائه ، ولكنه على هذا كان يجرى معهم على شرعة ذوى الأقدار والأخطار من أنداده ، فيبذل لهم الجوائز ماوسعه البذل ويؤثرهم على نفسه فى خصاصة الحال[١٣٩]

---

(١٣٧) المرجع السابق

(١٣٨) الحسين بن على ـ الشيخ أحمد عبدالجواد الدومى صـ٣٦

(١٣٩) المرجع السابق

شجاعته

أما شجاعته فكانت مضرب الأمثال ، وهى ميراثه أيضا من جده ـ صلى الله عليه وسلم ـ الذى كان أشجع الشجعان ، قال على ـ كرم الله وجهه ـ : كنا إذا اشتد البأس نتقى برسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وقد تذاكر الحسن والحسين يوما بعض فضائلهما ، فقال الحسن : وددت لو أن لى بعض شدة قلبك .

وقال الحسين للحسن : وودت لو أن لى بعض بساطتك وحلمك .(١٤٠)

وقد شهد الحسين مع أبيه مواقعه . فكان قائده الذى لا يتراجع ، وفارسه الذى لاينكص .

وتجلت شجاعته الفائقة فى موقعة كربلاء التى جمع له الخصوم فيها أربعة آلاف فارس ، ووقف هو بين مائة أو أقل من أصحابه وأهله فى مواجهتهم ، لم تلن له قناة ، ولم تضعف له عزيمة ، وكان شامخ الرأس ، ثابت القلب ، قوى الساعد ، يستمد من الله ـ تعالى ـ النصر والتأييد . .

ولو أن رجلا آخر غير الحسين واجه هذا الموقف الصعب لخارت عزيمته وضعفت قوته ، وأعطى بيده ، واستسلم لخصمه ولكنها الجرأة المستمدة من جرأة رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ الذى واجه العرب كلهم وحده حتى نصره الله .

لقد تتابعت السهام نحوه كالمطر ، وإن أشجع الشجعان لينهار منها ويرجف فؤاده من تتابعها . ولكنه ـ رضى الله عنه ـ يلتفت إلى أصحابه فى ثبات وإقدام فيقول لهم : قوموا ياكرام فهذه رسل القوم إليكم .

---

(١٤٠) المرجع السابق

وكانت معه نخبة من أهل بيته وأنصاره أفاء الله عليهم من نعمة القوة والشجاعة ماأذهل خصومهم ، وأوقع الرعب فى صفوفهم ... حتى لقد عجزت خيل ابن زياد على كثرتها أن تهزم خيول الحسين على قلتها .

وظل الحسين على حضور ذهنه وثبات جأشه فى تلك المحنة الشديدة التى تعصف بالصبر وتطيش بالألباب ، وهو جهد عظيم لاتحتويه طاقة اللحم والدم ، ولاينهض به إلا أصحاب العزائم القوية من البشر فإنه ـ رضى الله عنه ـ كان يقاسي جهد العطش والجوع والسهر ونزف الجراح ومتابعة القتال ، ويلقى باله إلى حركات القوم ومكائدهم ، ويدبر لرهطه مايحبطون به تلك الحركات ويتقون به تلك المكائد ، ثم هو يحمل بلاءه وبلاءهم . . ويتكاثر عليه الأسى لحظة بعد لحظة كلما فجع بشهيد من شهدائهم ،

وكان كلما أصيب عزيز من أولئك الأعزاء حمله إلى جانب إخوانه ، وفيهم رمق ينازعهم وينازعونه ، وينسون فى حشرجة الصدور ماهم فيه . فيطلبون الماء ويحز طلبهم فى قلبه كلما أعياه الجواب ، ويرجع إلى ذخيرة بأسه فيستمد من هذه الآلام الكاوية عزما يناهض به الموت ، ويعرض به عن الحياة ويقول فى أثر كل صريع : لاخير فى العيش من بعدك .[١٤١]

أى بطولة تلك ؟ وأى بأس هذا ؟ وأى شجاعة تلك التى لم تتخل عن صاحبها فى أشد محنته ؟ لم تكن هذه الشجاعة إلا مستمدة من شجاعة جده التى لم تفارقه فى أُحد وقد تكالب الأعداء حوله من كل جانب يستهدفونه برماحهم وسيوفهم وأحجارهم ، ومع ذلك فقد ثبت فى مكانه ثبوت الجبال حتى نفخ من روحه فى روح الأبطال من حوله فأيأس المهاجين ،وأبطالهم

---

(١٤١) أبوالشهداء للعقاد صـ١٢٠

وكانت هذه الشجاعة مثار الإعجاب فى حُنَين ، حيث ولى المسلمون الأدبار أولا أمام جموع هوازن وحلفائها ، ولم يبق صامدا فى ميدان القتال سوى النبى - صلى الله عليه وسلم - وحوله حفنة من أهل بيته الأبطال وأصحابه الأعزاء ، وهو ينادى : إلىَّ إلىَّ أيها الناس ، أنا النبى لاكذب ، أنا ابن عبد المطلب ، وكأنه يريد أن يغرى العدو به ، ويعرفهم مكانه ، وهم ألوف كثيرة .

وكانت هذه الشجاعة سببا فى رجوع المسلمين إلى نبيهم قائدهم الثابت ، والتفافهم حوله ، واستردادهم النصر بعد أن أدبر ..

فشجاعة الحسين - رضى الله عنه - هى ميراثه من جده . وهى التى جعلته يتحدى هذه الجموع فلايعبأ بها .. وأوفد

خططهم ، وجعلهم يعودون دون أن يحققوا ماكانوا يرجون .. وقد أصيب وكسرت رباعيته ، وشُجَّ رأسه الشريف ، ومع ذلك ظل شامخا ثابتا يتحدى الأعداء على كثرتهم ، ويثبت أصحابه من حوله حتى تحول وجه المعركة لصالحه .

الذين قتلوا مع الحسين

روى عن الحسن البصرى : أنه قال : قتل مع الحسين ستة عشر رجلا كلهم من أهل بيته ، ماعلى الأرض يومئذ لهم شبه .

وقال غيره : قتل معه من ولده وإخوته وأهل بيته ثلاثة وعشرون رجلا ، فمن أولاد على - رضى الله عنه - : جعفر ، والحسين ، والعباس ، ومحمد ، وعثمان ، وأبو بكر .

ومن أولاد الحسين : على الأكبر ، وعبد الله

ومن أولاد أخيه الحسن : عبد الله والقاسم وأبو بكر .

ومن أولاد عبد الله بن جعفر وأمهم زينب بنت علي : عون ومحمد

ومن أولاد عقيل : جعفر وعبد الله وعبد الرحمن ، وكان مسلم قد قتل قبل ذلك .

ومن أولاد مسلم بن عقيل : عبد الله بن مسلم ، ومحمد بن أبي سعيد بن عقيل

وفيهم يقول الشاعر :

واندبي تسعة لصلب علي قد أصيبوا وستة لعقيل

وسَميُّ النبي غودر فيهم قد علوه بصارم مصقول

وقتل للحسين أخ من الرضاعة هو عبد الله بن بقطر ، وقيل : قتل قبل ذلك حين بعثه الحسين بكتاب لأهل الكوفة .

وقتل من أصحاب عمر بن سعد ثمانية وثمانون رجلا سوى الجرحى[١٤٢]

حكمته ووقاره :

لقد كان الحسين ـ رضي الله عنه ـ حكيما لبقا ، تزينه المهابة والوقار وتصدر على لسانه الحكمة الصائبة التي تنتج عن تجربة صادقة وعقل ذكي وفهم دقيق لمجريات الأمور . . .

خطب غداة اليوم الذي استشهد فيه ، فحمد الله ـ تعالى ـ وأثنى عليه ، ثم قال : « ياعباد الله ، اتقوا الله ، وكونوا من الدنيا على حذر ، فإن الدنيا لو بقيت لأحد لكانت الأنبياء أحق بالبقاء وأولى بالرضا بالقضاء ، غير أن الله ـ تعالى ـ خلق الدنيا للفناء فجديدها بال ، ونعيمها مضمحل ،

---

(١٤٢) البداية والنهاية جـ ٨ صـ ١٨٩

وسرورها مكفهر . منزل تلعة ودار قلعة ، فتزودوا فإن خير الزاد التقوى ، واتقوا الله لعلكم تفلحون »[١٤٣]

وبغض النظر عن البلاغة التي تتضمنها هذه الخطبة القصيرة ، فإنها تشير إلى حكمة عالية وموعظة بالغة وتوجيه سديد .

ويحدث الحصرى قائلا : كان لمعاوية بن أبي سفيان عين بالمدينة يكتب إليه بما يكون من أمور الناس وقريش ، فكتب إليه يقول : إن الحسين بن على أعتق جارية له وتزوجها ، فكتب معاوية للحسين يقول له :

من أمير المؤمنين معاوية إلى الحسين بن على ، أما بعد ، فإنه بلغني أنك تزوجت جاريتك . وتركت أكفاءك من قريش ممن تستحسنه للولد ، وتمجد به في الصهر ، فلا لنفسك نظرت ، ولا لولدك انتقيت .

فكتب إليه الحسين :

« أما بعد ، فقد بلغني كتابك وتعنيفك إياي بأني تزوجت مولاتي وتركت أكفائي من قريش ، فليس فوق رسول الله - صلى الله عليه وسلم - منتهى في شرف ولا غاية في نسب ، وإنما كانت ملك يميني خرجت عن يدى بأمر التمست فيه ثواب الله - تعالى - ثم ارتجعتها على سنة نبيه - صلى الله عليه وسلم - وقد رفع الله بالإسلام الخسيسة ، ووضع النقيصة ، فلا لوم على امرىء مسلم إلا في أمر مأثم وإنما اللوم لوم الجاهلية » .

فلما قرأ معاوية كتابه نبذه إلى يزيد فقرأه . . ثم قال : إنها ألسنة بني

---

(١٤٣) زهر الآداب جـ١ صـ٩٩ ، والتلعة : ماارتفع من الأرض ، وما انهبط منها وهى كذلك مسيل الملا ، ومنازل التلاع لا نبات لها ، لأنها عرضة لهجمات السيل ودار قلعة : أى انقلاع وذهاب ، لا بقاء لها .

هاشم التى تفلق الصخر ، وتغرف من البحر[١٤٤]

ومن الحكمة اللباقة فى معالجة الأمور والمحافظة على مشاعر الناس . . وقد كان للحسن والحسين من ذلك نصيب كبير . .

تحدث الرواة أن الحسن والحسين شاهدا يوما أعرابيا كبيرا فى السن لايحسن الوضوء ، فأرادا أن يبينا له خطأه ويعلماه الوضوء الصحيح دون أن يجرحا شعوره .

وتفتق ذكاء الحسين عن حيلة حسنة . فتقدم مع أخيه الحسن إلى الأعرابى فى أدب جم وقالا له :

ياعماه ، إنك أكبر منا سنا ، وهذا أخى يقول إن وضوءه أحسن من وضوئى ، وأنا أقول إن وضوئى أحسن من وضوئه وقد حكمناك فى أمرنا ، وسوف نتوضأ أمامك وتحكم بيننا .

فقبل الشيخ . .

فتقدم الحسن ـ رضى الله عنه ـ وتوضأ كأحسن مايكون الوضوء ، ثم تقدم الإمام الحسين وتوضأ كأحسن مايكون الوضوء . وبعد أن انتهيا التفتا إلى الأعرابى قائلين : من منا أحسن وضوءا ؟

وفطن الأعرابى لما فعلا ، فقال لهما : شكرا لكما لقد علمتمانى الوضوء الصحيح . صدق من سماكم آل البيت »[١٤٥]

إنها الحكمة الموروثة من النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ والتى دعاه إليها ربه حيث يقول له : ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة .

---

(١٤٤) زهر الآداب جـ١ صـ١٠٠

(١٤٥)الحسين بن على : الشيخ أحمد عبدالجواد الدومى صـ٢٩

والحكمة هبة من الله يهبها لمن يحبه « يؤت الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا ومايذكر إلا أولو الألباب »

لقد اختلف الحسن والحسين . . ولكن اختلافهما لم يفسد قضية الود بينهما . وإنما كان الاختلاف مرده إلى ماكانا يدعوان إليه من وجوب قيادة هذه الأمة على هدى كتاب الله ، وسنة رسوله . . وماورثاه من تبعة إزاء هذا الأمر . .

وقد شعر الحسن أن هذه التبعة تلزمه بحقن دماء المسلمين وشعر الحسين أن هذه التبعة تلزمه رد الظلم عن المظلومين وتوسيد الأمر أهله حتى يقودوا المسلمين إلى طريق العدل والإنصاف . .

واختلفا حول ذلك الهدف . . وحاول الحسين منع الحسن من إبرام الصلح مع معاوية : ولكنه حين رأى تصميم أخيه لم يشأ أن يخالفه ، فأدب النبوة الذى ورثه يقضى بأن يحترم الصغير الكبير ، وهذه حكمة . .

وحاول بعض الأنصار أن يبايعوا الحسين على حرب معاوية ، فرأى الحسين فى ذلك خذلانا لأخيه وثغرة كبرى للخلاف بينهما تفتح الطريق أمام خلافات أخرى تقوض الهدف الذى جاء من أجله الإسلام والذى يسعى إليه كل منهما .

فوقف من طلب هؤلاء موقفا صلبا وأبى عليهم ماأرادوا . .

ولقد قال عنه العقاد ـ رحمه الله ـ « وقد سن الحسين لم بعده سنة ، فى آداب الأسرة تليق بالبيت الذى نشأ فيه . ووكل إليه أن يرعى له حقه ويوجب على الناس مهابته وتوقيره . فهو على فضله وذكائه وشجاعته كان يستمع إلى رأى الحسن ولايسوؤه بالمراجعة أو المخالفة ، وقد أخذ نفسه

بسمت الوقار فى رعاية أسرته ورعاية الناس عامة ، فهابه الناس . . . وعرف معاوية عنه هذه المهابة ، فوصفه لرجل من قريش ذاهب إلى المدينة فقال : إذا دخلت مسجد رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فرأيت حلقة فيها قوم كأن على رؤوسهم الطير فتلك حلقة أبي عبد الله الحسين »[١٤٦]

رب البيان

وتجلت البلاغة الهاشمية ، واضحة على لسان الحسين ـ رضى الله عنه ـ وكان فى خطبه ومواعظه ونصائحه ينزع من معين هذه الدوحة المباركة التى قال فى بلاغتهم القائل : « لهم كلام يعرض حلى البيان ، وينقش فى فص الزمان ، ويحفظ على وجه الدهر ، ويفضح قلائد الدر ، ويخجل نور الشمس والبدر ، ولم لايطئون ذيول البلاغة ويحوزون فضول البراعة وأبوهم الرسول وأمهم الزهراء . وكلهم قد غذى بدر الحكم ، وربى فى حجر العلم . .

مامنهم إلا مردى بالحجا أو مبشر بالأحوذية مؤدم »[١٤٧]

وقد مرت بنا بعض خطبه ، وإليك المزيد من نثره وشعره لتحكم بنفسك على مدى ماوصل إليه الحسين ـ رضى الله عنه ـ من علو كعب فى البلاغة والفصاحة . ورفعة قدر فى نصاعة البيان وحسن الكلام .

قال عنه العلماء والأدباء : « كان الإمام الحسين فصيح الفصحاء وبليغ البلغاء ، جمع بين سلاسة العبارة وسهولة اللفظ وطلاقة اللسان وجمال

---

(١٤٦) أبو الشهداء للعقاد ٤٧

(١٤٧) زهر الأداب جـ١ صـ٩٣ ، ومردي بالحجا : اتخذ العقل رداء ـ الأحوذية : الحذق يعنى أن بشرته وأدمه أى جلده محشو بالمهارة والحذق .

الكلمة وسرعة البديهة وجزالة الأسلوب ووضوح الفكرة وسداد الرأى . وذلك كله إلى البساطة فى التعبير وعدم التكلف فى إرسال المعنى الذى يبغى توضيحه »[١٤٨]

ومن أمثلة كلامه المرتجل الذى لم يأت عن روية أو ترتيب ، ماقاله لأبى ذر ـ رضى الله عنه ـ وهو يودعه حين نفى من المدينة إلى الربذة ، قال له : « ياعماه ، إن الله قادر أن يغير ماقد ترى ، ولله فى كل يوم شأن ، وقد منعك القوم دنياهم وماأغناك عما منعوك ، فاسأل الله الصبر والنصر ، واستعذ به من الجشع والجزع ، فإن الصبر من الدين والكرم ، وإن الجشع لايقدم رزقا ، والجزع لايؤخر أجلا »

أية حكمة تستبطنها هذه الكلمات القلائل ؟ وأى روعة فى بيانها ودقة فى أسلوبها ؟ وإن فيها من ضروب المجاز والبديع مايسهب فى بيانه الأدباء مع مجيئه عفو الخاطر فى غير كلفة أو تعمل ، وهذه هى البلاغة .

وله أبيات من الشعر رائعة ، منها ماسبق أن ذكرناه من قوله ، وقد أوشكت معركة كربلاء على الاحتدام ، وهو يعالج سيفه ويصلحه :

يادهـــر أف لـك مـن خليـــل كم لك بالاشـراق والأصـيل

مـن صاحـب أو طـالب قتيـل والدهـــر لايقنـــع بالبـــديل

وإنمـــا الأمـــر إلى الجليـــل وكـل حـى ســالك الســـبيل

ومن نصائحه الحكيمة التى ينطق بها شعره قوله :

---

(١٤٨) الحسين بن على للشيخ أحمد عبدالجواد الدومى صـ٣٢

اغن عن المخلوق بالخالق تسد على الكاذب والصادق
واسترزق الرحمن من فضله فليس غير الله من رازق
من ظن أن الناس يغنونه فليس بالرحمن بالواثق
أو ظن أن المال من كسبه زلت به النعلان من حالق[149]

ومن شعره أيضا :

لئن كانت الدنيا تعد نفيسة فدار ثواب الله أعلى وأنبل
وان كانت الأبدان للموت أنشئت فقتل امرىء بالسيف فى الفضل أفضل
وإن كانت الأرزاق شيئا مقدرا فقلة سعى المرء فى الرزق أجمل
وإن كانت الأموال للترك جمعها فما بال متروك به المرء يبخل ؟

وهى أبيات تبين منهجه فى الحياة ، وقد سلكه ، ومات فى سبيل الله فعلا مقتولا بالسيف . لقد اختار الطريق الشريف لنهاية الحياة .

إن هذا الشعر يدور حول المعانى الدينية العميقة التى تدعو قارئها إلى التأمل والتدبر فى عاقبة أمره ...

واقرأ الأبيات الآتية التى رواها الأعمش عن الحسين ، وانظر إلى ماتحمله من فكرة عميقة ونظرة دقيقة . .

كلما زيد صاحب المال مالا زيد فى همه وفى الاشتغال
قد عرفناك يامنغصة العيش ويادار كل فان وبال
ليس يصفو لزاهد طلب الزهد إذا كان مثقلا بالعيال

لقد فطن الحسين - رضى الله عنه - فى هذه الأبيات إلى معنى الأثر

---

(149) البداية والنهاية جـ 8 صـ 209

الشريف الذى يقول : « خذ من الدنيا ماشئت وبقدره هم » وإلى معنى قوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ « لو كان لابن آدم واديا من الذهب لتمنى ثالثا . . ولايملأ جوف ابن آدم إلا التراب »

أما قوله : إن الزهد لايصفو لصاحب العيال فهو من روائع الحكمة وصادق التجربة .

وله إلى جانب ذلك بعض الأبيات الشعرية فى الغزل العفيف قالها فى زوجته الوفية الرباب بنت أنيف : أو بنت أمرىء القيس بن عدى بن أوس الكلبى ـ أم ابنته سكينة :

لعمرك إننى لأحب دارا   تكون بها سكينة والرباب
أحبهما وأبذل كل مالى   وليس لعاتب عندى عتاب
ولست لهم وإن عتبوا مطيعا   حياتى أو يغيبنى التراب[١٥٠]

وفى قصة زواج الحسين من الرباب يذكر ابن كثير هذه القصة : أسلم امرؤ القيس بن عدى على يدى عمر بن الخطاب ، وأمره عمر على قومه ، فلما خرج من عنده خطب إليه على بن أبى طالب أن يزوج ابنه الحسن أو الحسين من بناته .

فزوج امرؤ القيس ابنته سلمى للحسن . وزوج ابنته الرباب للحسين وأحب الحسين زوجته الرباب حبا شديدا ، وكان بها معجبا . . ولما قتل ـ رضى الله عنه ـ بكربلاء كانت معه فوجدت عليه وجدا شديدا ، وذكر أنها أقامت على قبره سنة كاملة ثم انصرفت وهى تقول :

---

(١٥٠) البداية والنهاية جـ٨ صـ٢١٠

إلى الحول ثم اسم السلام عليكما ومن يبك حولا كاملا فقد اعتذر .

وقد خطبها بعد الحسين خلق كثير من أشراف قريش ، فرفضت وقالت :

ماكنت لأتخذ حماً بعد رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، والله لايؤويني ورجلاً بعد الحسين سقف أبداً ، ولم تزل كذلك حتى ماتت بعده بقليل ، وقد أعقبت منه سكينة أجمل وأتقى نساء عصرها ، وسيأتى حديث عنها إن شاء الله تعالى . . . .

علمه وعبادته

وكان الحسين ـ رضى الله عنه ـ عالماً فقيهاً ورعا ، يعرف دينه معرفة وثيقة . ذلك ميراثه من جده ـ صلى الله عليه وسلم ـ وحديث الثقلين المشهور يشهد بذلك :

روى زيد بن أرقم قال : قام فينا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يوماً خطيباً فى مكان يدعى « خُماً » بين مكة والمدينة ، فحمدا لله وأثنى عليه ووعظ وذكر ، ثم قال : « أما بعد ـ ألا أيها الناس فإنما أنا بشر يوشك أن يأتى رسول ربى فأجيب ، وأنا تارك فيكم ثقلين أولهما كتاب الله فيه الهدى والنور ، فخذوا بكتاب الله واستمسكوا به » فحث على كتاب الله ورغب فيه ، ثم قال : « وأهل بيتى ، أذكركم الله فى أهل بيتى ، أذكركم الله فى أهل بيتى ، أذكركم الله فى أهل بيتى » . . . فقال له حُصيْن : ومن أهل بيته يازيد ؟ أليس نساؤه من أهل بيته ؟ قال : نساؤه من أهل بيته ، ولكن أهل بيته من حرم الصدقة بعده ، قال : ومن هم ؟ قال : هم آل على ، وآل عقيل ، وآل جعفر ، وآل عباس . قال : كل هؤلاء حرم الصدقة ؟

قال : نعم . . . .[١٥١]

فالحسين من أهل بيت النبى - صلى الله عليه وسلم - الذين أوصى بهم ، وجعل فيهم حفظ سنته وسداد دين الله . .

وهو ابن على - كرم الله وجهه - مدينة العلم ، وفقيه الأمة ، الذى ورد فى حقه المثل المشهور « قضية ولا أبا حسن لها » . . . وما سئل عن شىء إلا كان جوابه حاضراً ، وهو صاحب نهج البلاغة الذى أعيا من بعده بلاغة وعلماً . ومن قوله فيه : « نحن شجرة النبوة ومحط الرسالة ، ومختلف الملائكة ، ومعادن العلم ، وينابيع الحكمة »[١٥٢]

ومن قوله : « أيها الناس اسألونى قبل أن تفقدونى ، فوالذى نفسى بيده لاتسألونى عن شىء فيما بينكم وبين الساعة ولا عن فئة تهدى مائة وتضل مائة إلا أنبأتكم بناعقها وقائدها وسائقها ومناخ ركابها . . . .[١٥٣]

لقد ورث الحسين عن أبيه علمه ، وسار على نهجه فى تقواه وورعه ، كما اكتسب من جده - صلى الله عليه وسلم - الكثير[١٥٤]

وورث بعض علم النبى - صلى الله عليه وسلم - وخُلُقَه ومبالغته فى العبادة ، والتقوى . .

وقد بلغ الحسين الغاية فى العلم ، لا يسأله أحد عن شىء إلا وجد عنده

---

(١٥١) صحيح مسلم جـ٧ صـ٢٧٢ - فضائل على حديث رقم ٣٧ ، جمع الجوامع جـ١ صـ٢٨٤٨ ط مجمع البحوث الاسلامية وهو كذلك فى مسند أحمد ، وابن أبى شيبة ، وابن حبان

(١٥٢) نهج البلاغة صـ١٣٤

(١٥٣) نهج البلاغة صـ١١٦

(١٥٤) أبوالشهداء للعقاد صـ٤٤

غَنَاءً فيما يسأل ، ولو كان من وحشى الكلام وغرائب اللغة . .

يذكر الرواة أن أعرابيا قصده وسأله بكلام وحشى يريد الإغراب عليه فقال له : جئتك من الهرقل والجعلل والأَيْتَم والهمهم .

فتبسم الحسين ـ رضى الله عنه ـ وفسر له كلامه قائلاً : الهرقل ملك الروم ، والجعلل : قصار النخل ، والأيتم : بعض النبات ، والهمهم : القليب الغزير الماء[155] وكانت هذه الكلمات إشارات إلى الأماكن التى جاء منها هذا الأعرابى ، فقال الأعرابى : مارأيت كاليوم أحسن من هذا الغلام كلاماً وأذرب لساناً ، ولا أفصح منه منطقاً .

وكانت له حلقة فى المسجد النبوى يلقى فيها العلم ، وقد أشار إليها معاوية فيما سبق أن ذكرناه . .

أما فى العبادة فقد كان فيها مجتهداً أشد مايكون الاجتهاد ، كان يقوم الليل ولا يفتر ، ولايشغله عن العبادة أى شىء مهما كان . . ففى ليلة المعركة التى قتل فيها بات هو وأصحابه طول ليلهم يصلون ويستغفرون ويدعون ويتضرعون . .

وكانت له دعوات صادقة خالصة ذكرنا بعضها فى أثناء حديثنا . .

وكان ـ رضى الله عنه ـ يُقْبل على فريضة الحج إقبالاً عظيماً ، يتلذذ بتكبد المشقة فى أدائه فقد قال الرواة : إنه حج خمساً وعشرين حجة ماشياً على قدميه ، والنجائب تقاد بين يديه ،[156] ويُحكى ذلك عن أخيه الحسن

---

(١٥٥) المرجع السابق

(١٥٦) البداية والنهاية جـ٨ صـ٢٠٧ ـ العقد الفريد جـ٣ صـ٢٤٣

أيضاً ، وهم ذرية بعضها من بعض .

قيل لعلى بن الحسين : ماكان أقل ولد أبيك . قال : العجب كيف ولدت له ، كان يصلى فى اليوم والليلة مايقرب من ألف ركعة ، فمتى كان يتفرغ لأهله ؟[157]

أثر قتل الحسين

كان لمقتل الحسين ـ رضى الله عنه ـ بهذه الصورة المفجعة . آثار كثيرة متعددة . . . . منها قوة النفس وثبات الموقف ، وروعة البطولة ، التى تجلت فى الحسين وصحبه وأهله . . . . من ماتوا معه ومن بقى منهم . .

ومازال الناس يتمثلون موقف اثنين وسبعين بطلاً أمام أربعة آلاف فارس مدججين بالسلاح يوماً كاملاً دون أن تستطيع هذه الكثرة الغالبة أن تحقق نصراً حاسماً ، ولقد نالت القلة من الكثرة أضعاف ما نالت الكثرة من القلة .

وعادت الكثرة بعد أن ارتكبت خطأها الفاحش ـ وهى تظن أنها قد انتصرت ـ . . . ولكن أى نصر هذا الذى أريقت فيه دماء أهل بيت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ على يد أناس يزعمون أنهم يدافعون عن الإسلام لقد دمغ التاريخ كل من اشترك فى دم الحسين بوصمة شنار لزمته حتى مات ميتة هوان ، استجابة لدعوة الحسين قبل أن يرحل ، فقد صاح فى هؤلاء القساة قائلاً : أعلى قتلى تجتمعون ؟

إنى لأرجو الله أن يكرمنى بهوانكم ثم ينتقم لى من حيث لاتشعرون

---

(١٥٧) العقد الفريد جـ٣ صـ٢٤٣

وقد تعقبت يد الانتقام هؤلاء الذين شاركوا فى قتله واحداً واحداً لم تفلته حتى انتقمت منهم أمام الأجيال .

ويحكى الرواة فى ذلك أخباراً ـ لاندرى مدى صحتها

قال ابن الأثير : أخبرنا محمد بن عيسى ، أخبرنا واصل بن عبدالأعلى ، أخبرنا أبو معاوية ، عن الأعمش ، عن عمارة بن عمير ، قال : لما جىء برأس ابن زياد وأصحابه ، نضّدت فى المسجد ، فانتهيت إليهم وهم يقولون : قد جاءت ، قد جاءت ، فإذا حية قد جاءت تتخلل الرءوس حتى دخلت فى منخر عبيدالله بن زياد ، فمكثت هنيهة ، ثم خرجت ، فذهبت حتى تغيبت ، ثم قالوا : قد جاءت ، قد جاءت ، ففعلت ذلك مرتين أو ثلاثاً . .

قال الترمذى : هذا حديث حسن صحيح[158]

لقد أراد الله أن يجعل فى ابن زياد عبرة إلى جانب عبرة قتله .

أما كيف قتل ابن زياد فإليك القصة .

بعد استشهاد الحسين بأربع سنوات قامت حركة تسمى حركة التوابين الذين تنادوا بالثأر للحسين . . واجتمعوا تحت قيادة سليمان بن صرد ، وكانوا قد ندموا على تخليهم عن الحسين بعد أن أغروه بالقدوم عليهم ، وأقسموا على أن يأخذوا بالثأر له أو يموتوا دون ذلك .

وزحف إليهم عبيدالله بن زياد فى ثلاثين ألفاً ، وحدثت معركة عظيمة قتل فيها كثير من أهل الشام وأهل العراق . . . ثم تولى أمر الأخذ بالثأر ـ

---

(١٥٨) أسدالغابة جـ٢ صـ٢٣

المختار بن عبيدالله الثقفى ، فأخذ يتتبع قتلة الحسين واحداً بعد واحد فيقلتهم ، حتى قتل شمر بن ذى الجوشن ، وخولى بن يزيد الأصبحى الذى احتز رأس الحسين ـ رضى الله عنه ـ وعمر بن سعد بن أبى وقاص وغيرهم . .

وقام عبيدالله بن زياد بقيادة جيش كثيف لمقاتلة المختار بن عبيدالله الثقفى ومن معه من التوابين الذين يثأرون للحسين ، فالتقوا بالموصل ، ودارت معركة عنيفة انتهت بمقتل ابن زياد ، والحصين بن نمير ، وشرحبيل بن ذى الكلاع ، وغيرهم ممن كان قد اشترك فى قتل الحسين .

ثم قطع رأس ابن زياد وسُيِّر إلى المختار بن عبيدالله الثقفى . . وقيل إن المختار سيَّر الرأس ومعها رءوس مَنْ قتل مع ابن زياد الى عبدالله ابن الزبير فى مكة . . (١٥٩)

وكان مصرع الحسين قد أدى إلى ثورة عارمة فى كل مكان ، وبخاصة بعد أن اشتعلت ثورة المدينة التى توجهت إليها حملةٌ غاشمة بقيادة مسلم بن عقبة المزنى وتحت إمرته عشرة آلاف فارس ، فاستباح المدينة وقتل أهلها وأسرف فى القتل ، ولم يرع أنها حرم آمن حرمه رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وقد زاد ذلك من سخط الناس على الخليفة يزيد بن معاوية . .

وسميت موقعة المدينة هذه التى قضت على ثورتها باسم موقعة الحرة ، وكانت سنة ثلاث وستين من الهجرة .

قال ابن كثير : وكان القتال فى المدينة خطأً كبيراً فاحشاً . . مع ماانضم

---

(١٥٩) مروج الذهب للمسعودى جـ٢ صـ٧٤ ، ٧٥

إلى ذلك من قتل أناس من الصحابة وأبنائهم ، وقد أدى ذلك إلى وقوع مفاسد كثيرة ومحن شديدة بالمسلمين[١٦٠]

هذا ويحلو لبعض الرواة والمحققين أن يوازنوا بين المتنازعين فى ملحمة كربلاء ، ليحكموا من خلال هذه الموازنة للظافر الحقيقى فيها .. فهل الظافر هو الذى تخلص من غريمه وقضى عليه ؟ يقول العقاد فى ذلك :

« قد ظفر التاريخ فى الصراع بين الحسين بن على وخصومه بميزان من أصدق الموازين التى تتاح لتمحيص الجزاء الحق فى أعمال الشهداء فقلما تتاح فى أخبار الأمم شرقاً وغرباً عبرة كهذه العبرة بوضوح معالمها وأشواطها ، وفى تقابل النصر والهزيمة فيها بين الطوالع والخواتم ، على اختلاف معارض النصر والهزيمة .

فخصوم الحسين فى يوم كربلاء هم أصحاب النصر المؤزر الذى لايشوبه خذلان .

والحسين فى ذلك اليوم هو المهزوم الذى قتل فى المعركة وكانت الهزيمة ساحقة وقاضية من حيث الظاهر .

« ثم تنقلب الآية أيما انقلاب ، ويقوم الميزان فلا يختلف عارفان بين كفة الرجحان وكفة الخسران ..

أى أن كفة الحسين هى الراجحة بعد ذلك على الرغم من استشهاده ، وكفة خصومه هى الخاسرة على الرغم من تخلصهم من خصمهم .

يقول العقاد : « ووجهتنا من هذه العبرة أن يعطى كل حقه بمعيار لاغبن فيه .

---

(١٦٠) انظر البداية والنهاية جـ٨ صـ٢٢٢

فإذا سعى أحد بالحيلة وبلغ مأربه فليكن ذلك مغنمه وكفى : ولاينفعه ذلك فى استلاب السمعة المحبوبة والعطف الخالص والثناء الرفيع .

وإذا خسر أحد حياته فى سبيل إيمانه بما هو صحيح فلتكن تلك خسارته وكفى ، ولاينكب فوق ذلك بخسارة فى السمعة والعطف والثناء . . . »

وهو يريد أن يقول : إن خصوم الحسين قد كسبوا المعركة . . . ولكن الحسين ظل على الرغم من ذلك هو الحسين ، الشهيد المجنى عليه ، السبط الشريف الذى يتعشقه الناس ويسعون إليه ، والذى استشهد فى سبيل قضيته ، ومات بطلاً شجاعاً لم يحن قامته ، ولم يُعط بيده . .

ولكن البعض يقولون : ماكان أغنى الحسين عن ذلك الخروج على الخليفة ، والمغامرة بعدد قليل من الناس أمام جيش كثيف يواجهه وهو رأى يجنح إلى المسالمة ، ويراه كثير من الناس أفضل على كل حال مما حدث . .

ويرد آخرون بأنه كان أيضاً فى مقدور خصوم الحسين أن لايلجئوه هو أو غيره إلى الخروج عليهم . . وذلك باتباع الطريقة المثلى فى نظام الخلافة وطريقة أخذ البيعة ، ومعالجة الأمور بالحكمة وعدم اللجوء إلى القوة والسعى إلى المصالحة خصوصاً وأن الحسين كما يذكر كثير من الرواة قد عرض الصلح ومال إلى الحوار .(١٦١)

قبر الحسين :

تذكر بعض الروايات أنه بعد إنتهاء المعركة ، حُزَّ الرأس الشريف وحُمِلَ إلى يزيد فى دمشق أما الجسد فقد وُورِى فى مكانه بكربلاء مع بقية القتلى

---

(١٦١) أنظر أبوالشهداء للعقاد صـ١٤٥

الذين قتلوا فى ميدان المعركة . .

فمع حلول الليل جاء جماعة من بنى أسد كانوا ينزلون بتلك الأنحاء وحفروا القبور على ضوء القمر الذى كان بلغ التمام واشتد نوره ، وواروا فيها تلك الأجساد الطاهرة . .

وأصبحت كربلاء مزاراً يجتذب شيعة أهل البيت من كل مكان عبر الأزمان حتى وقتنا هذا . تذكر فيذكر الحسين رضى الله عنه ببطولته وشرفه ونسبه الطاهر وبنوته للنبى - ﷺ - وتضحيته بنفسه فى سبيل المبدأ .

قال ابن كثير : وقد اشتهر عند كثير من المتأخرين أنه دفن فى مشهد على بمكان من الطف عند نهر كربلاء ، فيقال : إن ذلك المشهد مبنى على قبره ، وقال ابن جرير الطبرى وغيره : إن موضع قتله عفى أثره حتى لم يطلع أحد على تعيينه بيقين .

قال : وكان أبونُعَيم الفضل بنُ دكَيْن ينكر على من يزعم أنه يعرف قبر الحسين ، وذكر ابن الكلبى أن الماء لما أجرى على قبر الحسين نضب الماء بعد أربعين يوماً ، فجاء أعرابى من بنى أسد فجعل يأخذ قبضة قبضة ويشمها حتى وقع على قبر الحسين فبكى وقال : بأبى أنت وأمى ، ما كان أطيبك وأطيب تربتك ، ثم أنشأ يقول :

أرادوا ليخفــوا قــبره عـن عــدوه   فطيب تراب القبر دل على القبر[١٦٢]

أما الرأس الشريف ، فقد قطع وحمل كما تقول بعض الروايات إلى عبيدالله بن زياد فى الكوفة ، فأرسله بدوره إلى يزيد بن معاوية بدمشق . .

---

(١٦٢) البداية والنهاية جـ٨ صـ٢٠٣

وقيل : إن يزيد بعث بالرأس إلى عمرو بن سعيد نائبه على المدينة فدفنه بجوار أمه ـ رضى الله عنها بالبقيع . . .

ويرى البعض أن القول بوجود الرأس فى المدينة المنورة هناك ما ينقضه . . . . ومن ذلك ما ذكره المسعودى أنه كان يوجد حتى القرن الرابع الهجرى شاهد متكوب عليه العبارة الآتية : « الحمد لله مميت الأمم ومحيى الأمم ، هذا قبر فاطمة بنت رسول الله ـ ﷺ ـ سيدة نساء أهل الجنة ، والحسن بن على بن أبى طالب ، وعلى بن الحسين بن على ، ومحمد بن على ، وجعفر بن محمد ـ رضوان الله عليهم أجمعين ـ . .

فلو أن الرأس الشريف كان مدفوناً فى البقيع لما أغفل ذكر اسم الحسين . وهذا النص منقول من كتاب الإشراف والتنبية للمسعودى .(١٦٣)

وقيل : إن الرأس أعيد إلى كربلاء ليدفن مع الجسد .

وقيل : إنه أخذ إلى عسقلان فدفن بها .

ثم نقل الرأس من عسقلان إلى القاهرة حين غلب الصليبيون على هذه المدينة ، فقد تقدم الصالح طلائع بن رزيك وزير الفاطميين ودفع ثلاثين ألف درهم ، واسترد الرأس الشريف حيث دفن فى القاهرة فى المشهد المعروف بالمشهد الحسينى الآن .

جاء فى كتاب « تحفة الأحباب » للعلامة السخاوى أن المشهد الحسينى بالقاهرة أنشاه بسبب رأس الحسين الوزير طلائع بن رزيك ، وأما المدرسة التى بجواره فإن السلطان صلاح الدين الأيوبى جعل بها تدريساً وأوقف لها ،

---

(١٦٣) آل بيت النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى مصر للأستاذ أحمد أبوكف صـ٣٦

فلما وُزِّرَ معين الدين ابن شيخ الشيوخ بن حمويه فوض إليه الأمر بالمشهد بعد إخوته ، فجمع أوقافه ، وبنى به إيوانا للتدريس وبيوتاً للفقهاء ، والمقبرة التى كانت توجد بجوار هذا المشهد كبيرة تسمى تربة الزعفران .(١٦٤)

وبناء على هذه الرواية ذكر بعض الباحثين أن الرأس الشريف موجود بالقاهرة ، والدليل الذى أيد به هذا القول ـ ما ذكره المقريزى فى خططه أن الصالح بن رزيك بنى مسجدا لرأس الحسين بعد نقله من عسقلان خشية استيلاء الفرنجة عليه . وهو المسجد المعروف بمسجد طلائع خارج باب زويلة « بوابة المتولى الآن » .

ثم نقل الرأس إلى المشهد الحالى بعد ذلك .

وجاء فى كتاب « العدل الشاهد فى تحقق المشاهد » أن المرحوم عبدالرحمن كتخدا لما أراد توسيع المسجد المجاور للمشهد الحسينى قيل له : إن هذا المشهد لم يثبت فيه دفن ، فأراد تحقيق ذلك ، فكشف المشهد الشريف بمحضر من الناس ، ونزل الأستاذ الجوهرى الشافعى ، والأستاذ الشيخ الملّوى المالكى ـ وكانا من كبار العلماء العاملين ، وشاهدا ما بداخل البرزخ ، ثم ظهرا وأخبرا بما شاهداه ، وهو كرسى من الخشب الساج ، عليه طشت من ذهب ، فوقه ستار من الحرير الأخضر تحتها كيس من الحرير الأخضر الرقيق داخله الرأس الشريف ، فابتنى على إخبارهما تحقيق هذا المشهد ، وبنى المسجد والمشهد وأوقف عليه أوقافا يصرف المسجد من ريعها .(١٦٥)

---

(١٦٤) تحفة الأحباب للسخاوى صـ٦٩

(١٦٥) مجلة منبر الاسلام جادى الأخرة ١٣٩١ هـ ـ يوليو ١٩٧١ م

وقد أكد البعض وجود الرأس بالقاهرة ولم يجعل ذلك أمراً ممكناً أو راجحاً فقط ، وذكر أن من الأسباب التى بنى عليها هذا التأكيد هو ذلك الاهتمام بالمشهد الحسينى قرناً وراء قرن .

ومن الأدلة التى ذكرت لتأكيد ذلك أيضاً أن كثيراً من أتباع أهل البيت الذين جاءوا إلى مصر عبر العصور اختاروا مقامهم وسكناهم ، بل مقار أعمالهم بجوار الرأس الشريف . .

ويضاف إلى ذلك تلك المقصورة التى أهدتها جماعة البهرة للمشهد الحسينى . وهذه الجماعة فيها الكثير من العلماء والباحثين الذين درسوا وتأكدوا من وجود الرأس الشريف فى القاهرة وهو السبب فى إهدائهم المقصورة عام ١٩٦٥ م ، والتى تكلفت ـ حينذاك ـ ثلث مليون جنيه ، جمعت كلها من جماعة البهرة أنفسهم .(١٦٦)

ويقول العقاد فى موضوع الرأس الشريف ووجوده فى القاهرة ؛ اتفقت الأقوال فى مدفن جسد الحسين ـ عليه السلام ـ وتعددت أيما تعدد فى موطن الرأس الشريف .

ويقول القاموس الإسلامى : اختلفت الروايات فى المكان الذى دفن فيه الرأس الشريف ، فقيل : دمشق ، وقيل : القاهرة أو عسقلان ، وقيل : فى غيرها ، وأقيمت فوق هذه المواضع أضرحة ومساجد تحمل اسم الحسين . . .

كما يقول فى مادة « المشهد الحسينى » : اسم يطلق على الضريح الذى

---

(١٦٦) آل البيت لأحمد أبوكف صـ٣٨

دفن فيه رأس الحسين بعد استشهاده بكربلاء ، وأشهر هذه المشاهد :

١ ـ مشهد الحسين بكربلاء . وبه جثمان الحسين ، وقيل : رأسه كذلك . ففى رواية أنه أعيد إلى موضع الجسد بعد أربعين يوماً من استشهاده .

٢ ـ مشهد عسقلان ، قيل : كان به رأس الحسين ، نقل إليها من دمشق ومنها حمل إلى القاهرة عندما غزاها الصليبيون .

٣ ـ مشهد حلب على جبل الجوشن ، ينسب بناؤه إلى الملك الصالح الأيوبى .

٤ ـ مشهد دمشق وهو بصحن المسجد الأموى ، وقيل : إن الرأس كان به ثم حمل منه إلى عسقلان . وقيل : إلى المدينة ودفن بمقبرة المدينة فى جوار مدفن الحسن ـ رضى الله عنه .

٥ ـ مسجد الحسين بالقاهرة ، وهو مسجد تاريخى تجددت عمارته فى مختلف العصور وهو يضم الضريح الذى يقال : إن رأس الحسين حمل إليه من عسقلان سنة ثمان وأربعين وخمسمائة هجرية ـ ١١٥٣م ، ودفن به ، وأقام عليه الأفضل الجمالى مشهدا وقبة ، وأقام صلاح الدين الأيوبى بجواره مدرسة عام سبعة وستين وخمسمائة هجرية ـ ١١٧١ م .

وقد تواترت أنباء المحققين على صحة وجود الرأس الشريف بالمشهد الحسينى بالقاهرة ، وفى عناية الخلفاء والمصلحين بتعمير المسجد وتزيينه عبر العصور دليل آخر يضاف إلى الأدلة التى تؤكد وجود الرأس الشريف بالقاهرة .

وهذه العناية قديمة فبعد تجديد الجمالى وصلاح الدين الأيوبى ، أقام أبوالقاسم الزرزور أول منارة على باب المشهد عام ثلاثة وعشرين وستمائة

هجرية - ١٢٣٥ م ، ثم تتابعت أعمال التعمير والتجميل ، لا سيما بعد الحريق الذى لحق بالمبنى عام ستة وأربعين وستمائة - ١٢٤٨ م .

وممن عنى بتجديد المسجد محمد باشا الشريف الوالى العثمانى فى عام أربعة وألف هجرية - ١٧٠٢ م . وعبدالرحمن كتخدا عام ألف وخمسة وسبعين ومائة هجرية - 1789 م .

وفى العصور الحديثة عنى بتجديده عباس باشا الأول ، والخديوى إسماعيل الذى زينه بالرخام الذى جلبه من اسطنبول ، ثم الخديوى عباس الثانى .

وفى عام ثمانية وخمسين وثلثمائة وألف هجرية - ١٩٣٩ م رفع التابوت الخشبى ، ثم أعادته إلى مكانه إدارة حفظ الآثار العربية بعد إصلاحه .

وفى عام ثلاثة وثمانين وثلثمائة وألف هجرية أتمت وزارة الأوقاف المصرية توسيع المسجد وإعادة زخرفة سقفه .

كما أعيد تجميل المقصورة عام خمسة وستين وتسعمائة وألف . .

وأخيراً أهدت طائفة البهرة المقصورة الحالية وهى آية فى الإبداع والإتقان وحسن الفن ودقة الصنع .

وفى أواخر عام ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥ م تم تجديد المشهد وتغيير القبة وأدخلت بعض التعديلات الجميلة مع الاحتفاظ بالنقوش الأثرية البديعة .[١٦٧]

ويلحق بالمقصورة حجرة يقال إن بها بعض المخلفات النبوية الشريفة وهى تشمل - قطعة من القميص الشريف .

---

(١٦٧) أهل البيت فى مصر - عبدالحفيظ فرغل صـ٤٦

وقطعة من العصا ، وشعرات من اللحية والرأس الشريفين ، ومصحفين بالخط الكوفي ـ قيل : إنهما بخط الخليفتين عثمان وعلى ـ رضى الله عنهما ـ[168]

ولم يجزم مؤلف القاموس الإسلامى بنسبة هذه الآثار أو بعضها إلى النبى ـ ﷺ ـ أو إلى خليفتيه ـ رضى الله عنهما ـ

وقد أنشأ هذه الغرفة عباس حلمى الثانى ونقل إليها الآثار النبوية المذكورة عام ١٣٠٥هـ

وهذه الغرفة الآن مفروشة بالسجاد الثمين ، وفيها مصابيح وثريات بلورية نادرة ، وجدرانها مكسوة بالرخام المجزع ، وبها محراب صغير وبها دولاب حائط مكسو بالجوخ الأخضر مكتوب أعلاه « إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها »

وهذه الآثار النبوية الشريفة يقال : إن أهل البيت تداولوها ، وحافظ عليها الخلفاء والأمراء .

وتذكر بعض الكتب أن هذه الآثار فى مصر كانت عند بنى إبراهيم فى مدينة ينبع بالحجاز ، وهؤلاء توارثوها حتى القرن السابع الهجرى ـ الثالث عشر الميلادى ـ فاشتراها منهم الصاحب تاج الدين الوزير المصرى فى عهد الظاهر بيبرس ، واختلف فى المبلغ الذى دفع فيها فقيل : ستون ألف درهم فضة ، وقيل : مائتان وخمسون ألف درهم . وقيل : مائة ألف درهم .

ونقلت الآثار إلى مصر ، وحفظت بمكان على النيل سمى : رباط

---

(١٦٨) القاموس الاسلامى ص ٩٧

الآثار ، أو الرباط الصاحبي الناجي ، ويعرف الآن باسم « أثر النبي » في مصر القديمة . .

وكان لهذا الرباط أهميته ، فعين له شيخ يشغل وظيفة : شيخ الآثار النبوية .

ثم نقلت هذه الآثار من هذا الرباط ـ الذي تعرض لغزو النيل له وطغيان الفيضان عليه عدة مرات حتى تهدم وخشي على الآثار من السرقة ـ نقل إلى قبة السلطان الغوري سنة ٩٢٦ هجرية ، وبقيت في هذه القبة ثلاثة قرون إلى أن نقلت عام ١٢٧٥ هـ إلى المشهد الزينبي ، ثم نقلت إلى خزانة القلعة واستمرت بها حتى نقلت إلى ديوان عموم الأوقاف سنة ١٣٠٤هـ ، ثم في عام ١٣٠٥هـ نقلت إلى المشهد الحسيني وحفظت في دولاب خاص بها ثم خصصت لها الحجرة التي نقلت إليها عام ١٣١١هـ في احتفال عظيم .[١٦٩]

هذه بعض ملامح عن المشهد الحسيني بالقاهرة وما ألحق من منشآت ، وقد توافد على زيارته عبر الأزمان كثير من الزوار من مختلف الأقطار ووصفوا المشهد وما به من عمران . . . ومن هؤلاء الرحالة ابن جبير الذي وصف المقصورة التي أهداها صلاح الدين الأيوبي للمشهد الحسيني وهي تشبه المقصورة التي أهداها للإمام الشافعي عام ٥٧٤هـ .

وذكره ابن بطوطة في رحلته فقال : ومن المزارات الشريفة المشهد العظيم الشان ، حيث رأس الحسين بن علي ـ عليهما السلام ـ وعليه رباط ضخم عجيب البناء ، على أبوابه حلق الفضة وصفائحها ، وهو موفى الحق من الإجلال والتعظيم . .[١٧٠]

---

(١٦٩) آل البيت في مصر لأحمد أبو كف ص٤٣ ملخصا

(١٧٠) رحلة ابن بطوطة ص٣٤

وكان ابن بطوطة قد زار عسقلان وذكر فى رحلته أيضا أن بها المشهد الشهير حيث كان رأس الحسين بن على ـ عليهما السلام ـ قبل أن ينقل إلى القاهرة ، وهو مسجد عظيم سامى العلو[171] وقد كانت هذه الرحلة فى القرن الثامن الهجرى .

ويعلق العقاد على كثرة مشاهد الرأس الشريف قائلاً : ـ الأماكن التى ذكرت بهذا الصدد ستة فى ست مدن هى : المدينة ، وكربلاء ، والرقة ، ودمشق ، وعسقلان ، والقاهرة . . . وهذه المدن توجد فى بلاد الحجاز والعراق والشام وبيت المقدس والديار المصرية ، وتكاد تشتمل على مداخل العالم الإسلامى كله من وراء تلك الأقطار ، فإن لم تكن هى الأماكن التى دفن فيها رأس الحسين ، فهى الأماكن التى تحيا بها ذكراه لامراء .

وللتاريخ اختلافات كثيرة نسميها بالاختلافات اللفظية أو العرضية ، لأن نتيجتها الجوهرية سواء بين جميع الأقوال . . . ومنها الاختلاف على مدفن رأس الحسين ـ عليه السلام ـ فأيا كان الموضع الذى دفن به ذلك الرأس الشريف فهو فى كل موضع أهل للتعظيم والتشريف ، وإنما أصبح الحسين بكرامة الشهادة وكرامة البطولة وكرامة الأسرة النبوية معنى يحضره الرجل فى صدره ، وهو قريب أو بعيد من قبره ، وإن هذا المعنى لفى القاهرة ، وفى عسقلان ، وفى دمشق وفى الرقة ، وفى كربلاء وفى المدينة ، وفى غير تلك الأماكن سواء[172]

أخرج ابن عساكر فى التاريخ والطبرى فى تاريخه :

---

(١٧١) رحلة ابن بطوطة ص ٤٧

(١٧٢) أبو الشهداء ص ١٢٨

« أن السيدة زينب بنت على بن أبى طالب رأت أمامها ابن أخيها علياً زين العابدين ، وقد وقعت أبصاره على أهله وأنصاره ، ووالده الحسين بن على ـ رضى الله عنه ـ قتلى ، فاقشعر بدنه واشتد اضطرابه فضمته إلى صدرها وقالت له :

مالى أراك تجود بنفسك يا بقية جدى وأبى وإخوتى ؟

فقال ـ رضى الله عنه ـ :

وكيف لا أهلع وأنا أرى أبى وإخوتى وعمومتى وولد عمى مصرعين بدمائهم مزملين بالعراء ، لا يكفنون ولا يوارون ، ولا يعرج عليهم أحد ، ولا يقربهم بشر ، كأنهم أهل بيت من الديلم ؟

فقالت له :

لا يجزعنك ما ترى ، فوالله إن ذلك لعهد من رسول الله ـ ﷺ ـ إلى جدك وأبيك وعمك ، ولقد أخذ الله ميثاق الناس من هذه الأمة لا تعرفهم فراعنة هذه الأرض ، وهم معروفون فى أهل السموات ـ أنهم يجمعون هذه الأعضاء المتفرقة ، والجسوم المضرجة فيوارونها ، وينصبون بهذا الطف علما لقبر أبيك سيد الشهداء ، لا يمحى رسمه ولا يدرس أثره ، ولا يزداد إلا علوا على مر الأيام وكر الليالى ، وليجهدن القساة فى محوه وتطميسه فلا يزداد أثره إلا ظهورا ، وأمره إلا علوا »[١٧٣]

وصدقت نبوءتها ، فقد ازدانت كربلاء بقبر الحسين حتى أصبحت مكانا مقدسا تؤمه القلوب والأرواح ، وتفد إليه الملايين من شتى الأنحاء والبقاع ، وكأن الله قد أراد أن ينصب للحسين علما فى كل مكان ، وموضعا فى كل

---

(١٧٣) عقيلة الطهر والكرم السيدة زينب . الشيخ موسى محمد على ص ٧٢

قطر ، فكثرت المشاهد المنسوبة إليه . ومشهده المقام على رأسه الشريف فى مصر محط أنظار المصريين جميعا ، ومَهْفَى قلوبهم ، ومتعشَق أرواحهم ، ومقصد أبدانهم ... إنهم يذكرون فى الحسين جدَّه ﷺ ، ويحفظون فى ذكره ذكره ، ويلتمسون بحبه حبَّه ، ويحققون بمودته قربة ، وصدق الله العظيم إذا يقول على لسان نبيه الكريم « قل لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة فى القربى » . .

الزوجات والأولاد

لما فتحت فارس فى عهد عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ وظفر المسلمون بملكهم ، أسر كثير من أهلها ، وقدم المسلمون إلى مكة بسبايا كثيرات من بينهن ثلاث بنات ليزدجرد ملك فارس .

وأراد عمر أن يبيعهن ، فقال له على بن أبى طالب ـ كرم الله وجهه ـ : يا أمير المؤمنين ، ارحموا عزيز قوم ذل . إن بنات الملوك لا يعاملن معاملة غيرهن .

فقال له عمر : فماذا نصنع فيهن ؟

قال : نقومهن ومهما بلغ ثمنهن قام به من يختارهن .

فقومهن . فأخذ على بن أبى طالب واحدة ودفعها للحسين ، فولدت له عليا الملقب بزين العابدين ، وكان اسمها سلافة ، واسمها بالفارسية شاه زنان ـ أى ملكة النساء .

وأخذ عمر واحدة فدفعها لابنه عبدالله فولدت له سالماً ، وأخذ محمد بن أبى بكر واحدة ، ولدت له قاسماً

فهؤلاء الثلاثة : على زين العابدين ، وسالم بن عبدالله بن عمر ،

والقاسم بن محمد بن أبي بكر أولاد خالة ،[174] وكانوا سادة عصرهم في العلم والتقوى والورع .

وعليّ هذا هو عليّ الأصغر وكنيته أبو محمد .

وكان له علي الأكبر ـ وأمه ليلى بنت مرة بن عروة بن مسعود الثقفي ، وقد قتل علي الأكبر مع أبيه بالطف ، وكان مثلا أعلى في البطولة ، أقبل على أبيه يومئذ يقول له ـ وقد علم أنهم مخيرون بين الموت والاستسلام : يا أبت ، ألسنا على الحق ؟

فقال أبوه : بلى والذي يرجع إليه العباد .

فقال الفتى : يا أبت إذن لا نبالي .

وكان أول قتيل قتل من آل الحسين ، لأنه جعل يقي أباه بنفسه ، وينشد مرتجزا .

أنا علي بن الحسين بن علي نحن وبيت الله أولى بالنبي

فطعنه مُرّةُ بن منقذ بن النعمان العبدي فقتله ، فلما طعنه احتوشته الرجال فقطعوه بسيوفهم . لم يكتفوا بقتله . بل مثّلوا بجثته بهذه الصورة البالغة الفظاعة ـ ونظر إليه الحسين مقطع الأوصال فقال : قتل الله قوماً قتلوك يا بني ، ما أجرأهم على الله وعلى انتهاك محارمه ، فعلى الدنيا بعدك العفاء[175]

ومن أولاده جعفر بن الحسين وأمه من قضاعة ، ومات في حياة أبيه ولا نسل له . .

---

(١٧٤) نور الأبصار للشبلنجي ص ١٣٩ نقلا عن ربيع الأبرار للزمخشري

(١٧٥) البداية والنهاية جـ ٨ ص ١٨٥

وعبدالله بن الحسين وأمه الرباب ، قتل مع أبيه وهو صغير جاءه سهم وهو بكربلاء فقتله . .

ومحمد الأوسط ، وأمه أم ولد

وله من البنات فاطمة ، وأمها أم إسحاق بنت طلحة بن عبيد الله ـ وسكينة الكبرى وأمها الرباب

وسكينة الصغرى وأمها أم ولد

ويقال : إن له عليا الأوسط ـ مات أيضا مع والده بكربلاء وربما هو الذى يطلق عليه محمد الأوسط .

ويقال : إن له بنتا اسمها زينب

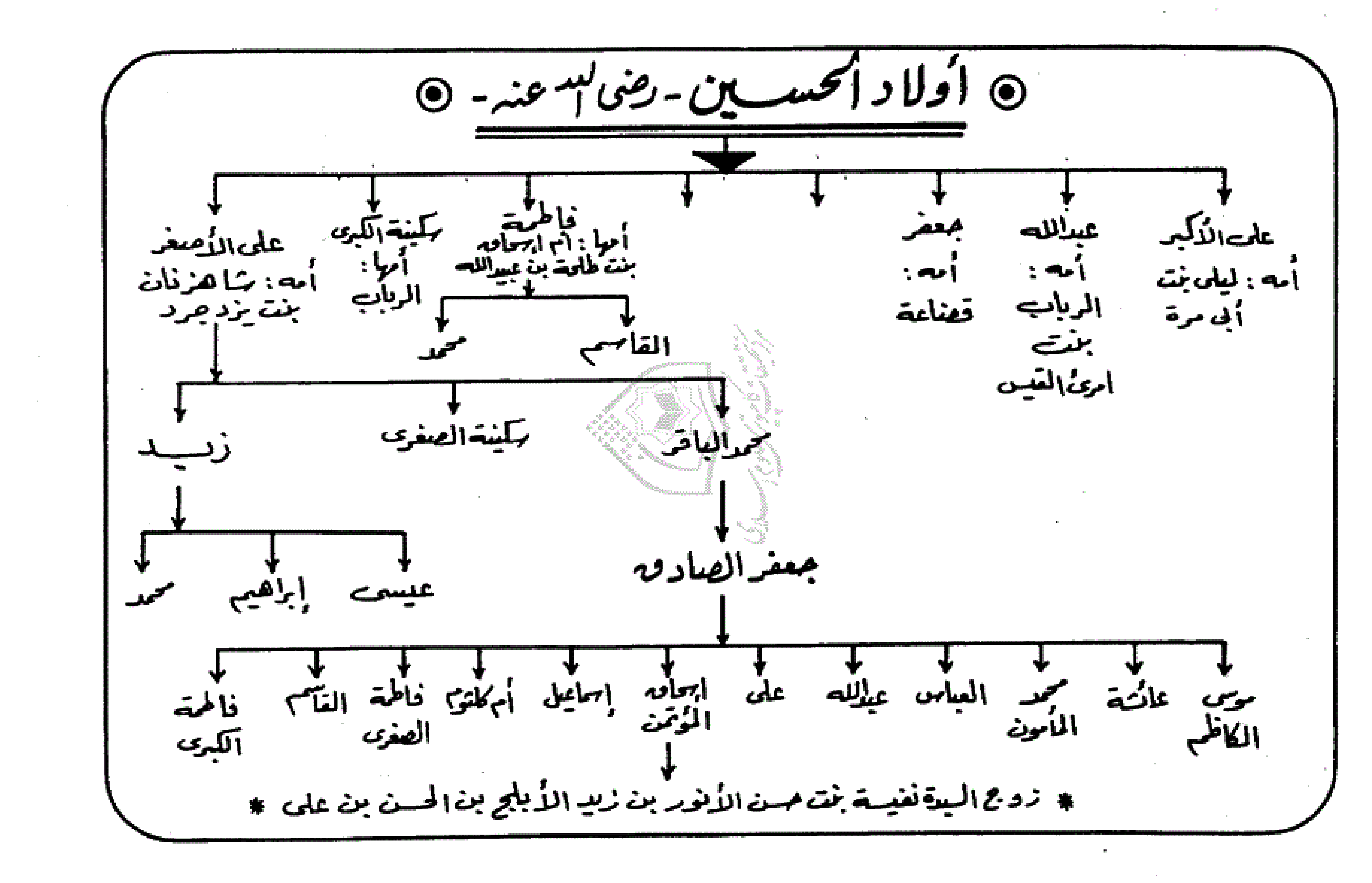
ويقال : إن له ابنا آخر اسمه عمر . ذكر ذلك الشبلنجى فى نور الأبصار(١٧٦)

انظر الجدول المرفق .

والذى أعقب من أولاده هو على زين العابدين الذى سوف نتحدث عنه فيما بعد إن شاء الله ـ تعالى ـ ولم يبق بعده من أولاده إلا على الأصغر وسكينة الكبرى وفاطمة .

---

(١٧٦) نور الابصار للشبلنجى ص١٣٨



أولاد الحسين - رضي الله عنه -
علي الأكبر
أمه: ليلى بنت أبي مرة
عبد الله
أمه: الرباب بنت امرئ القيس
جعفر
أمه: قضاعة
فاطمة
أمها: أم إسحاق بنت طلحة بن عبيد الله
القاسم
محمد
سكينة الكبرى
أمها: الرباب
علي الأصغر
أمه: شاهزنان بنت يزدجرد
محمد الباقر
سكينة الصغرى
زيد
عيسى
إبراهيم
محمد
جعفر الصادق
موسى الكاظم
عائشة
محمد المأمون
العباس
عبد الله
علي
إسحاق المؤتمن
إسماعيل
أم كلثوم
فاطمة الصغرى
القاسم
فاطمة الكبرى
* زوج السيدة نفيسة بنت حسن الأنور بن زيد الأبلج بن الحسن بن علي *

بطلة كربلاء

السيدة زينب - رضي الله عنها -

- نشأتها .
- زواجها .
- علمها وفضلها .
- النقية العابدة .
- في معترك الأحداث .
- بطولة نادرة .
- الرحلة إلى الشام .

بطلة كربلاء

السيدة زينب ـ رضى الله عنها ـ

ولدتها أمها السيدة فاطمة الزهراء البتول فى حياة جدها ـ صلى الله عليه وسلم ـ بعد الهجرة بخمس سنوات ، فى شعبان ، وكان العام الميلادى الذى يوافق مولدها عام ٦٢٦ م .

وسماها النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ زينب ـ على اسم خالتها الكبرى . .

قيل : إنها ولدت بينما كان النبى ـ ﷺ ـ فى سفر ، ولم يشأ أبوها أن يُسميها قبل وصوله ـ قائلاً : ما كنت لأسبق رسول الله ـ ﷺ ـ فلما جاء الرسول ـ ﷺ ـ سماها زينب .

وقيل : إن جبريل ـ عليه السلام ـ هو الذى نزل عليه يأمره أن يسميها بهذا الاسم ، وأخبره بما يجرى فى حياتها من أحداث .

وتنبأ لها النبى ـ ﷺ ـ بأنها ستكون مولودة مباركة من فضليات النساء .

وعاشت السيدة زينب فى رحاب جدها خمس سنوات ، وفى البيت النبوى درجت ونشأت تتلقى فنون الحكمة والخلق الحسن وآداب بيت النبوة ، وقد منحها الله صفاء فى القريحة وسداداً فى الرأى ، وإدراكاً سباقاً ، ووعياً وفهماً لكل ما كان يدور حولها ، حتى اكتسبت بذلك كثيراً من الحقائق التى تدور حولها ، وحتى أصبحت تفوق أترابها فقهاً وعلماً وأدباً وديناً وخلقاً .

كانت كثيراً ما تلازم النبى ـ ﷺ ـ فأخذت منه واقتبست من خلقه ، وتعلمت من هديه ، حتى إذا لحق بالرفيق الأعلى أوت إلى حضن أمها فاقتدت بها فى كل شىء ـ كانت تصلى بصلاتها وتتهجد بتهجدها ، وتناجى

ربما كما كانت تناجيه . .

ومما يدل على أن الله ـ جلت قدرته ـ كان يلهم هذه الطفلة بدائع الحكمة منذ صغرها ـ ما أخرجه ابن عساكر ، وابن منده :

جلست زينب بنت على بن أبى طالب يوما فى طفولتها فى حجر أبيها على ـ رضى الله عنه ـ فأخذ يلاطفها ، ثم قال لها :

قولى : واحد . فقالت : واحد .

فقال لها : قولى اثنين . فسكتت .

فقال لها : تكلمى .

فقالت : يا أبتاه ، ما أطيق أن أقول اثنين بلسان أجريته بالواحد .

فضمها على ـ رضى الله عنه ـ وقبلها بين عينيها .

وأخرج الإمام أحمد ـ رضى الله عنه ـ فى الخماسيات ـ قال :

سألت زينب بنت على بن أبى طالب والدها عليا ـ رضى الله عنه ـ فقالت : أتحبنا يا أبتاه ؟

فقال : وكيف لا أحبكم وأنتم ثمرة فؤادى ؟

فقالت : ياأبتاه ، إن الحب لله تعالى ـ والشفقة لنا .(١٧٧)

إن هذا الفهم العالى لا يمكن أن يكون لإنسان عادى ، بل هو لإنسان فطَّنه ربه ، وألهمه حسن المنطق ودقة الفهم وصفاء القريحة . . وليس ذلك بعجيب فهى سليلةُ بيت النبوة ، أمها فاطمة الزهراء ، وأبوها على بن أبى طالب ، وجدها رسول الله ـ ﷺ ـ فلم لا تكون جديرة بذلك ؟

---

(١٧٧) عقيلة الطهر والكرم . لموسى محمد على ص ٧١

أخرج ابن حميد فى مسنده واليافعى فى مرآته قالا :

جلس الحسن والحسين ابنا الإمام على ـ رضى الله عنهم ـ يتذاكران يوما ما سمعاه من جدهما من قوله : « الحلال بيِّن ، والحرام بيِّن ، وبينهما مشتبهات لا يعلمهن كثير من الناس ، فمن اتقى الشبهات استبرأ لدينه وعرضه ، ومن وقع فى الشبهات وقع فى الحرام ، كالراعى يرعى حول الحمى يوشك أن يقع فيه ، ألا وإن لكل ملك حمى ، ألا وإن حمى الله محارمه ، ألا وإن فى الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله ، وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهى القلب . »

فقالت السيدة زينب : اسمعا يا حسن ويا حسين ، إن جدكما رسول الله ـ ﷺ ـ مؤدَّب بادب الإله ، فإن الله أدبه فأحسن تأديبه ، قال ـ ﷺ ـ « أدبنى ربى فأحسن تأديبى » .

كما هُيىء كذلك من رب العالمين لحمل رسالة الدين والدعوة إلى عبادة الله العظيم الذى ليس كمثله شىء وهو السميع البصير .

ومن كجدى النبى العربى الهاشمى القرشى الذى اصطفاه الله تعالى ـ واختاره ليبين للناس طريق الحياة من خير وشر ، فى أسلوبه العذب الجميل وبعبارته الطلية الممتعة والتى تفيض رقة وحنانا ، وعطفاً وإشفاقاً .

ثم قالت : الحلال بين ، والحرام بين ، وبينهما مشتبهات ، فهناك ثلاث درجات فى الدين ؛ حلال ، وحرام ، ومشتبه .

أما الحلال فهو ما أحله الله ـ تعالى ـ بأن جاء القرآن الكريم بحله ، وبينه الرسول فى بيانه الواضح ، كحل الشراء والبيع وإقامة الصلاة فى أوقاتها ، والزكاة ، وصوم رمضان ، وحج البيت لمن استطاع إليه سبيلاً ،

وترك الكذب والنفاق ، والخيانة ، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر .

وأما الحرام فهو ما حرمه القرآن الكريم . . .

وأما المشتبه فهو الشيء الذى ليس بالحلال ولا بالحرام . .

والمؤمن الذى يريد لنفسه السعادة فى الدنيا والنعيم فى الآخرة عليه أن يؤدى ما أوجبه الله ـ تعالى ـ عليه ، ويسير فى طريق القرآن الحكيم ، ويقتدى بهدى النبى ، ويتأسى به ويبتعد عن طريق الشبهات ما استطاع .

فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه ، وأصبح دينه وعرضه نقياً صافياً ، يعبد ربّه عبادة خالصة . . ألا لله الدين الخالص . .

وأما من سار فى طريق الشبهات فلا يأمن أن تزل قدمه فيقع فيما حرمه الله . وإن لكل ملك يملك حمى بجوار ملكه ، أما حمى ملك الملوك فإنها محارمه . قال ـ ﷺ ـ : « اتق المحارم تكن أعبد الناس » .

ثم إن الله تعالى أودع الإنسان مضغة وجوهرة لطيفة . إذا صلحت فإن الجسد كله يكون صالحاً نقياً من الأدران والعلل وعصيان الخالق رب العالمين ، ذلك هو القلب .

فإن كان القلب سليما فإن صاحبه يكون يقظاً لأمور دينه ومبادىء شريعته ، ويرى السعادة كلها فى الاستقامة على هدى القرآن والسنة ، ومن سلك هذا السبيل القويم ، واتبع تلك التعاليم السماوية فإنه يكون يوم القيامة من الفائزين .

إن حياتنا مرحلة من المراحل التى توصل الإنسان إما إلى الجنة وإما إلى النار ، وليس بعد الموت عتاب ، ولا بعد الدنيا دار إلا الجنة أو النار » .

وما أن انتهت السيدة زينب من كلامها حتى قال لها الحسين ـ رضى الله

عنه ـ أنعم بك ـ إنك من شجرة النبوة ومن معدن الرسالة .»[١٧٨]

إنه درس واضح شرحت فيه حديث رسول الله ـ ﷺ ـ بما لا مزيد عليه لشارح ، وهذا يدل على مدى ما استقته من تعاليم هذا البيت الكريم ، ومن نشأتها بين أحضان النبوة والعلم . .

لقد أوصتها أمها قبل أن تلحق بربها . وقد ماتت أمها الزهراء ـ رضى الله عنها ـ بعد النبى ـ ﷺ ـ بستة أشهر . . فكان ذلك داعياً لها لأن تفطن إلى ما هى مقبلة عليه من أمور عظيمة ـ وحملت التبعة صغيرة . . كانت سنها إذ ذاك تتجاوز الخامسة بقليل ولكنها على الرغم من ذلك سوف تتحمل مسئولية أخويها الحسن والحسين ، فكانت بالنسبة لهما . . على الرغم من صغر سنها عنهما بمثابة الأم ، وكانت لها أخت أصغر منها هى أم كلثوم ، فكانت زينب أيضاً لها أما ، وإنك لتعجب كيف استطاعت زينب على صغر سنها النهوض بهذه المسئولية ، ولكن العجب يزول إذا علمت أن الله جلت قدرته قد منحها قدرة فائقة ، وإدراكاً عميقاً ، ووهبها عقلاً ثاقباً وفهماً صحيحاً استطاعت بكل ذلك أن تنفذ وصاة أمها بالنسبة لإخوتها . كما أن أباها علياً ـ رضى الله عنه ـ لم يتركها فى هذه الآونة تقوم بالعبء الكبير وحدها ، فكان لها نعم الأب المرشد الحانى العطوف ، وانضمت إليه ابنة خالتها أمامة بنت أبى العاص بن الربيع ـ وهو زوج خالتها زينب بنت رسول الله ـ ﷺ ـ وقد تزوج على ـ رضى الله عنه ـ أمامة بوصاة من زوجته فاطمة ـ رضى الله عنها ـ فكانت أمامة لزينب أماً بعد أمها .

---

(١٧٨) العقيلة الطاهرة ص ٧٣

فكان بيت علي ـ رضي الله عنه ـ مليئاً بالخير والبركة ، تتفجر الحكمة من جوانبه ، وتنتشر الرحمة في أنحائه ، ويفيض العلم في رحابه .. ومن ذلك كله استقت زينب ـ رضي الله عنها ـ وارتوت ، فكانت حقاً كما وصفها أخوها الحسين ـ رضي الله عنه ـ حين قال لها : إنك من شجرة النبوة ومعدن الرسالة .

زواجها :

ولما نضجت السيدة زينب ـ رضي الله عنها ـ اختار لها أبوها الزوج المناسب من تلك الأرومة الطيبة المباركة ، وكان هذا الزوج هو ابن أخيه عبدالله بن جعفر ـ رضي الله عنه ـ.

وقد سبق التعريف بجعفر ابن أبي طالب . الملقب بالطيار ، لأنه استشهد في مؤتة ، فقطعت ذراعاه فأبدله الله بهما جناحين يطير بهما في الجنة ، وفيه يقول أبوهريرة ـ رضي الله عنه ـ : « ما احتذى النعال ولا ركب المطايا ولا وطىء التراب بعد رسول الله ـ ﷺ ـ أفضل من جعفر بن أبي طالب .

وكان جعفر متزوجاً من أسماء بنت عميس التي هاجرت معه إلى الحبشة ، وهناك ولدت له عبدالله ، الذي اختاره علي بن أبي طالب زوجاً لابنته زينب فكان خير كفء لخير نجيبة ..

عبدالله بن جعفر :

كان عبدالله بن جعفر أول مولود ولد في الإسلام بأرض الحبشة .. وقدم مع أبيه المدينة ، وكانت سنه عند وفاة الرسول ـ صلى الله عليه

وسلم ـ عشر سنوات ، فهو يكبر زينب بخمس سنوات . .

ونشأ عبد الله فى كنف النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ بعد قدومه من الحبشة ، وبعد استشهاد والده فى مؤتة . وكان النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ يصحبه معه فى بعض رحلاته . حدث عبد الله بن جعفر قال : أردفنى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وراءه ذات يوم ، فأسرَّ إلى حديثا لا أحدث به أحداً من الناس . .

وروى عبد الله أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ دخل حائطاً لرجل من الأنصار فإذا فيه جمل ، فلما رأى الجمل النبى جَرْجَر وذرفت عيناه . قال : فأتاه النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فمسح عليه من رأسه إلى سنامه وذِفْرَيه ، فسكن ، فقال : من صاحب هذا الجمل ؟ فجاء فتىً من الأنصار فقال : هو لى يا رسول الله .

قال : أفلا تتقى الله فى هذه البهيمة التى ملَّكك الله إياها ؟ فإنه شكا أنك تجيعه وتدئبه(١٧٩) .

وهو الذى روى الحديث : « خير نسائها ـ أى الجنة ـ مريم بنت عمران ، وخير نسائها خديجة بنت خويلد(١٨٠) .

لقد كان النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ يحب جعفراً ، وولده ، ولما استشهد جعفر اشتد حب النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ لعبد الله ـ قال عبد الله : مسح رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ رأسى ، وقال : اللهم

---

(١٧٩) أسد الغابة جـ ٣ ص ١٩٩ ، وجرجر : الجرجرة صوت البعير ـ وذرفت عيناه : جرى دمعها ـ وذفريه : الذفرى مؤخر الرأس وهو الموضع الذى يعرق من قفاه .

(١٨٠) تحفة الأحوذى ـ كتاب المناقب ـ ١٠ / ٩٨٩

اخلف جعفراً فى ولده . . . وكان والداً لهم بعد جعفر . .

وقال : كنا نلعب فمر بنا النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ على دابة فحملنى أمامه . .

ومر به النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ يوما وهو يبيع ما يصنعه من لعب للصبيان فقال : اللهم بارك له فى بيعه ، أو صفقته ، فبارك الله له فى كل ما أخذ فيه من بيع أو شراء .

وقد بايع النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهو ابن سبع سنين . . وكذلك بايع الحسن والحسين فى هذه السن ، ولم يبايع صغيراً قط إلا هم(١٨١) .

وكان الكرم والسخاء والمروءة والحياء صفات غالبة عليه ، وكان يقال له : قطب السخاء ـ إذ كان من المشهورين بالجود فى الإسلام . وقد ذكر ابن الأثير قصة جرت بينه وبين عبد الله بن الزبير تشهد بسماحته ومروءته . قال :

حدثنا الأصمعى عن العمرى وغيره أن عبد الله بن جعفر أسلف الزبير ابن العوام ألف ألف درهم .

فلما قتل الزبير قال ابنه عبد الله لعبد الله بن جعفر : إنى وجدت فى كتب أبى أن له عليك ألف ألف درهم .

فقال : هو صادق فاقبضها إذا شئت .

ثم لقيه بعد ذلك ، فقال : يا أبا جعفر ، لقد وَهِمتُ ، المال لك عليه ـ لا له عليك .

---

(١٨١) العقد الفريد جـ٢ ص٢٤٣

فقال عبد الله بن جعفر : فهو له .

فقال ابن الزبير : لا أريد ذلك .

قال : فاختر بين ثلاث : إن شئت فهو له ، وإن كرهت ذلك فلك فيه نَظِرة ما شئت ، وإن لم ترد ذلك فبعنى من ماله ما شئت .

فقال ابن الزبير : أبيعك ، ولكن أُقَوِّم .

فقوَّم الأموال ثم أتاه فقال : أحب ألا يحضرنى وإياك أحد . فانطلق معه ، فأعطاه خَرَاباً وشيئاً لا عمارة فيه ، وقوّمه عليه . حتى إذا فرغ قال عبد الله بن جعفر لغلامه : ألق لى فى هذا الموضع مصلى ، فألقى له فى أغلظ موضع من تلك المواضع مصلى ، فصلى ركعتين ، وسجد ، وأطال السجود يدعو .

فلما قضى ما أراد من الدعاء قال لغلامه : احفر فى موضع سجودى ، فحفر ، فإذا عين ماء قد خرجت .

فلما رأى ابن الزبير الماء ، قال له : أقلنى .

فقال له : أما دعائى وإجابة الله إياى فلا أقيلك .

فصار ما أخذ منه أعمر مما فى يد ابن الزبير(١٨٢) .

وكان لعبد الله بن جعفر فى الجود أخبار حسان يذكرها الناس بالإعجاب والثناء . وكان معاوية بن أبى سفيان يقدره لذلك ويعرف فضله ومروءته .

قال ابن كثير : كان عبد الله بن جعفر من أسخى الناس يعطى الجزيل ويستقله ، وقد تصدق مرة بألف درهم ، وأعطى مرة رجلاً ستين ألفاً ، وأعطى رجلاً مرة أربعة آلاف دينار .

---

(١٨٢) أسد الغابة جـ٣ ص ١٩٩

وقيل : إن رجلاً جلب مرة سُكَّراً إلى المدينة فكسد عليه ، فلم يشتره أحد ، فأمر ابن جعفر قَيِّمَهُ أن يشتريه ويهديه للناس .

ولما حج معاوية نزل في دار مروان ، فقال يوماً لحاجبه : انظر هل ترى بالباب الحسن أو الحسين أو ابن جعفر أو فلاناً ـ وعد جماعة ، فخرج فلم ير أحداً . فقيل له : هم مجتمعون عند عبد الله بن جعفر يتغدون . فأتى الحاجب معاوية فأخبره ، فقال : ما أنا إلا كأحدهم ، ثم أخذ عصاه فتوكأ عليها ، ثم أتى باب ابن جعفر ، فاستأذن عليه ودخل ، فأجلسه في صدر فراشه .

فقال له معاوية : أين غداؤك يا بن جعفر ؟

فقال : ما تشتهي من شيء فأدعو به ؟

فقال معاوية : أطعمنا مخاً

فقال : يا غلام ، هات مخاً . فأتى بصحيفة فأكل معاوية .

ثم قال ابن جعفر لغلامه : هات مخاً . فجاء بصحيفة أخرى ملآنة مخاً إلى أن فعل ذلك ثلاث مرات .

فتعجب معاوية ، وقال : يا بن جعفر ما يشبعك إلا الكثير من العطاء فلما خرج معاوية أمر له بخمسين ألف دينار .

وكان ابن جعفر صديقاً لمعاوية ، يفد إليه كل عام فيعطيه ألف ألف درهم ويقضي له ما يريد من حاجة[١٨٣] .

وفد إليه في عام فأعطاه المال وقضى له الحاجات إلا واحدة ، فبينما هو عند

---

(١٨٣) البداية والنهاية جـ ٩ ص ٣٣

معاوية إذ قدم عليه دهقان سجستان يطلب من معاوية أن يملكه على تلك البلاد ، ووعد من يقضى له هذه الحاجة بألف ألف درهم .

وطاف الدهقان على رءوس الناس والأمراء من أهل الشام والعراق فكلهم يقولون له : عليك بعبد الله بن جعفر .

فقصده الدهقان ، فكلم فيه ابن جعفر معاوية فقضى له معاوية هذه الحاجة . وأمر الكاتب فكتب له عهده . وخرج به ابن جعفر إلى الدهقان .

فأعظم الدهقان شأن بن جعفر وحمل إليه ألف ألف درهم .

فقال له ابن جعفر : اسجد لله ، واحمل مالك إلى منزلك ، فإنَّا أهل بيت لا نبيع المعروف بالثمن .

فبلغ ذلك معاوية فقال : لأن يكون يزيد قالها أحب إليَّ من خراج العراق ، أبت بنو هاشم إلا كرماً(١٨٤) .

ومما يذكره الرواة من قصص كرم ابن جعفر ـ رضى الله عنه ـ قالوا : إن أعرابياً عطبت راحلته فوقف على مروان بن الحكم أيام الموسم بالمدينة ، وكان مروان أميراً عليها ـ فسأله أن يحمله ، فقال : يا أعرابى ، ما عندنا ما نصلك به ، ولكن عليك بابن جعفر .

فأتى الأعرابى بابه ، فإذا ثقله قد سار نحو مكة ، وراحلته بالباب عليها متاعه وسيف معلق ، فخرج عبد الله ، فأنشأ الأعرابى يقول :

أبو جعفر من أهل بيت نبوة	صَلاتهم للمسلمين طَهُور
أبا جعفر إن الحجيج ترحلوا	وليس لرحل فاعلمن بعير

---

(١٨٤) البداية والنهاية جـ ٨ ص ١٣٧

أبا جعفر ضَنَّ الأمير بماله وأنت على ما فى يديك أمير
أبا جعفر يا بن الشهيد الذى له جناحان فى أعلى الجنان يطير
أبا جعفر مثلك اليوم أرتجى فلا تتركنى بالفلاة أدور

فقال له : يا أعرابى سار الثقل ، فعليك الراحلة بما فيها ، وإياك أن تخدع عن السيف فإنى أخذته بألف دينار . فولى الأعرابى وهو يقول :

حبانى عبد الله نفسى فداؤه بأعيس مَوَّارٍ سباط مشافره
وأبيض من ماء الحديد كأنه شهاب بدا والليل داجٍ عساكره
فكل امرىء يرجو نوال ابن جعفر سيجرى له باليمن والبشر طائره
فيا خير خلق الله نفساً ووالداً وأكرمه للجار حين يجاوره
سأثنى بما أوليتنى يا بن جعفر وما شاكر عُرْفاً كمن هو كافره[185]

وكان الناس يستغلون سخاءه ومروءته ، فيجاريهم ولا يطوى معروفه عنهم .. جاءه شاعر يوما فأنشده :

رأيت أبا جعفر فى المنام كسانى من الخز دُرّاعة
شكوت إلى صاحبى أمرها فقال : ستؤتى بها الساعة
سيكسوكها الماجد الجعفرى ومن كفُّه الدهرَ نفَّاعة
ومن قال للجود : لا تعدنى فقال له : السمع والطاعة

فالتفت عبد الله بن جعفر لغلامه وقال له : ادفع له جُبتى الخز .. ثم قال للسائل : ويحك كيف لم تر جبتى الوشى التى اشتريتها بثلاثمائة دينار . .

---

(١٨٥) السيدة زينب للشيخ أحمد فهمى ص ١٤
والأعيس من صفات البعير ، والموار : القوى الحركة ، سباط : مسترسل الشعر فوق شفتيه ، والمشفر : الشفه الغليظة . وداج : مظلم

فقال الشاعر : أغفو غفوة أخرى فلعل أراها فى المنام .

فضحك عبد الله وقال لغلامه : ادفع إليه جبتى الوشى أيضا[١٨٦]

وفى جود عبد الله بن جعفر يقول الشاعر عبد الله بن قيس الرقيات :

وماكنت إلا كالأغر ابن جعفر رأى المال لا يبقى فأبقى له ذكرا .

وسبب قوله هذا أن يزيد بن معاوية أرسل إليه مالا جزيلاً ففرقه فى أهل المدينة ولم يدخل منه بيته شيئا .

وفيه يقول الشماخ بن ضرار :

إنك يابن جعفر نعم الفتى ونعم مأوى طارق إذا أتى
ورب ضيف طرق الحى سُرَى صادف زاداً وحديثاً ما اشتهى
إن الحديث طرف من القرى

ولم يعدم عبد الله بن جعفر أن يجد له قادحين يقدحونه من عين الحسد . فقد ذكر البيهقى فى كتابه المحاسن والمساوى : أنه حضر مجلس معاوية يوما عبد الله بن عباس ، وابن العاص . فأقبل عبد الله بن جعفر ، فلما نظر إليه ابن العاص قال :

قد جاءكم رجل كثير الخلوات بالتمنى ، كثير مزاحه ، شديد طموحه ، صدوف عن السِّنان ـ الرماح ـ ظاهر الطيش ، لين العيش ، أخّاذ بالسُّلف ، منفاق بالسرف ـ يقصد أنه يستدين كثيرا ويسرف فى إنفاق مايستدينه ـ فقال ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ :

والله ليس كما ذكرت ، ولكنه لله ذكور ، ولنعمائه شكور ، وعن العيب

---

(١٨٦) المرجع السابق ص ١٥

زجور ، جواد كريم ، وسيد حليم ، إن ابتدأ أصاب ، وإن سئل أجاب ، غير حَصِرٍ ولا هيّاب ، ولا فحاش ولا عيّاب . . .

حلَّ من قريش فى كريم النصاب ـ النسب ـ ، كالهزبر الضرغام ـ الأسد القوى ـ الجرىء المقدام ، ليس يُدعَى لِدَعِيٍّ ، ولا يدنو لدنى . .

وليت شعرى بأى قدم تتعرض للرجال ؟ وبأى حسب تبارز عند النضال ؟[١٨٧]

وظل ابن عباس يقول . حتى قال عبد الله بن جعفر : أقسمت عليك أن تمسك ، فإنك عنى ناضلت ولى فاوضت . . أما شجاعة ابن جعفر فهى غير منكورة وهو سليل الشجعان ، فقد كان أبوه قائد المسلمين فى مؤتة ، وكان على فرس اقتحم عنها ثم تقدم فقاتل ، لأنه وجد أنها تعوقه عن القتال ، وكان يحمل اللواء بيمينه فقطع ، فحمله بيساره فقطع ، فحمله بين عضديه ، فأبدله جناحين بدلا من عضديه يطير بهما فى الجنة . . وقد رثاه حسان بقوله :

وكنا نرى فى جعفر من محمد ... وفاءً وأمراً صارماً حيث يؤمر
فلازال فى الإسلام من آل هاشم ... دعائم عز لاترام ومفخر
هم أولياء الله أنزل حكمه ... عليهم وفيهم ذا الكتاب المطهر

وكان عبد الله أحد أمراء علىٍّ بن أبى طالب يومَ صفين . فلا يقال له : إنه صدوف عن السِّنان . .

ولئن كان له ميْل أحيانا إلى الغناء فهو الغناء المباح الذى لا لهو فيه

---

(١٨٧) المحاسن والمساوىء لابراهيم بن محمد البيهقى جـ ١ ص ٦٨

ولا مجون ، كان يتروّح به لينشط ويقوى على العبادة . . ذكر المرحوم محمود مصطفى فى كتابه الأدب العربى ـ أن عبد الله بن جعفر قدم على معاوية ، فأنزله فى داره ، فلما كان الليل فى أوله ، سمعت زوجة معاوية صوت غناء فى جناح عبد الله بن جعفر ، فأيقظت زوجها قائلة :

قم فاسمع ذلك الرجل الذى أنزلته بيتك . .

فقام معاوية ، فاستمع إلى غناء جميل لا عبث فيه ولا مجون . فلما كان آخر الليل سمع صوت عبد الله يقرأ القرآن ويبكى . فأيقظ امرأته وقال لها : قومى فاسمعى مكان ما أسمعتنى . هؤلاء قومى رهبان الليل فرسان النهار . .

وكان عبد الله بن جعفر يقول لمن يعاتبه على الإسراف فى العطاء : إن الله عودنى عادة وعودته عادة ، عودنى أن يعطينى ، وعودته الا أبخل بما أعطانى ، فإن أنا قطعت عادتى معه أخاف أن يقطع عادته معى .

ومن أقواله : ليس الجواد الذى يعطى بعد المسألة ، لأن الذى يبذله السائل من وجهه وكلامه أفضل مما يبذل له من النائل ، وإنما الجواد الذى يبتدىء بالمعروف . .

هذا الرجل الذى اتصف بهذه المآثر العظيمة هو الذى تزوج السيدة زينب ـ رضى الله عنها ـ فاجتمع بذلك كوكبان لامعان أشرقا فى سماء بيت النبوة ، وأعقبا نسْلاً طيباً مُباركا هم : جعفر الأكبر ، وعون الأكبر ، وعلى الأكبر ، وأم كلثوم ، وأم عبد الله .

والعقب من هؤلاء لعلى الأكبر وأم كلثوم .

وكان هذا الزواج فى آخر عهد عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ

وصادف تمامه فى يوم بشرى بانتصار المسلمين على الفرس فى أحد فتوح العراق الشهيرة ، وقد عاد الفاتحون مسرورين بانتصارهم ومعهم مئات من أبناء الروم وفارس الذين اعتنقوا الإسلام .

وحضر أكابر الصحابة حفل الزواج من أمثال عثمان بن عفان وعبد الرحمن بن عوف وأنس بن مالك ، وأبى هريرة ، وأبى ذر الغفارى ، وسلمان الفارسى . . . وقال عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ يومها : فى هذا اليوم سأحضر زواجا سعيدا وقرانا مباركا ، ونسبا موصولا ، ألا وهو مصاهرة آل بيت النبى محمد عليه الصلاة والسلام . .

وأقام على ـ رضى الله عنه ـ مأدبة عظيمة لأصحاب رسول الله ـ ﷺ ـ . . . وقال أبو هريرة لأنس بن مالك :

والله ياأنس لو كان رسول الله ـ ﷺ ـ موجوداً فى هذا الزواج لكان يوما من أيام النبوة التى تشتاق النفوس المؤمنة الصادقة إلى مشاهدتها ـ فقال أنس :

أما علمت أن عهد رسول الله ـ ﷺ ـ يكاد يكون موجوداً بوجود أمير المؤمنين عمر بن الخطاب على رأس هذا الحفل الكريم ، ومارأيت حفلا أبهج من هذا الحفل . الذى أسأل الله من فضله أن يوفق فيه بين الزوجين الكريمين ، وهما بفضل الله من التوفيق والوئام بمكان[١٨٩] . .

وسيأتى الحديث عن أولادها فيما بعد إن شاء الله تعالى .

---

(١٨٩) ابنة الزهراء بطلة الفداء على أحمد شلبى رئيس مجلس إدارة المسجد الزينبى ص ١٠٤

علمها وفضلها

لعله قد مر بنا فى أثناء الحديث ما يشير إلى علم السيدة زينب وفقهها الذى اكتسبته من نشأتها فى كنف جدها وأبيها ، وكانت البيئة التى نشأت فيها بيئة علمية خالصة ، فالقرآن يتلى آناء الليل وأطراف النهار ، وحديث الرسول - ﷺ - يروى من حولها على ألسنة الثقات من الأصحاب يتدارسونه بينهم ، ويتفهمون مراميه وأهدافه . وقد رأينا كيف كان الحسن والحسين يتدارسان معا حديث « الحلالُ بَين والحرامُ بَيِّن » وكيف أدلت السيدة زينب بدلوها وشرحت الحديث بأسلوب رصين وبيان حكيم . .

وكانت حلقات الدروس فى المسجد النبوى معقودة يجتمع إليها الناس ويتعلمون . . وهذه الحلقات ليست ببعيدة عن بيت على - رضى الله عنه - ثم إن أباها كان حجةً بالغة فى العلم وَرَّث أبناءه من ذخيرةً صالحة وثروة سخية . .

وقد وصفها علىٌّ ابن أخيها الحسين فقال لها : أنت بحمد الله عالمة غير معلمة ، وفَهِمةٌ غير مُفَهَّمة .

يشير بذلك إلى أن علمها هبة من الله ، ومنحة ممن فى يده ملكوت كل شيء ، الذى قال فى حق أحد عباده : وآتيناه من لدنا علما . . ووصفها الجاحظ فى كتابه البيان والتبيين بقوله : كانت زينب بنت على تشبه أمها حنانا ولطفا ورقة ، وتشبه أباها علماً وتُقىً .

ويعلل البعض غزارة علمها بأنها ممن اختصهم الله بمحبته ، وجعلهم من أهل ولايته ، ففتح لها الباب وكشف عنها الحجاب ، فشهدت من أسرار مخلوقاته الخفية ، ولم يحجبها عنه آثار قدرته ، فعرجت روحها من عالم

الأشباح إلى عالم الأرواح ، ومن عالم الملك إلى عالم الملكوت ، حتى اتسعت أمامها دائرة العلوم ، وفتحت لها مخازن الفهوم ، فأنفقت من سعة غناها جواهر العلم المكنون ، ومن مخازن كنوزها يواقيت السر المصون .»[190]

ومما يدل على صدق هذا الكلام ما كان يصدر على لسانها من عبارات رائقة وأقوال صادقة ، ومعان عميقة وحكم رقيقة ومناجيات تشير إلى روح ذاقت محبة الله ونعمت برضاه ، استمع إليها تقول :

« يا من لبس العز وتردى به ، وتعطف بالمجد وتحلى به ، أسالك بمعاقد العز من عرشك ، ومنتهى الرحمة من كتابك ، وباسمك الأعظم وجدك الأعلى ، وكلماتك التامات التى تمت صدقاً وعدلاً ، أن تصلى على محمد وآل محمد الطيبين الطاهرين ، وأن تجمع لى خيرى الدنيا والآخرة » .

ولقد ساعدها على كثرة علمها وتنوع معرفتها كثرة روايتها أحاديث جدها عن أبيها وأمها الزهراء وأم سلمة ، وأم هانىء ، وأسماء بنت عميس وغيرهن من الصحابيات الفضليات .

وقد روى عنها كثير من الرواة من أمثال فاطمة بنت الحسين ، وزوجها عبدالله بن جعفر ، وابن عمها عبدالله بن عباس ، ومحمد بن عمرو ، وعطاء بن السائب وغيرهم .

وربما كان لها مجلس للعلم تنشر فيه علمها وما حفظته من أحاديث جدها . . ومن الروايات التى نذكرها لها هذا الدعاء الطيب المبارك الذى يسمى دعاء الفرج ـ من قرأه فرج الله عنه هموم دنياه وأسعده فى أخراه وقد

---

(۱۹۰) عقيلة الطهر والكرم ص ٦٨

روته عن أبيها عن جدها - ﷺ - .

« اللهم إني أسألك يا الله يا رحمن يا رحيم ، يا جار المستجيرين ، ويا أمان الخائفين ، يا عماد من لا عماد له ، ويا ذخر من لا ذخر له ، ويا سند من لا سند له ، يا حرز الضعفاء ، ويا كنز الفقراء ، ويا سميع الدعاء ، ويا مجيب المضطرين ، ويا كاشف السوء ، ويا عظيم الرجاء ، ويا منجي الغرقى ، ويا منقذ الهلكى ، يا محسِنُ ، يا مُجَمِّل ، يا منعم ، يا متفضل . . أنت الذي سجد لك سواد الليل وضوء النهار وشعاع الشمس وحفيف الأشجار ، ودوى الماء ، يا الله الذي لم يكن قبله قَبْل ، ولا بعده بعْد ، ولا نهاية له ولا حد ، ولا كفو ولا ند ، بحرمة اسمك الذي في الآدميين معناه ، المرتدي بالكبرياء والنور والعظمة ، محقق الحقائق ، ومبطل الشرك والبوائق ، وبالاسم الذي تدوم به الحياة الدائمة الأزلية التي لا موت ولا فناء بالروح المقدسة ، وبالسمع الحاضر ، والنصر النافذ وتاج الوقار ، وخاتم النبوة وتوثيق العهد ، ودار الحيوان وقصور الجهال ، يا الله لا شريك له » . [191]

وكان للسيدة زينب - رضي الله عنها - بيان مشرق وفصاحة واضحة وبلاغة ظاهرة ، ورثت ذلك كله عن أبيها صاحب نهج البلاغة وعن جدها - ﷺ - إمام البلغاء والفصحاء الذي آتاه الله جوامع الكلم ، وخزائن العلوم والحكمة . .

وسيأتي بعد ذلك نماذج من أسلوبها المشرق وبيانها الرائع وخطبها البليغة التي أخرست الخصوم وأسكتت ألسنتهم .

---

(١٩١) العقيلة الطاهرة ص ٧١

التقية العابدة :

وكانت السيدة زينب قد نشأت فى بيت عبادة ، هو بيت جدها وأبيها وأمها، لا ترقب إلا قراءة القرآن ، والتهجد بالليل والناس نيام ، والإكثار من الصلاة والصيام ، والالتزام التام بآداب الإسلام ، ولذلك أثره فى سمو الأخلاق ، وترقية الأذواق .

ودرجت ـ رضى الله عنها ـ على ما رأته وشهدته ، وانطبعت بذلك . . فنشأت صوامة قوامة قانتة لله تعالى مستكينة إليه فى قضائه وقدره ، تلجأ إليه فى السراء والضراء ، وكم كانت تهتف بهذا الدعاء الحار الذى أثر عنها ـ وهو يدل على طمأنينة خالصة لوعد الله ، وأمل قوى فى رضاه :

وكم لله من لطف خفى يدق خفاه عن فهم الذكى
وكم يسر أتى من بعد عسر وفرّج كربة القلب الشجى
وكم أمرٍ تُساء به صباحاً فتأتيك المسرة بالعشى
إذا ضاقت بك الأحوال يوماً فثق بالواحد الأحد العلى
تشفع بالنبى فكل عبد يغاث إذا تشفع بالنبى
ولا تجزع إذا ما ناب خطب فكم لله من لطف خفى

هى كلمات صادقة مؤمنة تفتح باب الرجاء أمام العبد ، وتغلق أمامه أبواب اليأس والقنوط ، ولا سيما إذا تضافرت المصائب ، وكثرت النوائب .

وكان هذا سلاحها فيما أصابها من نكبات ، فوقفت صلبة العود تتحدى المحن ، وتصارع الشدائد ، وكان الله معها يؤيدها ويوفقها فى التغلب عليها .

كان حبُّها لله سلاحها الذى تجابه به ما ينالها من سهام القدر ،

وما يعترضها من اعتداءات الغاشمين ، وكم قضت ليلها ساهرة لا تنام تناجي ربها الذى لا يغفل عنها ، ويمدها بعونه ونصرته ، وتراها تقول فى ذلك :

سهرت أعين ونامت عيون   لأمور تكون أولاً تكون
إن ربا كفاك ما كان بالأمس   سيكفيك فى غد ما يكون
فادرأ الهم مااستطعت عن النفس   فحملانك الهموم جنون

أجل ، إن حمل الهم جنون ، واللجوء إلى الله للتخلص منه هو عين العقل والحكمة . ومامن انسان يلجأ إلى الله فى شدته إلا كفاه هذه الشدة ، أليس الله هو القائل . . « فإن مع العسر يسرا . إن مع العسر يسرا » ؟

وكيف لا تلجأ إلى الله وقد تعلمت من أبيها أن سر النجاح فى الحياة وأساس الوصول إلى الله هو الاعتصام به واللجوء إليه والتمسك بحبله ، وتسليم الأمر له ، وكم سمعته يناجي ربه قائلا : ـ « اللهم إنى أسألك يا عالم الأمور الخفية ، ويا من الأرض بعزته مدحية ، ويا من الشمس والقمر بنور جلاله مشرقة مضيئة ، ويا مقبلا على كل نفس مؤمنة زكية ، ويا مسكن رعب الخائفين بألطافك الخفية يا مَنْ حوائج الخلق عنده مقضية ، يا من ليس له حاجب ولا صاحب يُغشى ، ولا وزير يؤتى ، ولا غيره رب يدعى ، ولا يزداد على الإلحاح إلا كرماً وجوداً ، صل على محمد وآله وأعطنى سؤلى إنك على كل شيء قدير . »

ولم تشغلها عبادتها وإخلاصها فيها عن واجباتها الاجتماعية نحو زوجها وأولادها . . . فقد حدث الرواة أنها كانت تجتمع مع نساء المؤمنات فى بيت عمر بن الخطاب برئاسة أختها أم كلثوم زوجة عمر ، وتتدارس معهن

ما يجب على المرأة نحو دينها ومجتمعها . وفى بعض هذه المجالس قالت السيدة زينب - رضى الله عنها - : إن جدى المصطفى - ﷺ - شرع علينا حقوقاً لأزواجنا ، كما جعل على الرجال حقوقاً مفروضة ، فالقرآن الكريم يقول

﴿ وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ ۚ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِىٓ أَرْحَامِهِنَّ إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۚ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِى ذَٰلِكَ إِنْ أَرَادُوٓا۟ إِصْلَٰحًا ۚ وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٢٨﴾ ﴾ (١٩٢)

ويقول النبى - ﷺ - : « إذا صلت المرأة خمسها ، وصامت شهرها ، وحفظت فرجها ، وأطاعت زوجها ، قيل لها : ادخل الجنة من أى أبوابها شئت » (١٩٣)

قالت : ولقد حضرتُ مجلسا من مجالس المرأة فى عهد النبى - ﷺ - حينما كانت والدتى فاطمة الزهراء - رضى الله عنها - فى حضرته الشريفة ، وقال لها الرسول - ﷺ - : « اى شىء أحسن للمرأة » .

فقالت يارسول الله أحسن شىء للمرأة أن لاترى رجلاً أجنبياً ولايراها رجل أجنبى .

فرأيت جدى المصطفى - ﷺ - يضم والدتى ويقبلها ويقول « ذرية بعضها

---

(١٩٢) البقرة ٢٢٨

(١٩٣) رواه الطبرانى وأحمد

من بعض والله سميع عليم » . (١٩٤)

أما عن صبرها فحدث عنه ولا حرج ، ولقد ابتليت بما يهد الجبال ، فما جزعت ، وكانت تحتسب ما يصيبها عند الله ، وإنها كانت لتحزن لما يصيبها ولكن الحزن لم يخرجها عن وقارها وحسن استمساكها بالله واعتصامها به . .

لقد شهدت وفاة جدها ـ صلى الله عليه وسلم ـ ومن بعده أمها ـ رضى الله عنها ـ وشهدت مصرع أبيها بهذه الصورة المفجعة ثم موت أخيها الحسن ثم مصرع أخيها الحسين وبقية أهل بيته ومن بينهم بعض أولادها فما سمع أحد أنها تلفظت بكلمة تنافى إيمانها الراسخ ويقينها الثابت . إلا الكلمات التى لابد منها فى مثل هذه الفواجع التى تغلب فيها العاطفة عقل الإنسان ، وإلا كان صاحبها جلمدا لا يحس ، جمادا لا يشعر .

ولقد مرضت فأشاروا عليها باستحضار الطبيب لمعالجتها فقالت : ياقوم ، لسنا من هؤلاء الذين ينظرون إلى الدنيا والبقاء فيها ، لأننا آل بيت النبوة ، وأحب اللقاء إلينا لقاء ربنا ، والطبيب لا يقدم الأجل ولا يؤخره . .

هذا هو الصبر الجميل الذى دعا إليه رب العزة نبيه ـ صلى الله عليه وسلم ـ فتأدب به وأدّب به عترته الطاهرة التى جعلها الله للناس مثلا أعلى يقتدون به ، ويسيرون على ضوئه ، ويترسمون نهجه .

وسنشير إلى الأحداث الجليلة التى مرت بها السيدة زينب ، وكيف كان

---

(١٩٤) أخرجه البزار والدار قطنى فى الافراد من حديث على

موقفها منها ، لتدرك أى امرأة عظيمة كانت . .

في معترك الأحداث :

عاصرت السيدة زينب - رضى الله عنها - الأحداث العنيفة التى تعرضت لها الحياة الإسلامية ، وكان أعنفها بعد وفاة جدها - صلى الله عليه وسلم - وأمها - رضى الله عنها - مقتل الخليفة عثمان الذى دافع عنه أبوها وأخواها . .

ولم ينقض على بيعه أبيها بالخلافة غير قليل حتى شهدت انتقاض بعض من بايعوه عليه . وخلعهم بيعته . واجتماعهم على حربه . .

ثم كانت موقعة الجمل التى استشهد فيها صحابيان جليلان ممن شهد لهم النبى - صلى الله عليه وسلم - بالجنة ، وقد قتلا ظلماً بعد أن تبين لهما أن خروجهما على الإمام على - رضى الله عنه - لم يكن هو الوجه الصحيح - وحزن الإمام علىٌّ على فقدهما ودعا لهما وترحم عليهما ، وقال لابن طلحة - رضى الله عنه - أرجو من الله أن أكون أنا وأبوك ممن يقول الحق فيهم

﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ ۖ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ ۖ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ ۖ وَنُودُوا أَن تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾ (١٩٥)

ثم تتابعت الأحداث ، فكانت موقعة صفين التى انتهت بالتحكيم ، وشهدت السيدة زينب مهزلة الخوارج الذين حملوا الإمام علياً على قبول

---

(١٩٥) الأعراف ٤٣

التحكيم ثم لاموه عليه بعد ذلك ، ثم خرجوا عليه وطالبوه بالتوبة ، وحاربوه فاضطر إلى محاربتهم . .

ولم تزل الأحداث تتوالى ، وهى ترثى لأبيها الذى قُدِّر له أن يشهد هذه الفترة التى تغيرت فيها المفاهيم ، والتوت بالناس الطرق ، وانساقوا وراء الفتن ، ولم ينصتوا إلى رأى العقل والدين . ولم ينتفعوا بتعاليم الهدى التى كانت تصدر على لسان الإمام على ـ رضى الله عنه ـ وبقية السلف الصالح .

ولم تجد محاولاته معهم لإصلاحهم وحملهم على طريق الرشاد والمنهج السديد والطريق الرشيد .

وكانت موقعة النهروان التى اضطر الإمام على إلى خوضها ضدهم ، لأنهم أشعلوا فتنة عمياء ، وحرباً حمقاء ، وقد هلك فيها الكثير من هؤلاء الخوارج الذى فرقوا كلمة المسلمين ، وخدعوا الناس بكثرة صيامهم وصلاتهم ، ولكنهم كانوا كما قال النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فيهم : « يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية » .

ولجأ هؤلاء القوم إلى الانتقام الرخيص من الإمام على فخططوا لاغتياله ونفذوا جريمتهم النكراء . .

. . ورأت السيدة زينب بعينها مصرع أبيها الإمام على ـ كرم الله وجهه ـ فى مسجد الكوفة وهو يؤم الناس فى صلاة الفجر وحزَّ فى نفسها هذا المصاب الشديد ، ولكنها صبرت امتثالا لأمر الله تعالى ـ

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱصْبِرُوا۟ وَصَابِرُوا۟ وَرَابِطُوا۟ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ

تُفۡلِحُونَ ﴿٢٠٠﴾[196]

وتغلبتْ على مصيبتها بكثرة الصلاة والعبادة كما قال الله ـ تعالى :

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٣﴾﴾[197]

كانت السيدة زينب ـ رضى الله عنها ـ عظيمة فى صبرها . قوية فى إيمانها ، ولكن البلاء يأتى بقدر الإيمان ، ومن آمن بالله فكأنه قال له امتحنى وكلما ازداد الإيمان ازداد البلاء مصداقا لقوله ـ صلى الله عليه وسلم : « أشد الناس بلاء الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل ، يبتُلى الرجل على حسب دينه ، فإن كان فى دينه صلبا اشتد بلاؤه ، وإن كان فى دينه رقة ابتلى على قدر دينه ، فما يبرح البلاء بالعبد حتى يتركه يمشى على الأرض وما عليه خطيئة »[198]

وبويع لأخيها الإمام الحسن بعد استشهاد والده ، وتنفس المسلمون بسببه أنفاس الأمان فقد وضعت الحرب أوزارها على يديه ، بعد أن تنازل طائعاً مختاراً عن الخلافة لمعاوية ، لأنه وجد أن حقن دماء المسلمين أفضل من أى شىء لأنها دماء غالية عند الله . . وصدق بذلك كلمة جده ـ صلى الله عليه وسلم ـ حين نظر إليه وهو صغير يحبو ، فرفعه بين يديه على المنبر ، وقال : « إن ابنى هذا سيد ولعل الله أن يصلح به بين فئتين عظيمتين من المسلمين » وتحققت نبوءة المصطفى فى الحسن ـ رضى الله عنه ـ

---

(١٩٦) آل عمران ٢٠٠

(١٩٧) البقرة ١٥٣

(١٩٨) أخرجه أحمد فى مسنده والبخارى ، والنسائى ، وابن ماجه ، وفى جامع الأحاديث برقم ٣٠٦٨ للسيوطى جـ ١ ص ٥٩٣

ومات ـ رضى الله عنه ـ تاركاً من بعده أسى شديداً وحزناً عميقاً .

وكان للحسن ـ رضى الله عنه ـ فى نفس السيدة زينب مكانة عظيمة . . فهو أخوها الأكبر الذى كانت تنظر إليه على أنه عوض أبيها ـ رضى الله عنه ـ وكان هو كثير العطف عليها والحب لها .

ولكنها احتسبت فقده عند الله . وصبرت امتثالا لأمر الله ، وزادها الله إيمانا على إيمان وقوة على قوة . .

وجاءت محنة الحسين ـ رضى الله عنه ـ وشهدتها السيدة زينب من أولها ، منذ أن خرج الحسين من المدينة إلى مكة .

وخرجت السيدة زينب مع أخيها إلى مكة ضمن من حملهم الحسين من أهل وأولاد . . وكانت السيدة زينب فى بيت أبيها بعد أن فارقها زوجها عبدالله بن جعفر .

ثم تلاحقت الأحداث حتى خرج الحسين فى طريقه إلى الكوفة . . وخرجت معه . .

وشهدت مصرع أخيها بهذه الصورة المفجعة التى سبق أن تحدثنا عنها .

بطولة نادرة

كانت السيدة زينب رمزاً للبطولة النادرة فى موقعة كربلاء ، لا لأنها حملت سيفا وبارزت الفرسان ، بل لأنها على الرغم من قتل الحسين وذريته لم تحن لهؤلاء الخصوم رأساً ، ولم تذل أمامهم هامة ، على الرغم من أنهم ساقوها أسيرة هى ومن بقى من الأطفال والنساء أحياء فى موكب تحف بهم الفرسان من كل جانب إلى قصر ابن زياد فى الكوفة .

لقد حمل هؤلاء النساء والأطفال على أقتاب الجمال بغير غطاء ، ووقعت

أبصارهم على مصارع الشهداء فى منظر لم يرُ أفظع منه ، رءوس مقطعة ، وأجساد ممزقة ودماء جارية تروى رمال الصحراء وتسفى الرياح على هذه الجثث الطاهرة التى كانت منذ قريب تحمل أرواحاً طاهرة ، تنطق بالحكمة . وتتلوا آيات الله ، وتروى أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم وتعلم الناس مكارم الأخلاق .

وهتفت السيدة زينب من أعماقها بهذه الكلمة الخالدة التى أشهدت أهل السماوات والأرض على ذلك الظلم الذى حاق بهذه الأسرة النبوية الطاهرة وقالت :

« يامحمداه ، صلى عليك مليك السماء ، هذا حسين بالعراء مقطع الأعضاء ، وبناتك سبايا ، إلى الله المشتكى ، وإلى محمد المصطفى ، وإلى على المرتضى ، وإلى فاطمة الزهراء ، وإلى حمزة سيد الشهداء .

« يا محمداه ، هذا حسين بالعراء تسفى عليه الصبا ، واحزناه ، واكرباه عليك أبا عبد الله ، اليوم مات جدى رسول الله وأمى فاطمة وأبى على .

يا أصحاب محمداه ، هؤلاء ذرية المصطفى يساقون سوق السبايا وهذا حسين محزوز الرأس من القفا ، مسلوب العمامة . . بأبى من أضحى معسكره نهبا . .

ووصل الركب الحزين الكوفة ، وكان على بن الحسين الملقب بزين العابدين ـ مريضاً ، وقد سلّم هذا المرض من القتل ، وقد أبقاه الله لحكمة جليلة ، هى حفظ العترة الطاهرة من الفناء ، فلو أنه قتل لانقطع نسل النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ من فاطمة ـ ـ رضى الله عنها ـ وقد هال علياً

زين العابدين ، منظر أهل الكوفة . وهم يقفون فى انتظار موكب الأسرى باكين . . . فقال لهم :

يا أمة السوء لاسقياً لربعكم | يا أمة لم تراع أحداً فينا
لو أننا ورسول الله يجمعنا | يوم القيامة ما كنتم تقولونا ؟

ونظر أهل الكوفة لأطفال الحسين ، وقد أنهكهم التعب والجوع والسهر ، فأخذوا يناولون الأطفال وهم على أحمالهم بعض التمر والخبز والطعام . فصاحت السيدة أم كلثوم أخت السيدة زينب : يا أهل الكوفة ، إن الصدقة علينا حرام . . .

وأخذت ما بأيدى الأطفال والقت به .

والناس حولهم يبكون ، فقالت لهم : يا أهل الكوفة ، يقتلنا رجالكم وتبكينا نساؤكم ، فالحاكم بيننا وبينكم الله يوم فصل القضاء .

ونظرت السيدة زينب ـ رضى الله عنها ـ إلى رأس الحسين فقالت فى أسى وحزن :

يا هلالاً لما استتم كمالاً | غاله خسفه فأبدى غروبا
ما توهمت يا شقيق فؤادى | كان هذا مقدراً مكتوبا

ثم التفتت إلى الناس ، وخطبت فيهم قائلة :

« الحمد لله ، والصلاة والسلام على أبى محمد وآله الطيبين الأخيار .

أما بعد ، يا أهل الكوفة ، يا أهل الختل والغدر ، أتبكون ؟ فلا رقأت[199] الدمعة ، ولا هدأت الرنة ، إنما مثلكم كمثل التى نقضت غزلها

---

(١٩٩) رقأت : جفت

من بعد قوة أنكاثا تتخذون أيمانكم دَخَلاً[٢٠٠] بينكم . . . ألا وهل فيكم إلا الصَّلف والكذب والشنف[٢٠١] وملك الإماء وغمز الأعداء ، أو كمرعى على دمنة[٢٠٢] ، أو كفضة ملحودة . . ؟ ألا بئس ما قدمت لكم انفسكم أن سخط الله عليكم وفى العذاب أنتم خالدون .

« أتبكون وتنتحبون ؟ إى والله فابكوا كثيراً واضحكوا قليلاً ، فقد ذهبتم بعارها وشَنَارها ، ولن ترحضوها[٢٠٣] بغسل أبدا .

« وأى ترحضون قتل سليل خاتم النبوة ومعدن الرسالة ، مِدْرَه[٢٠٤] حجتكم ، ومنار محجتكم ، وملاذ خيرتكم ، ومفزع نازلتكم ، وسيد شباب أهل الجنة ألا ساء ما تزرون .

« فتعسا لكم ، وبعداً لكم وسحقا ، فلقد خاب السعى ، وتبّت الأيدى وخسرت الصفقة ، وضربت عليكم الذلة والمسكنة ، ويلكم يا أهل الكوفة ، أتدرون أى كبد لرسول الله فريتم ؟ وأى كريمة أبرزتم ؟ وأى دم سفكتم ؟

وأى حرمة له انتهكتم ؟ لقد جئتم شيئاً إدًّا ، تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هدأ .

« ولقد أتيتم بها خرقاء شوهاء كطلاع ـ ملء ـ الأرض وملء السماء

---

(٢٠٠) دخلا : خيانة ومكرا

(٢٠١) الصلف : الادعاء والتكبر ـ النطف : التلطخ بالعيب ـ الشنف : البغض والتنكر

(٢٠٢) ماتدمنه الإبل بأبوالها وأبعارها

(٢٠٣) ترحضوها تظهروها

(٢٠٤) بِدْرَه : المتكلم عنكم المدافع عنكم

« أفعجبتم أن أمطرت السماء دما ؟ ولعذاب الآخرة أخزى وأنتم لا تنصرون .

« فلا يستخفنكم المهل فإنه لا يحفزه - لا يحثه - البدار ، ولا يخاف فوت الثار ، وإن ربكم لبالمرصاد »

لقد كان هذا الخطاب آية فى البلاغة والفصاحة ، وحجة دامغة على أهل الكوفة يشهد بعظيم ما اقترفوه من إثم فى حق الحسين - رضى الله عنه - فقد تخلوا عنه فى جبن شديد بعد أن استقدموه ، ونكثوا بيعته بعد أن بايعوه . . وكان قولها حقاً صدقته الأيام ، فمازالوا حتى ساعتنا هذه يكابدون حرَّ الندم ، يقاسون مرارة الخزى ومازالت دُموعهم تجرى على خدودهم مدراراً لا تجف ، بسبب ما يمر بهم من مصائب وكوارث ، وبسبب ما يسلط الله عليهم من عدوهم حيناً ، ومن أنفسهم حيناً آخر فيذيقهم النكال والعذاب . . .

وأدخل الركب الحزين على ابن زياد ، ونظر إلى على زين العابدين فقال : من هذا ؟

فقال على - رضى الله عنه - على بن الحسين

فقال ابن زياد : ألم يقتل الله على بن الحسين ؟

فقال زين العابدين : كان لى أخ يسمى علياً فاز بالشهادة . . فغاظت كلمة الشهادة ابن زياد . فنظر إلى من حوله وقال لهم : إن كان قد أدرك فاقتلوه .

وتعلقت السيدة زينب - رضى الله عنها - بابن أخيها ، وقالت لابن زياد فى خشونة : حسبك ما أرقت من دمائنا ، وهل أبقيت أحداً غير هذا ؟ والله

لا أفارقه ، فإن قتلته فاقتلنى معه .

وعندئذ نظر على بن الحسين ، وقال لعمته : اسكنى يا عمة حتى أكلمه .. وقال لابن زياد :

أبالقتل تهددنى ؟ أما علمت أن القتل لنا عادة ؟ وكرامتنا من الله الشهادة .. ؟

وكأن الله قد أخرس ابن زياد ، فلم ينطق ، إلا أنه قال : عجباً للرحم ، والله إنى لأظنها ودت لو أنى قتلته أنى قتلتها معه ، دعوه ينطلق مع نسائه ، فإنى أراه لما به مشغولاً .

وكان ابن زياد قد نظر إلى السيدة زينب وقد شمخت برأسها لم تنكسها ، ووقفت أمامه فى عزة وتحد ، فقال : من هذه ؟

فلم ترد ، ثلاث مرات .. فقالت إحدى إمائها .. هذه زينب بنت فاطمة بنت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وبنت على - كرم الله وجهه - فقال لها وقد غاظه إهمالها له وعدم ردها عليه :

كيف رأيت صنع الله فى أهل بيتك وأخيك ؟

فقالت فى إيمان ويقين :

هؤلاء القوم كتب الله عليهم القتل مبرروا إلى مضاجعهم ، وسيجمع الله بينك وبينهم فتحاج وتخاصم ، فانظر لمن الفَلَج - الفوز - يومئذ .

وكأن هذا الرد قد أثار غضبه فأرغى وأزبد ، فحاول بعض من حوله تهدئته ، فقال له عمرو بن حريث :

أصلح الله الأمير ، إنما هى امرأة ، وهل تؤاخذ المرأة بشىء من منطقها ؟ إنها لا تؤاخذ بقول ولا كلام على خطل .

ولكن غيظ ابن زياد لم يهدأ ، فأخذ يردد :

لقد شفى الله قلبى من الحسين ، والمردة من أهل بيتك .

فقالت ولم يفارقها إيمانها :

لعمرى لقد قتلت كهلى ، وقطعت فرعى ، واجتثثت أصلى ، فإن كان فى هذا شفاؤك فلقد اشتفيت .

فرد ابن زياد قائلاً :

هذه سَجَاعة[٢٠٥] ، ولقد كان أبوك سجاعاً ..

فقالت : يابن زياد ، ما للمرأة والسجاعة ، وإن لى عن السجع لشغلا ، وإنى لأعجب ممن يشتفى بقتل أئمته ، ويعلم أنهم منتقمون منه فى آخرته .[٢٠٦]

وأمر ابن زياد أن يحشر الناس إليه ليستمعوا إلى خطابه .. فنادى : الصلاة جامعة ..

وارتقى المنبر فقال : الحمد لله الذى أظهر الحق وأهله ، ونصر أمير المؤمنين وأيد حزبه ..

وأثارت هذه الكلمات غيرة بعض المؤمنين القانتين ، فوثب عبد الله بن عفيف الأزدى ، وكان قد فقد عينيه .. إحداهما مع على يوم الجمل ، والأخرى معه يوم صفين : فقال : يابن زياد أتقتلون أبناء النبيين وتتكلمون بكلام الصديقين ؟ ولم يبال عبد الله بن عفيف النتيجة .. حسبه أنه قال ما يجب عليه ، وما يمليه عليه ضميره دفاعاً عن الحق وذرية النبى - ﷺ - .

---

(٢٠٥) السجع الكلام الموزون فى آخر جملة

(٢٠٦) ابنة الزهراء بطلة الفداء ص ٢١٢

وأمر ابن زياد بضرب عنق ابن عفيف ، ولكن ذلك لم يغض من شأنه ، فقد ذهب شهيداً وبقيت كلمته التى ألقاها على مسمع ابن زياد .

ترن فى أسماع الزمن ، وتشهد الناس على قوة الحق وإن هزم ، وضعف الباطل وإن حُشِد له .

يقول ابن الأثير فى كتابه الكامل فى التاريخ : هذا النصر - الذى يتحدث عنه ابن زياد - فى نظرى ونظر كل عاقل صحيح العقل شر من الخذلان ، إذ مافخر الآلاف الكثيرة تجتمع على اثنين وسبعين رجلا قد نزلوا على غير ماء ، إنما يعتبر النصر شرفا وفخرا إذا كانت العدة متكافئة والعدد قريبا .

أما والأمر كذلك فليس ههنا مجال للفخر أو للاحتفال بالنصر ، ولا يمكن أن يطلق على هذا العمل وصف إلا أنه كارثة أصيب بها الإسلام والمسلمون والمنتصر والمهزوم كلاهما مصاب وكلاهما مكلوم أو منكوب فإنا لله وإنا إليه راجعون ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم .

الرحلة إلى الشام

ووصل الركب الحزين بعد رحلة قاسية عنيفة لا راحة فيها لراكب ، ولا رحمة فيها لمصاحب ، إلى دمشق . .

والتفتت فاطمة بنت الحسين إلى يزيد تقوله له :

أبنات رسول الله سبايا يايزيد ؟

فقال : ياابنة أخى ، أنا لهذا كنت أكره .

قالت : يايزيد : أنت أمير مسلَّط تقهر الناس بسلطانك . . فاستحيا يزيد وسكت .

ثم انتصبت السيدة زينب واقفة فى غضب شديد ، وألقت خطبة تعد من روائع الخطب العربية . قالت : ـ

الحمد لله رب العالمين ، وصلى الله على رسوله وآله أجمعين صدق الله سبحانه حيث يقول

﴿ ثُمَّ كَانَ عَـٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَـٰٓـُٔوا۟ ٱلسُّوٓأَىٰٓ أَن كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١٠﴾ ﴾ (٢٠٧)

أظننت يايزيد حين أُخذ علينا بأقطار الأرض وآفاق السماء فأصبحنا نساق كما تساق الأسارى أن بنا هواناً على الله وبك عليه كرامة ، وإن ذلك لِعَظِيم خطرك عنده ؟ فشمخت بأنفك ، ونظرت فى عطفك تضرب منكبيك ـ فرحاً ، وتبدو ، جذلان مسرورا ، حين رأيت الدنيا لك مستوثقة ، والأمور متسقة ، وحين صفا لك ملكنا وسلطاننا ، فمهلا . . . أنسيت قول الله تعالى ـ :

﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَـٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَـٰرُ ﴿٤٢﴾ ﴾ (٢٠٨)

« أمن العدل يايزيد أن تساق بنات رسول الله سبايا قد هتكت ستورهن ، وأبديت وجوههن ، تحدو بهن الأباعر من بلد الى بلد ، ويستشرفهن أهل المناهل والمناقل ، ويتصفح وجوههن القريب والبعيد ، والدنى والشريف ، ليس معهن من رجالهن وَلِيّ ولا من حماتهن حمى ؟

---

(٢٠٧) الروم ١٠

(٢٠٨) إبراهيم ٤٢

وكيف لا تقول ذلك وقد نكأت القرحة واستأصلت الشأفة ، بإراقتك دماء ذرية محمد - ﷺ - ونجوم الأرض من آل عبد المطلب ؟

اللهم خذ لنا بحقنا ، وانتقم ممن ظلمنا ، واحلل غضبك بمن سفك دماءنا وقتل حماتنا ، فوالله يايزيد مافريت - قطعت - إلا جلدك ، ولا حززت إلا لحمك ، ولتردن على رسول الله - ﷺ - بما تحملت من دماء ذريته ، وانتهكت من حرمته فى عترته ولحمته ، حيث يجمع الله شملهم ويأخذ بحقهم

﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴾ ١٦٩ (٢٠٩)

وحسبك بالله حاكما ، وبمحمد - ﷺ - خصيما ، وبجبريل ظهيرا ، وسيعلم الجمع من المسلمين أينا شر مكانا وأضعف جندا .

« ولئن جرت على الدواهى مخاطبتك إنى لأستصغر قدرك ، وأستعظم تقريعك ، وأستكثر توبيخك ، لكن العيون عَبْرى ، والصدور حَرّى وما يجزى ذلك أو يغنى . .

فالعجب كل العجب ، لقتل النجباء على يد قوادك وجنودك ، فهذه الأيدى تسيل من دمائنا والأفواه تتحلب من لحومنا ، وتلك الجثث الطواهر الزواكى تنتابها العواسل - الذئاب - وتعفرها أمهات الفراعل - جمع فرعل - ولد الضبع - ولئن اتخذتنا اليوم مغنما لتجدنا وشيكا مغرما ، حيث لا تجد إلا ماقدمت يداك ، ومابربك بظلام للعبيد ، وإلى الله المشتكى وعليه المعول .

---

(٢٠٩) آل عمران ١٦٩

« فكد كيدك ، واسع سعيك ، فوالله لا تمحو ذكرنا ولا تميت وحينا ، ولا تدرك أمرنا ، ولا ترحض عنك عارها ، وهل رايك إلا فَنَد ، وأيامك إلا عدد ، وجمعك إلا بدد ، يوم ينادى الحق سبحانه وتعالى : لمن الملك اليوم ؟

فالحمد لله رب العالمين ، الذى ختم لأولنا بالسعادة والمغفرة ، ولآخرنا بالشهادة والرحمة ، ونسأل الله أن يكمل لهم الثواب ، ويوجب لهم المزيد ، ويحسن علينا الخلافة إنه رحيم ودود ، وحسبنا الله ونعم الوكيل »(٢١٠)

ويعد هذا الخطاب من روائع الخطب فى الإسلام .. فلم يستطع أحد من الجالسين أن يرد عليها ، وخرست الألسنة فلم يستطع أحد أن يتفوه ببنت شفة ..

ولقد دل هذا الخطاب على شجاعتها الفائقة إلى جانب بلاغتها الرائعة ، فهى لم ترهب السلطان ، ولم تخش فى الله لومة لائم ، ولقد كانت وهى التى ساقها الخصوم أسيرة تقود ركب الأسيرات كأنها قائد مظفَّر يملى على العدو شروطه ، ويعدِّد عليه مخازيه وجرائمه ..

فمن الذى كان يستطيع أن يصور ذلك الأمر والحال بمثل ما صورته .. وهل فى القدرة والإمكان لأحد أن يدفع خصمه بالحجة والبيان والتقريع والتأنيب ، ويبلغ ما بلغته ـ سلام الله عليها ـ بتلك الكلمات وهى على الحال الذى عرفت ، ثم لم تقتنع منه بذلك حتى أرادت أن تمثل له وللحاضرين عنده عزة الحق ، وعدم الاكتراث أو المبالاة بالقوة والسلطة والهيبة والرهبة ، ولم يستطع يزيد أن يقاطع السيدة زينب أو يحول بينها وبين

---

(٢١٠) اعلام النساء ٢ / ٥٠٤ ـ بلاغات النساء ص ٢١ ـ عقيلة الطهر والكرم ص ٨٤

الاستمرار فى خطابها . . فقد استمرت فى هذا الخطاب الذى هز أوتار القلوب وأثار المشاعر ، وكان له أثره فيها بعد . .

فقد ظل الناس يتناقلونه ويحفظونه حتى أذن هذا الخطاب وأمثاله بثورة تبعتها ثورات كثيرة . انتهت بسقوط الدولة الأموية فيها بعد . .

لم يستطع يزيد أن يقاطع السيدة زينب فى خطابها . ولكنه قال بعد أن انهت خطابها :

ياصيحة تحمد من صوائح ما أهون النوح على النوائح

وامر بعد ذلك أن ينزلن فى دوره ، وسمح بأن يقام ماتم على الحسين فى هذه الدور . . ولكن ماأهون النوح كما قال . . وكان أفضل من ذلك لو أنه حال بين النوح وموجبات النوح . . وكان أفضل من ذلك لو أنه حاسب من فعل ذلك .

ولهذا فإن كثيرا من الرواة حتى من الذين يدافعون عن يزيد لم يستطيعوا أن يبرءوه من جزء من التبعة والمسئولية التى نتجت عن تصرف قواده وجنوده .

بل إن بعض الروايات تذكر أن يزيد كان يبدو من كلامه أحيانا عدم ندمه على ماحدث .

فقد قال يوما لعلى بن الحسين : أبوك الذى قطع رحمى وجهل حقى ونازعنى سلطانى فصنع الله به ما رأيت . فقال على :

﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَـٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ

﴿ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا ءَاتَىٰكُمْ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿٢٣﴾ ﴾ (٢١١)

فقال له يزيد :

﴿ وَمَا أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَن كَثِيرٍ ﴿٣٠﴾ ﴾ (٢١٢)

فقال له على : هذا فى حق الظالم لا المظلوم ..

وعلى أى حال فإن ما حدث لأهل البيت أكسبهم تعاطف كثير من الناس الذين رأوا أن ماوقع عليهم من كارثة قد فاقت كل الحدود ..

لقد بدأ الناس يتنبهون إلى مدى الظلم الذى حاق بأهل البيت ، ويستفظعون ما حدث لهم ..

فقد قال رجل من أهل الشام لعلى بن الحسين يوم جاء مغلولا وأقيم على درج دمشق :

الحمد لله الذى هزمكم وقطع قرن الفتنة .

فقال له على : أقرأت القرآن ؟

قال الرجل : نعم .

قال على : أقرأت آل حم ؟

قال : كيف أكون قرأت القرآن ولم أقرأ آل حم ؟

فقال على : أما قرأت

---

(٢١١) سورة الحديد ٢٢ ، ٢٣

(٢١٢) الشورى ٣٠

﴿ ذَٰلِكَ ٱلَّذِى يُبَشِّرُ ٱللَّهُ عِبَادَهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ۗ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ ۗ وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُۥ فِيهَا حُسْنًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٢٣﴾ ﴾ (٢١٣)

فقال الشامى : وإنكم لأنتم ؟

قال على : نعم ..

وكأنما كان الرجل نائما فاستيقظ ..

لم يلبث كثير من الناس أن كرهوا يزيد وحكمه ، واستشعر يزيد سخط الناس وغضبهم ، فأخذ يسب قائده ابن زياد الذى تسبب فى ذلك ويقول : وما على لو احتملت الأذى وأنزلت الحسين معى فى دارى ، وحكمته فيما يريد ، وإن كان على فى ذلك وهن فى سلطانى ـ حفظا لرسول الله ـ ﷺ ـ ورعاية لحقه وقرابته ؟ لعن الله ابن مرجانة ..

هكذا يقول بعض الرواة وهو يدل على أن يزيد قد ندم على ما حدث وأحس بأنه كان من الممكن تفادى ذلك كله ، ولو حدث ذلك لكان فيه الخير كل الخير للإسلام والمسلمين ، ولكن قدر الله وماشاء فعل ..

السيدة فى مصر

وأمر يزيدُ النعمان بن بشير بأن يصحب الركب الحزين إلى المدينة .. وحاول يزيد أن يجزل الأموال للسيدة زينب ، فردت عليه فى أنفة قائلة : يا يزيد ، ما أقسى قلبك ، تقتل أخى وتعطينى المال ، والله لا كان ذلك أبداً .. واختار النعمان بن بشير بعض الرجال الأمناء ليرافقهم ، وحاول

---

(٢١٣) الشورى ٢٣

يزيد أن يتلطف مع أهل البيت كلون من ألوان التخفيف عنهم بسبب ما أصابهم ، وقال لعلى بن الحسين وهو يودعه :

لعن الله ابن مرجانة ـ يقصد ابن زياد ـ أما والله لو عرفت لدفعت الحتف عنكم بكل ما استطعت ولو بهلاك بعض ولدى ، ولكن قضى الله ما رأيت يا بنى . كاتبنى فى أى حاجة تكون لك .

وأحسن الرفاق صحبة أهل البيت فعلاً فى طريقهم إلى المدينة ، وكان بشر بن حذلم فى مقدمة هؤلاء المرافقين ، وقد تأثر أهل البيت بحسن معاملتهم حتى لقد أرادوا مكافأتهم على ما قاموا به من إحسان الصحبة . فنزعت نساء أهل البيت ما معهن من حلى ، وقدمتها مكافأة لبشر بن حذلم ، ولكنه أبى ذلك وقال : لو كان ما صنعناه للدنيا لكان فى هذا مقنع ، ولكن والله ما فعلنا ما فعلنا إلا لله ولقرابتكم من رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ

وكان خبر مسيرهم إلى المدينة سبقهم إليها ، فصاحت نساء بنى هاشم وخرجت ابنة عقيل بن أبى طالب ومعها نساؤها تقول :

ماذا تقولون إن قال النبى لكم ماذا فعلتم وأنتم آخر الأمم ؟
بعترتى وبأهلى بعد مفتقدى منهم أسارى وقتلى ضرجوا بدم
ما كان هذا جزائى إذ نصحت لكم أن تخلفونى بسوء فى ذوى رحمى

وقام عمرو بن سعيد والى المدينة من قبل يزيد على المنبر فأعلم الناس بمصرع الحسين ، ولما سمع الصائحة التى صاحت بالأبيات السابقة قال : ناعية كناعية عثمان . .

وكان عبد الله بن جعفر - رضى الله عنه - بالمدينة ، وبلغه الخبر ، وعلم أن ولديه قتلا مع الحسين .. وجاء الناس يعزونه ، فقال مولًى من مواليه : هذا ما لقيناه من الحسين .

فحذفه عبد الله بن جعفر بنعله وقال له : يا بن اللخناء ، أللحسين تقول هذا ؟ والله إنه لما يهون المصاب بهما أنهما أصيبا مع أخى وابن عمى ، مواسيين له ، صابرين معه ، ثم قال : إن لم تكن آست الحسين يداى فقد آساه ولداى .

ولم يكن والى المدينة على المستوى الذى يستقبل مثل هذا النبأ بما يجب أن يُستقبل به من مراعاة لمشاعر المسلمين ، فإنه لم يظهر الحزن لمقتل الحسين . وهو يعلم أن هذا الخبر قد أساء كلَّ من فى المدينة .

وكان أهل المدينة قد سمعوا ليلة مقتل الحسين ناعياً يقول :

أيها القاتلون جهلاً حسيناً ... أبشروا بالعذاب والتنكيل
كل أهل السماء يدعو عليكم ... من نبىٍّ وملائك وقبيل
قد لُعِنتُم على لسان ابن داود ... وموسى وصاحب الانجيل[214]

وقبل أن يصل الموكب إلى المدينة بقليل ، نزل على بن الحسين ، وحط رحله ، وانتدب من يبلغ أهل المدينة بقدومهم ، فركب بشر بن حذلم رفيقهم فى الرحلة ، وتقدمهم وأخذ ينشد قائلاً :

يا أهل يثرب لا مقام لكم بها ... قتل الحسين فأدمعى مدرار

---

(٢١٤) البداية والنهاية جـ ٨ ص ١٩٨

الجسم منه بكربلاء مضرج　　والرأس منه على القناة تدار

فخرج الناس إليهم صائحين بالبكاء ، واستقبلوهم أحسن استقبال وتقدمت السيدة زينب ـ رضى الله عنها ـ إلى باب مسجد رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فأخذت بعضادتى الباب وصاحت تقول وعيناها تسيلان بالدموع : يا جداه إنى ناعية إليك أخى الحسين . . واشتعلت المدينة ناراً بسبب كلمات السيدة زينب حتى ضج الوالى ورفع أمرها إلى يزيد بن معاوية . . فكتب إليه يأمرها بأن تغادر المدينة إلى أى أرض تشاء غير الحرمين الشريفين . . فاختارت مصر . .

لماذا مصــــــــر ؟

وعز على السيدة زينب أن تلبى أمر الوالى . ولكن نساء بنى هاشم اجتمعن إليها قائلات لها على لسان ابنة عمها زينب بنت عقيل بن أبى طالب : يا بنت عماه ، قد صدقنا الله وعده ، وأورثنا الأرض نتبوأ منها حيث نشاء فطيبى نفساً وقرى عيناً ، وسيجزى الله الظالمين ، أتريدين بعد ذلك هواناً ؟ ارحلى إلى أى بلد آمن وكان البلد الأمن هو مصر . .

فالحجاز وحاضرتاه مكة والمدينة قد اشتعل غضباً وأوشكت الثورة أن تعمه على يزيد ـ كما يقول المسعودى . . وكان قتل ابن بنت رسول الله وأنصاره سبباً فى أن أخرج أهل المدينة واليهم ، وهو عثمان بن محمد بن أبى سفيان ، ومروان بن الحكم وسائر بنى أميه[٢١٥] » .

ولما فعل أهل المدينة إلى يزيد ، فارسل اليهم جيشاً كثيفاً بقيادة مسلم

---

(٢١٥) مروج الذهب جـ٢ ص ٥٤

ابن عقبة ، فحاصر المدينة وقتل كثيراً من أهلها ولم ينج من بنى هاشم إلا على ابن الحسين ـ رضى الله عنه ـ وعلى بن عبد الله بن العباس ، وقد عصم الله الأول بدعائه ، ومنع الثانى أخواله من كندة الذين كانوا مع مسلم ابن عقبة .

فلا يمكن والحالة هذه أن تستقر السيدة زينب فى الحجاز . . .

أما الشام فهو مقر الخلافة الأموية فلا يمكن أن تقيم فيها .

وأما العراق ، فقد أصاب أهل البيت ما أصابهم منهم ، وقد جربهم أهل البيت مرة ومرة ، فلم يصدقوا فى وعودهم ، بل نكثوا فى عهودهم . .

فلم يبق أمامها إلا مصر . .

وقد ورد فى فضائل مصر أخبار كثيرة ، وخصّها الله بالذكر فى كتابه الكريم فى مواضع عدة ، وقد جاء عن عيسى ـ عليه السلام ـ أنه مَرَّ بسفح المقطم فى أثناء عودته إلى الشام فالتفت إلى أمه وقال لها : يا أماه ، هذه مقبرة بعض أمة محمد ـ صلى الله عليه وسلم[٢١٦] ـ فجاءت السيدة زينب إلى مصر ، فوجدت فيها الأمن وحسن اللقاء ، والترحيب بها ، والرثاء الصادق لما ألم بأهلها . .

مسلمة بن مخلد فى استقبالها

وما أن سمع مسلمة بن مخلد والى مصر من قبل يزيد بمجىء السيدة زينب إلى مصر ، حتى سارع إلى استقبالها عند مشارف مصر ، فى قرية شرقى مدينة بلبيس بمحافظة الشرقية ، أطلق عليها فيما بعد اسم « العباسة »

---

(٢١٦) خطط المقريزى جـ١ ص ٤٨

نسبة إلى العباسة بنت أحمد بن طولون . .

وإليك ما قاله النسابة العبيدلى وهو من قدامى المؤرخين المحققين وقد توفى سنة ٢٧٧ هـ - فى شأن قدوم السيدة زينب بنت الإمام على إلى مصر .

قال فى كتابه - السيدة زينب وأخبار الزينبات : ثم إن والى المدينة من قبل يزيد وهو « عمرو بن سعيد الأشدق[٢١٧] » اشتكى من إقامة السيدة زينب بالمدينة ، فكتب بذلك إلى يزيد ، وأعلمه بأن وجودها بين أهل المدينة مهيج للخواطر ، وأنها فصيحة عاقلة لبيبة ، وقد عزمت هى ومن معها على القيام للأخذ بثأر الحسين .

فلما وصل الكتاب إلى يزيد ، وعلم بذلك أمر بتفريقهم فى الأقطار والأمصار ، فاختارت السيدة زينب الإقامة بمصر طلباً لراحتها ، واختار بعض أهل البيت بلاد الشام ، فعند ذلك جهزهم الأشدق ، فخرجت السيدة زينب هى ومن معها من أهل البيت ، وفيهم سكينة بنت الحسين ، وأختها فاطمة .

فلما اتصل خبر ذلك لوالى مصر إذ ذاك وهو مسلمة بن مخلد الأنصارى توجه هو وجماعة من أصحابه ، وفى صحبتهم جماعة من أعيان مصر ووجهائها إلى لقائها ، فتلقوها من قرية بين طريق مصر والشام شرقى بلبيس ، ولم يبق بالمدينة من جماعتهم إلا زين العابدين .

---

(٢١٧) هو عمرو بن سعيد بن العاص بن أمية ، قيل له الأشدق لأنه كان خطيباً بليغاً يتشادق بالألفاظ أى يخرج الكلام شدقيه . . والشدق جانب الفم . . قتله عبدالملك بن مروان سنة ٦٩ هـ .

وأقام الحسن المثنى بخارجها .

ووافق دخول السيدة زينب إلى مصر أول شعبان سنة ٦١ هـ وكان قد مضى على الواقعة نحو ستة أشهر وأياماً بما يسع مدة إشعارها ، فأنزلها مسلمة بن مخلد هى ومن معها فى داره بالحمراء القصوى ترويحاً لنفسها ، إذ كانت تشتكى بعض المرض . . فأقامت بها أحد عشر شهراً ونحو خمسة عشر يوماً ـ من شعبان سنة إحدى وستين إلى رجب سنة اثنتين وستين . وتوفيت ـ رضى الله عنها ـ ليلة الاثنين لأربعة عشر يوماً مضت من شهر رجب من السنة المذكورة .

وبعد تجهيزها وشهود جنازتها دفنت بمحل سكناها على العادة فى ذلك . ثم بعد وفاتها رجع من كان معها من أقاربها إلى المدينة وفيهم السيدة سكينة وفاطمة على ما ذكره ابن الأزرق فى تاريخه .

فأما سكينة فتوفيت بالمدينة على المشهور ، وفاطمة مكثت إلى أن توفى زوجها الحسن المثنى سنة سبع وتسعين ، ويقال : إنه بعد وفاته قدمت هى وابنتها « رقية » إلى مصر ، فأقامت بها إلى أن توفيت سنة عشر ومائة ، ودفنت بمحل سكناها بمحلة الخطابة(٢١٨) .

ثم بعد مرور عام على وفاة السيدة زينب بمصر ، وفى نفس اليوم الذى توفيت فيه اجتمع أهل مصر قاطبة ، وفيهم الفقهاء والقراء وغير ذلك ، وأقاموا لها مرسماً عظيماً برسم الذكرى على ما جرت به العادة(٢١٩) ، ومن

---

(٢١٨) هذا تعريف قديم للمنطقة الواقع بها ضريحها الشريف التى تزار به الآن .

(٢١٩) السيدة زينب وأخبار الزينبات للعبيدلى النسابة المتوفى سنة ٢٧٧ هـ ـ أمير المدينة وابن أميرها

ذلك الحين لم ينقطع هذا المرسم إلى وقتنا هذا من يوم وفاتها إلى الآن ، وإلى ما شاء الله . وهذا المرسم هو المعبر عنه بالمولد الزينبى الذى يبتدىء من أول شهر رجب من كل سنة وينتهى ليلة النصف منه وهى ليلة الختام .

ويُحيى بعض الناس هذه الليالى بتلاوة آى القرآن الكريم والأذكار الشرعية ، ويكون لذلك مهرجان عظيم ، ويفد الناس من كل فج عميق إلى زيارة ضريحها الشريف .

ويستطرد محقق الكتاب والمعلق عليه الأستاذ حسن محمد قاسم ـ مؤلف كتاب المزارات المصرية ـ فيقول : وكذلك يقصدها الناس بالزيارة بكثرة لاسيما فى يوم الأحد ، وهى عادة قديمة ورثها الخلف عن السلف .

والأصل فى ذلك أن أفضل ما يزار فيه الولى من الأيام هو اليوم الذى توفى فيه ـ إن علم ذلك ـ وإلا ففى اليوم المجمع عليه جريا على العادة ، والسيدة زينب ـ رضى الله عنها ـ وأرضاها ـ لا يقصدها الزائرون بكثرة إلا فى هذا اليوم اقتداء بما تواتر عن أسلافهم .

وكان يزورها كافور الإخشيدى فى ذلك اليوم ، كما كان يزور السيدة نفيسة بنت الحسن فى يوم الخميس ، وكذلك كان يفعل أحمد بن طولون ، وكان الظافر بنصر الله الفاطمى لا يزورها إلا فى نفس هذا اليوم ، وكان يأتى مترجلا ويتصدق عند قبرها . .

واقتفى أثر هؤلاء من جاء بعدهم من الملوك والسلاطين والأمراء . وكان الظاهر جقمق أحد ملوك مصر فى القرن الثامن الهجرى يرسل الشموع للضريح ، وينير فى أرجاء المشهد القناديل الملونة .

وكان يلازم كثيرا من العلماء والأولياء فى زيارتها فى مشهدها . .

وفى القرن السابع الهجرى كان الشيخ محمد العتريس ـ وهو شقيق الشيخ إبراهيم الدسوقى ـ اعتاد أن يقيم هو وبعض الناس حضرة يذكرون الله فيها ويصلون على النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى ليلة الأربعاء ، وبعد وفاته اقتفى أثره من خلفه ، وجرت على ذلك العادة الى اليوم .[220]

ومما تقدم ندرك أن الفاطميين لا شأن لهم فى إقامة المولد الذى يقام للسيدة زينب لأنه كان منذ عهد مسلمة بن مخلد الصحابى الذى توفى بعد السيدة زينب بأقل من عام .

ولا شك أن كثيراً من الصحابة والتابعين كانوا بمصر ، ورأوا حضور الناس إلى مشهد السيدة زينب ولم ينكروا عليهم . .

فقد كان فى مصر من الصحابة فى ذلك الوقت عبدالله بن عمرو بن العاص وتوفى سنة خمس وستين بمصر[221] بعد وفاة السيدة زينب بثلاث سنوات .

وكان بها سندر مولى رسول الله ـ ﷺ ـ وقد قال النبى ـ ﷺ ـ فيه : أوصى بك كل مسلم .[222]

وكان بها أبو فاطمة الأزدى الذى قال له رسول الله ﷺ : « أكثر بعدي من السجود فإنه ما من أحد يسجد لله سجدة إلا رفعه الله بها درجة فى الجنة وحط عنه خطيئة »[223]

---

(٢٢٠) المرجع السابق ص ٦٠ ـ ص ٦١

(٢٢١) أسد الغابة جـ ٣ ص ٣٤٩

(٢٢٢) الطبقات الكبرى جـ ٧ قسم ٢ ص ١٩٧

(٢٢٣) المرجع السابق

وكان بها أبو جمعة الذى روى الحديث الآتى : تغدينا مع رسول الله ـ ﷺ ـ يوما ومعنا أبو عبيدة بن الجراح ، فقلنا : يا رسول الله هل أحد خير منا ؟ أسلمنا معك ، وهاجرنا معك .

قال : « بلى ـ قوم من أمتى يأتون من بعدى ويؤمنون بى »[٢٢٤]

ومن كبار التابعين الذين كانوا بمصر ـ عبدالرحمن بن عسيلة الصنابحى ، وعبدالله بن زرير الغافقى الذى مات سنة إحدى وثمانين ، ومرثد أبو الخير الذى توفى سنة تسعين . .

وكان بها يزيد بن حبيب ، وكان ثقة كثير الحديث مات سنة ثمان وعشرين ومائة ، وجعفر بن ربيعة وجده شرحبيل بن حسنة أحد أمراء الأجناد فى عهد أبى بكر . وغيرهم من الأئمة كالليث بن سعد ، وعبدالله بن صالح الجهنى وكنيته أبو صالح . .

والأصل فى الموالد التى تقام للأولياء أن تكون قاصرة على الذكر وتلاوة القرآن ، وتذكير الناس بمآثر هذا الولى ليقتدى الناس به فى جهاده واجتهاده . .

فإن لم تكن موافقة لآداب الشريعة الغراء فهى مفسدة للدين ، والدين منها براء ، وواجب العلماء وأولى الأمر تنبيه الناس إلى ما يجب اتباعه فى مثل هذه المواسم التى يمكن أن تغتنم لإثارة المشاعر الدينية الطيبة ، وتوجيه الناس إلى أفضل ما يكونون عليه من الصلاح والتقوى والجهاد والاجتهاد ، وحب الخير والاستقامة فى أمر الدين .

---

(٢٢٤) المرجع السابق

من هو مسلمة بن مخلد ؟

ولا أقل من التعريف بمسلمة بن مخلد الذى أحسن استقبال السيدة زينب فى مصر . .

هو مَسْلَمَة بن مُخَلَّد بن الصامت بن نيار بن لُوذان بن عبدوُدٌ بن زيد بن ثعلبة بن الخزرج الأنصارى الخزرجى الساعدى .

ولد مسلمة فى الوقت الذى قدم فيه النبى - ﷺ - المدينة مهاجرا إليها . . وصاحب النبى - ﷺ - عشر سنوات .

وقال بعضهم : بل ولد قبل هجرة النبى - ﷺ - بأربع سنين ، وبذلك تكون صحبته أربع عشرة سنة .

وشهد بعد النبى - ﷺ - فتح مصر وسكنها فترة ، ثم تحول إلى المدينة وأقام بها مدة - ثم عاد إلى مصر .

وقد ولاه معاوية على مصر بعد أن استقر له الأمر ، وضم إليه ولاية المغرب ، وهو أول من جُمعت له الولاية عليهما . . وانتظمت غزواته فى البر والبحر ، وهو أول من أحدث المنار بالمساجد .

وقد روى مسلمة بن مخلد بعض الأحاديث عن النبى - ﷺ - ومنها : أن النبى - ﷺ - قال : « من ستر مسلما فى الدنيا ستره الله - عز وجل - فى الدنيا والآخرة ، ومن نجى مكروباً فك الله - عز وجل - عنه كربة من كربات يوم القيامة ، ومن كان فى حاجة أخيه كان الله ، عز وجل - فى حاجته »[٢٢٥]

كما روى عن النبى - ﷺ - قوله : « أغروا النساء يلزمن

---

(٢٢٥) مسند الامام أحمد ١٠٤/٤

الحجال » .[٢٢٦] والحجال جمع حَجَلة وهى ساتر كالقبة يزين بالثياب والستور ـ ومعنى ذلك ـ العمل على صيانة النساء والمحافظة عليهن وسترهن ومنعهن من التعرض للابتذال وانتهاك حرماتهن .

ولقد طبَّق مسلمة بن مخلَّد فى استقباله للسيدة زينب ما رواه عن رسول الله ـ ﷺ ـ فى هذين الحديثين الشريفين .

فقد رآها مكروبة فنجاها ، ورآها فى حاجة إلى العون فأعانها ، ورآها محزونة فعزاها ، ورآها قد تخلى الناس عنها فأحسن صحبتها ورعايتها ـ وأسكنها داره ، وتفقد أحوالها ، وأحسن رعايتها . ولم ينس أنها حفيدة المصطفى ـ ﷺ ـ فحفظ فيها حقَّه ، ورعى فيها قرابته . .

وكان مسلمة يرعى جانب الله ، ولم يزج بنفسه فى الخلافات أو الحروب التى قامت بين فئات من المسلمين .

وقد كان هناك صحابة أجلاء عاصروا هذه الخلافات العنيفة ، وبعضهم اجتنبها ، وبعضهم خاضها ، وكان لكل رأيه الذى اجتهد فيه وسار عليه . . إلا أن قتل الحسين لم يقره أحدٌ من الصحابة رضوان الله عليهم ، وقد استنكروه جميعا إلا قلة قليلة .

ولعل مسلمة قد حمد الله كثيراً على أن نجاه الله من الاشتراك فى هذا العمل وأراد أن يتقرب إلى الله بالإحسان فى معاملة السيدة زينب التى لجأت إلى مصر فراراً من الأذى ، واستكانة إلى الأمان . . .

وقد أحست السيدة زينب بدنو الأجل ، فطلبت من مسلمة أن يجهز لها

---

(٢٢٦) أسد الغابة جـ ٥ ص ١٧٥

مكانا بمحل سكنها فى داره ، واستقرت فيه تقرأ القرآن به ، ولما أكملت قراءتها إحدى عشرة مرة دخل عليها مسلمة فى صحبة من الناس لزيارتها ، وطلب منها أن تناوله مصحفها الخطى . فقالت له : يا مسلمة إنك بعدنا فانصرف ومعه أصحابه ولم يتكلم . . .

وصدقت السيدة زينب وحقق الله ما أظهره على يديها من أمر خارق للعادة فتوفيت رضى الله عنها يوم الأحد ليلة الاثنين الموافق ١٤ من رجب سنة ٦٢هـ ، وتوفى مسلمة بن مخلد لخمس بقين من شهر رجب ، شهر وفاتها من سنة وفاتها ، وكانت المدة بينهما أحد عشر يوما فقط[٢٢٧]

كان مسلمة بن مخلد قارئاً للقرآن حافظا له ، قال مجاهد : كنت أرى أنى أحفظ الناس للقرآن حتى صليت خلف مسلمة بن مخلد الصبح فقرأ سورة البقرة ، فما أخطأ فيها واواً ولا ألفا .[٢٢٨]

مجىء السيدة زينب إلى مصر ثابت

ومجىء السيدة زينب بنت الإمام على ـ كرم الله وجهه ـ إلى مصر ثابت لا شك فيه فقد أثبته ـ كما رأينا ـ النسابة العبيدلى ، كما ذكره الحافظ ابن عساكر فى تاريخه الكبير ، والمؤرخ ابن طولون الدمشقى فى الرسالة الزينبية .

وهذه بعض الأسانيد التى تؤكد قدوم السيدة زينب إلى مصر :

قال زهران بن مالك : سمعت عبدالله بن عبدالرحمن العتبى يقول : حدثنى موسى بن سلمة بسنده عن مصعب بن عبدالله قال :

---

(٢٢٧) عقيلة الطهر والكرم ص ١٥٠

(٢٢٨) أسد الغابة جـ ٥ ص ١٧٥

كانت زينب بنت علي وهي بالمدينة تؤلب الناس على القيام بأخذ ثأر الحسين - رضى الله عنه - فلما قام عبدالله بن الزبير بمكة وحمل الناس على الأخذ بثار الحسين - رضى الله - وخلع يزيد ، بلغ ذلك أهل المدينة ، فخطبت فيهم السيدة زينب - رضى الله عنها - وصارت تؤلبهم على القيام للأخذ بالثأر فبلغ ذلك عمرو بن سعيد الأشدق ، فكتب إلى يزيد يعلمه بالخبر ، فكتب إليه : أن فرق بينها وبينهم .

فأمر أن ينادى عليها بالخروج من المدينة والإقامة حيث تشاء ، فقالت : قد علم الله ما صار إلينا ، قتل خيرنا ، وسقنا كما تساق الأنعام ، وحملنا على الأقتاب ، فوالله لا خرجنا وإن أهرقت دماؤنا .

فقالت لها زينب بنت عقيل :

يابنة عماه ، قد صدقنا الله وعده ، وأورثنا الأرض نتبوأ منها حيث نشاء فطيبي نفسا وقرى عينا وسيجزى الله الظالمين . أتريدين بعد هذا هواناً ؟ ارحلى إلى بلد آمن .

وبالإسناد المذكور مرفوعا الى عبيدالله بن أبي رافع قال : سمعت محمداً أبا القاسم بن علي يقول :

لما قدمت زينب بنت علي من الشام إلى المدينة مع النساء والصبيان ، ثارت فتنة بينها وبين عمرو بن سعيد الأشدق والى المدينة من قبل يزيد ، فكتب إلى يزيد يشير عليه بنقلها من المدينة .

فكتب له بذلك ، فجهزها ومن أراد السفر معها من نساء بني هاشم إلى مصر ، فقدمتها لأيام بقيت من شهر رجب سنة ٦١هـ

وأخرج عبيدالله بن أبي رافع بسنده عن الحسن بن الحسن ـ رضى الله عنهما ـ قال : لما خرجت عمتى زينب من المدينة إلى مصر خرج معها من نساء بنى هاشم فاطمة النبوية ابنة عمى الحسين وأختها سكينة .

وأخرج إبراهيم بن محمد الحريرى بسنده قال : روينا بالإسناد المرفوع إلى على بن محمد بن عبدالله قال : لما دخلت مصر سنة ١٤٥هـ سمعت عسامة المعافرى يقول : حدثنى عبدالملك بن سعيد الأنصارى قال : حدثنى وهب ابن سعيد الأوسى ، عن عبدالله بن عبدالرحمن الأنصارى قال : رأيت زينب بنت على بمصر بعد قدومها بأيام ، فوالله ما رأيت مثلها فى هيبتها وعظمتها . .

وبالسند المرفوع إلى رقية بنت عقبة بن نافع الفهرى قالت : كنت فيمن استقبل زينب بنت على لما قدمت مصر بعد المصيبة ، فتقدم إليها مسلمة بن مخلد ، وعبدالله بن الحارث ، وأبو عميرة المزنى ، فعزاها مسلمة ، وبكى فبكت وبكى الحاضرون ، وقالت : « هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون » ثم احتملها إلى داره بالحمراء ، فأقامت بها أحد عشر شهراً وخمسة عشر يوماً ، وتوفيت ، وشهدت جنازتها ، وصلى عليها مسلمة بن مخلد فى جمع بالجامع ورجعوا بها فدفنوها بالحمراء ، بمكان من الدار بوصيتها .

وأخرج إسماعيل بن محمد البصرى عابد مصر ونزيلها قال : حدثنى حمزة المكفوف ، قال : أخبرنى الشريف أبو عبدالله القرشى ، قال : سمعت هند بنت أبي رافع بن عبيدالله بن رقية بنت عقبة بن نافع الفهرى تقول :

توفيت زينب الكبرى بنت على بن أبي طالب عشية يوم الأحد لخمسة

عشر يوما مضت من رجب سنة ٦٢ من الهجرة ، وشهدت جنازتها ، ودفنت بدار مسلمة المستجدة بالحمراء القصوى ، حيث بساتين عبدالله بن عبدالرحمن بن عوف الزهرى .

وأخرج العبيدلى النسابة فى أخباره ، والحافظ ابن عساكر الدمشقى فى تاريخه ، والمؤرخ ابن طولون الدمشقى فى الرسالة الزينبية قال : لما وصل كتاب يزيد إلى والى المدينة المنورة « عمرو بن سعيد الأشدق » يأمره بأن يخرج أهل البيت إلى الأمصار التى يختارونها اختارت السيدة زينب الإقامة بمصر لراحتها ، واختار بعض أهل البيت بلاد الشام ، فقال الأشدق للسيدة زينب : ولم مصر؟

فقالت له : لأكون آمنة فى إقامتى فيها .. ولأن رأس الحسين سينقل إليها . ويقول الأستاذ موسى محمد على فى كتابه « عقيلة الطهر والكرم » معلقاً على هذا الخبر الأخير :

وهذه كرامة خارقة للعادة أظهرها الله على يد السيدة زينب ـ رضى الله عنها ـ وتحققت بعد مضى مئات السنين ، ذلك أن الرأس الشريف وصل القاهرة فعلاً يوم الأحد ثامن جمادى الآخرة سنة ٥٤٨هـ . كما تذكر بعض الروايات ..

يقول صاحب الخطط : « إن المشهد الحسينى بعسقلان بناه أمير الجيوش بدر الجمالى ، وأكمله ابنه الأفضل ، وكان حمل الرأس إلى القاهرة من عسقلان ووصوله إليها فى يوم الأحد ثامن جمادى الآخرة سنة ثمان وأربعين وخمسمائة ، وكان الذى وصل بالرأس من عسقلان هو الأمير سيف المملكة

تميم الوالى[٢٢٩] . .

وقد أثبت الأستاذ موسى محمد على ما يزيد على خمسين مرجعاً موثقاً يؤكد مجىء السيدة زينب إلى مصر ، ووفاتها فيها ، ودفنها فى المكان الذى يوجد به ضريحها ومسجدها الآن . .

أسباب الشك

وهذه الاخبار والأسانيد الموثقة قد تزيل الشك حول مقام السيدة زينب . أما الشك فمرجعه إلى تعدد اسم زينب ، وتعدد أماكن أضرحتهن ، وقد كان للإمام على ـ كرم الله وجهه ـ أكثر من واحدة اسمها زينب ، يفرق بينهن باللقب أو الكنية . والسيدة زينب نزيلة القاهرة التى نتحدث عنها الآن يطلق عليها زينب الكبرى ، ولذلك كان من الضرورى التعريف بهؤلاء الزينبات ، حتى تتبدد الشبهة تماماً من أذهان الناس .

أشهر الزينبات

ومن أشهر الزينبات فى تاريخ الإسلام زينب بنت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وقد تحدثنا عنها .

وزينب بنت جحش ، زوجة النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهى التى نزل فى شأنها قوله ـ تعالى ـ

﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِيٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ فَلَمَّا

---

(٢٢٩) عقيلة الطهر والكرم ص ١٣٨ ، ومابعدها .

﴿ فَقَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٣٧﴾ ﴾ (٢٣٠)

وقد تحدثنا عنها فيما سبق أيضاً . .

● زينب بنت خزيمة بن الحارث التي تسمى بأم المساكين ، وقد تزوجها النبي - صلى الله عليه وسلم - وماتت قبله ، وقد تحدثنا عنها أيضاً .

● زينب بنت أبي سلمة ، وهي ربيبة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقد كانت مع أمها في حجر النبي - صلى الله عليه وسلم - بعد أن تزوج النبي أمها أم سلمة ، تزوجها عبد الله بن زمعة ، فولدت له عبد الرحمن ، ويزيد ، ووهباً ، وأبا سلمة وغيرهم .

وكان اسمها برّة ، فسماها النبي - صلى الله عليه وسلم - زينب .
وقد روت عن أمها أم سلمة ، وروى عنها عروة بن الزبير ، وكان أخاها من الرضاعة ، أرضعتهما أسماء بنت أبي بكر الصديق . . توفيت بالمدينة ودفنت بالبقيع .

ومن أشهر الزينبات المنسوبات إلى أهل البيت غير زينب الكبرى - رضي الله عنها -

● زينب الوسطى ، - وهي أم كلثوم - بنت علي بن أبي طالب . وأمها فاطمة الزهراء - رضي الله عنها -

ولدت قبل وفاة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وسمتها أمها زينب ،

---

(٢٣٠) الأحزاب ٣٧

وكناها النبى - صلى الله عليه وسلم - بأم كلثوم . وهو الاسم الذى أطلق عليها .

خطبها عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - إلى أبيها على - كرم الله وجهه فقال له على : إنها صغيرة .

فقال عمر : زوجنيها يا أبا الحسن فإنى أرصد من كرامتها ما لا يرصده أحد .

فقال له على : أنا أبعثها إليك ، فإن رضيتها فقد زوجتكها .
وقيل : إن عليًّا فوض أمرها إلى العباس ، فزوجها عمر بن الخطاب .
وقيل : إن عليًّا بعثها إلى عمر ببرد وقال لها : قولى له : هذا البرد الذى قلت لك .

فقالت ذلك لعمر ، فقال لها : قولى له : قد رضيت - رضى الله عنك - ووضع يده عليها ، فقالت : أتفعل هذا ؟ لولا أنك أمير المؤمنين لكسرت أنفك . ثم جاءت أباها فأخبرته الخبر - وقالت له : بعثتنى إلى شيخ سوء ؟
قال : يا بنية إنه زوجك .

فجاء عمر ، فجلس فى الروضة بين المهاجرين فقال : رفئونى - أى هنئونى -

قال : تزوجت أم كلثوم بنت على . . سمعت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول : « كل سبب ونسب وصهر منقطع يوم القيامة إلا سببى ونسبى وصهرى » وكان لى به - عليه الصلاة والسلام - النسب والسبب ، فأردت أن أجمع إليه الصهر - فرفئوه .

فتزوجها على مهر قدره أربعون ألفاً . فولدت له زيد بن عمر الأكبر ، ورقية

قالوا : وتوفيت أم كلثوم وابنها زيد فى وقت واحد ، وكان زيد قد أصيب فى حرب كانت بين بنى عدى ، فخرج ليصلح بينهم ، فضربه رجل منهم فى الظلمة فشجه وصرعه ، فعاش أياماً ، ثم مات هو وأمه ، وصلى عليهما عبد الله بن عمر ، قدمه الحسن بن على .

ولما قتل عنها عمر ـ رضى الله عنه ـ تزوجها ابن عمها عون ابن جعفر بن أبى طالب . . . ويقص ابن الأثير قصة فى ذلك لاندرى مدى صحتها يقول :

لما تأيمت أم كلثوم بنت على من عمر ـ رضى الله عنه ـ دخل عليها حسن وحُسين أخواها فقالا لها : إنك ممن قد عرفت سيدة نساء المسلمين وبنت سيدتهن ، وإنك والله إن أمكنت عليا من أمرك ـ ليزوجنك بعض أيتامه ، ولئن أردت أن تصيبى بنفسك مالاً عظيماً لتصيبنه ، فوالله ما قاما حتى طلع على يتكىء على عصاه ، فجلس فحمد الله وأثنى عليه ، وذكر منزلتهم من رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وقال :

قد عرفتم منزلتكم عندى يا بنى فاطمة ، وقد آثرتكم على سائر ولدى لمكانكم من رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وقرابتكم منه .

فقالوا : صدقت ، رحمك الله وجزاك الله عنا خيراً .

فقال : أى بنية ، إن الله ـ عز وجل ـ قد جعل أمرك بيدك ، فأنا أحب أن تجعليه بيدى .

فقالت : أى أبتِ ، إنى لامرأة أرغب فيما يرغب فيه النساء ، وأحب أن أصيب مما تصيب النساء من الدنيا ، وأنا أريد أن أنظر فى أمر نفسى .

فقال : لا ، والله يا بنية ، ما هذا من رأيك ، ما هو إلا رأى هذين - وأشار إلى الحسن والحسين - ثم قام فقال : والله لا أكلم رجلاً منهما أو تفعلين .

فأخذا بثيابه ، فقالا :

اجلس يا أبه ، فوالله ما على هجرك من صبر . اجعل أمرك بيده .

فقالت : قد فعلت

قال : فإنى قد زوجتك من عون بن جعفر ، وبعث لها بأربعة آلاف درهم ، وأدخلها عليه[٢٣١] .

وقصة وفاتها التى أشرنا إليها تشهد أنها ماتت بالمدينة ودفنت بالبقيع .

أما ما يقال من أن قبرها فى قرية راوية من غوطة دمشق المعروفة بقرية الست ، فيبدو أنها لزينب أخرى . .

● زينب الصغرى بنت على

ولعل ابنة أخرى باسم زينب أيضاً ، أمها أم ولد . .

وقد تزوج زينب هذه ابن عمها محمد بن عقيل بن أبى طالب ، وقد ولدت له القاسم ، وعبيد الله ، وعبد الرحمن - وعبد الله - هذا كان فقيهاً تروى عنه الأخبار .

---

(٢٣١) أسد الغابة جـ٧ ص ٣٨٧

ولها أخوات هن أم الحسن ورملة ، وأم هانىء ، وأم جعفر وغيرهن وتوفيت زينب الصغرى بالمدينة ودفنت بالبقيع[٢٣٢] .

ومن ولدها عبد الله بن محمد بن عقيل .

ومن الزينبات أيضاً :

زينب بنت الحسن بن علي بن أبي طالب - تزوجها علي بن الحسين زين العابدين فولدت له محمداً الباقر .

وزينب بنت علي زين العابدين ، أمها أم ولد ، ماتت بالمدينة ودفنت بالبقيع .

وزينب بنت عبد الله الكامل بن الحسن المثنى - تزوجها عليُّ العابدُ ابن الحسن المثلث . . وزينب بنت عيسى بن زيد بن علي - تزوجها سليمان ابن إبراهيم بن محمد بن علي بن عبد الله بن جعفر الطيار . .

وزينب بنت موسى بن عبد الله الكامل بن الحسن المثنى بن الحسن ابن علي تزوجها محمد بن جعفر الأمير .

وزينب بنت الحسن المثنى بن الحسن السبط - تزوجها الحسن بن زيد فولدت له القاسم ومحمداً ويحيى وأم كلثوم ، وتوفيت بالمدينة سنة ١٦٠ هـ .

وهناك زينبات كثيرات أخريات . .

المشاهد المنسوبة لاسم زينب بمصر

● أشهر هذه المشاهد هو مشهد السيدة زينب بنت الإمام علي كرم الله

---

(٢٣٢) السيدة زينب وأخبار الزينبيات ص ٦٦

وجهه فى الحى المعروف باسمها ، والذى أشرنا إليه ، حيث أقيم فى المكان الذى توفيت فيه فى رجب عام ٦٢ هـ . وكان فى دار مسلمة بن مخلد أمير مصر إذ ذاك ، وقد كتب عليه :

هـذا ضريـح شقيقـة القمريـن ... بنـت الإمـام شريفـة الأبويـن
وسليـلة الزهـراء بضعـة أحـمـد ... نـور الوجـود وسيـد الثقليـن
نسـب كريـم للفصيحـة زينـب ... شمـس الضحـى وكريمـة الداريـن

وقد اعتنى به الحكام والأمراء عبر العصور . .

وكانت هذه الدار التى أقامت فيها السيدة زينب قبل وفاتها ودفنت فيها بعد وفاتها ابتداءً فسطاط مصر طولاً ، وقد عرفت فى صدر الاسلام باسم الحمراء القصوى ، وكانت هناك حمراوات ثلاث :

الحمراء القصوى ، والحمراء الدنيا ، والحمراء الوسطى

وكانت كل حمراء يسكنها قوم اختطوا فيها دورهم .

فالحمراء الدنيا اختطها بنو قضاعة وسكنوا فيها ـ والحمراء الوسطى كانت خطة قوم من الروم يطلق عليهم « بنى نبه » حضر الفتح منهم حوالى مائة رجل .

والحمراء القصوى اختطها بنو الأزرق وأقاموا فيها ، وأقام فيها أيضاً قوم من الروم هم بنو روبيل .

وأصبحت هذه الحمراوات عامرة بالبساتين والحدائق بعد أن كانت خالية من النبات .

وكانت الحمراء القصوى التى بها الدار التى أقامت فيها السيدة زينب

ودفنت بها أقصى مكان إلى الفسطاط . وأدنى مكان إلى الخليج المصرى الذى حفره عمرو بن العاص . كان فم هذا الخليج عند المشهد الزينبى ، وكان عندما ينحسر النيل يصبح فم الخليج أمام محطة السيدة زينب ، وبنى على هذا الخليج قناطر هى التى تسمى بقناطر السباع ، وكانت على الخليج المصرى الذى كان يعرف بالخليج الكبير . .

وهدفنا من هذا التعريف هو تبديد الشبهة التى تحوم حول مكان المشهد الزينبى ، فهناك من يقول : إن المشهد بالحمراء القصوى ، وهناك من يقول : إن المشهد عند قناطر السباع . مما يدخل فى بعض الأذهان شكاً من تضارب الأقوال ، فالآن قد عرفنا أن الحمراء القصوى وقناطر السباع والخليج المصرى أماكن واحدة . .

وأول من غرس البساتين فى الحمراء القصوى هو عبد الرحمن بن عوف الزهرى ـ رضى الله عنه ـ حين جاء إلى مصر . . وبنى بطرف الحمراء القصوى دارا واسعة أخذها بعده ابن أخيه الربيع بن سليمان .

لقد اهتم بعمارة مسجد السيدة زينب الحكام المتوالون . وكان هذا الضريح موضع احترام الخاصة والعامة يتعاهدونه ببناء ما يتصدع من جدرانه ، ويتسابقون فى خدمته تطوعاً ، واعتنى بعمارته أحمد بن طولون ، فلما جاءت الدولة الفاطمية أجرت فيه عمارة جليلة ، وأوقفت عليه أوقافا كثيرة . .

ومازالت يد التجديد والتعمير تتناوله حتى يومنا هذا . . وإليه يفد الناس من مختلف الجهات يصلون بزيارة السيد زينب جدها العظيم ـ صلى الله عليه وسلم ـ الذى أنزل الله عليه قوله:

« قل لا أسألكم عليه أجرا إلا المودة فى القربى » .

التبرك بآثار المقربين وزيارة قبورهم

والضرورة تحتم علينا بيان الحكم فى التبرك بآثار المقربين وزيارة قبورهم ، والحديث عن مشروعية ذلك . وبالرغم من تحفظنا على كثير من الأعمال التى تحدث الآن فى مثل تلك الأمور فإننا نذكر فى ذلك ما ذكره العالمان الجليلان الشيخ إبراهيم جلهوم والشيخ عبد السلام حماد ، فقد قالا فى كتاب لهما عن السيدة زينب :

التبرك بآثار النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ أمر مشهور ـ فقد كان الصحابة رضى الله عنهم يتبركون بما مست يده الشريفة من الطعام ، وكانوا يتبركون بما مس جسده من ثياب لبسها ، كما كانوا يتبركون بموضع صلاته وركوعه وسجوده . ويتبركون كذلك بماء وضوئه وبالشعرات الشريفة التى كانت تتطاير من رأسه حين يحلق للتحلل من الإحرام بحج أو عمرة .

كانوا يفعلون ذلك والرسول يراهم ويعرف أنهم يقصدون حصول البركة لهم من ذلك كله فلم ينههم ، ولم يقل لهم شيئا يفيد من قريب أو من بعيد ، إن ذلك أمر محذور ، بل كان يسمح لهم بهذا التبرك .

ومن الأمثلة على تبركهم بآثاره ـ صلى الله عليه وسلم ـ مارواه البخارى ومسلم فى صحيحيهما عن عتبان بن مالك رضى الله عنه وهو ممن شهد بدرا قال : كنت أصلى لقومى بنى سالم ، وكان يحول بينى وبينهم واد ، إذا جاءت الأمطار ، فيشق علىَّ اجتيازه قِبَلَ مسجدهم ، فجئت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقلت له : إنى أنكرت بصرى وإن الوادى الذى بينى وبين قومى يسيل إذا جاءت الأمطار فيشق على اجتيازه . فوددت أنك تأتى

فتصلى فى بيتى فى مكان اتخذه مصلى ، فقال له رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ سأفعل . فغدا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأبو بكر ـ رضى الله عنه ـ بعدما اشتد النهار ، واستأذن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فأذنت له ـ فلم يجلس حتى قال : أين تحب أن أصلى فى بيتك ـ فأشرت إلى المكان الذى أحب أن يصلى فيه فقام رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فكبر ، وَصَفَّنا وراءه فصلى ركعتين ثم سلم وسلمنا حين سلم .

هذا الحديث يدل بوضوح على أن عتبان بن مالك قد علم حق العلم أن المكان الذى يقف فيه رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ليصلى ويركع ويسجد . ويذكر اسم الله مكان ملىء بالبركة ملىء بالنور .

فإذا اتخذه عتبان مصلى أصاب البركة العظيمة من موضع صلاة الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ وركوعه وسجوده . ومن الأمثلة على تبرك الصحابة بالآثار الشريفة للرسول الكريم مارواه البخارى عن سهل بن سعد ـ رضى الله عنه ـ أن امرأة جاءت إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ببردة منسوجة ، فقالت نسجتها بيدى لأكسوكها ، فأخذها النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فخرج إلينا وإنها إزاره ، فقال فلان اكسنيها . ماأحسنها .

فقال نعم ، فجلس النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى المجلس . ثم رجع فطواها ، ثم أرسل بها إليه ، فقال له القوم ماأحسنت . لبسها النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ محتاجا إليها . ثم سألته إياها ـ وقد علمت أنه لايرد سائلا فقال : إنى والله ماسألته لألبسها إنما سألته لتكون كفنى ـ قال سهل : فكانت كفنه .

فهذا الرجل الصحابى قد عرف أن الثوب الذى مس الجسد الشريف ، له بركة وله نفع فى الدنيا والآخرة وعلى الأخص إذا جعله كفنا له ، فقد رجا بذلك أن يكرمه الله ، ويؤنسه بالنور المحمدى فى قبره حين يوارى فيه جسده فلم ينكر ذلك عليه الرسول ولاأحد من الصحابة ، لأنهم يعلمون أن البركة حاصلة لا محالة .

وقد روى الثقات أن الصحابة رضى الله عنهم حين كان يتوضأ رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ كانوا يتسابقون إلى ماء وضوئه ، فيشربه منهم من استطاع ، ومن لم يستطع بلل به رأسه ووجهه ، ومااستطاع من جسده ، ومن لم يستطع تمسح بمن تبلل بهذا الماء الشريف الذى غسل به أنضر وجه ، وأطهر يد ، وأكرم رأس وأشرف قدم ـ فعلوا ذلك على مرأى ومسمع من الرسول الكريم فلم يقل لهم قط ، إن هذه وثنية أو شىء من ذلك .

ومن أمثلة تبركهم بالآثار الشريفة أنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ حين كان يحلق رأسه لم يكونوا يدعون شعرة واحدة تسقط على الأرض ، بل كانوا يلتقطون الشعرات ويحتفظون بها التماسا للبركة . ولقد أخذ خالد بن الوليد ـ رضى الله عنه ـ بعض الشعرات الشريفة ووضعها فى قلنسوته ، ثم كان يخوض المعارك الشداد ويخرج من كل واحدة منها ، مؤيدا بنصر الله عز وجل ، ببركة شعرات الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ التى فى قلنسوته .

ومن تبرك الصحابة بالآثار الشريفة ماكان يفعله أبو أيوب الانصارى وزوجته أم أيوب ، رضى الله عنها حين نزل الرسول فى بدء الهجرة بمنزلها

فقد كانا يضعان الطعام أمامه ـ صلى الله عليه وسلم ـ فإذا رجع الطعام من عنده تلمسا آثار يده الشريفة فى الوعاء ليأكلا منها ، تبركا بما مست يده ـ صلى الله عليه وسلم ـ . هذا وقد روى الثقات عن عبد الله بن مسعود ـ رضى الله عنه ـ أنهم كانوا يوما فى سفر مع رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وحان وقت الصلاة ولم يكن معهم ماء لوضوئهم ولاشربهم ، إلا ماكان بين يدى الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ من وعاء صغير فيه ماء قليل ـ فوضع الرسول أصابعه فى ذلك الوعاء ـ قال عبد الله كنت أرى الماء ينبع من بين أصابعه الشريفة ، وأقبل الناس ليتوضأوا ، ويأخذوا حاجاتهم من الماء وكنت أضع فمى ليدخل الماء فيه التماسا لحصول البركة لى من موضع أصابعه الشريفة ـ صلى الله عليه وسلم ـ .

والأمثلة على ذلك لا حصر لها ولاعد ، وكلها تدل أوضح الدلالة على أن التبرك بآثار النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وبآثار المقربين من المؤمنين أمر نافع وحاصل به البركة .

ومن أوضح الدلائل على حصول البركة بآثار المقربين ماقصه القرآن الكريم من أحسن القصص عن سيدنا يوسف عليه السلام ، فإنه لما عرفه إخوته واعتذروا إليه ، وعرف أن أباه يعقوب عليه السلام قد فقد بصره حزنا عليه ، عند ذلك قال لإخوته مايحدثنا القرآن الكريم فى قوله تعالى حكاية عن يوسف عليه السلام

« اذهبوا بقميصى هذا فألقوه على وجه أبى يأت بصيرا وأتونى بأهلكم أجمعين »

ثم قال تعالى:

« فلما أن جاء البشير ألقاه على وجهه فارتد بصيرا قال ألم أقل لكم إنى أعلم من الله مالاتعلمون » . . . .

فكل ذلك يثبت به ثبوتا قطعيا حصول البركة لمن التمس البركة من آثار الرسول الكريم . ومن أولياء الله الصالحين .

وأما زيارة قبورهم ـ فالثابت أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ كان يَزور أهل البقيع من الصحابة الذين فازوا بالشهادة أو انتقلوا إلى الدار الآخرة فقد صح أنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ دخل البقيع فسلم على أهله وخاطبهم كما يخاطب الحاضرين أمامه المستمعين لكلامه وسلامه ، كان يقول : السلام عليكم أهل الديار من المسلمين والمؤمنين وإنا إن شاء الله بكم لاحقون . أنتم لنا سلف ، ونحن لكم خلف ، نسأل الله لنا ولكم العافية .

ويوما بعد أن سلم عليهم ودعا لهم قال « وددت أنا قد رأينا إخواننا ، قالوا ألسنا إخوانك يارسول الله ، قال : إنما أنتم أصحابى ، وإخواننا من يجيئون من بعدنا ـ قالوا : وكيف تعرف من يجيئون من بعدك يارسول الله قال : أعرفهم بأنهم غر محجلون من آثار الوضوء »

فزيارة الرسول لأهل البقيع ـ رضى الله عنهم ـ فيها الدلالة الكافية على زيارة قبور الأولياء رضوان الله عليهم ، ثم إن الصحابة كانوا يكثرون من زيارة الحجرة الشريفة بعد انتقال الرسول إلى الرفيق الأعلَى . . وكذلك فعلت الأمة قرناً بعد قرن وجيلا بعد جيل . كانوا يقفون تجاه الحجرة الشريفة مسلمين على الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ وعلى أبى بكر وعمر

رضى الله عنها ، وقد عملوا بذلك امتثالا لقول النبى - صلى الله عليه وسلم - « من زارنى بعد مماتى فكأنما زارنى فى حياتى » .

وكانوا يراعون الأدب التام المطلوب فى حضرة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فيغضون أصواتهم ويراعون مايلزم من توقير لخير خلق الله وخاتم رسل الله .

ومما أثر فى الزيارة الشريفة مارواه العتبى من أنه كان عند القبر الشريف يوماً ، فجاء أعرابى فوقف تجاه الحجرة مسلماً على رسول الله ، ثم قال يارسول الله إن الله تعالى قد قال :

« ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاءوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله توابا رحيما »

وفى رواية أنه دخل إلى القبر فسلم سلاما حسنا ، ودعا دعاء جميلا ، ثم قال : بأبى أنت وأمى يارسول الله إن الله خصك بوحيه وأنزل عليك كتابا جمع فيه علم الأولين والآخرين ، وقد أتيتك مقرا بذنبى مستشفعا بك إلى ربك ثم التفت إلى القبر الشريف وأنشد :

يا خير من عبقت بالقاع تربته ... فطاب بالطيب منها القاع والأكم
أنت النبى الذى ترجى شفاعته ... عند الصراط إذا مازلت القدم
نفسى الفداء لقبر أنت ساكنه ... فيه العفاف وفيه الجود والكرم

قال العتبى ثم انصرف الأعرابى فغلبتنى عيناى فرأيت النبى - ﷺ - فى النوم - فقال ياعتبى الحق الأعرابى فبشره بأن الله تعالى قد غفر له .

هكذا كانوا يزورون الروضة الشريفة ويرحلون إليها مشوقين

مستهامين ، ملتمسين البركة التى لا تسمو إليها بركة ، وقد جرت الأمة سلفا وخلفا على زيارة الصالحين من أهل بيت النبوة ، ومن غيرهم ممن عرفوا بصلاحهم وتقواهم وحسن تقربهم إلى ربهم وقد علموا أنهم حين يزورون تلك القبور الشريفة فإنما يزورون روضات من رياض الجنة ، فتلك حقيقة نصت عليها أحاديث الرسول - ﷺ - ، حيث قال صلوات الله وسلامه عليه « القبر إما روضة من رياض الجنة وإما حفرة النار » .

فالزائرون يعرفون ذلك ويعرفون أن المؤمن حين يوضع فى قبره لا يكون كما هو الظاهر للأبصار فى حفرة ضيقة ، وإنما هو كما دلت الأحاديث يوسع له قبره مد البصر .

ذلك ما رواه الثقات عن الرسول - ﷺ -

فلا شك فى نفع الزيارة لمن يزورون روضات المؤمنين وأهل الصلاح والتقوى والقرب من رسول الله - ﷺ - على هذا جرى أهل الايمان والتقوى - ونحن نسأل الله تعالى أن يجعلنا ممن تعمهم الخيرات وتفيض عليهم البركات والسلام على نبينا وعلى عباد الله الصالحين .

ونحب أن ننبه إلى أن للزيارة آدابا . . ولابد من مراعاة هذه الآداب . . فبالنسبة لزيارة الروضة الشريفة . ينبغى للزائر وهو فى طريقه إلى المدينة المنورة ، أن يشغل قلبه ولسانه بالإكثار من الصلاة على النبى - ﷺ - حتى يمتلىء قلبه بأنوار الصلاة عليه ، فذلك يؤهله للمثول فى حضرته الشريفة ، وحين يدخل المسجد النبوى يبدأ بصلاة ركعتين تحية للمسجد ويحسن أن يكون ذلك فى الروضة الشريفة إذا تيسر له ذلك ، ثم يتجه إلى الحجرة النبوية المباركة فيقف تجاه الوجه الشريف مسلما على رسول الله - ﷺ -

وشاهدا له بأنه أدى الأمانة ، وبلغ الرسالة ونصح الأمة .

ثم يسير قدر ذراع فيسلم على أبى بكر الصديق رضى الله عنه ، ثم يمضى ذراعا آخر فيسلم على عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، ثم يتجه إلى القبلة ويدعو لنفسه ولإخوانه بما شاء من خيرى الدنيا والآخرة مع مراعاة خفض الصوت وترك الصخب والضجيج ليكون من الذين أثنى الله عليهم فى سورة الحجرات بقوله تعالى « إن الذين يغضون أصواتهم عند رسول الله أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى لهم مغفرة وأجر عظيم » .

وأما بالنسبة لزيارة مقامات أهل البيت وغيرهم من الأولياء الصالحين فينبغى للزائر قبل دخول المقام أن يستغفر الله إحدى عشرة مرة ، ثم يدخل فيقول لا إله إلا الله « إحدى عشرة مرة ، ويختمها بالصلاة على محمد رسول الله ، ثم يسلم على صاحب أو صاحبة المقام بأن يقول : « السلام عليكم ورحمة الله وبركاته » ثم يقرأ بصوت خافض ماتيسر من القرآن ، ثم الفاتحة . ويدعو الله أن يغفر له ويسهل له وللمسلمين أمور دنياه وأخراه ، وذلك كله فى هدوء دون تشويش على الآخرين . . . أما مايفعله البعض من تقبيل الأعتاب والتعلق بالأعمدة والنوافذ والتمرغ فى المكان والالتصاق بالمقصورة وغير ذلك فلا أصل ولا أساس لذلك فى الدين بل هو خروج على مفاهيمه . . . وكذا مايفعله البعض من طلب قضاء الحاجات من الولى فينسون الله فى غمرة تلك العواطف ، وهو مانحذر منه ، وننبه المسلمين إلى فهم أصول دينهم واللجوء إلى الله وحده فى كل أمر وشأن . فهو وحده القادر على قضاء الحاجات الذى يقول للشىء كن فيكون[٢٣٣]

---

(٢٣٣) انظر كتاب السيدة زينب ـ رضى الله عنها ـ للشيخين ابراهيم جلهوم ـ وعبد السلام حماد

● والمشهد الثانى الذى يحمل اسم السيدة زينب .

هو قبة بقرافة مدينة أسوان تعرف عند العامة بقبة السيدة زينب .

ولكن هذه القبة بنيت على قبر العباسة بنت جريح أخت عبد العزيز بن جريح ـ مولى عبد الله بن خالد بن أسيد . توفيت سنة ٧١ هـ وبقى على قبرها وقبور من جاورها بالدفن فى عهد الدولة الفاطمية ـ قباب .

وأخبار العباسة هذه مبسوطة فى كتب التاريخ والأدب ، وعلى قبرها حجر عليه ـ بعد البسملة ـ اسمها وتاريخ وفاتها .

مما يدل دلالة قاطعة على عدم صحة نسبة القبة إلى السيدة زينب بنت الإمام على ـ رضى الله عنهما ـ

● المشهد الثالث

يوجد فى خارج باب النصر بالقاهرة قبة بين المقابر تعرف عند العامة بمعبد السيدة زينب ـ أى المكان الذى كانت تعبد فيه .

ولكن هذه القبة فوق قبر زينب بنت أحمد بن محمد بن عبد الله بن جعفر ابن الحنفية وهو ، ابن على بن أبى طالب ـ كرم الله وجهه ـ

وقد قدمت زينب هذه إلى مصر ، وتحدث المقريزى فى خططه عن مشهدها وقال : إنه يعرف بمعبد الست زينب ـ أى المكان الذى كانت تعبد الله فيه ـ كما ذكرها ابن الزيات فى مزاراته .

وكانت هذه القبة قديما متصلة بمقبرة الصوفية التى اندرست معالمها ولكن القبة بقيت معالمها وإن بدا عليها معالم الشيخوخة .

● المشهد الرابع

والمشهد الرابع يقع بقرافة قريش شرقى الإمام الشافعى ، وينسب إلى السيدة زينب بنت يحيى المتوج ـ أخى السيدة نفيسة بنت الإمام حسن الأنور الذى كان أمير المدينة فى عهد أبى جعفر المنصور .

وجاءت السيدة زينب بنت يحيى المتوج إلى مصر لخدمة عمتها السيدة نفيسة ، ودفن بمشهدها كثير من أهل البيت الأقربين ، كالسيدة فاطمة بنت القاسم الطيب بن محمد المأمون بن جعفر الصادق ، وكانت تلقب بالعيناء لشبهها بجدتها الزهراء ـ رضى الله عنها ـ

وبها شُهِر هذا المشهد .

ودفنت فيه أيضا السيدة أم كلثوم بنت جعفر الصادق .

ويقع هذا المشهد فى طريق الذاهب إلى الإمام الليث بن سعد ، ومسجد الفتح .. وكان هذا المشهد إلى أواخر القرن الثانى عشر الهجرى يعرف بمشهد زينب بنت يحيى المتوج ، فلما درس وجُدِّد ، عرف بمشهد العيناء .

وقال محقق كتاب العبيدلى النسابه : دخلت زينب هذه مصر سنة ١٩٣ هـ

وكذلك ذكر القرشى فى طبقات الأشراف وابن الأعرج فى الثبت المصان ، وغيرهم من المؤرخين .

قال : وزار ابن جبير فى القرن السادس مشهدها وتحدث عنه فى رحلته المشهورة ـ إلا أن الاسم فى النسخة المطبوعة من هذه الرحلة محرف ، والصواب ماجاء فى النسخة الخطية المضبوطة بخزانة القرويين بفاس . وفيها صحة نسب السيدة زينب المذكورة . على ما أثبتناه ـ وهو : زينب بنت يحيى

ابن الحسن بن زيد بن الحسن بن على .

أما النسخة المطبوعة فالنسب فيها وارد هكذا : زينب بنت يحيى بن زيد ابن على بن الحسين .

وعلى كل فإن لعلى بن الحسين ولداً اسمه زيد تنسب إليه الطائفة الزيدية ، وللحسن المثنى ولد اسمه زيد الأبلج الذى هو جد السيدة نفيسة . .

ونرجو أن نتحدث عنها إن شاء الله ـ تعالى ـ

● عقب السيدة زينب

سبق أن ذكرنا أن السيدة زينب زوَّجها أبوها من عبد الله بن جعفر بن أبي طالب ، وهو ابن عمها .

وقد سبق أن عرفنا بعبد الله بن جعفر ـ رضى الله عنه ـ وكان أحد أجواد العرب المشهورين بالكرم . . وتوفى سنة ثمانين من الهجرة على أرجح الأقوال ، ويسمى هذا العام الذى توفى فيه عام الجُحَاف ـ سمى بذلك لأنه جاء سيل عظيم ببطن مكة جرف الناس وذهب بالإبل وما عليها من أحمال . .

وتوفى بالمدينة وكان أميرها ـ أبان بن عثمان بن عفان ـ من قبل عبد الملك ابن مروان ، فحضر أبان غسله وكفَّنه ، والناس يزدحمون حول سريره ، وحمل أبان السرير فما فارقه حتى وضعه بالبقيع وإن دموعه لتسيل على خديه ، وهو يقول : كنت والله خيراً لا شر فيك ، وكنت والله شريفا واصلاً براً .

ورثى على قبره مكتوب :

مقيم إلى أن يبعث الله خلقه   لقاؤك لا يرجى وأنت قريب[234]

ورثاه عمرو بن عثمان بقوله ـ وقد وقف على شفير القبر بعد دفنه :

رحمك الله يابن جعفر ، إن كنت لرحمك لواصلا ، ولأهل الشر لمبغضا ، ولأهل الريبة لقاليا ، ولقد كنت فيما بينى وبينك كما قال الأعشى :

رعيت الذى قد كان بينى وبينهم   من الود حتى غيبتك المقابر

فرحمك الله يوم ولدت ويوم كنت رجلا ، ويوم مت ، ويوم تبعث حيا ، والله لئن كانت هاشم أصيبت بك لقد عم قريشا كلها هلكك ، فما أظن أن يرى بعدك مثلك .[235]

ونلاحظ أن الذين رثوه كانوا من الأمويين ، فما الشأن بغيرهم ؟ إن ذلك يعنى إجماع الناس جميعا على الحزن على عبد الله بن جعفر الذى ترك وراءه ذكرى طيبة ، وأثراً محموداً ، وترك من بعده مع ذلك ذرية طيبة نخص بالذكر منهم من أنجبتهم السيدة زينب ـ رضى الله عنها ـ منه .

فقد ولدت السيدة زينب لعبد الله بن جعفر ثلاثة ذكور وجاريتين .

أما الذكور فهم : محمد ـ وكان يقال له : جعفر الأكبر ، وعون الأكبر ، وعلى الأكبر .

والجاريتان هما : أم كلثوم ، وأم عبد الله . .

وقد استشهد محمد وهو (جعفر الأكبر) ـ وعون الأكبر ـ مع خالهما الحسين ـ رضى الله عنه ـ فى كربلاء . .

---

(٢٣٤) أسد الغابة جـ٣ ص ٢٠٠

(٢٣٥) العقيلة الطاهرة للشيخ أحمد فهمى محمد ص ١٨

أما على فهو الذى له العقب . ويطلق عليه : على بن عبد الله بن جعفر الزينبى نسبة إلى أمه زينب بنت على . .

قال الرواة : كان ثلاثة فى عصر واحد يطلق على كل منهم اسم علىٌّ ، وهم بنو عم ، يرجعون إلى أصل قريب ، وكلهم يصلح للزعامة ، وهم : علىٌّ بن الحسين بن على . الملقب بزين العابدين .

وعلى بن عبد الله بن جعفر بن أبى طالب

وعلى بن عبد الله بن العباس .

تزوج على بن عبد الله بن جعفر من لبابة بنت عبد الله بن عباس ـ حبر الأمة وترجمان القرآن ـ فأعقب منها بنتين وخمسة ذكور .

وانتشرت ذرية السيدة زينب من هؤلاء ـ كما انتشرت من ابنتها أم كلثوم أيضاً . وعمرت بهذه الذرية أقطار متعددة : مصر وفارس والعراق والحجاز وقد بارك الله فى ذرية السيدة زينب ـ رضى الله عنها ـ وجعل الخير فيها . .

أما عون وجعفر ابنا عبدالله بن جعفر ، فقد قلنا : إنهما استشهدا مع خالهما ، ـ الحسين ـ ولكن بعد أن أبليا بلاء حسناً .

وقد تقدم جعفر ـ وهو محمد بن عبدالله بن جعفر ـ قبل أخيه عون إلى المبارزة وأخذ يقول للأعداء :

أشكو إلى الله من العدوان فعال قوم فى الردى عميان
قد بدلوا معالم القرآن ومحكم التنزيل والبنيان

وتمكن من قتل عشرة أنفس ، وتجمع عليه الأعداء من كل جانب حتى قتله عامر بن نهشل التميمى .

فبرز أخوه عون لهم ، وأقبل على الأعداء وهو يرتجز قائلاً :

إن تنكـــرونى فأنـــا ابــن جعفــر   شـــهيد صــدق فى الجنـــان أزهــر
يطـــير فيهـــا بجنــاح أخضــــر   كــفى بهــذا شـــرفاً فى المحشـــر

وأخذ يضرب فيهم بسيفه حتى قتل ثلاثة فرسان وثمانية عشر رجلاً ، حتى ضربه عبدالله بن قطنة الطائى النبهانى بسيفه فقتله . .

وحين بلغ الخبر أباهما قال : والله إنه لما يهون علىَّ المصاب بهما أنهما أصيبا مع أخى وابن عمى ، مواسيين له ، صابرين معه ـ ثم أقبل على الجلساء الذين جاءوا يعزونه فقال : الحمد لله ، أعزز علىَّ بمصرع الحسين ، إن لم أكن آسيت حسيناً بيدى فقد آسيته بولدى .

أم كلثوم بنت عبدالله بن جعفر

وهى ابنة السيدة زينب ـ رضى الله عنها ـ نشأت فى كنف أبويها نشأة علم ودين وتقى ، وتزوجها ابن عمها ـ القاسم بن محمد بن جعفر ، فمات عنها وله عقب منها . .

ولما مات زوجها القاسم همَّ أبوها عبدالله بن جعفر أن يزوجها من الحجاج بن يوسف الثقفى ليقضى بمهرها ديناً عليه .

ولم تكن أم كلثوم راضية بهذا الزواج

وحدث أن وفد عبدالله بن جعفر على عبدالملك بن مروان ، فلقيه الوليد ابن عبدالملك فقال له : لامرحباً بك ولا أهلاً . .

فقال له عبدالله : مهلاً يابن أخى ، فلستُ أهلا لهذه المقابلة منك .

فقال الوليد : تعمد إلى عقيلة بنى هاشم سيدة نساء العرب فتزوجها

للحجاج بن يوسف ؟ فقال عبدالله : وفى هذا عتب علىَّ يابن أخى ؟

قال الوليد : وماأكثر من هذا ؟

قال عبدالله : والله إن أحق الناس ألا يلومنى فى هذا لأنت وأبوك ، إن كان من قبلكم من الولاة ليصلون رحمى ، ويعرفون حقى ، وإنك وأباك منعتمانى ماعندكما حتى ركبنى من الدين ما والله لو أن عبداً مجدعاً حبشياً أعطانى بها ماأعطانى الحجاج لزوجتها ، فإنما فديت بها رقبتى من الدين .

فمضى الوليد إلى أبيه غاضباً ، فلما رآه عبدالملك قال له : مالك أبا العباس ؟

قال : إنك سلطت الحجاج وملكته على بنى عبدمناف فأدركت عبدالملك الغيرة ، فكتب إلى الحجاج يقول له : لاتضع كتابى من يدك حتى تطلق أم كلثوم .

فدخل إليها وقال لها : إن عبدالملك أمرنى أن أطلقك .

قالت : هو والله أبر بى ممن زوجك إياى .

فما كان أحد فيه خير إلا سره ذلك الخبر .

فعصمها الله بذلك من الحجاج ..[٢٣٦]

وتزوجها أبان بن عثمان بن عفان رضى الله عنه .

الحرم الزينبى

والآن وبعد مضى مايقرب من أربعة عشر قرناً من الزمان على مجىء السيدة زينب إلى مصر ، مايزال مسجدها عامراً بالزوار ، تلوح عليه آثار الرحمة وتحفه البركة والأنوار .

---

(٢٣٦) العقيلة الطاهرة ص ٢١

وإنك لتشاهد فيه من نفحات البر والخير مايذكرك بما تشعر به فى أثناء زيارتك لروضة جدها - صلى الله عليه وسلم ، ولمسجد أخيها الحسين - رضى الله عنه - بالقاهرة . . هى نفحات روحية يفيضها الله فى مثل هذه الأماكن تربط الإنسان بربه ، وتشعره بقربه .

والحرم الزينبى العامر ، يضم المسجد الكبير ، الذى أقيم أمام القبر الذى دفنت فيه السيدة زينب ، وهذا القبر كان جزءاً من دار مسلمة بن مخلد كما سبق أن قلنا ، ولم ينشأ المسجد إلا بعد وفاتها بأكثر من قرنين ليحل محل زاوية صغيرة أنشئت بجوار المدفن . .

ولم يلبث أن تناولت المسجد يد التعمير والتوسيع والتجديد والتطوير حتى أصبح على ماهو عليه الآن . .

ويلحق بالحرم الزينبى مقام دفن به عالمان جليلان - أحدهما الشيخ محمد ابن أبى المجد القرشى - شقيق سيدى إبراهيم الدسوقى الملقب بالعتريس وكان يلقى دروس العلم فى هذا المسجد وتوفى فى آخر القرن السابع الهجرى .

والآخر هو مقام القطب وجيه الدين عبدالرحمن الحسينى العلوى العيدروسى - نزيل مصر ، كان صالحاً عالماً عاملاً تقياً ورعا أحبه الناس وكرموه ، وتوفى سنة ١١٩٢ هـ ودفن بجوار الشيخ العتريس رحمهما الله رحمة واسعة .

وبعد ، فهذه لمحات سريعة عن السيدة زينب بطلة كربلاء والتى حلت مصر فحل بها الأمن والسعادة والرجاء .

وهى أهل لأن يقول فيها القائل :

وشمس ابنة الزهراء باق ضياؤها ... وليس لها عن ذى البصيرة حاجب

لها لمحات فى القلوب تمسها ... فتنبع إيماناً من الله يوهب

وقد شع نور الحق من كلماتها ... وفاضت لها أنوار هدى ثواقب

فمن نور تقواها ومن نور علمها ... تزول ضلالات وتمحى غياهب

وقد ختمت فى أرض مصر نضالها ... فتم لمصر ماتريد وتطلب[٢٣٧]



(٢٣٧) الشيخ عبدالسلام حماد من قصيدة له فى ذكر مولدها

محمد بن الحنفية

- نشأته .
- ابن الحنفية والأحداث .
- في أيام الحسن والحسين .
- موقفه من ابن الزبير .
- موقفه من الشيعة .
- شدة الأمر عليه في مكة ورحيله منها .
- مسالمته للجميع .
- موقفه من بني أمية .
- عبد الملك وابن الحنفية .
- العودة إلى مكة .
- ابن الحنفية والحجاج بن يوسف .
- مبايعة ابن الحنفية لعبد الملك بن مروان .
- وفاته .
- أولاده .
- علمه الغزير .

محمد بن الحنفية

هو محمد الأكبر بن علي بن أبي طالب بن عبدالمطلب بن هاشم . وأمه ـ الحنفية ـ هي خولة بنت جعفر بن قيس بن سلمة بن ثعلبة بن يربوع بن ثعلبة من بني حنيفة . .

قال ابن سعد : أخبرنا الفضل بن دكين قال : حدثنا الحسن بن صالح قال : سمعت عبدالله بن الحسن يذكر أن أبابكر أعطى علياً أم محمد ابن الحنفية ـ وكانت من سبي اليمامة . ،

ويقال : إن أمه كانت سندية ـ وكانت أمة عند بني حنيفة ولم تكن منهم . . وقد أخبرت بذلك أسماء بنت أبي بكر ـ رضي الله عنهما ـ ولكنها أنجبت سيداً من سادات بني هاشم . .

ولد محمد بن الحنفية لسنتين بقيتا من خلافة عمر رضي الله عنه ـ وأسماه أبوه محمداً ، وكناه أباالقاسم .

وكانت هذه التسمية والكنية ـ كما يذكر بعض الرواة ـ رخصة منحها النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ لعلي ـ وكان النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : « تسموا باسمي ولاتكتنوا بكنيتي » . . إلا أنه قال لعلي ـ كرم الله وجهه ـ : « سيولد لك بعدي غلام وقد نحلته اسمي وكنيتي . . »(٢٣٨)

وقيل : إن علياً رضي الله عنه ـ هو الذي طلب ذلك من النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ

فقد أخبر منذر الثوري قال : سمعت محمد ابن الحنفية قال : كانت

---

(٢٣٨) وفيات الأعيان لابن خلكان جـ٢ ص ٢١٨

رخصة لعلى . . . . . . قال : يارسول الله ، إن وُلد لى ولد بعدك أسميه باسمك وأكنيه بكنيتك ؟ قال : نعم .

فلما ولد له محمد وسماه بهذا الاسم ، وكناه بهذه الكنية - وقع بين على وطلحة كلام ، فقال له طلحة : لاكجرأتك على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - سميت باسمه وكنيت بكنيته وقد نهى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أن يجمعهما أحد من أمته بعده .

فقال على : إن الجرىء من اجترأ على الله ورسوله ، اذهب يافلان فادع لى فلاناً وفلاناً - لنفر من قريش . قال : فجاءوا . فقال : بم تشهدون فى هذا الأمر ؟

قالوا : نشهد أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : إنه سيولد لك بعدى غلام فقد نحلته اسمى وكنيتى ولاتحل لأحد من أمتى بعده .(٢٣٩)

ويقصد على رضى الله عنه - بالجرىء الذى يسمى ويكنى بدون إذن - وكان ممن تسمى بمحمد وتكنى بأبى القاسم نفر غير قليل من أبناء الصحابة . . . منهم محمد بن أبى بكر الصديق ، ومحمد بن طلحة بن عبيد الله ، ومحمد بن سعد بن أبى وقاص ومحمد بن عبدالرحمن بن عوف ، ومحمد بن جعفر بن أبى طالب ، ومحمد بن حاطب بن بلتعه ، ومحمد بن الأشعث بن قيس .(٢٤٠)

---

(٢٣٩) الطبقات لابن سعد جـ ٥ قسم ١ ص ٦٦

(٢٤٠) وفيات الأعيان جـ ٢ ص ٢١٨

نشأته :

نشأ محمد بن الحنفية فى بيت علم ودين وتقوى ، فأبوه على بن أبى طالب الذى بلغ فى العلم مبلغاً عظيماً لايدانيه أحد من الصحابة ، حتى كان أبوبكر وعمر وعثمان يستأنسون برأيه ، ويستشيرونه فى كل مايشكل من أمور ، حتى قال عمر ـ رضى الله عنه ـ : لولا على لهلك عمر .

جاء عن أبى نعيم فى الحلية ـ عن عبدالله بن مسعود قال : إن القرآن أنزل عَلَى سبعة أحرف ما منها حرف إلا له ظهر وبطن ، وإن عليا عنده علم الظاهر والباطن ؟

وحدث على ـ رضى الله عنه ـ قال : مانزلت آية إلا وقد علمت فيم أنزلت وأين أنزلت ، إن ربى وهب لى قلباً عقولاً ولساناً سؤولاً(٢٤١)

وقال ابن عباس رضى الله عنها ـ : كنا نتحدث أن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ عهد إلى علىّ سبعين عهداً لم يعهدها إلى غيره .(٢٤٢)

وذكر ابن عبدالبر فى الاستيعاب قال : قال عمرو بن العاص : قلت لعبدالله بن عياش بن أبى ربيعة : ياعم ـ لم كان حب الناس لعلى ؟

قال : يابن أخى ، إن علياً كان له ماشئت من ضرس قاطع فى العلم ، وكان له البسطة فى العشيرة والقدم فى الإسلام والصهر لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ والفقه فى السنة ، والنجدة فى الحرب والجود فى الماعون .

وشهدت له عائشة ـ رضى الله عنها ـ بأنه كان أعلم الناس بالسنن . . .

---

(٢٤١) المرجع السابق ص ٦٧

(٢٤٢) المرجع السابق ص ٦٨

فقد روى ابن أبي خيثمة عن جابر ـ قالت عائشة من أفتاكم بصوم عاشوراء ؟ قالوا : علي . قالت : أما إنه أعلم الناس بالسنة ، وكانت كثيراً ماترجع إليه فى المسائل . .

وقد اعترف بعلم علي وغـــزارته خصومه قبل أنصاره ، فقد ذكر ابن عبدالبر أن معاوية لما بلغه قتل علي ـ رضي الله عنه ـ قال : ذهب الفقه والعلم بموت ابن أبي طالب .

وعليٌ هذا هو والد محمد بن الحنفية . . أما أخواه فهما الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة ـ وهما يكبران ابن الحنفية بسنين عدة ـ وقد كان كل منهما حجة فى العلم والدين أيضاً . . . ، كانا درتين بارزتين فى التقوى والشرف ، ولاشك أن محمد بن الحنفية أخذ منهما، وسار على نهجهما ، واقتدى بهما سلوكاً ومنهجاً .

لقد لقبه أنصاره بالمهدى ، ونسبوا إليه أن أباه علياً خصَّه بطرف من العلم . . .

قال الشهرستانى فى الملل والنحل : والسيد محمد بن الحنفية كان كثير العلم غزير المعرفة وقَّاد الفكر مصيب الخاطر فى العواقب ، قد أخبره أمير المؤمنين علي ـ رضي الله عنه ـ عن أحوال الملاحم ، وأطلعه على مدارج المعالم ، وقد اختار العزلة وآثر الخمول على الشهرة .

وإليه تنسب الطائفة الكيسانية الشيعية ، فقد كان كيسان مولى أمير المؤمنين علي بن أبي طالب تلميذاً له ، واعتقد الشيعة أن ابن الحنفية اختص كيسان بكثير من العلوم والأسرار والتأويل وعلم الآفاق والأنفس .

وفى إمامة ابن الحنفية يقول الشاعر كثير عزة ـ وكان متشيعاً ـ

ألا إن الأئمـــة مـن قريـــش	ولاة الحـــق أربعـــة ســـواء
علـى والثـلاثة مـن بنيـــه	هـم الأسـباط ليس بهـم خفـاء
فسبـط سـبط إيمـان وبـر	وسـبـط غيبتـه كربـلاء
وسـبط لايـذوق المـوت حـتى	يقـود الخيـل يقدمـه اللـواء
تغـيب لايـرى فيهـم زمـانا	برضـوى عنده عسـل ومـاء(٢٤٣)

يقصد بالسبط الثالث محمد بن الحنفية الذى يقول عنه ـ إنه دخل سرداباً فى رضوى واختفى فيه ، وسيظهر بعد حين ، وهو بين أسد ونمر يحفظانه ، وعنده عينان نضاختان تجريان بماء وعسل ، وأنه يعود بعد الغيبة فيملأ الأرض عدلاً كما ملئت جوراً .

ولاشك أن ذلك من تحريفات الشيعة ، وأن ابن الحنفية ـ رضى الله عنه ـ برىء من ذلك كله ، فلقد كان ورعه وفضله وعلمه يقيه من ذلك العبث .

ابن الحنفية والأحداث

شهد ابن الحنفية مع أبيه موقعتى الجمل وصفين ، وقد حدث ابن الحنفية عن موقفه يوم الجمل فقال فيما يرويه ابن سعد :

لما تصافقنا أعطانى علىٌّ الراية ، فرأى منى نكوصاً لمَّا دنا الناس بعضهم إلى بعض ، فأخذها منى فقاتل بها ، قال : فحملت يومئذ على رجل من أهل البصرة فلما غشيته قال : أنا مع أبى طالب . فلما عرفت الذى أراد كففت عنه ، فلما هزموا قال على : لاتجهزوا على جريح ولاتتبعوا مدبرا . . .

---

(٢٤٣) الملل والنحل جـ ١ ص ٢٨٠ ومابعدها

وأخذنا منهم ما أجلبوا به علينا من كراع أو سلاح . .

ولم يكن نكوص ابن الحنفية جبناً وهلعاً ، ولكنه تورع عن سفك الدماء ـ والمتحاربون مسلمون . . . ولكن أباه خليفة بايع له الناس ، وهؤلاء خرجوا عليه وهو يرى أن قتالهم واجب عليه . . فتقدم إلى ذلك وهو على يقين من أمره ورأيه ـ في الوقت الذى تريث فيه قوم . .

ولكن ابن الحنفية لم يلبث أن رأى أن الحق مع والده ، فحمل على خصومه ، حتى قال له ذلك إلبصرى ماقال فكف عنه ، وقد فهم من قوله أنا مع أبي طالب ، يعنى أنا على رأى على بن أبي طالب .

وقد صور ابن الحنفية موقف أبيه يوم صفين فقد عانى من أنصاره الكثير ، فهو يقول : كان أبي يريد أن يغزو معاوية وأهل الشام ، فجعل يعقد لواءه ثم يحلف لا يحله حتى يسير إليهم ، فيأبى عليه الناس وينتشر رأيهم ويجبنون فيحله ويكفر عن يمينه وكنت أرى حاله ، فكلمت المسور بن مَخْرمة وقلت له : ألا تكلمه أين يسير بقوم لا والله مارى عندهم طائلاً ؟

فقال المِسْور : ياأبا القاسم لأمر الله قد حُم ، قد كلمته فرأيته يأبى إلا المسير .

قال محمد بن الحنفية : فلما رأى منهم مارأى قال : اللهم إنى قد مللتهم وملُّونى وأبغضتهم وأبغضونى فأبدلنى بهم خيراً منهم وأبدلهم بى شراً منى .

في صفين :

وانتهت موقعة الجمل بانتصار على ـ رضى الله عنه ـ على معارضيه ، ولكن معاوية في الشام مازال مناهضاً للحكم رافضاً للبيعة . .

فأزمع علىٌ المسير إليه ، والتقى الجيشان فى صفين ـ على ماقدمنا ـ
وكان الذى يحمل راية علىٌ يوم صفين هو ابنه محمد بن الحنفية
حدث محمد بن كعب القرظى قال : كان على رجّالة على يوم صفين عمار ابن ياسر . .

وكان يحمل راية على محمد بن الحنفية .

وحدث عبدالله الغافقى ـ وكان قد شهد صفين مع على ـ قال : لقد رأيتنا يوماً ، والتقينا نحن وأهل الشام فاقتتلنا حتى ظننت أنه لايبقى أحد ، فأسمع صائحاً يصيح : يامعشر المسلمين ، اللهَ اللهَ والبقيا . فأسمع حركة من خلفى فالتفت فإذا علىٌ يعدو بالراية يهرول بها حتى أقامها ، ولحقه ابنه محمد ، فأسمعه يقول : يابنى الْزَمْ رايتك فإنى متقدم فى القوم . . . فأنظر إليه يضرب بالسيف حتى يفرج له ، ثم يرجع فيهم . .[٢٤٤]

لقد أبلى محمد بن الحنفية مع أبيه فى حروبه ضد خصومه بلاء حسناً ، وكان شجاعاً يتقدم ولا يهاب الموت . .

وكان ابن الحنفية قد أعطاه الله من القوة البدنية مايفوق الوصف ، فقد قالوا : إن عبدالله بن الزبير كان حين توصف له قوة ابن الحنفية تأخذه رعدة . وكان يحسده على ذلك . مع أن ابن الزبير كان قوياً وكان ينافس ابن الحنفية فى قوته . .

ومما يروى فى ذلك أن أباه استطال درعاً فأراد أن ينتقص منها قدراً معيناً ، فقبض محمد بن الحنفية بإحدى يديه على ذيلها وبالأخرى على الجزء المراد

---

(٢٤٤) طبقات ابن سعد جـ ٥ قسم ١ ص ٦٨

قطعه ، ثم جذبها فقطعها من الموضع الذى حدَّه أبوه[(٢٤٥)]

ومما يروى فى ذلك أيضاً أن ملك الروم فى أيام معاوية وجه إليه أن الملوك قبلك كانت تراسل الملوك منا ، ويجهد بعضهم أن يغرب على بعض ، أفتأذن لى فى ذلك ؟

فأذن له معاوية . . .

فوجه برجلين أحدهما طويل جسيم ، والآخر قوى شديد . وكان يتحداه أن يوجد بين العرب من يضاهى الطويل فى طوله ، ومن يضاهى القوى فى قوته .

فقال معاوية لعمرو بن العاص : أما الطويل فقد أصبنا كفوه ، وهو قيس ابن سعد بن عبادة ، وكان لايقاربه أحد طولاً .

وأما الآخر فقد احتجنا فيه إلى رأيك . .

فقال عمرو : ههنا رجلان كلاهما إليك بغيض ـ محمد بن الحنفية وعبدالله بن الزبير.

فقال معاوية : فلنختر من هو أقرب إلينا على كل حال ، وهو محمد بن الحنفية .

وجاء الرجلان الروميان . واستدعى معاوية قيس بن سعد . فلما مثل بين يديه وعلم المطلوب ، خلع سراويله ورمى بها إلى الرومى الطويل فلبسها فطالت عليه . .

فأطرق الرومى مغلوباً ، فقيل إن قوم قيس لاموه فى ذلك قائلين لم تبذلت هذا التبذل بحضرة معاوية ؟ وهلا وجهت إليه غير سراويلك التى

---

(٢٤٥) الكامل للمبرد جـ ٢ ص ١٦٥

كنت تلبسها ؟ فأجاب قيس شعراً :

أردت لكيما يعلم الناس أنها سراويل قيس والوفود شهود
وأن لايقولوا : غاب قيس وهذه سراويل عاديٌّ نمته ثمود
وإنى من القوم اليمانين سيد وما الناس إلا سيد ومسود
وبزَّ جميع الناس أصلى ومنصبى وجسم به أعلو الرجال مديد

ثم جاء محمد بن الحنفية ، وأخبر بما دُعِى إليه ، فقال : قولوا له : إن شاء فليجلس وليعطنى يده حتى أقيمه أو يقعدنى ، وان شاء فليكن هو القائم وأنا القاعد .

فاختار الرومى الجلوس ، فأقامه ابن الحنفية وعجز الرومى عن إقعاده ، ثم اختار أن يكون محمد القاعد ، فجذبه محمد فأقعده وعجز الرومى عن إقامته ، فانصرف الروميان مغلوبين . (٢٤٦)

ابن الحنفية فى أيام الحسن والحسين

بعد استشهاد الإمام على ـ كرم الله وجهه ـ وتنازل الحسن عن الخلافة عادت أسرة على إلى المدينة . .

وكان على ـ رضى الله عنه ـ قد أوصى أولاده . . أوصى الحسن والحسين أولاً ـ قائلاً : أوصيكما بتقوى الله والرغبة فى الآخرة والزهد فى الدنيا ، ولا تأسفا على شىء فاتكما منها ، اعملا الخير ، وكونا للظالم خصماً وللمظلوم عوناً .

---

(٢٤٦) وفيات الأعيان جـ٢ ص ٢١٩ نقلاً عن الكامل للمبرد

ثم دعا محمد بن الحنفية فقال : أما سمعت ماأوصيت به أخويك ؟

قال : بلى

قال : فإنى أوصيك به ، وعليك ببر أخويك وتوقيرهما ومعرفة فضلهما ، ولا تقطع أمراً دونهما .

ثم أقبل عليهما فقال : أوصيكما به خيراً فإنه أخوكما وابن أبيكما ، وأنتما تعلمان أن أباكما كان يحبه فأحباه ، وقضى على ـ كرم الله وجهه ـ فقالت أم العريان :

وكنا قبل مهلكه زماناً نرى نجوى رسول الله فينا
قتلتم خير من ركب المطايا وأكرمهم ومن ركب السفينا[٢٤٧]

ولم يلبث أن بايع الناس للحسن بن على ، فصالح معاوية بن أبى سفيان واستقر المقام ببنى على ـ رضى الله عنهم ـ فى المدينة .

ورعى الحسن والحسين ـ رضى الله عنهما ـ حق أخيهما محمد بن الحنفية ، كما رعى محمد حق أخويه عليه .. فكان بينهم الود الدائم ، والصفاء الخالص ، وماكان يحدث بين الإخوة عادة من خلاف فإن مصيره إلى الزوال والنسيان ..

حدث الحصرى قال : وقع بين الحسن ومحمد بن الحنفية لحاء ، ومشى الناس بينهما بالنمائم ـ فكتب محمد بن الحنفية إلى الحسن :

« أما بعد فإن أبى وأباك على بن أبى طالب ، لاتفضلنى فيه ولا أفضلك ، وأمى امرأة من بنى حنيفة ، وأمك فاطمة الزهراء بنت رسول الله ـ صلى الله

---

(٢٤٧) الكامل للمبرد جـ٢ ص ١٥٢

عليه وسلم ـ فلو ملئت الأرض بمثل أمى لكانت أمك خيراً منها ، فاذا قرأت كتابى هذا فأقدم حتى ترضانى ، فإنك أحق بالفضل منى[٢٤٨]

هذا هو الأدب العالى الذى يليق بأهل البيت ، والذى يدرك أصحابه معانى النبل والفضيلة . . . إن ابن الحنفية يأبى أن يستأثر بفضل يعرف أن أخاه ابن الزهراء أحق به منه ، وقد روى حديث الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ لايحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث وخيرهما الذى يبدأ بالسلام »

ومايزال ابن الحنفية يعرف فضل أخويه عليه ويبرهما أفضل مايكون البر ، ويكرمهما أقصى مايكون الإكرام ، حتى يفجع فى أخيه الحسن ، فيتصدع قلبه حزناً عليه ، ولكنه يتجمل بأدب الدين ، ويتزين بفضل اليقين . . . وعلى الرغم من ذلك يدرك قيمة الوديعة الغالية التى يستودعها قبره ، فيقف عليه وقد اغرورقت عيناه بالدموع ويقول :

« رحمك الله أبا محمد ، فلئن عزت حياتك فلقد هدت وفاتك ، ولنعم الروح روح تضمنه بدنك ، ولنعم الجسد جسد تضمنه كفنك ، ولنعم الكفن كفن تضمنه لحدك . . .

وكيف لاتكون كذلك وأنت سليل الهدى ، وخامس أصحاب الكساء وخلف أهل التقى ، جدك النبى المصطفى ، وأبوك على المرتضى ، وأمك فاطمة الزهراء وعمك جعفر الطيار فى جنة المأوى ، وغذّتك أكف الحق ، وربيت فى حجر الإسلام ، ورضعت ثدى الإيمان ، فطبت حيا وميتاً ، فلئن كانت الأنفس غير طيبة لفراقك ، فإنها غير شاكة أنك صائر إلى خير ،

---

(٢٤٨) زهر الآداب للحصرى جـ ١ ص ٩٩

وأنك وأخاك لسيدا شباب أهل الجنة ، فعليك ياأبا محمد منا السلام »[٢٤٩]

ووجد ابن الحنفية فى بقاء الحسين بعض تعزية عن فقده أخاه الأكبر . . وعاش معه فى المدينة يخلص له الود ، ولايبرم أمراً دونه ، حتى كانت محنة الإكراه على بيعة يزيد . .

ورحل الحسين ـ رضى الله عنه ـ من المدينة إلى مكة عزوفاً عن هذه البيعة التى كان سيجبر عليها ، وأقام بها هو وابن عباس وابن الزبير ، ولم تزل رسل العراق تتوالى على الحسين مبايعة له ، وملحة فى استقدامه ليكون أميراً للمؤمنين . . وحدث ماحدث مما سبق أن ذكرناه . .

ووصلت أنباء مصرع الحسين إلى المدينة فاشتعلت ناراً . . ووصلت أنباء هذه الثورة إلى أولى الأمر فأرادوا أن يطفئوها بما أمكنهم من سياسة أو قوة .

وكان ابن الحنفية مازال مقيماً بالمدينة ، وقد هدَّه مصاب الحسين وأشعل فى داخله ثورة عنيفة ، ولكنه كان ينطوى على قلب كبير وفكر ثاقب . . ورأى أنه لافائدة فى مجابهة الحكام . . وأدرك أن انتظار الفرصة المواتية أحرى بأن تشفى جراح نفسه ، وتكفل له إدراك مراده . .

وسكت ابن الحنفية وتذرع بالصبر ، واستعان بالعبادة . . وكان مع ابن الحنفية فى المدينة ابن عمه عبدالله بن جعفر ، وكلاهما على رأى واحد بالنسبة لما حدث . .

أما ابن عمهما الثالث عبدالله بن عباس فكان مقيماً بمكة ، وكان بها خصم عنيد لايقل شأناً عن الأمويين وهو ابن الزبير ـ الذى فكر جدياً فى

---

(٢٤٩) المرجع السابق ص ٩٧

الدعوة لنفسه بعد أن خلا له الجو بمصرع الحسين ـ رضى الله عنه ـ

ورأى يزيد بن معاوية أن يستميل الهاشميين إليه ليكسب جولته ضد ابن الزبير ، فأعلن فى صراحة أنه برىء من دم الحسين ، وأخذ يلعن ابن زياد جهراً ـ وأرسل إلى رجال بنى هاشم فى المدينة محاولا تهدئة ثائرتهم وتعويضهم عن الخسارة الفادحة التى لحقت بهم . .

لقد أعلن أن ماحدث للحسين كان بغير علمه وبدون رغبته . . . « ورأى أن يستميل إليه أحد زعماء بنى هاشم ، ووجد ضالته المنشودة فى شخص محمد بن على بن أبى طالب المعروف بابن الحنفية » .

« كتب يزيد رسالة رقيقة إلى محمد بن الحنفية ساق فيها المديح له والثناء عليه ، ودعاه لزيارته فى دمشق بالشام ، واستشار ابن الحنفية ولديه جعفراً وعبدالله فى أمر هذه الدعوة ، فنهياه عن السفر ، ولكنه رأى قبول الدعوة ، فشد رحاله إلى دمشق »(٢٥٠)

وفى الحق أن تلبية الدعوة لم يكن نسياناً من جانب ابن الحنفية لما حدث لأخيه الحسين ولكنه كان يلتمس من وراء ذلك إصلاح ما أفسدته الأيام وتقوية وحدة الإسلام والمسلمين ونبذ الشقاق والخلاف . . وإذا كان يزيد قد أراد أن يظهر براءته من دم الحسين وأنه غير راض عما حدث . . فليكن ابن الحنفية أمامه أول المصدقين ببراءته ، الملتمسين له العذر ، النافين عنه تهمة الضلوع فى هذا الأمر . . .

« وفى دمشق أحاط يزيد ابن الحنفية بمظاهر الحفاوة والتكريم ، وأغدق

---

(٢٥٠) عبدالله بن الزبير د . على حسن الخربوطلى ص ١٥٦ ـ أعلام العرب

عليه الصلات والجوائز . .

وأراد يزيد أن يمحو كل مافي قلب ابن الحنفية من ألم وحقد لمصرع الحسين على يد واليه وقائده ابن زياد ، فأخذ يتبرأ من قتله ويستمطر الرحمات عليه . .

وعاد ابن الحنفية إلى المدينة ، وسأله الناس عن يزيد وسيرته ، فلم يكتم عن الناس أنه بايعه . .

وحاول يزيد أن يستميل ابن عباس إليه أيضاً فدعاه إلى أن يبايعه ، ولكن ابن عباس أبى عليه ذلك صراحة . .

ووقف عبدالله بن مطيع وابن حنظلة ـ وقد كانا مناصرين للهاشميين وناصحين للحسين بعدم خروجه ـ وقفا يحثان أهل المدينة على خلع يزيد ويوجهان إليه تهم السوء والفساد . . فوقف ابن الحنفية من يزيد موقف المدافع فأخذ يبعد عنه كل اتهام وجهوه إليه ، فنفى عنه أنه يشرب الخمر ـ كما زعم البعض ـ وشهد أنه أقام عنده أياماً فلم يره يشربها ، ثم استمر في دفاعه فقال : « مارأيت منه ماتذكرون ، وقد حضرته ، وأقمت عنده فرأيته مواظباً على الصلاة متحرياً للخير ، يسأل عن الفقه ملازماً للسنة »[٢٥١]

وكان ابن الحنفية يبغي من وراء ذلك رأب الصفوف ووحدة المسلمين . .

ابن الحنفية وعبدالله بن الزبير

وظن أهل المدينة أن ابن الحنفية يدافع عن يزيد لأنه لايريد أن يبايع لابن

---

(٢٥١) عبدالله بن الزبير ص ١٥٨ للخربوطلي نقلاً عن قيد الشريد من أخبار يزيد مخطوط بدار الكتب ص ٥.

الزبير ، فعرضوا عليه أن يولوه عليهم ، ولكنه رفض ذلك رفضاً شديداً . .

وكان أهل المدينة قد أجمعوا على أن يثوروا على يزيد ثورة عارمة ، وأرادوا أن يكرهوا ابن الحنفية على الاشتراك معهم فيها .

ولكن كيف يستقيم ذلك مع أخلاقه ؟

لقد جبل على الصراحة والوفاء ، وليس من عادته أن يأتى هؤلاء بوجه وهؤلاء بوجه .

حقاً إنه يعرف أن يزيد ليس هو أفضل من يتولى الخلافة ولكن ابن الحنفية لم يرد أن يجابهه بذلك لقد علم أن الهاشميين ليسوا فى حاجة الى المزيد من سفك دمائهم ، وقد اعتبر ابن الحنفية أنه مسئول عنهم بعد استشهاد الحسين ، انه يرى أن يزيد على الرغم مما فعل فهو أقرب من ابن الزبير إلى جمع شمل المسلمين وإلى عدم المزيد من الشقاق بينهم .

وحين أراد أهل المدينة إكراهه على الاشتراك معهم فى ثورتهم ترك المدينة وذهب إلى مكة .

وفى مكة أصبح وجهاً لوجه أمام ابن الزبير . .

وكان ابن الزبير قد دعا لنفسه فى مكة وبايعه خلق كثير ، ودان له الحجاز والعراق ومصر ، وانتهز فرصة وفاة يزيد سنة ٦٤ هـ فمكن لنفسه ، ولكنه على الرغم من ذلك اعتبر أنه لن يبلغ من الأمر مايريد إلا إذا بايع له الهاشميون .

وكانت زعامة البيت الهاشمى متمثلة فى ابن الحنفية وابن عباس ، وكلاهما أبى البيعة لابن الزبير إباء شديداً . .

وحدثت بينه وبينهما مساجلات عدة ، عَنُفَ فى خلالها ابن الزبير بهما

تعنيفاً شديداً ، لولا أن قيض الله لهما بعض شيعتهما الذين نصروهما ضده .

ابن الزبير

وكان ابن الزبير قد أظهر للناس الزهد والورع وكثرة العبادة مع حرصه الشديد على الخلافة . .

وكان مما يقوله فى ذلك : إنما بطنى شبر ، فما عسى أن يسع ذلك من الدنيا ، وأنا العائذ بالبيت ، والمستجير بالرب ؟

قال المسعودى : وكثرت أذيته لبنى هاشم مع شحه بالدنيا على سائر الناس ، وفى ذلك يقول أبو حرة مولى الزبير :

إن الموالى أمست وهى عاتبة على الخليفة تشكو الجوع والحربا
ماذا علينا وماذا كان يرزؤنا أى الملوك على ماحولنا غلبا ؟

وفارقه هذا المولى ـ وربما جوعاً ـ فقال بعد أن فارقه :

مازال فى سورة الأعراف يقرؤها حتى فؤادى مثل الخز فى اللين
لو كان بطنى شبراً قد شبعت وقد أفضلت فضلاً كثيراً للمساكين
إن امرءًا كنت مولاه فضيعنى يرجو الفلاح لعمرى حق مغبون

والشاعر فى أبياته المذكورة يعاتب ابن الزبير ويلومه . ويقصد بتلاوة سورة الأعراف ماجاء فيها من قوله ـ تعالى :

« كلو واشربوا ولاتسرفوا »

ولكنه تهكم منه حين زعم أن بطنه شبر ، ولو كان شبراً كما يقول لشبع حقاً من أقل شىء وأمكنه أن يعطى الفضل للموالى والمحتاجين ، ولكنه أخذ كل شىء ولم يبق لمولاه شيئاً . .

وقد قال فيه الضحاك بن فيروز الديلمى هذه الأبيات ..

تخبرنا أن سوف تكفيك قبضة وبطنك شبر أو أقل من الشبر
وأنت إذا مانلت شيئاً قضمته كما قضمت نار الغضى حطب السدر
فلو كنت تجزى إذ تبيت بنعمة قريباً لردتك العطوف على عمرو

ويقصد الشاعر بعمرو أخاه عمرو بن الزبير ، وكان عبدالله بن الزبير قد أقامه للناس بباب الحرم فى مكة وأخذ يضربه بالسياط(٢٥٢) - كما تزعم بعض الروايات . .

هذا هو عبدالله بن الزبير الذى أراد أن يبايع له الناس بالخلافة دون يزيد ، ولقد كان يطمع فى الخلافة والحسين على قيد الحياة ، ولكنه لم يجرؤ على طلبها حينئذ ، وقد خلا له الجو بخروج الحسين من مكة ، وقد قالها له ابن عباس :

قرت عينك يابن الزبير بخروج الحسين من مكة . .

لقد حاول ابن الزبير مع ابن عباس أن يبايعه فأبى إباء شديداً ، فلجأ إلى ابن الحنفية يطلب منه ذلك فأبى عليه ذلك أيضاً .

فلجأ ابن الزبير الى استعمال القوة معهما ومع قومهما ، وظفر بالحسن بن محمد بن الحنفية فسجنه فى سجن يسمى سجن عارم ، وهو سجن موحش مظلم ، وفكر الحسن حتى استطاع أن يفر من السجن ويلحق بأبيه وكان بمنى - فقال فى ذلك الشاعر كثير عزة :

تخبِّر من لاقيت أنك عائذ بل العائذ المظلوم فى سجن عارم

---

(٢٥٢) مروج الذهب جـ٢ ص ٥٩

ومن يــر هــذا الشــيخ بالخيــف مــن مــنىً مــن النــاس يعلــم أنــه غيــر ظــالم
سَـمِيُّ نبــى اللــه وابــن وصــيه وفكــاك أغــلال وقاضــى مغــارم[٢٥٣]

ابن الزبير يهاجم ابن الحنفية

ولم يكتف ابن الزبير بتهديد ابن الحنفية وابنه وأسرته ، بلَ أخذ ينال من أهل البيت جميعاً لأنهم لم يبايعوه . .

حدث النوفلى فى كتابه فى الأخبار ، عن الوليد بن هشام المخزومى قال : خطب ابن الزبير فنال من على ، فبلغ ذلك ابنه محمد بن الحنفية ، فجاء حتى وُضِعَ له كرسى قدامه فعلاه ، ثم قال :

يامعشر قريش ، شاهت الوجوه ، أينتقصُ علىٌّ وأنتم حضور ؟ إن عليا كان سهماً صادقاً ، أحد مرامى الله على أعدائه ، يقتلهم لكفرهم ، ويهوعهم مآكلهم ، وإنا معشر له على نهج من أمره بنو النخبة من الأنصار ، فإن تكن لنا فى الأيام دولة ننثر عظامهم ، ونحسر عن أجسادهم ، والأبدان يومئذ بالية ، وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون »[٢٥٤]

وأمسك ابن الزبير عن خطابه قليلاً ريثما انتهى ابن الحنفية من تعليقه هذا ، ثم استأنف خطابه مهاجماً لابن الحنفية فقال :

عذرت بنى الفواطم يتكلمون ، فما بال ابن الحنفية ؟

فقال محمد بن الحنفية : يابن أم رومان ، ومالى لاأتكلم ؟ أليست فاطمة بنت محمد حليلة أبى وأم إخوتى ؟ أوليست فاطمة بنت أسد بن هاشم جدتى ؟ أوليست

---

(٢٥٣) المرجع السابق ص ٥٩

(٢٥٤) عبدالله بن الزبير ص ١٦٠

فاطمة بنت عمرو بن عائذ جدة أبي ؟ أما والله لولا خديجة بنت خويلد ماتركت فى بنى أسد عظماً إلا هشمته وإن نالتنى فيه المصائب صبرت .

وكأنه يريد أن يقول له : لقد أكرمتكم يابنى الزبير من أجل خديجة أم المؤمنين ، لأنها من بنى أسد وأنت من بنى أسد .

لم يستطع ابن الزبير مواصلة محمد بن الحنفية بالكلام ، فلجأ إلى التهديد . . . وقد جرت هذه المهاجة أيضاً مع ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ

فقد حدث ابن عائشة والعتبى عن أبويهما قائلين : خطب ابن الزبير فقال : مابال أقوام يفتون فى المتعة وينتقصون حوارى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأم المؤمنين عائشة ، مابالهم أعمى الله قلوبهم كما أعمى أبصارهم ـ يعرض بذلك بابن عباس . . .

فقال ابن عباس : ياغلام ، اصمدنى صمده ـ يعنى أوقفنى تجاهه ـ فأوقفه ، فقال ابن عباس :

قد أنصف القارة من راماها إنا إذا مافئة نلقاها
نرد أولاها على أخراها[٢٥٥]

فانقطع ابن الزبير ، ودخل على أمه أسماء فأخبرها ، فقالت : صدق . ولما وجد ابن الزبير نفسه منقطعاً فى الحجة إن تكلم لجأ إلى القوة التى يلجأ إليها كل عاجز عن الحجة ـ فحاصر محمد بن الحنفية وابن عباس وبنى هاشم فى شِعب بمكة وهم بإيذائهم . .

---

(٢٥٥) القارة : قبيلة وهم عضل ، والديسين ابنا الهون بن خزيمة ، وسموا بذلك لاجتماعهم والتفافهم لما أراد بعضهم أن يفرقهم فى بنى كنانة فقال شاعرهم :

دعونا قارة لاتنفرونا فنجفل مثل راجفال الظليم

وهو مثل يضرب فى انصاف المرء من نفسه ـ مجمع الأمثال للميدانى جـ ٢ ص ٤٢

لولا أن أنقذهم بعض أنصارهم الذين استنجدوا بهم ، وستتحدث عما ذكره الرواة فى تلك الحادثة

كان المختار بن عبيدالله الثقفى أحد الذين لعبوا دوراً كبيراً فى الأحداث بعد استشهاد الحسين فى كربلاء ..

وكان المختار سجيناً في عهد يزيد بتهمة تشيعه لأهل البيت ، واستغل مصاهرته لعبدالله بن عمر فى الإفراج عنه .

فقد كانت أخته زوجة لابن عمر ، فكتب ابن عمر ليزيد طالباً الإفراج عنه فأجاب يزيد طلبه وأفرج عنه ـ ولكنه نفاه إلى خارج العراق .

فخرج المختار إلى الحجاز ، واستطاع أن يزين لابن الزبير أن يجعله واليا له فى العراق ليضمها إليه .. وكان ابن الزبير يريد أن يوضح للشيعة أنه إنما قام ليثأر للحسين من قتلته ـ وأبلى المختار فى ذلك بلاء حسنا ..

إلا أن المختار فى مده يده لابن الزبير كان ينظر بعينه إلى ابن الحنفية « كان يخالف ابن الزبير رغم بيعته له فى كثير من آرائه ، فابن الزبير يرى نفسه أحق المسلمين بالخلافة بينما يرى المختار أن الخلافة يجب أن تكون فى بيت على بن أبى طالب »[٢٥٦] .

وكان المختار بعيد النظر فى ذلك ، لأنه نظر إلى عواطف المسلمين ومشاعرهم فتبنى دعوتهم ، وفى الوقت نفسه وضع يده فى يد الذى دعا إلى نفسه بالخلافة ـ طلباً لما يهدف إليه من مغانم مادية ـ بعد أن رأى انقباض أهل البيت عن المطالبة بحقوقهم بعد مصرع الحسين .

---

(٢٥٦) المختار بن عبدالله الثقفى د . الخربوطلى ص ١٠٣ ـ أعلام العرب

ولقد استغل ابن الزبير الموقف أيضاً ، وادعى أنه يطالب بثأر الحسين - مع جفائه لأهل البيت وظلمه لهم - فلماذا لايستغل المختار الموقف مع ولائه القديم لأهل البيت ؟ ؟

ورأى المختار أن يلتقى بابن الحنفية قبل رحيله إلى العراق ، ويعرض عليه خدماته ، وقال له : أنا ماعزمت على الخروج إلى العراق إلا للمطالبة بحقوقكم والثأر لدمائكم والانتصار لكم .

وأجابه ابن الحنفية إجابة رجل استفاد من التجارب الماضية فقال له : إنى لأحب أن ينصرنا الله ويهلك من سفك دماءنا ، ولكنى لا آمر بحرب ولا إراقة دماء ، فكفى بالله لنا ناصراً ولحقنا آخذاً وبدمائنا طالباً[٢٥٧]

وهذه العبارة لاتتضمن عهداً من ابن الحنفية للمختار الثقفى ولكنها تحمل تمنيات ونصائح .

ولكن المختار استغل هذه الكلمة استغلالاً طيباً ، وادعى أن ابن الحنفية قد اختاره أميناً ووزيراً ومنتخباً وأميراً ، وأنه أمره بالثأر لقتلى أهل البيت فى كربلاء .

واستطاع المختار فعلا أن يثأر ، فقتل قتلة الحسين ، وشفى غليل الناس منهم وأخذ يدعو فعلاً لإمامة المهدى - ابن الحنفية - وقد علمنا أن ابن الحنفية لم يفوضه فى ذلك ، كما أنه لم يَدْعُ لنفسه على الإطلاق ، وحينما طُلِب إليه ذلك رفض . . .

---

(٢٥٧) المختار بن عبدالله د . الخربوطلى نقلاً عن البلاذرى فى أنساب الأشراف جـ ٥ ص ٢١٨

وألح المختار الثقفى فى استغلال اسم ابن الحنفية فى الدعوة لنفسه ، فهو يريد أن يكسب بذلك شهرة تمكن له من تحقيق مآرب شخصية ومكاسب مادية ، وأخذ يزيف كتباً يزعم أن ابن الحنفية أرسلها إليه ـ هكذا يقول الرواة ـ

قال ابن سعد : كان المختار لما قدم الكوفة أشد الناس على ابن الزبير وجعل يلقى إلى الناس أن ابن الزبير كان يطلب هذا الأمر لأبي القاسم ـ يعنى ابن الحنفية ـ ثم ظلمه إياه ، وجعل يذكر ابن الحنفية وحاله وورعه وأنه بعثه إلى الكوفة يدعو له ، وأنه كتب له كتاباً فهو لايعدوه إلى غيره ، ويقرأ ذلك الكتاب على من يثق به ، وجعل يدعو الناس إلى البيعة لمحمد بن الحنفية فيبايعونه له سراً .

قال : فشك قوم ممن بايعه فى أمره وقالوا : أعطينا هذا الرجل عهودنا أن زعم أنه رسول ابن الحنفية ، وابن الحنفية بمكة ليس منا ببعيد ولا مستتر ، فلو شَخَصَ منا قوم إليه فسألوه عما جاء به هذا الرجل عنه ـ فإن كان صادقاً نصرناه وأعناه على أمره . .

فشخص منهم قوم فلقوا ابن الحنفية بمكة فأعلموه أمر المختار وما دعاهم إليه ، فقال ابن الحنفية : نحن هنا حيث ترون محتسبون ، ومأأحب أن لى سلطان الدنيا بقتل مؤمن بغير حق ، ولوددت أن الله انتصر لنا ممن شاء من خلقه ، فاحذروا المدعين وانظروا لأنفسكم ودينكم . فانصرفوا على هذا . . (٢٥٨)

---

(٢٥٨) الطبقات جـ ٥ ص ٧٢

لقد نصحهم ابن الحنفية ، وأعلمهم أنه لم يفوض أحداً فى المطالبة بحقه أو البيعة له ، وإن كان لايكره أن يعرف الناس حق أهل البيت . .

لقد كان شعار ابن الحنفية هو شعار الحسن ـ رضى الله عنه ـ من قبله . . . وهو أن الدنيا لاتساوى قطرة دم من مسلم تراق بدون وجه حق .

وقد فهم هؤلاء الرسل أن ابن الحنفية لم يفوض المختار ، ولكنه متطوع لهذا الأمر انتصاراً للحق وأهله ، وربما رفعه ذلك فى نظر بعض الناس ، ولكن الله أعلم بالنيات والسرائر . .

واستمر المختار فى تزييف الكتب على لسان ابن الحنفية .

فقد زيف كتاباً زعم أن ابن الحنفية أرسله إلى ابراهيم بن الأشتر ، وأشهد عليه قوماً من خلصائه ، ثم أخذ الكتاب وذهب إلى إبراهيم بن الأشتر واستأذن عليه . قال لأذنه : أبلغه أن المختار أمين آل محمد يطلب لقاءه .

فأذن له إبراهيم ، ورحب به وأجلسه معه إلى فراشه . وتكلم المختار وكان مفوهاً فصيحاً متحدثاً ، فحمد الله وأثنى عليه وصلى على النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ ثم قال :

إنكم أهل بيت قد أكرمكم الله بنصرة آل محمد ، وقد رُكب منهم ماقد علمت وحُرموا ومُنعوا حقهم ، وصاروا إلى مارأيت ، وقد كتب إليك المهدى ـ يعنى ابن الحنفية ـ كتاباً ، وهؤلاء الشهود عليه :

فقال الذين قد اصطحبهم معه واستشهدهم على الكتاب وهم : يزيد بن أنس الأسدى ، وأحمر بن شميط البجلى ، وعبدالله بن كامل الشاكرى ، وأبوعمرو كيسان مولى بجيلة ـ فشهدوا أن هذا كتاب ابن الحنفية ، قد

شهدناه حين دفعه إليه[٢٥٩]

ومن الذى لايدخل عليه مثل هذا الكلام ؟

لقد دخل هذا الكلام فعلاً على إبراهيم بن الأشتر وأخذ منه موقفاً ، فأخذ الكتاب وقرأه ، وقال : أنا أول من يجيب ، وقد أمرنا بطاعتك ومؤازرتك ، فقل مابدا لك ، وادع إلى ماشئت . .

واكتسب المختار من ذلك منزلة وسطوة ، وقد مكن له ذلك فعلا من تتبع قتلة الحسين حتى قتلهم ، ومن بين هؤلاء عبيدالله بن زياد نفسه . الذى احتز المختار رأسه وبعث به إلى ابن الحنفية ، وإلى على بن الحسين فى مكة . .

ووجد هذا العمل قبولاً عظيماً فى نفوس الهاشميين .

فقد ترحم على بن الحسين على أبيه ، وأثنى على المختار ، كما أثنى كثير من الهاشميين عليه . . إلا أن بعض الروايات تذكر أن ابن الحنفية بالرغم من سروره للثأر للحسين كان يكره أمر المختار وما يبلغه عنه ، ولايحب كثيراً مما يأتى به . كأنه كان يحس بما يعتمل فى داخل نفسه ، وأنه لايدعو إلى حق أهل البيت إلا لحاجة يريد أن يصل إليها ، فالأمر لايعدو أن يكون استغلال مصلحة لاأكثر ولا أقل ، فإذا وصل إلى غايته تنكر لكل شىء بعدها ، كما كان يكره منه أموراً يأتى بها ، وأقوالاً تصدر عنه .

فلم ينخدع بهذا العمل ، وإن كان قد لامه ابن عباس على ذلك ، قال له : أصاب ثأرنا وآثرنا ووصلنا فماذا نريد منه أكثر من ذلك

---

(٢٥٩) المرجع السابق

فكان محمد بن الحنفية يسكت ، لايقول فيه خيراً ولا شراً . .

اشتداد الأمر على ابن الحنفية فى مكة

وعرف ابن الزبير أن أمر المختار فى العراق يزداد علواً ، وأنه نكث معه بيعته وعهده ، وأنه يدعو إلى محمد بن الحنفية ـ فأغلظ للهاشميين القول وتنكر لهم تنكراً شديداً ، وألح عليهم أن يبايعوا له . فامتنع محمد بن الحنفية كما امتنع ابن عباس ، وهما زعيما أهل البيت . .

وكان ابن الزبير قد بايع له خلق كثير وبخاصة بعد أن مات يزيد واضطرب أمر الأمويين بعده . .

ويلغ تنكر ابن الزبير لأهل البيت مبلغاً من التعصب الأعمى . .

ذكر سعيد بن جبير أن عبدالله بن عباس دخل على ابن الزبير ، فقال له ابن الزبير أنت الذى تؤنبنى وتبخلنى ؟

فقال ابن عباس : نعم سمعت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقول : « ليس المسلم الذى يشبع ويجوع جاره »[٢٦٠]

لقد كانت حجة ابن الحنفية وابن عباس فى عدم البيعة لابن الزبير قولهما له : حتى يجتمع لك البلاد ويتسق لك الناس . .

ولكنه أستكثر عليهما بالجند والأعوان ، وأساء جوارهما ، وألجاهما إلى شعب لهم بمكة وجعل عليهما الرقباء ، وحاصر بنى هاشم فيه حصاراً شديداً ، وقال لهم : لتبايعن طوعاً أو كرهاً . .

---

(٢٦٠)مروج الذهب جـ ٢ ص ٦٢

وكان محمد بن الحنفية محبوساً فى زمزم وابن عباس محبوساً فى الشعب .

قال سُليم أبو عامر : رأيت محمد بن الحنفية محبوساً فى زمزم والناس يُمنعون من الدخول عليه ، فقلت : والله لأدخلن عليه ..

فدخلت فقلت : مابالك وهذا الرجل ؟

فقال : دعانى إلى البيعة ، فقلت : إنى رجل من المسلمين ، فإذا اجتمعوا عليك فإنى كأحدهم ، فلم يرض بهذا منى ، فاذهب إلى ابن عباس ، فأقرئه منى السلام ، وقل له : يقول لك ابن عمك ماترى ؟

قال سُليم : فدخلت على ابن عباس وهو ذاهب البصر ، فقال : من أنت ؟

فقلت : رجل من أنصاركم

فقال : رب رجل من أنصارنا هو أشد علينا من عدونا .

فقلت : لاتخف ، أنا ممن لك كله .

وأنا ممن تطمئن إليهم ولاتخشى منهم بأساً ..

قال : هات .

فأخبرته بقول ابن الحنفية .

فقال : قل له لا تطعه فى شيء من ذلك على الإطلاق إلا ما قلت ، لا تزده عليه .

فرجعت إلى ابن الحنفية فأبلغته ما قال ابن عباس ..

وكان من الطبيعى أن يفكر ابن الحنفية فى أمره وأمر أهل بيته .

... وما له لا يجرب الخروج من هذا المكان الذى قلب ابن الزبير عليهم فيه الموازين فحوله من بلد آمن إلى بلد مخوف ؟

لماذا لا يلجأ إلى الكوفة وهناك الشيعة الذين يريدون لقاءه وهناك المختار الذى يدعو باسمه ، وقد قَتَلَ تحت لواء الدعوة بهذا الاسم كل من اشترك فى دم الحسين ؟

لقد فكر فى ذلك فعلا . . ونما إلى علم المختار أن ابن الحنفية يفكر فى اللجوء إلى الكوفة فرارا من ابن الزبير .

وهنا ظهرت خفايا النفوس وأسرارها .

إن ابن الحنفية لو ذهب إلى الكوفة لأبطل كل مخططات المختار وما يهدف إليه . .

وإذن فلابد من الحيلولة بين ابن الحنفية والكوفة . . ولكن ماذا يصنع المختار لتحقيق ذلك ؟

أيقول لابن الحنفية لا تقدم ؟ إنه لو قال ذلك لكشف نفسه وكَذَّب ما كان يدعيه أمام ابن الحنفية بأن الكوفة أصبحت مهداً طيبا للدعوة ، ومكاناً آمنا له . .

أم يقول له أقدم ، ولو أقدم لانتزع منه كل شيء ؟

ولكنه سلك طريق الخداع والتضليل التى كان يلجأ إليها فى حياته كلها . . فأشاع بين أتباعه أن المهدى ، ـ ابن الحنفية ـ قادم ، ومرحباً به فى أى وقت ، وأن فى المهدى علامة لا تخيب ، وتلك العلامة هى أن الله معه وعاصمه وحافظه ، وآية ذلك أنه يقدم إليكم فى بلدكم هذا فيقدم اليه رجل منكم فى السوق فيضربه بالسيف ضربة لا تحيك فيه ولا تضره . .

إن هذا إغراء من طريق خفى باغتيال ابن الحنفية ، وهو إغراء خبيث ،

فقد يتقدم أشد الناس حبا لابن الحنفية ليضربه بسيفه حتى يثبت العلامة التى أشاعها المختار ، وطالما روج المختار الشائعات التى جنى من ورائها المنافع والفوائد الكثيرة . .

وبلغ ابن الحنفية ما قاله المختار فكف عن الرغبة فى الخروج إلى الكوفة ، ولكنه أرسل إلى أشياعه يستنصرهم على ابن الزبير . . . . وانتدب المختار بن عبيد الله الثقفى بعثا قوامه أربعة آلاف جندى رأسهم أبو عبدالله الجدلى وقال له : سر ، فإن وجدت بنى هاشم فى الحياة فكن لهم أنت ومن معك عضداً وأنفذ لما أمروك به .

وإن وجدت ابن الزبير قد قتلهم فاعترض أهل مكة حتى تصل إلى ابن الزبير ثم لا تدع من آل الزبير شفرا ولا ظفرا ، وقال للجنود : ياشرطة الله لقد أكرمكم الله بهذا المسير ، ولكم بهذا الوجه عشر حجج وعشر عمرات .

وسار القوم ومعهم السلاح حتى أشرفوا على مكة ، فجاء المستغيث فقال : عجلوا حتى تدركوا أهل البيت قبل أن ينالهم الإيذاء والقتل .

فانتدب أبو عبدالله الجدلى ممن معه ثمانمائة تحت رئاسة عطية بن سعيد بن جنادة العوفى ، وأرسلهم أمامه إلى مكة سراعا ، فلما دخلوها كبروا تكبيرة سمعها ابن الزبير فانطلق هاربا حتى دخل دار الندوة . . وقيل : بل تعلق بأستار الكعبة وقال : أنا عائذ بالله .

قال عطية : ثم ملنا إلى ابن عباس وابن الحنفية وأصحابها فى الدور التى كانوا محاصرين فيها وأخرجناهم ، منها . .

وأقبل أصحاب ابن الزبير ، فكنا صفين نحن وهم فى المسجد لا ننصرف إلا إلى الصلاة حتى أصبحنا .

وقدم أبو عبدالله الجدلى فى بقية الجند ، فقالوا لابن عباس وابن الحنفية : ذرونا نريح الناس من ابن الزبير .

فقالا : هذا بلد حرمه الله ، ما أحله لأحد إلا للنبى - صلى الله عليه وسلم - ساعة - ما أحله لأحد قبله ولا يحله لأحد بعده .. فامنعونا وأجيرونا .

فخرجوا بهم حتى أنزلوهم منى ، فأقاموا بها ماشاء الله أن يقيموا ، ثم خرجوا حتى نزلوا بالطائف فأقاموا ما أقاموا .

وتوفى عبدالله بن عباس بالطائف سنة ثمان وستين ، وصلى عليه محمد بن الحنفية - قال : وبقينا مع ابن الحنفية ..[٢٦١]

ووافى موسم الحج والنزاع بين الأمويين وابن الزبير على أشده ، ومازال ابن الزبير يطلب إلى ابن الحنفية أن يبايعه فيأبى ، ومروان يطلب من ابن الحنفية . ان يبايعه . فيأبى .

واجتمع فى موسم الحج أربعة ألوية - لواء الأمويين ، ولواء ابن الزبير ولواء ابن الحنفية .. ولواء الخوارج ..

ووقف الناس فى عرفة بهذه الصورة متفرقين ... ألا قاتل الله السياسة وشأنها وأصحابها ، ما تدخلت فى شيء إلا أفسدته أليست هى التى فرقت كلمة المسلمين وأضعفت كلمتهم ؟

---

(٢٦١) الطبقات جـ ٥ قسم ١ ص ٧٤

وهذا هو يوم الموقف الذى يذكر الناس بموقفهم أمام الله فى الآخرة ، وهو اليوم الذى تجتمع فيه الخلائق من كل مكان فيباهى الله بهم الملائكة قائلا لهم : انظروا هؤلاء عبادى جاءونى شعثا غبرا من كل مكان يرجون رحمتى ويخافون عذابى ، أشهدكم ياملائكتى أنى قد غفرت لهم .

فى هذا اليوم وقف الناس تحت ألوية شتى .

لواء محمد بن الحنفية فى أصحابه عند جبل المشاة .

ولواء عبدالله بن الزبير ـ وقف به فى مقام آخر ، فجاء ابن الحنفية فوقف بحذائه وجاء الخوارج بقيادة نجدة الحرورى ومعه لواء فوقف خلفهما . ثم جاء لواء بنى أمية فوقفوا عن يسارهما . . . فكان أول لواء دفع من عرفة هو لواء محمد بن الحنفية ثم تبعه نجدة ، ثم تبعه لواء بنى أمية وكان ابن الزبير آخر من دفع من عرفة .

قال ابن الحنفية يومها . . دفعت من عرفة حين وجبت الشمس ، وتلك هى السنة .

لقد جعل الله حفظ السنة فى الصالحين من المسلمين وفى مقدمتهم أهل بيت النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ .

كما جعل فى أهل البيت حفظ حرمة بيته ، فقد حافظ ابن الحنفية وابن عباس على حرمة هذا البيت ، ورفضا أن تنهك قدسيته أو يكون عرضة لتجريد السلاح أو إراقة الدماء . . فى الوقت الذى انتهكه غيرهم وعرضوه للحرق والتدمير حتى رميت الكعبة بالمنجنيق فهدمت جدرانها وقوض سقفها فى وقت من الأوقات .

لقد كان ابن الحنفية حريصا على السنة وتطبيقها ، كما كان حريصا على تجنب الفتنة ما أمكن ، ولو أراد أن يشعلها نارا لفعل ، ومعه من الأعوان والأنصار ما يستطيعون أن يملأوا الدنيا خيلا ورجلا . .

حدث محمد بن جبير بن مطعم قال : خفت الفتنة فمشيت إليهم جميعا ـ يعنى أصحاب الألوية الأربعة التى أشرنا إليها ـ فجئت محمد بن على فى الشعب .

فقلت : ياأبا القاسم ، اتق الله فإنا فى مشعر حرام وبلد حرام ، والناس وفد الله إلى هذا البيت فلا تفسد عليهم حجهم .

فقال : والله ما أريد ذلك وما أحول بين أحد وبين هذا البيت ، ولا يؤتى أحد من الحاج من قبلى ، ولكنى رجل أدفع عن نفسى من ابن الزبير وما يريد منى ، وما أطلب هذا الأمر إلا إذا لم يختلف علىَّ فيه اثنان ، ولكن ائت ابن الزبير فكلمه ، وعليك بنجدة فكلمه .

قال محمد بن جبير : فجئت ابن الزبير فكلمته بنحو مما كلمت به ابن الحنفية فقال : أنا رجل قد اجتمع علىَّ وبايعنى الناس ، وهؤلاء أهل خلاف .

فقلت له : إن خيراً لك الكف .

قال : أفعل .

ثم جئت نجدة الحرورى ، فأجده فى أصحابه وأجد عكرمة غلام ابن عباس عنده ، فقلت : استأذن لى على صاحبك . . فأذن لى ـ فدخلت فسلمت عليه وكلمته بما كلمت به الرجلين فقال : أما أن أبتدىء بقتال فلا ،

ولكن من بدأنا بقتال قاتلناه

قلت : فإنى رأيت الرجلين لايريدان قتالك . . .

قال : ثم جئت أتباع بنى أمية فكلمتهم بنحو مما كلمت به القوم فقالوا : نحن على لوائنا لا نقاتل أحداً إلا أن يقاتلنا .

قال محمد بن جبير : فلم أر فى تلك الألوية أسكن ولا أسلم دفعة من أصحاب ابن الحنفية .

مسالمة ابن الحنفية :

كان ابن الحنفية مسالما إلى أقصى حدود المسالمة ، ولم ينزلق وراء إغراءات المبايعات التى كانت ترد إليه من شيعته فى العراق ، والوعود التى كانت تقدم إليه . . . كل ذلك على الرغم من أنه يرى أنه الأحق بالأمر وأن منهجه أوضح المناهج ، وأن رغبة الناس فى خلافته شديدة . . ولكنه كان لا يندفع وراء العواطف ، وكان يحكم العقل والمنطق وكان يلتزم بالسنة أقصى ما يكون الالتزام .

وعلى الرغم من إعجاب ابن عباس وعلى بن الحسين ، بما فعله المختار ابن عبيدالله بمن قتلوا الحسين إلا أن ابن الحنفية لم يشاركهم هذا الإعجاب ، لقد ألهمه الله معرفة نية المختار ، وأنه ما كان يقصد من نقمته على أولئك وجه الله والحق ، ولكنه يقصد غاية فى نفسه . .

وكان ابن الحنفية يرفض ما يريد الناس أن يخلعوه على أهل البيت من هالات زائدة ، أو قداسات زائفة ، أو ادعاءات بأن الله قد خصهم بعلم لم يعطه أحداً غيرهم .

عن أبي العريان المجاشعي قال : بعثنا المختار في ألفي فارس إلى محمد بن الحنفية ، قال : فكنا عنده قال : فكان ابن عباس يذكر المختار فيقول : أدرك ثأرنا وقضى ديوننا ونصرنا ، وكان محمد بن الحنفية لايقول فيه خيراً ولاشراً .

ولقد كانت ردوده على المختار قاطعة بأنه لايميل إلى حرب ، ولايرغب فى إراقة دماء ، بل كانت قاطعة بأنه لايفوضه فى شيء من ذلك .

لقد كتب إليه مرة يقول له : « أما بعد ـ فقد قرأت كتابك ، وعرفت تعظيمك لحقى ، وما تنوه به من سرورى بما تفعله من أجلنا ، وإن أحب الأمور إلىّ ماأطيع الله فيه ، فأطع الله مااستطعت ، وإنى إن أردت القتال لوجدت الناس إلىّ سراعاً ، والأعوان لى كثير ، ولكنى أعتذر لكم وأصبر حتى يحكم الله وهو خير الحاكمين »[٢٦٢]

فهذه الرسالة تقطع بأن ابن الحنفية لايرغب فى حرب ولايحب إراقة الدماء . . ولعل سبب ميل ابن الحنفية إلى المسالمة اعتقاده الجازم بأن أمر خلافة الهاشميين لن يتم بإراقة الدماء ، ولكنه يتم بإقبال الناس عليهم حين لايجدون من حكم غيرهم العدل الذى ينشدونه . . .

ومن أقواله فى ذلك : ألا إن أعمال الولاة أسرع فيهم من سيوف الناس ، ألا إن لأهل الحق دولة يأتى بها الله إذا شاء . . . ، فمن أدرك ذلك منكم ومنا كان عندنا فى السنام الأعلى ، ومن يمت فما عند الله خير وأبقى .

---

(٢٦٢) المختار بن عبدالله ـ للخربوطلى نقلاً عن الكامل لابن الأثير جـ ٤ ص ١٠٤

وكان يقول ـ فيما يرويه أبو الطفيل عنه ـ : الزم هذا المكان ، وكن حمامة من حمام الحرم حتى يأتى أمرنا ، فإن أمرنا إذا جاء فليس به خفاءكما أنه ليس بالشمس إذا طلعت خفاء ، وما يدريك إن قال لك الناس ـ تأتى من المشرق ويأتى الله بها من المغرب ؟ ومايدريك إن قال لك الناس ـ تأتى من المغرب ويأتى الله بها من المشرق ؟ ومايدريك لعلنا سنؤتى بها ـ أى بالخلافة ـ كما يؤتى بالعروس ؟[٢٦٣]

لقد كان لأهل البيت شيعة يحبونهم ويبحثون عنهم ويرغبون فى ظهورهم والقتال بين أيديهم والاستشهاد تحت لوائهم ، وكثير من هؤلاء الشيعة نظروا إلى ابن الحنفية على أنه هو صاحب هذا اللواء ، فهو أحق أهل البيت بالخلافة بعد استشهاد الحسين ـ رضى الله عنه ـ وهو وإن لم يكن من أبناء فاطمة فهو من أبناء على .

ولكن ابن الحنفية كان ينصح هؤلاء الشيعة بالتريث وعدم استعجال الأمور . حتى لقد ظن بعض المؤرخين به الظنون ـ وقالوا عنه : إنه رجل ذو عقلية دنيوية .. ومع ذلك فقد كان يمثل المصالح الدينية المقدسة ..

وما كان ابن الحنفية ذا عقلية دنيوية ، ولكنه رجل صاحب نظرة بعيدة وتعلم من الأحداث التى مرت ، وخاف من تكرر النكسات التى ابتلى بها أهل البيت ، وهو لايحب أن تحل نكسة أخرى لهم على يديه ..

يروى ابن سعد قائلاً : عن الأسود بن قيس قال : لقيت بخراسان رجلاً من غزة قال : ألا أعرض عليك خطبة ابن الحنفية ؟

---

(٢٦٣) الطبقات ٥/١/٧٠

قال : قلت : بلى .

قال : انتهيت إليه وهو فى رهط يحدثهم ، فقلت : السلام عليك يامهدى .

قال : وعليك السلام .

قال : قلت : إن لى إليك حاجة .

قال : أسر هى أم علانية ؟

قال قلت : بل سر .

قال : اجلس . فجلست ، وحدث القوم ساعة ، ثم قام ، فقمت معه ، فلما أن دخل دخلت معه بيته ، وقال : قل بحاجتك .

قال : فحمدت الله وأثنيت عليه ، وشهدت أن لاإله إلا الله ، وأن محمداً عبدالله ورسوله ، ثم قلت : أما بعد ، فوالله ماكنتم أقرب قريش إلينا قرابة فنحبكم على قرابتكم ، ولكن كنتم أقرب قريش إلى نبينا قرابة ، فلذلك أحببناكم على قرابتكم من نبينا ـ صلى الله عليه وسلم ـ فما زال بنا الشَّيْن فى حبكم حتى ضربت عليه الأعناق وأبطلت الشهادات ، وشُرِّدْنا فى البلاد وأوذينا ، حتى لقد هممت أن أذهب فى الأرض قفراً فأعبد الله حتى ألقاه لولا أن يخفى علىَّ أمر آل محمد ، وحتى هممت أن أخرج مع أقوام شهادتنا وشهادتهم واحدة على أمرائهم ، فيخرجون فيقاتلون ونقيم ـ يعنى الخوارج ـ

وقد كانت تبلغنا عنك أحاديث من وراء وراء ، فأجببت أن أشافهك بالكلام ، فلا أسأل عنك أحداً ، وكنت أوْثَق الناس فى نفسى شىء إلىَّ أن أقتدى به ـ فأرنى رأيك وكيف المخرج ؟ أقول هذا وأستغفر الله لى ولكم .

وقال محمد بن الحنفية بعد أن حمد الله وأثنى عليه وشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله : أما بعد ، فإياكم وهذه الأحاديث فإنها عيب عليكم ، وعليكم بكتاب الله تبارك وتعالى ، فإنه به هدى أولكم ، وبه يُهْدَى آخركم ، ولعمرىُ لئن أوذيتم لقد أوذى من كان خيراً منكم .

أما قولك لقد هممت أن أذهب فى الأرض قفراً فأعبد الله حتى ألقاه وأجتنب أمور الناس لولا أن يخفى أمور آل محمد فلا تفعل ، فإن تلك البدعة الرهبانية ، ولعمرى لأمر آل محمد أبين من طلوع هذه الشمس .

وأما قولك لقد هممت أن أخرج مع أقوام شهادتنا وشهادتهم واحدة على أمرائنا فيخرجون فيقاتلون ونقيم فلا تفعل ، ولا تفارق الأمة . . . . .

قال الرجل : فقلت : أرأيت إن طاف بى قتال ليس لى منه بد ؟

قال : تبايع بإحدى يديك الأخرى لله ، وتقاتل لله ، فإن الله يدخل أقواماً بسرائرهم الجنة ، وسيدخل أقواماً بسرائرهم النار ، وإنى أذكرك الله أن تبلغ عنى مالم تسمع منى ، أو أن تقول علىَّ مالم أقل(٢٦٤)

ابن الحنفية وبنى أمية

أصر ابن الحنفية على عدم مبايعة ابن الزبير ، حتى ضيق عليه ابن الزبير

---

(٢٦٤) المرجع السابق

الخناق . ومنعه من دخول مكة . . . وكان أمر ابن الزبير قد استفحل وخاصة بعد مقتل المختار الثقفى ، واستمر القتال بين الأمويين والزبيريين .

وأرسل ابن الزبير أخاه عروة إلى محمد بن الحنفية يقول له : إن أمير المؤمنين يقول لك : إنى غير تاركك أبداً حتى تبايعنى أو أعيدك فى الحبس . وقد قتل الله الكذاب الذى كنت تدعى نصرته . وقد أجمع علىَّ أهل العراقين ، فبايع وإلا فهى الحرب بينى وبينك إن امتنعت .

فقال ابن الحنفية لعروة : ماأسرع أخاك إلى قطع الرحم والاستخفاف بالحق ، وأغفله عن تعجيل عقوبة الله ، مايشك أخوك فى الخلود ، وإلا فقد كان هو أحْمَدَ للمختار ولعمله منى ، والله مابعثت المختار داعياً ولا ناصراً .

ولقد كان المختار أشد انقطاعاً إليه منه إلينا ، فإن كان كذاباً فطالما قربه على كذبه ، وإن كان على غير ذلك فهو أعلم به وماعندى خلافٌ ، ولو كان عندى خلاف ماأقمت فى جواره ، ولخرجت إلى من يدعونى فأبيت ذلك عليه ، ولكنَّ هنا خليفة يطلب مثلما يطلب أخوك ، وكلاهما يقاتلان على الدنيا ـ يقصد بذلك الخليفة عبدالملك بن مروان ـ والله لكأنك بجيوشه قد أحاطت برقبة أخيك ، وإنى لأحسب أن جوار عبدالملك خير من جوار أخيك ، ولقد كتب إلىَّ يعرض علىَّ ماقِبَلَه ويدعونى إليه .

قال عروة : فما يمنعك من ذلك ؟

قال : أستخير الله ، وذلك أحب إلى صاحبك .

قال : أذكر ذلك له .

وذهب عروة إلى أخيه . فقال أصحاب ابن الحنفية : والله لو أطعتنا لضربنا عنقه »

فقال ابن الحنفية الورع المسلم : علام أضرب عنقه ؟ جاءنا برسالة من أخيه ، وحاورنا ، فجرى بيننا وبينه كلام فرددناه إلى أخيه ، والذى قلتم غَدْر ، وليس فى الغدر خير ، لو فعلت الذى تقولون لكان القتال بمكة ، وأنتم تعلمون أن رأيى أنه لو اجتمع الناس علىّ كلهم إلا إنساناً واحداً لما قاتلته .

وهذا يؤكد ماسبق أن قلناه أن ابن الحنفية كان رجلاً مسالما بطبعه ينأى عن الشر ويعزف عن الحرب . . . .

وعاد عروة إلى أخيه فأبلغه ماجرى بينه وبين ابن الحنفية ، ثم قال عروة : والله ماأرى أن تعرض له ، دعه يخرج من مكة ويغيب وجهه عنك ، فعبد الملك أمامه لايتركه يحل بالشام حتى يبايعه ، وابن الحنفية لن يبايعه أبداً حتى يجتمع الناس عليه . فإن صار إليه كفاكه ، إمّا حبسه وإمّا قتله ، فتكون أنت قد برئت من ذلك .

واستراح عبدالله بن الزبير إلى رأى أخيه عروة ، فكفّ عن ابن الحنفية ، ولم يلبث أن جاء كتاب من عبدالملك بن مروان إلى محمد بن الحنفية . وكان كتاباً رقيقاً ، قال عنه أبو الطفيل : لو كتب به عبدالملك إلى بعض أخويه أو ولده مازاد على ألطافه ، وكان فيه :

« إنه قد بلغنى أن ابن الزبير قد ضيق عليك ، وقطع رحمك ، واستخف بحقك حتى تبايعه ، فقد نَظَرت لنفسك ودينك ، وأنت أعرف حيث فعلت

مافعلت ، وهذا الشام فانزل منه حيث شئت فنحن مكرموك وواصلو رحمك وعارفو حقك »

فقال ابن الحنفية لأصحابه : هذا وجه .

فخرج إلى الشام ، وخرجنا معه ـ وكثير عزة ينشد قائلا :

أنت إمام الحق لسنا نمترى أنت الذى نرضى به ونرتجى

أنت ابن خير الناس من بعد النبى يابن على سر ، ومن مثل على

حتى تحل أرض كلب وبلى

قال أبوالطفيل : فسرنا حتى نزلنا أيلة ، فجاورونا بأحسن جوار ، وجاورناهم بأحسن من ذلك ، وأحبوا أبا القاسم حباً شديداً ، وعظموه وأصحابه ، وأمرنا بالمعروف ونهينا عن المنكر ، ولايُظْلم أحد من الناس قربنا ولا بحضرتنا . .

عبدالملك يتغير

وكان لابد أن تكون هذه الأخبار على عبدالملك غير مطمئنة ، فهى لابد مؤدية بنتائجها إلى مايتوقعه كل سياسى فاهم لمجريات الأمور كعبدالملك ، لقد استدعى عبدالملك محمد بن الحنفية ليأمن شره فى جواره ، ولكنه لايريد أن ينصرف إليه الناس ويعظموه ويعتبروه المثل الأعلى والحاكم . . .

وما تَصَنَّع محمد بن الحنفية خلقاً ، ولكنه سار فى حياته بما هو منطبع عليه من عدل وإنصاف وحب للخير ورغبة فيه وبذل للمعروف وإنكار للمنكر ، وكانت هذه الأخلاق الطبيعية هى التى عطفت قلوب الناس إليه وجمعتهم حوله ووحدتهم على حبه ، من هنا كان الخطر الذى توجُّسه عبدالملك من وجود ابن الحنفية فى جواره . .

وكتب عبدالملك إلى ابن الحنفية يقول له : « إنك قدمت بلادى فنزلت فى طرف منها ، وهذه الحرب بينى وبين ابن الزبير كما تعلم ، وأنت لك ذكر ومكان ، وقد رأيت أن لاتقيم فى سلطانى إلا أن تبايع لى فإن بايعتنى فخذ السفن التى قَدِمَتْ علينا من القُلْزُم ، وهى مائة مركب ، فهى لك وما فيها ، ولك ألف ألف درهم .. أُعجِّل لك منها خمسمائة ألف ، وخمسمائة ألف تأتيك مع ماأردت من فريضة لك ولولدك ولقرابتك ومواليك ومن معك ، وإن أبيت فتحول عن بلدى إلى موضع لايكون لى فيه سلطان »

إن غنى الدهر أمام ابن الحنفية الآن ، وإن هذه الثروة الطائلة لكفيلة أن تسيل لعاب أى سياسى داهية يطلب ملكاً أو سلطاناً ..

ولكن ابن الحنفية صاحب مبدأ ، وهو وارث صاحب التقوى والمثل العليا ، إنه ابن على بن أبى طالب الذى نبذ الدنيا وراء ظهره . وطلقها ثلاثاً ، مباينة مباينة لارجعة فيها ..

ونظر إلى كتاب عبدالملك وتعجب من الناس وأحوالهم ..

ماذا يريد هؤلاء القوم ؟ لماذا لم يعد الوثوق بشرف الكلمة مبدأ يلتزم به الناس ؟

لقد استدعاه عبدالملك ليجد الأمن فى جواره ، فإذا به لايجد فرقاً بينه وبين ابن الزبير فى جوار .

وما كان ابن الحنفية ليقبل هذه العروض السخية التى عرضها عليه عبدالملك لقاء مبايعته ، وكان فى إمكانه أن ينتهز هذه الفرصة لاسيما وهو واثق أن كفة عبدالملك هى الراجحة ، وأن انتصاره على ابن الزبير وشيك ، وأنه سيكون له الأمر خالصاً عما قليل ، وأنه سيبايعه يوماً ما .. ولكن ابن

الحنفية ليس طالب دنيا ، ولو طلبها لقبل أقل من العرض ، وليس هو بالذى يبدل كلمته ولو كان ثمن هذا التبديل ملك الدنيا بأسرها . .

وكتب رده الحاسم على عبدالملك قال فيه :

بسم الله الرحمن الرحيم ، من محمد بن على إلى عبدالملك بن مروان ، سلام عليك ، فإنى أحمد إليك الله الذى لاإله إلا هو .

أما بعد ، فقد عرفت رأيى فى هذا الأمر قديماً ، وإنى لست أسْفَه على أحد ، والله لو اجتمعت هذه الأمة علىّ إلا أهل الزرقاء ماقاتلتهم أبداً ، ولا اعتزلتهم حتى يجتمعوا .

نزلت مكة فراراً مما كان بالمدينة ، فجاورت ابن الزبير فأساء جوارى ، وأراد منى أن أبايعه ، فأبيت ذلك حتى يجتمع الناس عليك أو عليه أدخل فيما دخل فيه الناس فأكون كرجل منهم .

ثم كتبت إلى تدعونى إلى ماقبلك ، فأقبلت سائراً فنزلت فى طرف من أطرافك ، والله ماعندى خلاف ، ومعى أصحابى . . . فقلنا : بلاد رخيصة الأسعار وندنو من جوارك ، ونتعرض صلتك .

فكتبت إلينا بما كتبت به ، ونحن منصرفون عنك إن شاء الله . .

عودة ابن الحنفية إلى مكة

وعاد ابن الحنفية بأصحابه من أيلة . . ولكن أصحابه عدد كثير ـ كان قوامهم سبعة آلاف رجل . .

وهو لايستطيع أن يضمن لهؤلاء الرجال الأمان ، كانوا قد تبعوه طمعاً فى أن يكون الأمر له ، ولم يكن هو قد دعاهم إلى ذلك . .

وقد أراد أن يبين لهم وجه الأمر ، ويتحلل من تبعته لهم ، فبعد أن كتب برده إلى عبدالملك ، قام فخطب الناس قائلاً بعد أن حمد الله وأثنى عليه : الله ولى الأمور كلها وحاكمها ، ماشاء الله كان ومالا يشاء لم يكن ، كل ماهو آت قريب ، عجلتم بالأمر قبل نزوله ، والذى نفسى بيده إن فى أصلابكم من يقاتل مع آل محمد ، مايخفى على الناس جميعا أمر آل محمد ، وأمر آل محمد مستأخر ، والذى نفس محمد بيده ليعودن فيكم كما بدأ ، الحمد لله الذى حقن دماءكم وأحرز دينكم ، من أحب منكم أن يأتى مأمنه إلى بلده آمنا محفوظاً فليفعل .

وكان قد اشترط على عبدالملك تأمين أصحابه فقبل . .

وانفض الناس من حوله ، وبقى معه تسعمائة رجل . وقيل : سبعمائة وربما لانلوم عبدالملك على تصرفه مع ابن الحنفية ، إنه رجل سياسى ، وحاكم ، وقد هاله مارأى من كثرة الجموع مع ابن الحنفية ، وهو فى حالة حرب مع خصم عنيد هو عبدالله بن الزبير . . . فقد أراد أن يحمى جوانبه ، ويتفرغ لقتال هذا الخصم العنيد . وهو لايأمن شيعة ابن الحنفية وقد كان له معهم قبل ذلك قتال ضار فى العراق فكتب بما كتب به لابن الحنفية .

وربما نقول إنه كتب لابن الحنفية مستقدماً وهو لايظن أنه سيكون معه من الأنصار مارأى ، فلما رأى هذه الكثرة الكثيرة التى فى إمكانها أن تقاتل ـ نظر نظرة أخرى فيما سبق أن كتب به ، وحُقَّ له ذلك . وعلى أى حال ، فقد شد ابن الحنفية رحاله إلى مكة محرماً بعمرة ، ومعه من بقى من أصحابه ، وساق الهدى معه وقلده .

وما أن وصل ابن الحنفية إلى أبواب مكة حتى وجد خيول ابن الزبير تحول بينه وبين دخولها . .

وأرسل ابن الحنفية إلى ابن الزبير يقول له : لقد خرجت من مكة وما أريد أن أقاتلك ، ورجعت وما أريد أن أقاتلك ، دعنا فلندخل حتى نؤدى نسكنا ثم نخرج عنك.

ولكن ابن الزبير أبى ذلك إباء شديداً ، ومنعه الدخول ، وردَّ الهدى . وعاد محمد بن الحنفية إلى المدينة وهو محرم ، ولم يفك إحرامه ، وكان الحجاج بن يوسف قد جاء إلى مكة وحاصر ابن الزبير وقتله ، ووضعت الحرب أوزارها .

فجاء ابن الحنفية إلى مكة فاعتمر(٢٦٥)
لقد حرص ابن الحنفية على السلم إلى آخر مدى . .
قال أبوالطفيل : حين عاد ابن الحنفية إلى مكة معتمراً عقب خروجه من الشام أرسل إليه ابن الزبير يقول له : اشخص من هذا المنزل ولاتجاورنا فيه .

فقال ابن الحنفية لمن أراد من أصحابه الصمود لابن الزبير : اصبر وماصبرك إلا بالله ، وماهو بعظيم من لايصبر على مالا يجد من الصبر عليه بدًّا حتى يجعل الله له مخرجاً .

والله ماأردت السيف ، ولو كنت أريده ماتعبَّث بى ابن الزبير ولو كنت أنا وحدى ومعه جموعه التى معه . .

---

(٢٦٥) البداية والنهاية جـ ٩ ص ٣٨

وقيل : إنه لم يعد إلى المدينة ، بل توجه إلى الطائف ، وأقام بها حتى جاء الحجاج بن يوسف لقتال ابن الزبير فى أول ذى القعدة سنة اثنتين وسبعين من الهجرة ، وظل محاصراً ابن الزبير مايقرب من ثمانية أشهر ، حتى قتله فى جمادى الآخرة سنة ثلاث وسبعين . .

وفى هذا العام حج ابن الحنفية ، من الطائف ، ثم رجع إلى شِعبه بمكة . .

ابن الحنفية والحجاج بن يوسف

وفى أثناء وجود الحجَّاج فى مكة ، كان يحدث أن يلتقى بابن الحنفية أحياناً ، فيضيق عليه الحجاج الخناق ، ويطالبه بأن يبايع لعبدالملك ، وكان رد ابن الحنفية عليه واحداً لم يتغير . . هو الرد نفسه الذى رد به على ابن الزبير ، وعلى عبدالملك . لاأبايع حتى يجتمع المسلمون على واحد . . .

ولكن الحجاج قائد عبدالملك ، وهو يريد أن يظفر لعبدالملك بولاء الناس جميعاً لايبالى بما يصيبه فى ذلك . . . فقد كان يؤيد عبدالملك تأييداً عظيماً ، ويدافع عنه بكل قوة . .

ويقال إن الحجاج كان يبالغ فى ولائه لعبدالملك ، وقد حكى عنه أنه قال فى بعض مجالسه : بلغنى أن أمير المؤمنين عبدالملك بن مروان عطس فشمته الحاضرون فياليتنى كنت معهم فأشمته فأفوز بمنزلة كبيرة .

أفبعد هذا الولاء الشديد ولاء ؟

ولما اشتدت مضايقة الحجاج لابن الحنفية كتب الأخير لعبدالملك بن مروان بدمشق يقول له : كف يد الحجاج عنى .

فأرسل عبدالملك إلى الحجاج : ليس لك على محمد بن الحنفية سلطان . .

فكف الحجاج عنه . .

حتى إذا قتل ابن الزبير ، طلب الحجاج من ابن الحنفية أن يبايع لعبدالملك .

فقال له ابن الحنفية : إذا بايع الناس بايعت .

فقال له الحجاج : لأقتلنك .

فقال ابن الحنفية : أو لاتدرى أن لله فى كل يوم ثلاثمائة وستون لحظة فى كل لحظة ثلاثمائة وستون قضية ، فلعله يكفيناك فى قضية من قضاياه ؟

فكتب الحجاج بهذه الإجابة إلى عبدالملك . فأعجبه هذا الرد ، فأخذه وكتب به إلى ملك الروم ، وكان قد هدد عبدالملك وتوعده بجموع قد أعدها له .

فلما وصل هذا الرد إلى صاحب الروم ، أرسل لعبد الملك : إن هذا الكلام لايخرج إلا من بيت يتصل بنبوة(٢٦٦)

مبايعة ابن الحنفية لعبدالملك

وحين رأى ابن الحنفية أن الأمر أصبح خالصاً لعبدالملك ، وانتهت ثورة ابن الزبير ، وتمكن عبدالملك من العراق وغيرها من البلاد ، بايع ابن الحنفية لعبدالملك كما بايعه ابن عمر كذلك . . وكتب ابن الحنفية لعبد الملك كتاباً جاء فيه :

---

(٢٦٦) البداية والنهاية جـ ٩ ص ٣٩

« بسم الله الرحمن الرحيم » لعبدالله عبدالملك أمير المؤمنين من محمد بن علي ـ أما بعد . فإنى لما رأيت أن الأمة قد اختلفت اعتزلتهم ، فلما أفضى الأمر إليك وبايعك الناس كنت كرجل منهم أدخل فى صالح مادخلوا فيه . فقد بايعتك وبايعت الحجاج لك وبعثت لك ببيعتى ، ورأيت الناس قد اجتمعوا عليك ، ونحن نحب أن تؤمننا وتعطينا ميثاقاً على الوفاء ، فإن الغدر لاخير فيه ، فإن أبيت فإن أرض الله واسعة »(٢٦٧)

فكتب إليه عبدالملك : « إنك عندنا محمود ، وأنت أحب وأقرب بنا رحماً من ابن الزبير ، فلك العهد والميثاق وذمة الله وذمة رسوله أن لاتهاج ولا أحد من أصحابك بشىء تكرهه ، ارجع إلى بلدك ، واذهب حيث شئت ، ولست أدع صلتك وعونك ماحييت »

وكتب إلى الحجاج بإكرامه وإحسان جواره . .

وعاد ابن الحنفية إلى المدينة ، وبنى داره بالبقيع ـ كما أخبر بذلك ابن سعد ـ ثم كتب إلى عبدالملك يستأذنه فى الوفود عليه ، فكتب إليه عبدالملك مرحباً .

فوفد على عبدالملك سنة ثمان وسبعين ، وهى السنة التى مات فيها جابر ابن عبدالله . .

وذهب محمد بن الحنفية إلى دمشق ، فأنزله عبدالملك فى منزل قريب منه وقضى بدمشق شهراً أو قريباً منه ، وأكرمه عبدالملك وفرض له ولقرابته ومواليه ، واستأذنه فى الانصراف . . فأذن له .

---

(٢٦٧) الطبقات جـ ٥ قسم ١ ص ٨٢

فلما ولَّى ابن الحنفية منصرفاً ناداه عبدالملك قائلاً : ياأبا القاسم ، ياأبا القاسم . فعاد ابن الحنفية ، فقال له عبدالملك : أما تعلم أن الله يعلم أنك يوم تصنع بالشيخ ماتصنع ظالم له ؟

وعبدالملك يعنى بذلك ماحدث من ابن الحنفية مع مروان بن الحكم يوم الدار . . فقد جذبه ابن الحنفية يومها فدعته بردائه ، وكان عبدالملك إذ ذاك طفلاً له ذؤابة . .

لقد تذكر عبدالملك ذلك ، ولكنه لم يتذكر أن ماحدث أيام عثمان ـ رضى الله عنه ـ من مشكلات كان بسبب ذلك الشيخ وما اجتمع سخط الثائرين على عثمان ـ رضى الله عنه ـ إلا بسبب سوء سياسة مروان ، فقطع بذلك الصلة بينه وبين كثير من المسلمين ، وأثار مشاعرهم ، وقد حاولوا حينذاك أن يبصروا عثمان بما يفعله مروان الذى كان يكتب الكتب على لسان عثمان ويذيعها فى الأمصار مما أهاج العامة عليه ، ولكنه أى عثمان ـ رضى الله عنه ـ كان باراً بأقاربه ، حتى لقد أثر عنه أنه قال : رحم الله عمر كان يقصى أقاربه فى الله ، وأنا أُدنيهم فى الله .

ولم يكن لدى ابن الحنفية مجال ليرد على عبدالملك قولته تلك ، لأن الأمر يحتاج إلى سَلِّ السخائم لا إلى إثارتها ، والموقف يستدعى دفن الماضى لانبشه . . . ومن هذا الحوار القصير يمكنك معرفة الفرق بين الرجلين . .

وثمة حوار آخر دار بين عبدالملك وابن الحنفية فى لحظة الوداع هذه ـ يقصه علينا زيد بن عبدالرحمن بن زيد بن الخطاب قال : وفدت مع أبان بن عثمان على عبدالملك بن مروان وعنده محمد بن الحنفية ، فدعا عبدالملك بن مروان بسيف النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فأُتِى به ، ودعا بصيقل فنظر

إليه ، فقال : مارأيت حديدة قط أجود منها .

قال عبدالملك : ولا والله مارأى الناس مثل صاحبها . . . يامحمد هب لى هذا السيف .

فقال محمد بن الحنفية : أينا رأيت أحق به فليأخذه .

قال عبدالملك : إن كان لك قرابة فلكل قرابة حق .

قال : فأعطى محمد السيف لعبدالملك .

وكان الحجاج جالساً فى المجلس ، فقال محمد : ياأمير المؤمنين إن هذا - يعنى الحجاج - قد آذانى واستخف بحقى .

فقال عبدالملك للحجاج : لاإمرة لك عليه .

وكان الحجاج قد ولّاه عبدالملك الحجاز قبل أن يضم إليه معه العراق .

فلما خرج ابن الحنفية ، قال عبدالملك للحجاج : أدركه فسُلَّ سخيمته . . أى اعتذر له .

فأدركه الحجاج ، فقال له : إن أمير المؤمنين أرسلنى إليك لأسل سخيمتك ، ولا مرحباً بشىء قد ساءك . .

فقال له ابن الحنفية : ويحك ياحجاج اتق الله واحذر الله ، مامن صباح يصبحه العباد إلا لله فى كل عبد من عباده ثلاثمائة وستون لحظة ، إن أخذ أخذ بمقدرة ، وإن عفا عفا بحلم ، فاحذر الله . .

وربما كان ابن الحنفية هو الرجل الوحيد الذى قبل الحجاج نصحه . . وكان ابن الحنفية على الرغم من مسالمته جريئاً فى الحق ، ويقال : إنه زجر الحجاج يوماً حين رآه يتجاوز حدوده ، ويظلم الناس فانصاع الحجاج له . .

وفاته :

حدث عبدالله بن محمد بن عقيل قال : سمعت ابن الحنفية سنة إحدى وثمانين يقول : هذه لى خمس وستون سنة ، قد جاوزت سن أبى ـ توفى ـ أى أبوه ـ وهو ابن ثلاث وستين سنة ، ومات ابن الحنفية فى تلك السنة ، سنة إحدى وثمانين .

ودفن بالبقيع ، على أشهر الأقوال وأولاها بالصواب . . .

وأحق القول بالقبول فى ذلك قول أولاده ـ رضى الله عنهم ـ فقد حدث زيد بن السائب قال : سألت أبا هاشم عبدالله بن محمد بن الحنفية : أين دفن أبوك ؟

فقال : بالبقيع .

قلت : أى سنة ؟

قال : سنة إحدى وثمانين فى أولها ، وهو يومئذ ابن خمس وستين سنة لايستكملها .

قال : وأشار إلى ناحية من البقيع فقال : هذا قبر أبى القاسم ـ يعنى أباه ـ مات فى المحرم سنة إحدى وثمانين ، وهى سنة الجحاف ـ سيل أصاب أهل مكة جحف الحاج ـ وقيل : كانت سنة الجحاف سنة ثمانين التى مات فيها عبدالله بن جعفر بن أبى طالب .

قال أبوهاشم : فلما وضعناه فى البقيع جاء أبان بن عثمان بن عفان وهو الوالى يومئذ ليصلى عليه ، فقال أخى : ماترى ؟

فقلت : لايصلى عليه أبان إلا أن يطلب ذلك إلينا .

فقال أبان : أنتم أولى بجنازتكم ، من شئتم فقدموا من يصلى عليه .

فقلنا : تقدم فصل .

فتقدم أبان بن عثمان فصلى عليه .

وهذا القول هو الأولى بالصواب ، ولا عبرة بما قاله بعض الشيعة من أنه مات برضوى ، أو أنه لم يمت بل دخل سرداباً هناك ، وأنه مازال حياً يرزق حتى يأتى وقت فيخرج فيه ويملأ الأرض عدلاً كما ملئت جوراً . . ومازال بعضهم ينتظرونه حتى ذلك الوقت بعد مضى أربعة عشر قرناً على اختفائه . . . وهذا يدلنا على سخف مذهب الروافض وقلة عقلهم . .

وقد قال كثير عزة وكان متطرفاً فى تشيعه :

ألا إن الأئمـــة مـن قريـــش ولاة الحـق أربعـة ســواء

علـى والثـلاثة مـن بنيــه هـم الأسباط ليس بهـم خفـاء

فسبط سـبط إيمـان وبـر وسـبط غيبتـه كربـلاء

وسـبط لاتـراه العيـن حتـى تعـود الخيـل يقدمهـا لـواء

وفى كلام كثير هذا خطأ ، فإن السبط هو الحفيد ، وقد أطلق على كل من الحسن والحسين ـ رضى الله عنهما ـ اسم السبط لأنهما حفيدا النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وَوَلَدَا ابنته فاطمة ـ رضى الله عنها ـ ولايطلق على ابن الحنفية سبط لأنه ليس من فاطمة . .

وينسب الكلام المتقدم إلى السيد الحميرى وهو شاعر من شعراء أهل البيت . وهو القائل فى نفس المعنى السابق :

ألا قـل للوصـى فدتـك نفسـى أطلـت بذلـك الجبـل المقـاما

أضـر بمعشـر والـوك منـا وسـموك الخليفـة والإمـاما

وعـادوا فيـك أهل الأرض طـرا مقـامك فيهـم سـتين عامـا

وما ذاق ابن خولة طعم موت ولا وارث له أرض عظاما
لقد أمسى بمورق شِعب رضوى تراجعه الملائكة الكلاما
وإن له به لمقيل صدق وأندية تحدثه كراما
هدانا الله إذ حرتم لأمر به عليه يلتمس التماما
تمام نوره المهدى حتى تروا راياته تترى نظاما

أولاده

وقد ترك ابن الحنفية من الولد عقباً كثيراً ..

ترك عبدالله وكنيته « أبو هاشم » ، وحمزة ، وعلياً ، وجعفراً الأكبر ، وأم هؤلاء أم ولد .

كما ترك الحسن بن محمد ـ وكان من ظرفاء بنى هاشم وأهل العقل منهم ـ ولاعقب له . وأمه هاشمية ـ بنت قيس بن مخرمة بن المطلب بن عبدمناف بن قصى .

وترك إبراهيم بن محمد ، وأمه مسرعة بنت عبَّاد بن شيبان من قيس عيلان بن مضر ـ حليف بنى هاشم .

وترك القاسم بن محمد ، وعبدالرحمن ـ وأم أبيها ـ وأم هؤلاء هى أم عبدالرحمن واسمها برة بنت عبدالرحمن بن الحارث بن نوفل بن الحارث بن عبدالمطلب بن هاشم .

وترك جعفراً الأصغر ، وعوناً ، وعبد الله الأصغر ، وأمهم ـ أم جعفر بنت محمد بن جعفر بن أبى طالب .

وترك عبدالله بن محمد ورقية ، وأمهما أم ولد ..

أخلاقه وعلمه

فيما مر من حديث نستطيع أن نحكم على أخلاق ابن الحنفية التي تتلخص فى الوفاء والبر والصدق والسلام والرغبة فى حقن دماء المسلمين ، وكان شجاعاً كريماً سخياً ذا مروءة ، يحب شيعته ويقول فى حقهم : وددت لو افتديت شيعتى ببعض دمى .

وكان شديد الوثوق فى الله ، تقيا ورعا ، على بينة من أمره .. حين هدده ابن الزبير بالإيذاء ، ووجل ابن عباس من ذلك ، قال لابن عباس : سيمنعه عنى حجاب قوى .

فجعل ابن عباس ينظر إلى الشمس ويفكر فى كلام ابن الحنفية ، وقد كادت الشمس أن تغرب . وإذا بأبى عبدالله الجدلى يوافيهم بالخيل فينقذهم من الهلاك الذى أوشك أن يأتى عليهم ....

وكان بارا بأمه ، كان يغسل رأسها ويمشطها . قال صالح بن هيثم : رأيت فى يد محمد بن على ، ابن الحنفية أثر الحناء ، فقلت له : ما هذا ؟ فقال : كنت أخضب أمى ..

يفعل ذلك ، وهو يعلم أنه يمكن أن يكفيه كثير من أولاده أو نسائه هذا العمل .. ولكنه البر بالأم الذى يفرض عليه تفقد أحوالها وسد حاجتها .

وكان متقشفا زاهدا ... ولم لا وهو ابن الزاهد المتقشف ... ولكنه مع ذلك لا يحرم الطيبات إن جاءت بدون تكلف ...

أما علمه فهو من معين والده ، وقد روى أحاديث كثيرة رواها عنه أولاده وأصحابه . ورواها هو عن أبيه .

فمن ذلك ما رواه الحسين بن على عن محمد بن الحنفية عن أبيه على بن

أبي طالب قال : سمعت رسول الله - ﷺ - يقول : « إن الله - عز وجل - فرض للفقراء فى أموال الأغنياء قدر ما يسعهم ، فإن منعوهم حتى يجوعوا أو يعروا ، أو يجهدوا - حاسبهم الله فيه حساباً شديداً وعذبهم عذاباً نكراً . .[٢٦٨]

وعن عمرو بن عاصم عن حرب بن شريح قال : قلت لأبي جعفر محمد ابن على بن الحسين : - جعلت فداك - أرأيت هذه الشفاعة التى تحدث بها أهل العراق أحق هى ؟

قال : شفاعة ماذا ؟

قلت : شفاعة محمد - ﷺ -

قال : إى والله - حدثنى عمى ابن محمد بن على بن الحنفية عن على - رضى الله عنه - أن رسول الله - ﷺ - قال : « أشفع لأمتى حتى يناديني ربى - عز وجل - : أرضيت يا محمد ؟ . . . . فأقول : نعم ، يارب رضيت »

ثم أقبل عَلَىَّ فقال : إنكم تقولون يا معشر أهل العراق إن أرجى آية فى كتاب الله - عز وجل - قوله : « يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعا » . . . . قال : إنا لنقول ذلك ، قال : لكنا أهل البيت نقول : إن أرجى آية فى كتاب الله عز وجل قوله : (ولسوف يعطيك ربك فترضى » وهى الشفاعة .[٢٦٩]

وهناك أحاديث أخرى رواها ورويت عنه .

---

(٢٦٨) الحلية جـ٣ صـ١٧٨

(٢٦٩) الحلية ٣ / ١٧٩

أما ماأثر عنه من الحكمة فهو كثير يدل علي فطنة وتجربة ، وعقل ثاقب وفهم صائب .

ومن أقواله فى ذلك ما رواه الربيع بن المنذر عن أبيه قال : قال محمد بن الحنفية : يا منذر ، قلت : لبيك .

قال : كل ما لا يبتغى به وجه الله ـ تعالى ـ يضمحل .[٢٧٠]

وما رواه عنه أبوعثمان المؤذن قال : قال محمد بن الحنفية : من كرُمت عليه نفسه لم يكن للدنيا عنده قدر .[٢٧١]

ومما رواه ابن عيينة عنه : إن الله تعالى ـ جعل الجنة ثمناً لأنفسكم فلا تبيعوها بغيرها .[٢٧٢]

ومن التجربة الصادقة قوله : قد يُدفع باحتمال مكروه ، ماهو أعظم منه .[٢٧٣]

لقد شهد له أبوه قبل وفاته . . . وكان لا يريد أن يفضل أحداً من أخويه عليه . .

قال المدائنى : بعث يزيد بن قيس الأرحبى ـ وكان واليا لعلى ـ إلى الحسن والحسين رضى الله عنهما ـ بهدية بعد انصرافه من الولاية ، وترك محمد بن الحنفية ، فضرب على ـ عليه السلام ـ جنب ابن الحنفية وقال :

وما الثلاثة أم عمرو . . . بصاحبك الذى لا تصحبينا .

---

(٢٧٠) الحلية ٣ / ١٧٦
(٢٧١) المرجع السابق
(٢٧٢) الحلية ٣ / ١٧٧
(٢٧٣) عيون الأخبار ٣ / ٢٢

فرجع يزيد إلى منزله وبعث لابن الحنفية بهدية سنية . رضى الله عنهم جميعا وأرضاهم .[٢٧٤]

من أولاد على بن أبى طالب :

ذكرنا فيما سبق أولاد على بن أبى طالب ـ كرم الله وجهه ـ جملة وتحدثنا تفصيلاً عن الإمامين الحسن والحسين والسيدة زينب والإمام محمد بن الحنفية . . . . وقد عرفنا أن من أولاده من لا عقب له . ومنهم من مات صغيراً .

فمن الذين ماتوا صغاراً ـ محسن ـ قال بعضهم إن أمه فاطمة الزهراء ـ رضى الله عنها ـ فهو شقيق الإمامين الحسن والحسين والسيدة زينب .

وقال بعضهم إنه من زوجة أخرى غير الزهراء ـ رضى الله عنها ـ

ومن أولاد على الذين استشهدوا مع أخيهم الحسين ـ رضى الله عنه ـ عثمان بن على ، وأبوبكر بن على ، وجعفر بن على ، وعلى بن على ، والعباس بن على ، وإبراهيم بن على .[٢٧٥]

وهناك اختلاف بالنسبة لاسم إبراهيم الذى ذكره صاحب العقد الفريد ، فقد قال عنه صاحب الطبقات : إنه محمد .

وبالنسبة لاسم على فقد ذكره صاحب الطبقات على أنه عبدالله ، وهو الأصح ـ لأنه لم يعرف فى أولاد على من اسمه على .

وقد استشهد فى كربلاء من أولاد على ـ رضى الله عنه ـ سبعة ، ومن

---

(٢٧٤) الإمام على ـ محمد على قطب ٨٨

(٢٧٥) العقد الفريد جـ٢ صـ٢٤٣

قبلهم مات الحسن - رضى الله عنه - وقتل بَعْدَهم عبيدالله بن على . . .
وسنتحدث عنه بعد أن نتحدث عن عمر بن على . . .

عمر الأكبر بن على :

أمه الصهباء - وهى أم حبيب بنت ربيعة بن بجير بن العبد بن علقمة - من بنى تغلب بن وائل .

وكانت من أسارى بنى تغلب - حين حدث قتال بينهم وبين المسلمين بناحية عين التمر ، فكانت من نصيب على بن أبى طالب - كرم الله وجهه .

فولدت له عمر بن على . .

وتزوج عمر بن على من ابنة عمه أسماء بنت عقيل بن أبى طالب ، فولدت له محمداً ، وأم موسى ، وأم حبيب .

قال ابن سعد : وقد روى عمر الحديث ، وكان فى ولده عدةٌ يُحَدِّثُ عنهم .(٢٧٦)

عبيدالله بن على :

أمه ليل بنت مسعود بن خالد بن مالك بن ربيع بن جندل - من بنى زيد مناة .

وكان عبيدالله بن علي مقيما بالمدينة ، مع أخيه محمد بن الحنفية ، ولما بلغه أن المختار بن أبى عبيد الثقفى قد اجتمع حوله الشيعة فى الكوفة وأخذ بثأر الحسين ، ذهب إلى الكوفة.

وقد كان المختار حين قصده عبيدالله يظن أنه قد جاءه بكتاب من ابن

---

(٢٧٦) الطبقات جـ٥ قسم ١ صـ٨٦

الحنفية ، وكان ابن الحنفية يلقب بالمهدى .

وسأله المختار : أجئتنا بكتاب من المهدى ؟

فقال عبيدالله : لا .

وأساء المختار معاملة عبيدالله ، وحبسه أياما ، ثم خلَّى سبيله ، وقال له : اخرج عنا . .

وما كان يتوقع عبيدالله هذه المعاملة السيئة من رجل يزعم أنه يأخذ بثأر الحسين ، وأنه من أخص شيعته . .

فتوجه عبيدالله بن على إلى خصم عنيد للمختار وهو مصعب بن الزبير وكان واليا على البصرة من قبل أخيه عبدالله بن الزبير . وأحسن مصعب استقباله ، وأمر له بمائة ألف درهم .

وكان نزول عبيدالله فى البصرة على خاله نُعَيم بن مسعود التميمى النهشَلى . .

وأمر مصعب بن الزبير الناس أن يستعدوا للقاء عدوهم ، وجعل للمسير وقتا ، وعسكر خارج البصرة فى انتظار اجتماع الناس واستعدادهم .

فلما أتموا استعدادهم خرج بهم ، وخرج معه نعيم بن مسعود - خال عبيدالله بن على .

وأقام عبيد الله فى البصرة لم يبارحها . وظل مقيما فى أخواله . ولما فصل مصعب بجيشه ، جاء بنو سعد بن زيد مناة ، وهم أيضاً أخوال عبيدالله بن على ، فقالوا لعبيدالله :

نحن أيضاً أخوالك فأكرمنا ببعض ضيافتك ، فإنا نحب كرامتك . ومازالوا به حتى تحول إليهم ، وأنزلوه فى وسطهم . .

البيعة له بالخلافة :

وقد عرفنا أن هذا الزمن قد انتشرت فيه الفتن ، وقد كثر المطالبون بالخلافة ، فالأمويون فى جانب ، والزبيريون فى جانب ، والخوارج فى جانب ، والشيعة فى جانب ، فلماذا لا ينتهز بنو سعد بن زيد مناة الفرصة ، ويدلون بدلوهم فى الدلاء ، ولعلهم يظفرون بما لم يظفر به غيرهم من النجاح ؟

فقالوا لعبيدالله بن على ، أنت أحق الناس بالخلافة ، ونحن وراءك نعاضدك على الطلب بحقك ونصرتك ، ومازالوا به حتى بايعوه بالخلافة وهو كاره لذلك .

فقد قال لهم : يا قوم لا تعجلوا ولا تفعلوا هذا الأمر ، فليست البيعة بهذا الشكل ، وليست الخلافة تتم بمجرد البيعة ، ولكنهم كانوا قد أجمعوا أمرهم ، ولم يقبلوا فى ذلك جدالاً أو منافسة .

وليس مثل هذا الأمر يمكن أن يظل سراً لا يعرفه أحد ، فسرعان ما طار الخبر إلى مصعب بن الزبير .

وكتب مصعب إلى نائبه على البصرة عبيدالله بن عمر بن عبيدالله بن معمر يصفه بالعجز ويوبخه على تراخيه وفشله فى سياسة الأمور ، حتى هيأ الفرصة لابن على فى البيعة لنفسه .

واستدعى مصعب نعيم بن مسعود وكان معه ـ فقال له : لقد كنت لك مكرما ومحسنا فيما بينى وبينك ، فما حملك على ما فعلت مع ابن أختك حتى تخلفه فى البصرة يؤلب الناس علينا ؟

ولم يكن لدى نعيم بن مسعود أى نبأ عن ذلك ، فأقسم بالله ما حدث

منه شيء ، وما علم بشيء . .

وصدقه مصعب .

وقال مصعب : لقد كتبت إلى عبيدالله بن عمر ألومه على غفلته . . .

فقال له نعيم : أنا أكفيك أمر هذه المهمة ، وأقدم به عليك . . .

وسار نعيم من وقته إلى البصرة ، واجتمعت معه بنو حنظلة وبنو عمرو بن تميم . . . وسار بهم حتى أتى بنى سعد الذين أغروا عبيدالله بن على بالبيعة . .

وقال نعيم لبنى سعد : والله ما كان لكم فى هذا الذى صنعتم خير ، وما أردتم به إلا هلاك تميم كلها ، فادفعوا إلىَّ ابن أختى . .

وحدث نقاش لم يطل أمره ، ثم انتهى بأن دفعوا إليه ابن أخته ، وسار به نعيم حتى قدم على مصعب فى مكان معسكره . .

وقال عبيدالله بن على لمصعب إنه ما أراد ذلك الأمر ولا علم به حتى فعلوه ـ بالرغم منه . ولقد أبى عليهم ذلك . .

فصدقه مصعب . . .

وكان الاستعداد قد تم للقاء المختار . .

وأمر مصعب قائد جيشه بالتقدم فتقدموا إلى موضع اسمه المذار . ودارت معركة بين جيش المختار وجيش مصعب .

كانت الدائرة فيها على جيش مصعب . .

وقتل فيها عبيدالله بن على ، وانتهى بذلك أمره .

من أولاد الحسن بن علي -رضى الله عنهما-

زيد الأبلج

وقد أعقب ذرية طيبة . . وزيد الأبلج - هو ابن - الحسن بن علي - أمه أم بشير بنت أبي مسعود بن عمرو بن ثعلبة من بني الحارث بن الخزرج . .

ومن أولاده - محمد ، وأمه أم ولد ، ومات دون عقب ، ومن أولاده حسن ، الملقب بالأنور ، وأمه أم ولد أيضاً .

وكان حسن الأنور واليا على المدينة فى أيام أبي جعفر المنصور ، وهو أبوالسيدة نفيسة - رضى الله عنها - التي سوف نتحدث عنها فيما بعد إن شاء الله تعالى .

ومن أولاده أيضاً نفيسة بنت زيد ، وقد تزوجها الوليد بن عبدالملك بن مروان وتوفيت عنده - وأمها لبابة بنت عبدالله بن العباس .

وكان زيد بن الحسن جميل الطلعة ، حسن الهيأة . . . حدث عبدالرحمن بن أبي الموالي عنه قال : رأيت زيد بن حسن يركب فيأتي سوق الظهر فيقف فيه ، ورأيت الناس ينظرون إليه ويعجبون من عظم خلقه ويقولون : جدُّه . رسول الله - صلى الله عليه وسلم -

وقد أدرك زيد بن الحسن بعض الصحابة - مثل جابر بن عبدالله ، وروى عنه .

وتوفى زيد بن حسن بمكان يسمى «بطحاء ابن أزهر» على بعد أميال من المدينة ، فحمل إلى المدينة ودفن بها . .

حدث ابن سعد قال : أخبرنا محمد بن عمر قال : أخبرني عبدالله بن أبي عبيدة قال : ردفت أبي يوم مات زيد بن حسن .

فلما وافينا رأس الثنية بين المغارتين كان زيد بن حسن فى قبة على بعير ميتاً ، وابن أخيه عبدالله بن حسن بن حسن يمشى أمامه قد حزم وسطه بردائه ، ليس على ظهره شيء . فقال لى أبى : يابنى ، أنزل وامسك لى بالركاب ، فوالله لئن ركبتُ وعبدالله يمشى لكان ذلك خطأ كبيراً

فركبت الحمار ، ونزل أبى فمشى ، فمازال يمشى حتى أُدخِل زيدٌ داره ببنى حُدَيْلة . فغُسل ، ثم أخرج على السرير إلى البقيع[٢٧٧]

الحسن المثنى

وهو الحسن بن الحسن بن على بن أبى طالب . .

وأمه خولة بنت منظور بن ربَّان بن سيَّار - من بنى مازن بن فزارة .

وللحسن بن الحسن عقب كثير منهم :

محمد بن حسن ، وأمه رملة بنت سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل - من بنى عدى بن كعب قبيلة عمر بن الخطاب - رضى الله عنه -

ومنهم عبدالله بن حسن ، وأخوه حسن بن حسن « المثلث » وإبراهيم ابن حسن ، وقد مات ثلاثتهم فى سجن أبى جعفر المنصور . . . كان قد اعتقلهم بتهمة الخروج عليه .

وأعقب الحسن بن الحسن كذلك زينب بنت حسن - تزوجها الوليد بن عبدالملك بن مروان ، ثم فارقها .

وأعقب الحسن أيضا - أم كلثوم بنت الحسن وأم هؤلاء جميعاً فاطمة بنت الحسين بن على .

---

(٢٧٧) الطبقات الكبرى جـ٥ صـ٢٢٤

وأعقب أيضاً جعفر بن حسن ، وداود ، وفاطمة ، وأم القاسم ـ التى تسمى قُسيمة ـ وأم هؤلاء جميعاً أم ولد تدعى حبيبة ـ وكانت فارسية .

وكان الحسن المثنى عالما عاقلاً لبيباً يرفض الغلو فى التشيع ، ويكره أن يَنْسبَ الناس لأهل البيت ماليس لهم .

أخبر الفضيل بن مرزوق قال : سمعت الحسن بن الحسن يقول لرجل ممن يغلو فيهم : أحبونا لله ، فإن أطعنا الله فأحبونا ، وإن عصينا الله فأبغضونا .

فقال الرجل : إنكم قرابة رسول الله وأهل بيته .

فقال : ويحك ، لو كان الله مانعاً بقرابة من رسول الله أحداً بغير طاعة لنفع بذلك من هو أقرب منا أباً وأماً ، والله إنى لأخاف أن يضاعف للعاصى منا العذاب ضعفين ، وإنى لأرجو أن يُؤتى المحسن منا أجره مرتين . . . ويلكم اتقوا الله وقولوا فينا الحق فإنه أبلغ فيما تريدون ، ونحن نرضى به منكم .

ثم قال : لقد أساء بنا آباؤنا إن كان هذا الذى تقولون من دين الله ثم لم يطلعونا عليه ولم يرغبونا فيه .

فقال الرافضى : ألم يقل رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ لعلى : « من كنت مولاه فعلى مولاه » ؟

فقال الحسن بن الحسن ـ رضى الله عنه ـ : أما والله لو يعنى بذلك الإمارة والسلطان لأفصح بذلك ، كما أفصح لهم بالصلاة والزكاة وصيام رمضان وحج البيت ، ولقال لهم : أيها الناس هذا وليكم من بعدى ـ فإن أنصح الناس للناس كان رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، ولو كان

الأمر كما تقولون كان عليٌّ أعظم الناس فى ذلك خطئةً وجُرْماً إذ ترك ماأمره به رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يقوم فيه كما أمره ، أو يعذر فيه إلى الناس .(٢٧٨)

اعتقال المنصور لأولاد الحسن

وتحدث المسعودى عن اعتقال المنصور لأولاد الحسن الذين أشرنا إليهم فقال : قبض المنصور على عبدالله بن الحسن بن الحسن بن على ـ رضى الله عنهم ـ وعلى كثير من أهل بيته ، وذلك فى سنة أربع وأربعين ومائة فى منصرفه من الحج ، فحملوا من المدينة إلى الربذة من جادة العراق .

وكان ممن حمل مع عبدالله بن الحسن ـ إبراهيم بن الحسن بن الحسن ، وأبوبكر بن الحسن بن الحسن ، وعلى الخير ، وأخوه العباس ، وغيرهم ، ومعهم محمد بن عبدالله بن عمرو بن عثمان بن عفان ـ أخو عبدالله بن الحسن بن الحسن لأمه ....

وارتحل المنصور عن الربذة وهو فى قبة ، وأوهن القوم بالجهد ، فحملوا على المحامل المكشوفة ـ فمر بهم المنصور فى قبته فصاح به عبدالله بن الحسن : ياأبا جعفر مانستحق منك هذا ...

ثم صيرهم المنصور إلى الكوفة فحبسوا فى سرداب تحت الأرض .. ويقال إنهم ظلوا فى سجنهم حتى ماتوا ..

وذكر أنهم كانوا لما حبسوا فى ذلك الموضع أشكل عليهم أوقات الصلاة ، فجزءوا القرآن خمسة أجزاء ، فكانوا يصلون الصلاة على فراغ كل واحد منهم حزبه .

---

(٢٧٨) الطبقات ٥ / ١ / ٢٣٤

ويقال إنه أتى برأس إبراهيم بن عبدالله إلى المنصور فأرسله المنصور مع رجل أسمه الربيع إليهم .. فوضع الرأس بين أيديهم وعبدالله يصلى ، فقال له إدريس أخوه : أسرع فى صلاتك ياأبا محمد .

فالتفت إليه ، وأخذ الرأس فوضعه فى حجره ، وقال له : أهلا وسهلاً ياأبا القاسم ، والله لقد كنت من الذين قال الله فيهم:

﴿ ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ ﴿٢٠﴾ وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢١﴾ ﴾ (٢٧٩)

فقال له الربيع : كيف أبوالقاسم فى نفسه ؟

قال : كما قال الشاعر :

فتى كان يحميه من الذل سيفه ويكفيه أن يأتى الذنوب اجتنابها

ثم التفت إلى الربيع فقال له : قل لصاحبك : قد مضى من بؤسنا أيام ، ومن نعيمك أيام ، والملتقى يوم القيامة .

قال الربيع : فما رأيت المنصور قط أشد انكساراً منه فى الوقت الذى بلغته هذه الرسالة(٢٨٠)

إن هذه الأخبار التى أوردها المسعودى ، وتحدث بها غيره من الرواة تشير - إن صحت - إلى مدى ماحل بهذه الأسرة العلوية عبر العصور من تعذيب وتشريد وقتل - سواء على يد خصومهم من الأمويين أو على يد بنى عمومتهم العباسيين ..... وقد قال أحد الشعراء فى ذلك :

---

(٢٧٩) الرعد ٢٠ ، ٢١

(٢٨٠) مروج الذهب للمسعودى جـ٢ صـ٢٣٦ ط التحرير

تالله مافعلت أمية فيهم معشار مافعلت بنو العباس

أما لماذا فعل المنصور بهم ذلك ؟ فهو الحرص على الملك ، والخوف أن يخرج الأمر من بنى العباس إلى غيرهم من بنى على ..

ولقد كان بنو على هم الذين أعطوا الخلافة بأيديهم للعباسيين .

وقد كان يكفى المنصور أن يحتاط لنفسه ، وكان فى إمكانه أن يعتقل من يخشى منه القيام بالثورة ، وإذا اعتقله كان حسبه ذلك ـ دون أن يتعدى ذلك إلى الإيذاء والتعذيب الذى أشارت إليه بعض الروايات

إن سوء المعاملة يغرى بالثورة ، والضغط يولد الانفجار ـ كما يقول المثل المشهور ـ وليس هناك أجمل من استلال السخائم بالإحسان ، والقرآن سيد الكلام هو الذى يعلمنا ذلك حيث يقول :

﴿ وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾ ﴾ (٢٨١)

فإذا كان الإحسان يقرب بين الأعداء فهو من باب أولى يقرب بين الأقرباء

لقد نظر العباسيون إلى أولاد عمومتهم نظرة ريبة ، وشكوا فى كل قول يقولونه وكل تصرف يتصرفونه ، حتى ملأوا نفوس العلويين حذراً وخوفاً ، ولابد أن يكون لذلك أثره العكسى ..

---

(٢٨١) فصلت ٣٤ ، ٣٥

ذُكِر أنه حين بنى أبوالعباس السفاح مدينة الأنبار دخلها مع أخيه أبي جعفر المنصور ، ومع عبدالله بن الحسن . فجاء على لسان عبدالله بن الحسن قول الشاعر :

ألم تر حوْشَباً قد صار يبنى قصوراً نفعها لبنى نُفَيْلة
يؤمل أن يعمر عمر نوح وأمر الله يحدث كل ليلة ؟

وقد يكون هذا القول قولاً عابراً جاء على لسان عبدالله ، وهو يتدبر أمر الدنيا ، وينظر إلى اهتمام الناس بتعميرها ونسيانهم أمر الآخرة . .

ولكن سوء الظن جعل أباالعباس ينظر إلى عبدالله بن الحسن نظرة غضب ، وجعل أباجعفر المنصور يقول له : أتقصد ابنيك وأن الأمر صائر إليهما ، وأنهما سيرثان ذلك ؟

فقال عبدالله بن الحسن : لا والله ماذهبت هذا المذهب ولا أردته ، ولا كانت إلا كلمة جرت على لسانى لم ألق إليها بالاً .

ولكن هذه الكلمة أوحشت أبا العباس من عبدالله بن الحسن .
وأصبح هم أبي جعفر بعد أن تولى الخلافة أن يبحث عن ولدى عبدالله ابن الحسن : محمد وإبراهيم . . وتخوف عبدالله على ولديه . .

فأنكر معرفته بمكانهما . . فتم القبض على عبدالله بن الحسن ومعه إخوته وجمع من أهله . .

وقد أدى هذا إلى ثورة محمد بن عبدالله بالمدينة ، وثورة أخيه إبراهيم بالبصرة وقد انتهى الأمر بقتلهما . .

وكان محمد يلقب بالنفس الزكية ـ وحين ثار تبعه ناس كثير وفى مقدمتهم

الإمام مالك ، وقد أوذى بسبب ذلك ، كما أن ثورة أخيه إبراهيم بالبصرة أيدها علماء منهم أبو حنيفة النعمان ، وقد أغضب هذا المنصور على أبى حنيفة . .[٢٨٢]

يقول الأستاذ أمين الخولى عن خروج الإمامين إبراهيم ومحمد ، وموقف الإمامين مالك وأبى حنيفة من ذلك : ـ

« فى سنة ١٤٥ هـ خرج على المنصور بالمدينة محمد بن عبدالله بن الحسن الملقب بالنفس الزكية ـ وفى الوقت نفسه خرج بالبصرة أخوه إبراهيم بن عبدالله ، وكان لأهل العلم والدين ومنهم الإمام مالك مواقف فى هذا الأمر ، فخرج مع إبراهيم بالبصرة كثير من القراء والعلماء منهم الإمام أبو حنيفة ، وكان يجاهر فى تأييد أمره ويحث الناس على الخروج معه . ونسمع مثل هذه الإشادة والتأييد من شعبة بن الحجاج ايضا .

وتتردد الأصداء نفسها بين العلماء فى المدينة إذ خرجوا مع محمد ، فخرج ابن هرمز ينصره ، كما خرج الإمام مالك يحث الناس على مناصرته ، واستفتاه أهل المدينة فى الخروج معه وقالوا : إن فى أعناقنا بيعة لأبى جعفر . .

فقال مالك : إنما بايعتم مكرهين ، وليس على المكره يمين فأسرع الناس إلى محمد . .

وكان المنصور قبل خروجهما بعام قد حج وحبس بنى الحسن ، وأرسل إليهم فى الحبس رسولين . . . وقد سألا أبا إبراهيم ومحمد أن يسلمهما إلى

---

(٢٨٢) راجع كتاب « أبوجعفر المنصور » على أدهم صـ١٠٢ ومابعدها ـ أعلام العرب

المنصور ، فرفض والدهما عبدالله أن يرد على الرسولين ، وقال لهما : والله لا أرد عليكما حرفاً ، إن أراد المنصور أن يأذن لى فألقاه فليفعل[٢٨٣]

وكان محمد بن عبدالله بن الحسن الذى خرج بالمدينة يلقب بالنفس الزكية لزهده وكثرة عبادته ، وكان عالماً ورعاً .

كما ظهر أخوه إبراهيم بالبصرة ، فسير إليه المنصور عيسى بن موسى وسعيد بن مسلم فى الجيوش ، ومازالوا به حتى قتل بالمكان المعروف المسمى « باخرا » على ستة عشر فرسخاً من الكوفة من أرض الطف بالعراق ، وهو المكان الذى أشار إليه دعبل الخزاعى فى قصيدته التى أولها :

من أرسى آيات خلت من تلاوة ومنزل وحى مقفر العرصات

وفيها يقول :

قبور بكوفان وأخرى بطيبة وأخرى بفخ ، يالها صلوات
وأخرى بأرض الجوزجان محلها وقبر بباخرى لدى الغربات[٢٨٤]

والذى يثير العجب أن المنصور قبل ظهور الدولة العباسية ، كان قد سبق وبايع بنفسه ـ بمكة فى المسجد الحرام ـ محمد بن عبدالله بن الحسن الملقب بالنفس الزكية .

وحين خرج محمد من المسجد الحرام أمسك له أبوجعفر بالركاب ، وبايعه مرة أخرى بالأبواء ، وبايع معه نفر من العباسيين ، وقال أبوجعفر فى حقه يومئذ «والله لقد علمتم ماالناس إلى أحد أطول أعناقاً ولا

---

(٢٨٣) مالك تجارب حياة لأمين الخولى صـ١٤٤ ـ أعلام العرب
(٢٨٤) مروج الذهب جـ٢ صـ٢٣٤

أسرع إجابة منهم إلى هذا الفتى ، أى محمد بن عبدالله »

فلما ظهر أمر العباسيين ـ وقد أقامه لهم العلويون ـ حرص السفاح والمنصور على الظفر بمحمد لما فى أعناقهما من البيعة له ، فتوارى مع أخيه ابراهيم حتى ظهرا فقتلا ـ رضى الله عنهما ـ[٢٨٥]

وهذا هو الذى يفسر إلحاح المنصور فى القبض على عبدالله بن الحسن ومن معه من أجل الظفر بمحمد بن عبدالله ، وتحللا من البيعة التى فى عنقه له . .

قال المسعودى فى صدر الحديث عن خروج إبراهيم بن عبدالله : ذكر أن المنصور هيئت له عجة من مخ وسكر فاستطابها ، فقال : أراد إبراهيم أن يحرمنى هذا وأشباهه .[٢٨٦]

وكان أولاد على مثاليين حتى فى حروبهم ، وقد رأينا طرفاً من ذلك فيما سبق عرضه .

وكانت مثالية على بن أبى طالب العالية تعيش فى نفوس أبنائه وذريته ، ولذلك كانت تغلب عليهم النزعة الروحية ، وإيثار العدالة واتباع الحق ، ومجافاة الدسائس ، وكانوا يطلبون المجد المؤثل ، ويسعون لبلوغ المكانة اللائقة بهم والجديرة بماضيهم ، ولكنهم لايحاولون أن يسلكوا لها الطرق الملتوية ، أويتبعوا الأساليب التى تنافى الأخلاق الكريمة . .[٢٨٧]

---

(٢٨٥) أم المؤمنين السيدة خديجة الكبرى ـ للملطاوى ـ صـ٢٩٨

(٢٨٦) مروج الذهب جـ٢ صـ٢٣٤

(٢٨٧) أبوجعفر المنصور ـ على أدهم ـ صـ١٢٦

أخلاق عبدالله بن الحسن

وكان عبدالله بن الحسن ـ الذى قُتِل ولداه محمد وإبراهيم ـ غاية فى المثالية ، وكان حسن التربية لأولاده .

حدث الحصرى عنه قال : قال عبدالله بن الحسن لابنه محمد أو إبراهيم :

أى بنى ، إنى مؤد حق الله فى تأديبك ، فأد إلىَّ حق الله فى الاستماع منى . . . أى بنى ، كف الأذى ، وارفض البذى ، واستعن على الكلام بطول الفكر فى المواطن التى تدعوك فيها نفسك إلى الكلام ، فإن للقول ساعات يضر فيها الخطأ ، ولاينفع فيها الصواب ، واحذر مشورة الجاهل وإن كان ناصحاً ، كما تحذر مشورة العاقل إذا كان غاشًا ، لأنه يرديك بمشورته .[٢٨٨]

إنه كلام يخرج من معدن الحكمة وميراث النبوة . ولا عجب فهو سليل ابن أبى طالب الذى جعله الله منار العلم ونبراس الحكمة ومصباح الفضيلة .

ثم يقول له : واعلم يابنى أن رأيك إذا احتجت إليه وجدته نائماً ، ووجدت هواك يقظان ، فإياك أن تستبد برأيك ، فإنه حينئذ هواك ، ولاتفعل فعلاً إلا وأنت على يقين من أن عاقبته لاترديك ، وأن نتيجته لاتجنى عليك .[٢٨٩]

لقد كان عبدالله بن الحسن حكيماً ، وكان كلامه يخرج مخرج الحكمة

---

(٢٨٨) زهر الآداب للحصرى جـ١ صـ١١٩

(٢٨٩) المرجع السابق

العملية التى تفتش عن تجربة وتنبىء عن صواب . استمع إليه يقول : إياك ومعاداة الرجال فإنك لن تعدم مكر حليم أو معاداة لئيم . .

ولكن هذه الحكمة لم تُنْج صاحبها من الشدائد والمكائد . . . لقد عودى من غير أن يُعَادِى ، وسيق إلى السجن ليموت تحت أنقاضه دون جريرة اللهم إلا أن يكون حرصه على ولديه أن يُغتالا جناية يؤاخذ الوالد بسببها . .

كان عبدالله بن الحسن يوصى بالتقوى ويلتزم بها . . ومن وصاياه فى ذلك ماكتبه إلى صديق له : أوصيك بتقوى الله ، فإن الله ـ تعالى ـ جعل لمن اتقاه المخرج من حيث لاينتظر والرزق من حيث لايحتسب .

ولكن الله اختبر عبدالله ـ على الرغم من تقواه ـ بما اختبر به عباده الصالحين ، وأراد أن يرزقه الشهادة وهى ثمرة من ثمار التقوى ، ونتيجة من نتائجها .

وكان عبدالله حليما لايسارع إلى غضب ، ولايجاوب من يدعوه إلى ذلك . .

فعبدالله بن الحسن رجل جوزى بما لم يقترف ، وأُخِذَ ظلماً فى جرائر لم تقترف ، بل سيق إلى السجن تحسُّباً من ثورة مزعومة ، كان سجنه سبباً لاشتعالها . ولو وجد القاضى العادل لأنصف عبدالله من خصومه ، ولكنه أمر الله ، وكان أمر الله قدراً مقدوراً .

حديث صاحب الأغانى عن عبدالله بن الحسن

وأفرد أبوالفرج فى أغانيه حديثاً عن عبدالله بن الحسن بن الحسن بن على ـ رضى الله عنهم ـ وذكر قصة سجنه وخروج ابنيه . وكان مما قاله فى ذلك :

إن أمه هى فاطمة بنت الحسين ـ رضى الله عنها ـ وأمها ـ أم إسحاق بنت طلحة بن عبيدالله . . . وطلحة بن عبيدالله هو أحد العشرة المبشرين بالجنة ـ

وكانت أم إسحاق من أفضل نساء قريش ، وكانت عند الحسن بن على . . وكان يقدرها تقديراً عظيماً . . .

وتزوج الحسن بن الحسن من ابنة عمه فاطمة بنت الحسين وأعقب منها عبدالله ، وكنيته أبومحمد . .

قال : وكان عبدالله بن الحسن شيخ أهله وسيداً من سادات بنى هاشم ، ومقدما فيهم فضلا وعلماً وكرماً .

قال مصعب الزبيرى : انتهى كل حُسْن إلى عبدالله بن حسن .

وكان يقال : من أحسن الناس ؟ فيقال : عبدالله بن الحسن .

ويقال : من أفضل الناس ؟ فيقال : عبدالله بن الحسن .

وكان عبدالله يقول : أنا أقرب الناس إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ولدتنى بنت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ

وقال محمد بن حجازة الدهان : رأيت عبدالله بن الحسن فقلت : هذا والله سيد الناس ، كان مكسُوًّا نورا من قرنه إلى قدمه .

قال أبوالفرج : وجاء منظور بن زبّان الفزارى إلى حسن بن حسن وهو جده ـ أبو أمه . فقال له : لعلك أحدثت بعدى أهلا ؟

قال : نعم ، تزوجت بنت عمّى الحسين بن على .

قال : أما علمت أن الأرحام إذا التقت أضْوت ؟(٢٩٠)

---

(٢٩٠) أضوت : أهزلت ، ومنه الحديث : « اغتربوا لاتُضْوُوا » أى لايكون نسلكم هزيلاً

كان ينبغى أن تتزوج فى الْغُرُب .

قال : فإن الله ـ عز وجل ـ قد رزقنى منها ولداً .

قال : أرنيه

فأخرج إليه عبدالله بن الحسن . فلما نظر إليه سُرَّ به ، وقال : أنجبت ، هذا والله ليث قوى . . . .

ـ لقد تفرس فيه هذا الرجل وصدقت فراسته فكان مصيره الذى سبق أن أشرنا إليه ـ

قال : فإن الله قد رزقنى منها ولداً ثانيا .

قال : فأرنيه .

فأراه ابنه إبراهيم بن حسن[(٢٩١)] فأشاد به أيضاً .

محمد وإبراهيم ابنا عبدالله

وقد أشرنا فيما سبق إلى خروج محمد وإبراهيم ابنى عبدالله بن الحسن على المنصور .

خرج محمد بالمدينة وخرج إبراهيم بالبصرة . .

وقد انتهت ثورة كل منهما بالفشل وقُتلَا

ودفن محمد بن عبدالله بالبقيع . .

أما إبراهيم فقد طيف برأسه فى الآفاق ويقال إن الرأس دفن بمصر فى جهة المطرية ، وله مسجد قائم الآن . . وبه مشهده . .

قال السخاوى فى تحفة الأحباب :

---

(٢٩١) مهذب الأغانى جـ٧ صـ١١٦ ومابعدها

ويسمى العامة مسجده مسجد التبرير ، ولكنه فى الحقيقة اسمه مسجد « تبر » وتبر اسم لشخص بنى هذا المسجد ، وكان من أكابر الأمراء فى أيام كافور الإخشيدى ، ويضم هذا المسجد رأس الإمام إبراهيم .

قال : وكان الخليفة المنصور أرسله إلى مصر فنصب فى المسجد الجامع العتيق بمصر فى ذى الحجة سنة خمس وأربعين ومائة . .

قال : وهذه الخطة التى دفن فيها الرأس الشريف خطة قديمة البركة والآثار ، وبجوارها البئر التى يقال إن عيسى ـ عليه السلام ـ اغتسل منها قريباً من عين شمس .

وبها آثار عجيبة . . . ودفن بها جماعة كثيرة من الصالحين والشهداء والغرباء[٢٩٢]

ويعرف هذا المسجد والمشهد الآن باسم « السوَّاح » والمنطقة التى هو فيها تعرف بهذا الاسم .

وقد جُدِّدَ هذا المسجد حديثاً وأضيفت إليه بعض التوسعات ، وهو قريب من القصر الجمهورى بالقبة . .

ويناقش الشبلنجي فى كتابه « نور الأبصار » ماروواه الشعرانى فى المنن ـ من أن هذا الرأس المدفون فى هذا المكان هو رأس السيد إبراهيم ابن الإمام زيد الذى قام معه الإمام مالك ـ فيقول : إن هذا على خلاف ماعليه النيسابورى ، فإنهم لم يذكروا فى أولاد زيد بن على ولا فى أولاد زيد بن الحسن من اسمه إبراهيم . فحينئذ لايظهر أن زيد بن على أو زيد بن

---

(٢٩٢) تحفة الأحباب للسخاوى صـ٦٤

الحسن هو أبو إبراهيم المذكور .

ونضيف إلى ذلك أن الإمام مالكاً ـ رضى الله عنه ـ إنما أيد محمد بن عبدالله الملقب بالنفس الزكية ، وكانت ثورته بالمدينة ، والإمام مالك موطنه المدينة ولم يغادرها إلى غيرها .

أما إبراهيم فقد كانت ثورته بالبصرة والذى أيده إنما هو الإمام أبوحنيفة النعمان ـ رضى الله عنه ـ

وكان محمد بن عبدالله « النفس الزكية » يلقب أيضاً بالمهدى . .

وجاء فى « الخطط » للمقريزى أن مسجد تبر خارج القاهرة عرف قديماً بالبئر والجميزة ، وتسميه العامة مسجد التبن وهذا خطأ . . . وهو قريب من المطرية .

وقال القضاعى : مسجد « تبر » بنى على رأس إبراهيم بن عبدالله بن حسن بن الحسين بن على ، قتل فى عهد المنصور فسرقه أهل مصر ودفنوه هناك . .

وذلك فى سنة خمس وأربعين ومائة . قال الكندى : ثم قدمت الخطباء إلى مصر برأس إبراهيم بن عبدالله بن حسن فى ذى الحجة سنة خمس وأربعين ومائة لينصبوه فى المسجد الجامع ، وقام الخطباء فذكروا أمره .

فنرى أن القضاعى ينسبه إلى الحسين ، وإنما هو فى الحقيقة منسوب إلى الحسن . . . . .

ويعلل المقريزى تسمية هذا المسجد بمسجد « تبن » تعليلاً طريفاً فيقول : إن تبراً كان أحد أمراء كافور الإخشيدى ، فلما قدم جوهر الصقلى حاربه فامتنع عليه ، وأخيراً ظفر به ، فحبسه مدة ، ثم قتله . . . ثم حشا جلده

تبناً وصلبه . فربما أسمت العامة مسجده باسم « تبن » لهذا .[٢٩٣]

لماذا مصر ؟

أما لماذا اختيرت مصر بالذات لتكون آخر المطاف بالنسبة لرأس الإمام إبراهيم بن عبدالله ؟

فالإجابة عن ذلك ذكرها الأستاذ أحمد أبوكف فى كتابه « آل بيت النبى - صلى الله عليه وسلم - فى مصر - قال :

كان الإمامان إبراهيم ومحمد قد أرسلا إلى الأمصار من يأخذ البيعة لهما . وفى أيام يزيد بن حاتم والى مصر من قبل الخليفة المنصور ظهرت بمصر دعوة بنى الحسن بن على بن أبى طالب ، وتكلم الناس بها ، وبايع كثير منهم لبنى الحسن فى الباطن ، وكاد أمر بنى الحسن أن يتم ، والبيعة كانت باسم على بن محمد بن عبدالله - أى ابن محمد - الملقب بالنفس الزكية - أخى إبراهيم -

وبينما الناس فى ذلك قدم يزيد بن حاتم برأس إبراهيم بن عبدالله بن الحسن فى ذى الحجة سنة خمس وأربعين ومائة ، فنصب فى المسجد أياماً . . . . وقد نقل هذا الخبر من كتاب « الفضائل الباهرة فى محاسن مصر والقاهرة » لابن ظهيرة .

ويعنى هذا أن مصر كولاية إسلامية لعبت دوراً خطيراً فى ثورة الإمامين محمد وإبراهيم .

وقد عرفنا أن مصر أيام كربلاء قد أظهرت تعاطفاً كبيراً مع أهل البيت

---

(٢٩٣) أهل البيت فى مصر لعبدالحفيظ فرغلى ص١٠٩

وأحسنت استقبال السيدة زينب وأسرتها حين قدموا إلى مصر .

قال ابن ظهيرة فى كتابه المشار إليه : إن يزيد بن حاتم والى مصر منع أهل مصر من الحج فى أثناء ثورة محمد - النفس الزكية - وأخيه إبراهيم ، ولم يسمح لهم بالحج إلا بعد أن جاءت الأنباء بقتلهما .

وهذا يشير إلى أن العباسيين قد اختاروا مصر بالذات لإرسال رأس إبراهيم إليها إخماداً لشعلة التعاطف مع أهل البيت ، وتخويفاً للناس وإرهاباً . .

ونقل الأستاذ أحمد أبوكف فى كتابه نصاً لشاهد عيان شاهد البئر والجميزة اللتين كانت بجوار مسجد الإمام إبراهيم .

قال : قال لى فضيلة الشيخ محمد عباس ، إمام وخطيب مسجد سيدى إبراهيم : إن وصف المسجد بالجميزة والبئر وصف صحيح ، فقد نشأتُ فى المنطقة أنا وأبى وأجدادى ، وكانت قديماً الجميزة باسقة ، وكانت البئر موجودة . وأقيمت عليها الآن دورة مياه ، وكان المسجد - كما سمعت من أجدادى - قائماً منذ زمن قديم ، ثم تحول إلى زاوية صغيرة ، ثم إلى مقبرة فقط - بقيت زمنا ثم اندثرت . . . ومنذ عهد قريب سنة ١٩٢٢ م تطوع بعض الأهالى ببنائه ، فبنى على حاله الموجود عليها الآن فى شارع البرنس - ماهر حاليا - بالمطرية ، وعليه ضريح يزار .

قال : ووزارة الأوقاف - وقت إملائه هذا الكلام - كانت لاتلتفت إليه ، حتى كسوة الضريح تبرعت بها سيدة لبنية من نسل سيدى إبراهيم وتأتى للزيارة كل عام ، وحجارة الضريح جلبها أهل الخير .

نقول : ولكن المسئولين ـ كما سبقت الإشارة ـ قد اهتموا بالمسجد وتعميره وتوسعته الآن . .

ويذكر بعض المصنفين سبباً آخر لوجود هذا المسجد فى ذلك المكان . فيقولون :

لعل السبب فى اختيار جهة المطرية لتكون مقرًا لرأس إبراهيم ـ هو إبعاد الناس فى مصر عن زيارة المقبرة ، حتى تخمد الثورة وتضعف شوكة العلويين ، فقد كانت المطرية فى ذلك الوقت ـ حوالى منتصف القرن الثانى الهجرى ـ مهجورة غير مسكونة لبعدها عن العاصمة ـ التى هى الفسطاط أو العسكر ـ كما أن مقابر المسلمين فى ذلك الوقت كانت عند جبل المقطم . . . ومما ينهض دليلاً على أهمية هذه المقبرة فى تلك المنطقة النائية ـ أعنى المطرية ـ هو اهتمام الأمير تبر ببناء مسجد بجوارها[٢٩٤]

ظاهرة التنكيل بالعلويين

ظاهرة التنكيل بالعلويين تكررت عبر العصور فقد حدثت فى عهد الأمويين ، كما حدثت فى عهد العباسيين ، ولاتعليل لذلك إلا بالخوف على الملك والسلطان الذى تهون فى سبيله كل القيم والمبادىء عند البعض . . . ولئن كانت الإساءة إلى العلويين قد بلغت حداً كبيراً فى كربلاء ، حيث قتل منهم من قتل وأسر منهم من أسر . . فإن ماحدث لهم على أيدى العباسيين لايقل شيئاً عن ذلك . . . . . . فقد تفنن المنصور فى تعذيبهم الذى تحدثنا عن صورة منه فيما مضى .

---

(٢٩٤) آل بيت النبى فى مصر ـ لأحمد أبوكف ـ صـ١٦٥

وكان محمد بن إبراهيم بن عبدالله بن الحسن شاباً فتياً ، فكان الناس يذهبون لينظروا إلى عظمته وهيبته ، وكان يقال له : الديباج الأصفر . . وتذكر بعض الروايات أن المنصور أحضره بين يديه وقال له : أما والله لأقتلنك قتلة ماقتلتها أحداً ، ثم ألقاه بين اسطوانتين وسد عليه حتى مات .[٢٩٥]

ـ سبحان الله ـ هل يمكن أن يفعل حب الملك بالناس كل ذلك ؟

أينسون فى سبيل السلطان كل علاقة تربطهم بالآخرين ولو كانت علاقة الرحم والنسب ؟ أينسون أن زهرة الدنيا زائلة ، ونعيمها باطل ، وزخرفها فانٍ ، وأن موعد الآخرة آت لاشك فيه ؟

إن هذا لو صح ـ لهو أمر فظيع . . .

والعجيب أن الضمير حين يستيقظ يستيقظ أخيراً بعد فوات الأوان . فقد حدثوا أنه بعد أن انتهت ثورة إبراهيم بن عبدالله ، وجىء برأسه إلى مجلس المنصور بكى المنصور واستعبر حتى جعلت الدموع تسقط من عينيه وقال موجها كلامه إلى رأس إبراهيم : والله لقد كنت لهذا كارهاً ، ولكنك ابتليت بى وابتليت بك .

وقالوا : لماجىء بالرأس جلس المنصور مجلساً عاما ، وأقبل بعض الناس يدخلون عليه وهم يتحدثون عن إبراهيم وأخيه بسوء ـ ابتغاء مرضاة المنصور ، والمنصور ساكت واجم لايتكلم ـ حتى دخل جعفر بن حنظلة البهرانى ، فوقف فسلم ، ثم قال : أعظم الله أجرك ياأمير المؤمنين فى ابن عمك ، وغفر له مافرط فيه من حقك . .

---

(٢٩٥) البداية والنهاية جـ١٠ صـ٨٢

فيقال : إن المنصور أنصت له وأقبل عليه وقال : يا أبا خالد مرحبا وأهلا ، ههنا فاجلس ، فعلم الناس أن ذلك وقع منه موقعا . . .(٢٩٦)

ولكن . . . . ماذا بعد أن ظفر المنصور بإبراهيم وأخيه ، هل أطلق من كان قد حبسهم في السجن حتى يكون حزنه الذي بدا عليه صادقاً ؟

تقول كثير من الروايات إن ذلك لم يحدث . . بل لقد استمر في حبسهم حتى مات كثير منهم ـ كما يقال ـ ولعل امتحان هؤلاء القوم بهذه الصورة المتكررة كان منحة من الله الذي أراد أن يجزل لهم الثواب ، ويرفع لهم الدرجات . ويعطيهم بصبرهم على المحن أعظم المنن ، وينزلهم أكرم المنازل في أعلى غرف الجنات في مقعد صدق عند مليك مقتدر .

هذا : وبعض الناس يقولون : إن الإمام إبراهيم بن عبد الله بن الحسن ابن الحسن ـ هو عم السيدة نفيسة ـ رضي الله عنها ـ على اعتبار أنه أخو أبيها حسن بن زيد . الملقب بحسن الأنور . إلا أنه ابن عمها حكماً ـ يلتقيان في الجد الأعلى لهما ـ وهو الحسن بن علي ـ رضي الله عنهما ـ وسيأتي الحديث إن شاء الله عن ذلك فيما بعد . .

(٢٩٦) البداية والنهاية جـ١٠ صـ٩٤

علي بن الحسين
زين العابدين

- نشأته .
- نجاته يوم كربلاء .
- أثر محنة كربلاء في نفسه .
- ألقابه .
- ورعه وكرمه وحلمه .
- صبره وعلمه .
- تواضعه ومهابته .
- موقفه من الأمويين .
- مأثوراته .
- مواعظه .
- وفاته وأولاده .

من أولاد الحسين

زين العابدين

على بن الحسين - رضى الله عنه -

هو على ابن الحسين بن على بن أبى طالب - رضى الله عنه -

أمه أم ولد - وقال ابن سعد - : اسمها غزالة

وقال الشبلنجى - فى نور الأبصار - : اسمها سلافة ، ولقبها الفارسى : « شاه زَنَانَ » - بفتح الشين وكسر الهاء وفتح الزاى والنون الثانية بعد الألف - وهى كلمة فارسية معناها : ملكة النساء ، وهى بنت « يُزْدَجِرْدْ » ابن « أنو شروان » العادل ملك الفرس .

ذكر الزمخشرى فى كتابه « ربيع الأبرار » أنه لما أتى بسبى فارس فى خلافة عمر - رضى الله عنه - كان فيهم ثلاث بنات ليزدجرد - فباعوا السبايا ، وأمر ببيع هؤلاء البنات .

فقال على - كرم الله وجهه - إن بنات الملوك لا يعاملن معاملة غيرهن « ارحموا عزيز قوم ذل »

فقال عمر : كيف العمل فيهن ؟

قال على : يقومن ومهما بلغ ثمنهن قام به من يختارهن .

فقومن فأخذ على بن أبى طالب - كرم الله وجهه - واحدة فأعطاها لابنه الحسين ، فولدت له علياً زين العابدين . وأخذ عمر واحدة فأعطاها لعبد الله بن عمر فولدت له سالماً .

وأخذ الثالثة محمد بن أبى بكر فولدت له القاسم .

وكان هؤلاء الأبناء الثلاثة أولاد خالة ، وزينة عصرهم علماً وورعا

وتقوى . . وكان يطلق على علىّ زين العابدين « ابن الخيرتين » وذلك أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال - فيما يروى : « لله تعالى من عباده خيرتان : فخيرته من العرب قريش ، ومن العجم قوم من فارس » وزين العابدين قرشى الأب فارسي الأم[٢٩٧] .

وعن أبي هريرة - رضى الله عنه - قال : كنا جلوساً عند النبى - صلى الله عليه وسلم - إذ نزلت سورة الجمعة ، فلما قرأ « وآخرين منهم لما يلحقوا بهم » قال رجل : من هؤلاء يا رسول الله ؟ فلم يراجعه النبى - صلى الله عليه وسلم - حتى سأله مرة أو مرتين أو ثلاثاً ، قال : وفينا سلمان الفارسى . قال : فوضع النبى - صلى الله عليه وسلم - يده على سلمان ثم قال : « لو كان الإيمان عند الثريا لناله رجال من هؤلاء[٢٩٨] وفى رواية : « لو كان الدين عند الثريا لناله رجل من فارس » .

نشأته

ولد على زين العابدين حوالى سنة ست وثلاثين من الهجرة ، وتوفى سنة أربع وتسعين عن ثمان وخمسين سنة . .

ونشأ فى ظل البيت الهاشمى الكريم الذى يضم أبويه وجده علياً - كرم الله وجهه - وأعمامه . . . فى جو علمى روحى رحيب ، تظلله التقوى واليقين ، ولا يرى من حوله إلا رجالاً قانتين ، وعلماء عاملين ، ورفقاء مصلحين . .

---

(٢٩٧) زين العابدين - د . عبدالحليم محمود صـ١٥ - دار الاسلام

(٢٩٨) تفسير القرطبى جـ١٨ صـ٩٣

ومنحه الله روحاً صافية وفطرة نقية وعقلاً مضيئاً ، واستعداداً لفعل الخير واستجابة له .

وقد ورث هذا البيت الكريم نوراً وهدى وعلماً وحكمة ـ مصداقاً لما قاله على ـ كرم الله وجهه ـ فى وصف أهل البيت : « هم عيش العلم وموت الجهل ، يخبركم حلمهم عن علمهم ، وظاهرهم عن باطنهم ، وصمتهم عن حكم منطقهم لا يخالفون الحق ، ولا يختلفون فيه ، وهم دعائم الإسلام ، وولائج الإعتصام ، بهم عاد الحق إلى نصابه ، وانزاح الباطل عن مقامه ، وانقطع لسانه عن منبته . . . عقلوا الدين عقل وعاية ورعاية ، لا عقل سماع ورواية ، فإن رواة العلم كثير ، ورعاته قليل[٢٩٩] .

وماذا يمكن أن يقال عن رجل جده على بن أبى طالب ، وأبوه الحسين وعمه الحسن ، وجدته فاطمة الزهراء سيدة النساء ؟ أيمكن أن يرث هذا إلا جواهر الحكمة ومآثر الخلق ، وكرائم الفضل ، وروائع البطولة ؟

لقد كرم الله أهل البيت ، ونقاهم من كثير مما يعلق بعامة الناس من أخطاء وشبهات ، وقال فى حقهم:

﴿ وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَىٰ وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴿٣٣﴾ ﴾[٣٠٠]

---

(٢٩٩) نهج البلاغة صـ٢٨٣ ـ دار الشعب ـ

(٣٠٠) الأحزاب ٣٣

وهى آية ذات مدلول أخلاقى تشير إلى ما يجب أن يكون عليه أهل البيت من فضل ، وإلى ما ينطبعون عليه من طهر وجلال .. وهذا فضل من الله استحقوه بعملهم وعلمهم وتقواهم وورعهم ... لقد أطاعوا الله ورسوله فرضى الله عنهم ورضوا عنه ، ومنحهم الفضل والعلم والحكمة .

وفى نظير هذا الفضل ألزمهم بتبعات ... جعل حسابهم مضاعفاً على إهمالها ، وفى مقدمة هذه التبعات أن يكونوا قدوة طيبة يقتدى بها الناس ، ويسيرون على هديها ..

وإذا كان الثواب مضاعفاً فإن الحساب مضاعف كذلك كما يقول ـ تعالى ـ

﴿ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾ وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتَعْمَلْ صَٰلِحًا نُّؤْتِهَآ أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾ ﴾ (٣٠١)

وقد توعد النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ من يخل من أهل بيته بتبعاته أو يفرط فى حق دينه ـ فقال فيما يرويه الترمذى والحاكم والبيهقى فى شعب الإيمان : عن عائشة ـ رضى الله عنها ـ مرفوعاً : « ستة لعنهم الله ، وكل نبى مجاب : الزائد فى كتاب الله ، والمكذب بقدر الله ، والمتسلط بالجبروت ـ محاولا أن يعز بجبروته من أذل الله أو يذل من أعز الله ـ

---

(٣٠١) الأحزاب ٣٠ ، ٣١

والمستحل لحرم الله ، والمستحل من عترتى ما حرم الله ، والتارك لسنتى[٣٠٢] »

وقد مرت بنا كلمة الحسن المثنى ـ رضى الله عنه ـ قال : « والله إنى لأخاف أن يضاعف للعاصى منا العذاب ضعفين ، وانى لأرجو أن يؤتى المحسن منا أجره مرتين[٣٠٣] .

فى هذا الجو الروحى نشأ على زين العابدين . فكان الناس يرون فيه سمت الفضيلة الموروثة ، والعزة الممنوحة ، والكرامة المحروسة بالدين ، والعفة المحفوفة باليقين ، والوقار الممزوج بالتواضع ، والجلال المزيَّن بالجمال .. هو كما قال فيه الفرزدق :

هذا ابن خير عباد الله كلهم   هذا التقى النقى الطاهر العلم

وسنعرض لهذه القصيدة فيما بعد ..

زين العابدين فى محنة كربلاء

كان زين العابدين فى صحبة أبيه ـ الحسين ـ حين استدعاه أهل الكوفة إليهم مؤكدين له بيعتهم .. وقد أراد الله أن يُحفظ من القتل ليحفظ فيه نسل الحسين .. كان زين العابدين مريضاً طريح الفراش لا يقوى على الحركة حين دارت هذه المعركة الرهيبة ، وقضى فيها أبوه وأعمامه وإخوته وأنصارهم ..

كان على بن الحسين فى ذلك الوقت فى حدود العشرين من عمره أو فوقها بقليل .

---

(٣٠٢) إحياء الميت بفضائل أهل البيت الحديث السابع والخمسون .

(٣٠٣) الطبقات ٥ / ١ / ٢٣٤

وراه شمربن ذى الجوشن ـ وهو من خصوم الحسين ـ فقال : اقتلوا هذا الغلام .

فقال له رجل من أصحابه ـ سبحان الله ـ أتقتل فتى حدثاً مريضاً لم يقاتل ؟

وجاء عمر بن سعد ، وقال : لا تتعرضوا لهؤلاء النسوة ولا لهذا المريض .

قال على بن الحسين : فغيبنى رجل منهم ، وأكرم نُزُلى ، واختصنى وجعل يبكى كلما خرج ودخل حتى كنت أقول ، إن يكن عند أحد من الناس خير ووفاء فعند هذا الرجل .

إلى أن نادى منادى ابن زياد : ألا من وجد على بن حسين فليأت به فقد جعلنا فيه ثلاثمائه درهم .

قال : فدخل ـ والله ـ علىَّ وهو يبكى ، وجعل يربط يدى إلى عنقى وهو يقول : أخاف .

فأخرجنى والله إليهم مربوطاً حتى دفعنى إليهم ، وأخذ ثلاثمائة درهم . . وأنا أنظر إليها . .

قال : فأُخذتُ وأُدخِلت على ابن زياد . فقال : ما اسمك ؟

فقلت : على بن الحسين .

قال : أو لم يقتل علىّ ؟

قال : قلت : كان لى أخ يقال له على أكبر منى قتله الناس

قال : بل قتله الله

قلت : الله يتوفى الأنفس حين موتها

فأمر ابن زياد بقتله . فصاحت عمته زينب ـ رضي الله عنها ـ قائلة : يا بن زياد ، حسبك ما أرقت من دمائنا ـ أسألك بالله إن قتلته إلا قتلتني معه . فتركه .

وإنا لنعجب من أخلاق الناس . فهذا الرجل الذى كان يظهر العطف على زين العابدين ، ويبكى إشفاقاً عليه . . يفتضح أمره أمام المال . . وينهار حين يرى ثلاثمائة درهم تبذل فى دم رجل . .

ويسرع بتقييد ابن الحسين الذى يدعى الحزن عليه . .

وما أتفه المبلغ الذى بذل فيه . . ثلاثمائة درهم هى قيمة رجل من أهل البيت . . ما أقرب الشبه بينه وبين نبى الله يوسف الذى بيع بدراهم معدودة وكانوا فيه من الزاهدين . .

وهذه القصة توقفنا على أن عليّاً لم يكن صغيراً حين وقعت المذبحة . . بل كان كبيراً ـ إلا أنه كان مريضاً لا يقوى على الحركة ، ولو كان معافَى لقاتل ولقُتِل كما قتل أبوه وإخوته وأعمامه وأبناء عمومته وأنصارهم الذين أبلوا فى المعركة بلاء حسناً .

يقول ابن سعد فى طبقاته : كانت سِنُّهُ إذ ذاك ثلاثاً وعشرين سنة ـ وربما كان فوق ذلك ، ولكن المرض أعطاه دون سنه .

وقال جعفر بن محمد : مات على بن حسين وهو ابن ثمان وخمسين سنة وذلك فى سنة أربع وتسعين ، فإذا طرحنا ثمانياً وخمسين وهى جملة عمره من أربع وتسعين ـ سنة وفاته ـ نستخرج سنة ولادته وهى سنة ست وثلاثين . وإذا عرفنا أن مذبحة كربلاء كانت سنة إحدى وستين أدركنا أن عمره يومها كان خمساً وعشرين سنة .

ولكن بعض الرواة يقول : إن علياً ـ زين العابدين ـ فى كربلاء كان صغيراً حتى لقد حكوا عن ابن زياد أنه قال : انظروا إليه فإذا كان قد أدرك فاقتلوه . . فنظروا إليه فإذا هو قد أدرك فأمر بقتله ـ ولكنه قال : فمن توكل بهؤلاء النسوة ؟ ودافعت عنه عمته قائلة : إن كنت قاتله فاقتلنى معه . وضمت ابن أخيها إليها واستمسكت به ، فقال ابن زياد : اتركوه لها . .

لقد عصم الله علياً من القتل فى كربلاء ، كما عصمه من القتل فى حضرة ابن زياد حين أشار بقتله ، وبخاصة بعد أن أغلظ لابن زياد القول . . وعصمه من القتل مرة ثالثة حين وصل إلى يزيد فى دمشق . .

فإنه حين وصل رَكْبُ الأسرى إلى يزيد ، وكان على بن الحسين قد غُلَّ بغُلٍّ ودخلوا على يزيد ، قال يزيد لعلى : يا على أبوك قطع رحمى وجهل حقى ونازعنى سلطانى فصنع الله به ما قد رأيت .

فقال له على : « ما أصاب من مصيبة فى الأرض ولا فى أنفسكم إلا فى كتاب » .

فقال يزيد لابنه خالد : أجبه .

فما درى خالد ما يرد عليه .

فقال له يزيد : قل « ما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير » [٣٠٤]

وقام رجل من أهل الشام وقال : إنهم أسرى لنا . .

فقال على بن الحسين : كذبت ولؤمت ماذاك لك إلا أن تخرج من ملتنا

---

(٣٠٤) البداية والنهاية جـ٨ صـ١٩٤

وتأتي بغير ديننا »[٣٠٥]

ويقال : إن هذا الرد كان من السيدة زينب على يزيد نفسه حين قال الشامى ما قال فقالت له : ما ذاك لك ولا لأميرك .

فاحتد يزيد وغضب . .

فقالت : ماذلك لك إلا أن تخرج من ديننا وتدين بغير شريعتنا .

وقال ابن كثير : لقد هم ابن زياد بقتل على بن الحسين ثم صرفه الله عنه . . وأشار بعض الناس على يزيد بن معاوية بقتله أيضا فمنعه الله منه .

ثم بدل الله حال يزيد فصار يكرمه ويعظمه ويجلسه معه .

أثر هذه المحنة فى نفس زين العابدين :

لقد رأى زين العابدين مصارع أبيه وإخوته وأعمامه وأولاد عمومته وفجع فيهم كلهم فى غداة واحدة ، وترك ذلك فى نفسه أثرا لا يمحى ، فكان دائم الحزن ، ساهما ، يغشى عليه كثيرا ، لا يكف عن البكاء ، حاضر العبرة . . . وقد سئل عن كثرة بكائه فقال :

إن يعقوب عليه السلام بكى حتى ابيضت عيناه على يوسف ولم يعلم أنه مات . وإنى رأيت بضعة عشر من أهل بيتى يقتلون فى غداة واحدة . . أفترون حزنهم يذهب عن قلبى أبدا؟

والذى زاده حزنا أنه لم يستطع يومئذ أن يشارك فى بلاء هذا اليوم ، فما كانت به قوة على حمل سيف أو رمح . كان طريح الفراش لا يقدر على الحركة . وربما لو كان قد شارك لعزَّى نفسه بأنه قد جاهد ، ولكن المرض حال دونه . .

---

(٣٠٥) زين العابدين د . عبدالحليم محمود صـ٢٢

ولقد أحزنه أكثر وأكثر انتهاك حرمات الله بهذه الصورة المؤلمة .

فقد تعرض أبوه والقلة التي معه لسهام أربعة آلاف رجل تنهمر عليهم من كل جانب .

لقد رأى زين العابدين أهله يقتلون بدون مبالاة يتكاثر عليهم خصومهم كأنهم ليسوا منه . . . وكأنهم لا يمتون إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ الذى جاء بالدين الحنيف .

أبهذه السهولة تزهق أرواح المسلمين ؟

إن إزهاق الروح أمر خطير بالنسبة لغير المسلم الذى أمر الدين بأن لا يُقَاتَل إلا إذا أنذر . . فما بالك بالمسلم ؟ وما بالك بأقرب الناس الى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ؟

وأحزن الإمام علياً أن يرى انصراف كثير من الناس عن المُثُل التى جاء هذا الدين ليقيمها ويعلى شأنها ويرفع لواءها . . ويراهم يجرون وراء بريق المال والسلطان ، وزيف الجاه وزخرف الحياة .

أليس هذا مما يحزن العاقل ويغضب الحليم ؟

عن المنهال بن عمرو قال : دخلت على علىٍّ بن حسين فقلت : كيف أصبحت أصلحك الله ؟

فقال : ما كنت أرى شيخاً من أهل المصر مثلك لا يدرى كيف أصبحنا . . فأما إذا لم تدر ـ أو تعلم ـ فسأخبرك

أصبحنا فى شدة وبأس بعد قتل رجالنا وتشريدنا .

إن قريشا تعد أن لها الفضل على العرب لأن محمداً ـ صلى الله عليه وسلم ـ منها ـ لا يعُدُّ لها فضل إلا به والعرب مقرة لهم بذلك .

والعرب تعدُّ أن لها الفضل على العجم لأن محمدا ـ صلى الله عليه وسلم ـ منها ـ لا يعُد لها فضل إلا به .

فلئن كانت العرب صدقت أن لها الفضل على العجم ، وصدقت قريش أن لها الفضل على العرب ، لأن محمداً ـ صلى الله عليه وسلم ـ منها إن لنا أهل البيت الفضل على قريش لأن محمداً ـ صلى الله عليه وسلم ـ منا . .

وبالرغم من ذلك فقد أصبح الناس لايعرفون لنا حقا . .

فهكذا أصبحنا إذا لم تعلم كيف أصبحنا .

لقد وصف على زين العابدين حاله أصدق وصف . فما باله لا يملؤه الأسى والحزن على ما وصل إليه أمر أهله وقومه وما آل إليه حالهم ؟

ألقابه :

كان علىّ بن الحسين ـ رضى الله عنه ـ يلقب بزين العابدين . . وكان يلقب بالسجاًد .

وقد استحق هذين اللقبين لكثرة عبادته وطول سجوده ، وليست العبادة فى نظره مظهرا يخلعه الإنسان على نفسه فيلازم المسجد ، ويكثر من التمتمة والحوقلة ، دون أن يكون لذلك أثر فى داخل النفس . .

إن العبادة الحقة هى التى دعا الله إليها فى قوله تعالى :

﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ ۝٥﴾(٣٠٦)

---

(٣٠٦) البينة ٥

فالعبادة أساسها الإخلاص ، وما أخلص عابد فى عبادته إلا منحه الله تاجا من عز ، ونورا يمشى به فى الناس . .

استمع إلى وصفه للعبادة . . . يقول :

« إن قوما عبدوا الله رهبة ، فتلك عبادة العبيد ، وآخرون عبدوه رغبة فى الثواب فتلك عبادة التجار ، وآخرون عبدوه محبة وشكرا فتلك عبادة الأحرار الأخيار »[٣٠٧]

إن العبادة فَنَاء فى المعبود ، بمعنى أن لا يكون فى القلب شاغل سواه ، ولنا فى حياة الناس مثل يوقفنا على مدى الأثر الذى يتركه الحب فى قلب المحب ـ إنه ينشغل بمن يحبه عن كل شيء فى الحياة حتى عن نفسه . وقد زعموا أن قيس بن الملوح لقيته ليلى وهو هائم على وجهه فلم يحس بها ، فقالت له ، ياقيس أما تعرفنى ؟ أنا ليلى .

فقال لها : إليك عنى ، حب ليلى أنسانى ليلى . .

ويذكر لنا صاحب الأغانى أن عبدالملك بن مروان سأل كثيِّراً عن خبر له مع عزة .

فقال : حججت سنة ، وحج زوج عزة بها ولم يعلم أحدنا بصاحبه ، فلما كان ببعض الطريق أمرها زوجها بابتياع سمن تصلح به طعاما لأهل رفقته فجعلت تدور الخيام خيمة خيمة حتى دخلت خيمتى وهى لا تعلم أنها خيمتى وكنت أبرى سهما لى .

فلما رأيتها جعلت أبرى وأنظر إليها وأنا لا أعلم ، حتىبريت ذراعى وأنا

---

(٣٠٧) زين العابدين ٢٥

لا أشعر به والدم يجرى .

فلما تبينتْ ذلك دخلتْ إلى وأمسكت بيدى وجعلت تمسح الدم بثوبها وكان عندى وعاء من سمن ، فحلفت لتأخذنه ، فأخذته ، وجاءت زوجها بالسمن ، فلما رأى الدم سألها عن خبره فكاتمته ، حتى حلف عليها لتصدقنه ، فصدقته فضربها ، وحلف لتشتمنى فى وجهى . .

فوقفت عَلَّ وهو معها فشتمتنى وهى تبكى فقلت :

هنيئاً مريئاً غير داء مخامر لعزة من أعراضنا ما استحلت[٣٠٨]

فإذا كان هذا شأن مخلوق مع مخلوق ، فما بالك بالذى يمتلىء قلبه بحب الخالق الذى بيده الضر والنفع والمنح والمنع ؟

هذه هى العبادة التى كانت تشغل زين العابدين ، ومن أجلها منح هذا اللقب .

لقد عبدالله حق عبادته ، عبده عبادة حب وإقبال ، وهذا الحب لم يمنعه من خشية الله وتقواه ، فإن جده رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ كان يقول : « أنا أقربكم من الله وأخشاكم له »

كان إذا توضأ اصفر لونه ، فإذا قام إلى الصلاة ارتعد ـ فقيل له فى ذلك فقال : ألا تدرون بين يدى من أقوم ومن أناجى »[٣٠٩]

وحكى صاحب الحلية هذا الخبر قائلا :

كان على بن الحسين إذا فرغ من وضوئه للصلاة وصار بين وضوئه

---

(٣٠٨) تجريد الأغانى لابن واصل الحموى جـ٣ صـ٩٨٦

(٣٠٩) الطبقات ٥ / ١ / ١٦٠

وصلاته أخذته رعدة ونفضة ـ فقيل له فى ذلك فقال : ويحكم أتدرون إلى مَنْ أقوم ، ومن أريد أن أناجى ؟ . . لقد ترك طول السجود فى ركبتيه أثرا لا يمحُى ، صوَّره من رآه بأنه كركبتى البعير ويطلق على ركبة البعير اسم « ثفنة » فلقب زين العابدين بأنه « ذو الثفنات » أى ذو الركبتين اللتين تشبهان ركبتى البعير لغلظها من طول السجود ، لقد وصفه دعبل الخزاعى فى قصيدته المشهورة بقوله :

أناس على الخير منهم وجعفر وحمـــزة والســـجاد ذو الثفنـــات
إذا فخـــروا يومـاً أتـــوا بمحمـدوجـبريل والفرقـــان والســـورات [٣١٠]

واذا كان هذا شأنه فى الصلاة فهناك ما هو أعجب .

كان إذا وقف بين يدى الله استغرق فى صلاته لا يكاد يحس بشىء مما حوله . . ذكر ابن كثير قال :

اشتعلت النار فى البيت الذى فيه على بن الحسين وهو قائم يصلى ، فما قطع صلاته ، فلما انصرف قالوا له : مالك لم تنصرف ؟

فقال : إنى اشتغلت عن هذه النار بالنار الأخرى . [٣١١]

كان إذا ذهب الى الحج استشعر جلال المزور فى بيته ، قال أبو نعيم فى الحلية : لما حج على بن الحسين أراد أن يلبى فارتعد وأصبح غير قادر على أن يلبى . .

فشجعوه على التلبية ، حتى لبىّ ، فلما لبى غشى عليه حتى سقط عن الراحلة . .

---

(٣١٠) مهذب الأغانى جـ٧ صـ٢٣٢

(٣١١) البداية والنهاية جـ٩ صـ١٠٥

أى خوف ذلك الذى يظهر أثره فى حياة ذلك الرجل الذى وهب قلبه لله ؟

لقد رُئى فى فناء الكعبة يناجى ربه وهو ساجد عند الحجر قائلا : « عبدك بفنائك ، سائلك بفنائك ، فقيرك بفنائك » يكررها : قال طاووس : فوالله ما دعوت بها فى كرب إلا كشف عنى .

قال الواقدى : كان من أشد الناس ورعا وأعبدهم وأتقاهم لله عز وجل وكان إذا مشى لا يخطر بيده ـ كناية عن التواضع والخشوع ـ وكان يعتم بعمامة بيضاء يرخيها من ورائه .

عن أبى حمزة قال : رأيت على بن الحسين ـ رضى الله عنهما ـ فى فناء الكعبة فى الليل وهو يصلى ، فأطال القيام ، حتى جعل مرة يتوكأ على رجله اليمنى ، ومرة على رجله اليسرى ، ثم سمعته يقول فى صوت كأنه باك : ياسيدى تعذبنى وحبك فى قلبى ؟ أما وعزتك لئن فعلت لتجمعن بينى وبين قوم طالما عاديتهم فيك .(٣١٢)

وقال طاووس : رأيت رجلا يصلى فى المسجد الحرام تحت الميزاب يدعو ويبكى فى دعائه ، فجئته حين فرغ من الصلاة ، فإذا هو على بن الحسين ـ عليهما السلام ـ فقلت : يابن رسول الله رأيتك على حالة كذا ، ولك ثلاثة أرجو أن تؤمنك من الخوف ؛

أحدها ـ أنك ابن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ .

والثانى ـ شفاعة جدك

---

(٣١٢) زين العابدين ص٢٦

والثالث ـ رحمة الله .

فقال : ياطاووس : أما أنى ابن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فلا يؤمننى ، وقد سمعت الله تعالى ـ يقول :« فلا أنساب بينهم يومئذ » .

وأما شفاعة جدى فلا تؤمننى ، لأن الله تعالى يقول :« ولا يشفعون إلا لمن ارتضى »

وأما رحمة الله ـ فإن الله تعالى ـ يقول

إنها« قريب من المحسنين » ولا أعلم أنى محسن . (٣١٣)

لقد كان حقا زين العابدين كما لقبه الناس بذلك ووصفوه . . .

قال ابن كثير : قال أبوبكر بن محمد بن يحيى الصولى ، ثنا العلاء ، ثنا إبراهيم بن بشار عن سفيان بن عيينة عن أبى الزبير قال : كنا عند جابر بن عبدالله ، فدخل عليه على بن الحسين ، فقال ـ جابر ـ كنت عند رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فدخل عليه الحسين بن على فضمه إليه وقبّله وأقعده إلى جنبه ثم قال : يولد لابنى هذا ابن يقال له على . إذا كان يوم القيامة نادى مناد من بطنان العرش : ليقم سيد العابدين فيقوم هو »(٣١٤)

إن العبادة ليست صلاة وصياما وحجا فقط ، ولكن العبادة سلوك ومنهج .

وما شرعت العبادات إلا لتهذيب السلوك ، ولا تؤتى ثمارها إلا إذا أديت على الوجه الأكمل وبالإخلاص المطلوب . .

---

(٣١٣) المرجع السابق . .

(٣١٤) البداية والنهاية جـ٩ صـ١٠٦

فالصلاة إذا لم تنه عن الفحشاء والمنكر كما يقول الله تعالى ـ لا تكون قد أديت كما هو مطلوب .

والصوم إذا لم يهذب السلوك ويقوم النفس ويربي الوجدان ويوقظ الضمير فليس لصاحبه حظ إلا الجوع والعطش .

والحج إذا لم يستشعر الحاج من أدائه عظمة الله وجلال الزيارة . كان حظه منه الظفر باللقب لا غير . .

لقد كانت عباده على زين العابدين عبادة خالصة أثمرت ثمارها المطلوبة .

وتركت أثرها الواضح فى سلوكه وأخلاقه . .

قال جويرية بن أسماء : ما أكل على بن الحسين بقرابته من رسول الله ـ ﷺ ـ درهما قط . .

وكان إذا سافر أو اتجه إلى مكان كتم نسبه .

جاء فى الكامل للمبرد : قيل لعلى بن الحسين ـ وكان بيّن الفضل ـ رحمه الله ـ : ما بالك إذا سافرت كتمت نسبك ؟

فقال : أكره أن آخذ برسول الله ـ ﷺ ـ مالا أعطى مثله (٣١٥)

وفى هذا من الورع والإنصاف والبعد عن الشبهة مافيه . .

فهو ـ رضى الله عنه ـ يعرف أنه لانسب ولا قرابة يوم القيامة ، وأن رحمة رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ للمؤمنين جميعا ـ

قال تعالى فى حقه :

« بالمؤمنين رءوف رحيم »

---

(٣١٥) الكامل جـ١ صـ٣٢٢

وقال ـ تعالى ـ حكاية عنه : ـ

« إنى أخاف إن عصيت ربى عذاب يوم عظيم »

فإذا كان هو ـ ﷺ ـ يخاف من المعصية فكيف يأمنها غيره به ؟

ورعـــه

ومن تمام العبادة الورع ، بل هو ثمارها ، قال ـ تعالى ـ

« إنما يخشى الله من عباده العلماء » .

وإذا لم يثمر العلم بالله وعبادته الخشية والتقوى ، يكون العلم أو العبادة غير ذات أثر .

ولقد كان على بن الحسين قمة فى الورع .

ومن مظاهر ورعه ما يقصه علينا ابن سعد قائلا :

بعث المختار إلى على بن الحسين بمائة ألف ، فكره أن يقبلها ، وخاف أن يردها ، فاحتبسها عنده .

فلما قتل المختار كتب إلى عبد الملك بن مروان : أن المختار بعث إلىَّ بمائة ألف فكرهت أن اقبلها وكرهت أن أردها ، فابعث من يقبضها .

فكتب إليه عبد الملك : ياابن عم خذها طيبة لك[٣١٦]

ومن ورعه أنه كان يمر على الشىء فى وسط الطريق فينزل عن دابته حتى ينحيه بيده عن الطريق .

---

(٣١٦) الطبقات ٥ / ١ / ١٦٠

كرمه

وكان كريما سخيا ، فقد قاسم الله ماله مرتين .

وكان لا يكف عن ترداد قوله ـ تعالى ـ :

« ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون » .

كان كثير الصدقة ، وكان يعطى السائل بيده . قال ابن سعد. حدثنا عبد الله بن داود عن شيخ يقال له « مستقيم » قال : كنا عند على بن الحسين ـ قال : فكان يأتيه السائل فيقوم حتى يناوله ، ويقول : إن الصدقة تقع فى يد الله قبل أن تقع فى يد السائل .

وكانت صدقته أغلبها بالليل ، ويقول فى ذلك : صدقة الليل تطفىء غضب الرب ، وتنور القلب والقبر . وتكشف عن العبد ظلمة يوم القيامة . . .

ومن أقوال علىّ فى الحث على الكرم والتحذير من البخل :

« سادة الناس فى الدنيا الأسخياء الأتقياء ، وفى الآخرة أهل الدين والفضل والعلم الأتقياء ، لأن العلماء ورثة الأنبياء .

ومن أقواله أيضا ـ فيما يرويه ابن كثير ـ : إنى لأستحى من الله ـ عز وجل ـ أن أرى الأخ من إخوانى فأسأل الله له الجنة وأبخل عليه بالدنيا ، فإذا كان يوم القيامة قيل لى : فاذا كانت الجنة بيدك كنت بها أبخل وأبخل وأبخل [٣١٧] .

وعلى الرغم من كثرة كرمه كان البعض يتهمه بالبخل ، لأنه كان يؤثر

---

(٣١٧) البداية والنهاية جـ٩ صـ١٠٦

صدقة السر ـ فلما توفى اكتُشف أنه كان يعول مائة بيت لا يدرون من أين يأتي معاشهم ومن يعطيهم .

لقد رأى من حضروا غسله أثر سواد على عاتقه ، فعرفوا أن ذلك كان من أثر حمل أكياس الدقيق والخبز ليلا حيث يطرق أبواب المحتاجين ليعطيها لهم ، دون أن يكلف أحداً عناء ذلك .

حلمـــه

أما حلمه فحدث عنه ولا حرج . والحلم صفة لا يهبها الله إلا لمن يصطفيه من عباده .

كان يتوضأ وجارية تسكب على يديه الماء فتغافلت فسقط الإبريق من يدها على وجهه فشجه . فرفع رأسه إليها فقالت الجارية : إن الله يقول :

« والكاظمين الغيظ » .

فقال : قد كظمت غيظي .

فقالت : ويقول :

« والعافين عن الناس » . .

فقال : قد عفوت عنك .

فقالت : ويقول :

« والله يحب المحسنين »(٣١٨)

فقال : اذهبي فأنت حرة لوجه الله .(٣١٩)

---

(٣١٨) من آية « الذين ينفقون في السراء والضراء والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين » آل عمران ١٣٤

(٣١٩) البداية والنهاية ٩ /١٠٧

ومما يؤثر من قصص حلمه أنه خرج يوما من المسجد ، فأساء إليه رجل . . . فانتدب الناس له - أى أسرعوا للذب عنه - فقال : دعوه - ثم أقبل ،

فقال : ما ستره الله عنك من عيوبنا أكثر ، ألك حاجة نعينك عليها ؟

فاستحيى الرجل واعتذر ، فألقى إليه عَلِيّ خميصة كانت عليه ، وأمر له بألف درهم . فكان الرجل إذا رآه يقول : أشهد أنك من أولاد النبى .

واختصم هو وابن عمه حسن بن حسن ، فى أمر من الأمور ، فنال منه حسن بن حسن وهو ساكت . فلما كان الليل ذهب على بن الحسين إلى منزل الحسن فقال : يابن عم ، إن كنت صادقا يغفر الله لى ، وإن كنت كاذبا يغفر الله لك . والسلام عليك . ثم رجع ، فلحق به الحسن فصالحه .

وكان هشام بن إسماعيل والى المدينة يسيء إلى على بن الحسين وأهل بيته ، فلما ولى الوليد بن عبد الملك عزل هشاماً ، وأمر به أن يوقف للناس ليأخذوا مظالمهم منه .

واهتم هشام بن اسماعيل اهتماما شديدا وخاف من على بن الحسين - وقد عرف أنه سوف يأخذ بحقه كاملاً منه أمام الأشهاد .

يقول هشام : والله ما كان أحد من الناس أهم إلىّ من على بن الحسين - كنت أقول : رجل صالح يُسمع قولُه . .

وأوقف هشام للناس ، فجمع على بن الحسين - عليه السلام - ولده وخاصته ، ونهاهم عن التعرض له .

وغدا على بن الحسين مارا لحاجة ، فما عرض له ، فناداه هشام بن إسماعيل قائلا : « الله أعلم حيث يجعل رسالته » .

وفى رواية عن عبد الله بن على بن الحسين قال : لما عزل هشام بن إسماعيل نهانا أبى أن ننال منه مايكره ، فإذا أبى قد جمعنا فقال : إن هذا الرجل قد عزل ، وقد أُمِر بوقفه للناس ليأخذوا حقهم منه فلا يتعرض له أحد منكم .

فقلت : يا أبت ولم ؟ والله إن أثره عندنا لسيىء ، وما كنا نطلب إلا مثل هذا اليوم .

قال : يابنى ، نكله إلى الله .

قال عبد الله : فوالله ما عرض له أحد من آل الحسين بحرف حتى تصرم أمره . هذا هو الحلم الجميل ، وهو الذى يكون عن قدرة .

لقد كان فى إمكان على بن الحسين أن يأخذ بحقه من ذلك الذى طالما تطاول عليه ولكنه وكل أمره إلى الله ، وترك حقه لله . .

وبالحلم يسود الرجل فى قومه ، استمع إلى قول الشاعر :

تحلم عن الأدنين تستبق ودهم ... ولن تستطيع الحلم حتى تحلما

إنه يقول : إن فى إمكان الرجل ، أن ينال الحلم بالتحلم ، كما يمكن أن ينال العلم بالتعلم .

ولكن زين العابدين أكرمه الله بأن جعل فيه صفة الحلم سجية لا تكلفا ، وطبعا لا تطبعا .

عن أبى حمزة الثمالى قال : إن على بن الحسين كان إذا خرج من بيته قال : اللهم إنى أتصدق اليوم على كل محتاج أقابله . . لقد كان على ضد العنف أيا كان ، حتى ولو كان على راحلة يريد أن يستحثها . فكان يخرج على راحلته إلى مكة ويرجع لا يقرعها .

إن هذا الحلم هو مظهر سكينة النفس وخشوعها ، وهو أمر لا يطيقه إلا من كان من معين النبوة ومعدنها .

لقد لقيه يوما رجل فأساء إليه . فالتفت إليه يقول .

يا هذا ، إن بينى وبين جهنم عقبة إن أنا جزتها فما أبالى بما قلت فىَّ ، وإن لم أجزها فأنا أكثر مما تقول فىَّ . ألكَ حاجة ؟

فخجل الرجل ، وانصرف .

لقد كان مثل هؤلاء الذين يؤذون على بن الحسين من خصومه أو من أتباعهم ـ وكان هو دائما يعفو ويصفح . .

ومن أعظم الدلائل على حلمه مارواه ابن أبى الدنيا من أن غلاما سقط من يده سفود وهو يشوى شيئا فى التنور على رأس صبى لعلى بن الحسين فقتله ، فنهض على بن الحسين مسرعا . فلما نظر إلى الغلام وقد ارتعد ـ قال إنك لم تتعمد ، أنت حر . ثم شرع فى جهاز ابنه(٣٢٠) .

صبره

والصبر قرين الحلم ، وقد كان على زين العابدين غاية فى الصبر ، وانظر إلى كثرة البلاء الذى تعرض له ، حتى لقد فَقَد أسرته كلها تقريبا فى ساعة واحدة ، ومع ذلك فقد احتسب ما أصابه عند الله ، ولجأ إليه فى محنته فأعقبه الله صبرا جميلا ، وكان يقول : ما أصيب امرؤ فجعل كلما تذكر مصيبته قال : إنا لله وإنا إليه راجعون ـ إلا أعقبه الله من الأجر مثلما أعقبه يوم مصيبته .

---

(٣٢٠) البداية والنهاية جـ٩ صـ١١٤

وكان يوصي أهله وأصحابه بالصبر ، كما أوصى لقمان ابنه قائلا : واصبر على ماأصابك إن ذلك من عزم الأمور .

حدث العتبى قال : حدثنى أبي ـ قال : قال على بن الحسين ـ وكان من أفضل بنى هاشم : يابنى ، اصبر على النوائب ولا تتعرض للحقوق ، ولا تخيب أخاك إلا فى الأمر الذى مضرته عليك أكثر من منفعته لك .

وروى الطبرانى بإسناده عنه : أنه كان جالسا فى جماعة فسمع داعية فى بيته ، فنهض فدخل منزله ، ثم رجع إلى مجلسه .

فقيل له : أمن حدث كانت الداعية ؟

قال : نعم ، فعزوه وتعجبوا من صبره .

فقال : إنا أهل بيت نطيع الله ـ عز وجل ـ فيما نحبه ، ونحمده على ما نكره .

وروى الطبرانى عنه قال : إذا كان يوم القيامة نادى مناد : ليقم أهل الفضل ـ فيقوم ناس من الناس . فيقال لهم : انطلقوا إلى الجنة فتتلقاهم الملائكة ، فيقولون : إلى أين ؟ فيقولون : إلى الجنة . فيقولون : قبل الحساب ؟

فيقولون : نعم .

قالوا : من أنتم ؟

قالوا : نحن أهل الفضل .

قالوا : وماكان فضلكم ؟

قالوا : كنا إذا جُهِل علينا حملنا ، وإذا ظُلِمنا صبرنا ، وإذا أسيء إلينا غفرنا .

قالوا لهم : ادخلوا الجنة فنعم أجر العاملين .

ثم ينادى منادى : ليقم أهل الصبر .

فيقوم ناس من الناس ، فيقال لهم : انطلقوا إلى الجنة ، فتتلقاهم الملائكة فيقولون لهم مثل ذلك ، فيقولون : نحن أهل الصبر .

قالوا : فما كان صبركم ؟

قالوا : صبرنا أنفسنا على طاعة الله ، وصبرناها عن معصية الله ، وصبرناها على البلاء .

فقالوا لهم : ادخلوا الجنة فنعم أجر العاملين .[٣٢١]

وإن من الصبر ما يكون على ما ينتاب الإنسان من إيذاء للمشاعر ، وكان على بن الحسين يغض الطرف والسمع عمن يؤذيه . وكان يقول :

ما تجرعت جرعة أحب إلىَّ من جرعة غيظ أُعقبها صبرا ، وما أحب أن يكون لى بذلك حمر النعم .

والصبر على شظف العيش من علامات أولى العزم ، والصبر على الطاعة من علامات الأولياء الصالحين ، وكذلك الصبر عن معصية الله .

كانت تضيق الحياة من حوله أحيانا كثيرة فيصبر حتى تنفرج الضوائق دون أن يشكو .

وكان يديم العبادة ويستلذها ، حتى قيل إنه كان يصلى أحيانا فى اليوم والليلة ألف ركعة . .

ولا يقولن أحد : وكيف يطيق ذلك ؟ وأين الوقت الذى يسع ذلك ؟

---

(٣٢١) البداية والنهاية جـ٩ صـ١٠٧

إن الله يبارك لهؤلاء القوم فى أوقاتهم حتى ينجزوا فى الوقت القصير العمل الكثير . وماظنك بمن يقرأ القرآن فى يومه أو فى بعض يومه ، ومن يقرأ به كله فى صلاته من ليل أو نهار ؟

إن هناك قصصا كثيرة تروى فى ذلك ، ولا مطعن فيها ، لأن ذلك من قبيل الكرامات التى يكرم الله بها من يشاء من عباده .

كيف تمكن العلماء القدامى مثلا من تأليف كتبهم التى لم يسبقوا إليها ، وإن منهم من ترك مئات المؤلفات بعده ، فى حين أن عمره القصير ما كان يمكِّنُه من ذلك لولا عناية الله الذى بارك له فى عمره ـ ولولا ذلك ما أنجز عشر ما أنجز . . ؟

علمــه

طريق العلم التعلم وكان زين العابدين لا يقصر فى سلوك طريق يحصل منه علما .

قال ابن كثير : كان على بن الحسين إذا دخل المسجد تقدم حتى يجلس فى حلقة زيد بن أسلم .

فقال نافع بن جبير بن مطعم : غفر الله لك ـ أنت سيد الناس تأتى تتخطى حلق العلم وقريش ، حتى تجلس مع هذا العبد الأسود ؟

فقال على بن الحسين : إنما يجلس الرجل حيث ينتفع ، وإن العلم . يطلب حيث كان . .

وقال الأعمش عن مسعود بن مالك : قال لى على بن الحسين : هل تستطيع أن تجمع بينى وبين سعيد بن جبير ؟

فقلت : وما تصنع به ؟

قال : أريد أن أسأله عن أشياء ينفعنا الله بها ، ولا منقصة .

إنه ليس عندنا ما يرمينا به هؤلاء . وأشار بيده إلى العراق .

ويقصد بقوله « ما يرمينا به هؤلاء » ما يزعم بعض الشيعة أن الله خص أهل البيت بعلم لم يُمكِّن غيرهم منه .

فبهذه الوسيلة التي جاء فيها قوله ـ ﷺ ـ : « من سلك طريقا يطلب فيه العلم سهل الله له طريقا إلى الجنة » . . تعلم زين العابدين .

كان يقصد الشيوخ ويجلس إليهم ويأخذ عنهم . . . وله أحاديث كثيرة رواها ورويت عنه . وسنعرض لبعض هذه الأحاديث .

ومن الوسائل التي تعين على اكتساب العلم التقوى والورع ـ فالله تعالى يقول :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيۡنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى فَٱكۡتُبُوهُۚ وَلۡيَكۡتُب بَّيۡنَكُمۡ كَاتِبُۢ بِٱلۡعَدۡلِۚ وَلَا يَأۡبَ كَاتِبٌ أَن يَكۡتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُۚ فَلۡيَكۡتُبۡ وَلۡيُمۡلِلِ ٱلَّذِي عَلَيۡهِ ٱلۡحَقُّ وَلۡيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ وَلَا يَبۡخَسۡ مِنۡهُ شَيۡـٔٗاۚ فَإِن كَانَ ٱلَّذِي عَلَيۡهِ ٱلۡحَقُّ سَفِيهًا أَوۡ ضَعِيفًا أَوۡ لَا يَسۡتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلۡيُمۡلِلۡ وَلِيُّهُۥ بِٱلۡعَدۡلِۚ وَٱسۡتَشۡهِدُواْ شَهِيدَيۡنِ مِن رِّجَالِكُمۡۖ فَإِن لَّمۡ يَكُونَا رَجُلَيۡنِ فَرَجُلٞ وَٱمۡرَأَتَانِ مِمَّن تَرۡضَوۡنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ أَن تَضِلَّ إِحۡدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحۡدَىٰهُمَا ٱلۡأُخۡرَىٰۚ وَلَا يَأۡبَ ٱلشُّهَدَآءُ إِذَا مَا دُعُواْۚ وَلَا تَسۡـَٔمُوٓاْ أَن تَكۡتُبُوهُ صَغِيرًا أَوۡ كَبِيرًا إِلَىٰٓ أَجَلِهِۦۚ ذَٰلِكُمۡ أَقۡسَطُ عِندَ ٱللَّهِ وَأَقۡوَمُ لِلشَّهَٰدَةِ

وَأَدْنَىٰٓ أَلَّا تَرْتَابُوٓا۟ ۖ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا ۗ وَأَشْهِدُوٓا۟ إِذَا تَبَايَعْتُمْ ۚ وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ ۚ وَإِن تَفْعَلُوا۟ فَإِنَّهُۥ فُسُوقٌۢ بِكُمْ ۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ (٢٨٢) ﴾ (٣٢٢)

ويقول :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ (٢٩) ﴾ (٣٢٣)

والأثر الشريف يقول « من عمل بما علم ورثه الله علم ما لم يعلم » .

إن مثل هذا العلم هبة من الله يفيض به على قلب من يشاء من عباده نتيجة لمجاهدة نفسه وحملها على الطاعة ، وزجرها عن المعصية ، وقد جاء فى شأن هؤلاء قوله ـ تعالى ـ :

﴿ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا (٦٥) ﴾ (٣٢٤)

والعلم الأول يسمى العلم الكسبى ، والعلم الثانى يسمى العلم الوهبى .

---

(٣٢٢) البقرة ٢٨٢
(٣٢٣) الأنفال ٢٩
(٣٢٤) الكهف ٦٥

وقد كان زين العابدين على درجة عالية من العلم ، فقد سلك الطريق إلى العلم بمجالسة العلماء ومساءلتهم ومناقشتهم . .

وقد هذب نفسه بالطاعة حتى صفت مرآة قلبه وأصبحت قابلة لتلقى فنون الحكمة التى يقول الله فيها :

﴿ يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿٢٦٩﴾ ﴾.(٣٢٥)

وقد ظهر أثرُ ذلك فيما أُثِر عنه من روائع الحكمة ، وضروب الموعظة ، والمعرفة الدقيقة بأحكام الفقه ، والخبرة التامة بأحوال الدين والدنيا ، والمقدرة على مناقشة الخصوم وتفنيد حججهم وآرائهم . .

ونعرض ألوانا من ذلك لندرك من خلالها أى عالم فطن كان زين العابدين .

روى سفيان بن عيينة عن الزهرى قال : دخلت على على بن الحسين فقال : يازهرى فيم كنتم ؟

قلت : كنا نتذاكر الصوم ـ فاتفق رأيى ورأى أصحابى على أنه ليس من الصوم شيء واجب ، إلا شهر رمضان .

فقال : يازهرى ، ليس كما قلتم ، الصوم على وجوه كثيرة ، عشرة منها واجب كوجوب شهر رمضان ، وعشرة منها حرام ، وأربعة عشر منها صاحبها بالخيار ، إن شاء صام وإن شاء أفطر . وصوم النذر واجب ، وصوم الاعتكاف واجب .

---

(٣٢٥) البقرة ٢٦٩

قال الزهرى : قلت ، فسرهن يابن رسول الله - ﷺ -

قال زين العابدين : أما الواجب فصوم شهر رمضان ، وصوم شهرين متتابعين فى قتل الخطأ لمن لم يجد العتق ، وصيام ثلاثة أيام كفارة اليمين لمن لم يجد الإطعام ، وصيام حلق الرأس ، وصوم دم المتعة لمن لم يجد الهدى ، وصوم جزاء الصيد .

أما الذى صاحبه بالخيار فصوم الاثنين والخميس ، وستة أيام من شوال بعد رمضان ، وصوم يوم عرفة ، ويوم عاشوراء ، كل ذلك صاحبه بالخيار .

فأما صوم الإذن فالمرأة لا تصوم تطوعا إلا بإذن زوجها . .

وأما صوم الحرام ، فصوم يوم الفطر والأضحى ، وأيام التشريق ، ويوم الشك - نهينا أن نصومه لرمضان ، وصوم الوصال حرام . وصوم الصمت حرام ، وصوم نذر المعصية حرام ، وصوم الدهر ، وصوم الضيف - لا يصوم تطوعا إلا بإذن صاحبه . . قال رسول الله - ﷺ - : « من نزل على قوم فلا يصومن تطوعاً إلا بإذنهم » .

ويؤمر الصبى بالصوم تأنيسا وليس بفرض ، وكذلك من أفطر لعلة من أول النهار ثم وجد قوة فى بدنه أمر بالإمساك وليس بفرض - وكذلك المسافر إذا أكل فى أول النهار ثم قدم أمر بالامساك .

وأما صوم المريض والمسافر فقال قوم : يصوم ، وقال قوم : لا يصوم ، وقال قوم : إن شاء صام وإن شاء أفطر .

واستمع إلى مناقشته لأولئك الذين وقعوا فى حق أصحاب رسول الله - ﷺ - .

قال الزبير بن بكار فى سند متصل إلى على بن الحسين ـ قال : جلس قوم من الرافضة فذكروا أبا بكر وعمر فنالوا منهما ، ثم ابتدءوا فى عثمان . . فقال علىٌ لهم : أخبرونى أأنتم من المهاجرين الأولين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلا من الله ورضوانا وينصرون الله ورسوله ؟

قالوا : لا .

قال : فأنتم من الذين تبوءوا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم ؟

قالوا : لا .

فقال لهم : أما أنتم فقد أقررتم وشهدتم على أنفسكم أنكم لستم من هؤلاء ولا من هؤلاء ، وأنا أشهد أنكم لستم من الفرقة الثالثة الذين قال الله فيهم « والذين جاءوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل فى قلوبنا غلا للذين آمنوا . . »

فقوموا عنى لا بارك الله فيكم ولا قرب دوركم ، أنتم مستهزئون بالإسلام ولستم من أهله[٣٢٦]

ومن فقهه وورعه أنه كان يدل الناس على طرق الخير ، ويفتح لهم باب النجاة ، ويهديهم إلى سبل الرشاد .

قال ابن سعد : أخبرنا على بن محمد بن يزيد بن عياض قال : أصاب الزهرى دماً خطأً ، فخرج وترك أهله وضرب فسطاطاً ، وقال : لا يظلنى سقيف بيت .

---

(٣٢٦) البداية والنهاية جـ٩ صـ١٠٧

فمر به على بن حسين فقال : يا بن شهاب قنوطك أشد من ذنبك ، فاتق الله واستغفره ، وابعث إلى أهله بالدية ، وارجع إلى أهلك .

فكان الزهرى يقول : على بن حسين أعظم الناس مِنّة علىّ .[327]

وكان من أعلم الناس بالسنة . فقد أخبر على بن محمد عن عثمان بن عثمان .

قال : زوج على بن حسين ابنة له من مولاه ، وأعتق جارية له وتزوجها فكتب إليه عبد الملك بن مروان يعيره بذلك .

فكتب إليه على يقول : كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة ، قد أعتق رسول الله ـ ﷺ ـ صفية بنت حيى وتزوجها ، وأعتق زيد بن حارثة وزوجه ابنة عمته زينب بنت جحش[328]

هذه أجوبة تدل على فقه ، وتنم عن علم ، والعلم لا يكون علما إلا إذا طبقه العالم عمليا فاستفاد منه وأفاد غيره . وإلا أصبح العالم مجرد كتاب يضاف إلى مجموعة الكتب فى المكتبات العامة ، وقد قيل لبعض العلماء يوما : إن فلانا حفظ القاموس ، فقال : زادت نسخ القاموس نسخة .

يعنى بذلك : ما قيمة حفظه لكتاب إذا لم يستفد مما تعلمه منه فى حياته .

ولكن زين العابدين لم يكن كذلك . كان عالماً عاملا بما علم . . ومن هنا كانت مضاعفات العلم فى حياته ، ونفعه لغيره بما تعلمه .

قال الرواة : مات لرجل ولد مسرف على نفسه فجزع عليه من أجل إسرافه .

---

(٣٢٧) الطبقات جـ٥ قسم ١ صـ١٥٩

(٣٢٨) المصدر السابق

فقال له على بن الحسين : إن من وراء ابنك خلالا ثلاثا ، شهادة ألَّا إله إلا الله ، وشفاعة رسول الله ، ورحمة الله - عز وجل -

فاتعظ الرجل وتصبَّر .

ولقد أسند على بن الحسين الكثير - وسمع من ابن عباس وجابر ومروان وصفية وأم سلمة وغيرهم من الصحابة - رضى الله عنهم -

ونحن نذكر بعض رواياته انتفاعا بها .

عن على بن الحسين أن عبد الله بن عباس حدثه - قال : اخبرنى رجل من أصحاب رسول الله - ﷺ - من الأنصار قال : بينما هم جلوس ليلة مع النبى - ﷺ - إذ رُمِى بنجم فاستنار ، فقال لهم رسول الله - ﷺ - : « ما كنتم تقولون فى الجاهلية إذا رمى بمثل هذا ؟ »

قالوا : الله ورسوله أعلم ، كنا نقول : ولد الليلة رجل عظيم ، ومات الليلة رجل عظيم .

فقال رسول الله - ﷺ - : « فإنها لا يرمى بها لموت أحد ولا لحياته ، ولكن ربنا إذا قضى أمراً سبحه حملة العرش ، ثم سبحه أهل السماء الذين يلونهم ، ثم سبحه أهل السماء الذين يلونهم حتى يبلغ التسبيح أهل السماء الدنيا - ثم يقول الذين يلون حملة العرش لحملة العرش - : ماذا قال ربكم ؟

فيجيبونهم ، فيستخبر أهل السموات بعضهم بعضا حتى يبلغ الخبر هذه السماء الدنيا فتخطف الجن السمع فيلقونه إلى أوليائهم ، فما جاءوا به على وجهه فهو صحيح ، ولكنهم يفرقون فيه ويزيدون ، فترمى الشياطين بالنجوم »[٣٢٩]

---

(٣٢٩) الحلية ١٤٣/٣

وعن ابن شهاب الزهرى عن على بن الحسين أن صفية ـ رضى الله عنها ـ أخبرته أنها جاءت إلى رسول الله ـ ﷺ ـ تزوره وهو معتكف فى المسجد فحدثته . قالت ثم قمت فقام معى ـ وكان مسكنها فى دار أسامة بن زيد ـ فمر رجلان من الأنصار ، فلما رأيا النبى ـ ﷺ ـ أسرعا .

فقال رسول الله ـ ﷺ ـ : « على رسلكما ، إنها صفية بنت حيى »

فقالا : سبحان الله ، يارسول الله .

فقال : « إن الشيطان يجرى من الإنسان مجرى الدم ، وإنى خشيت أن يقذف فى قلوبكما شيئا »(٣٣٠)

وعن الزهرى عن على بن الحسين ، وأخبرنى رجل من أهل العلم أن النبى ـ ﷺ ـ قال : تمد الأرض يوم القيامة مد الأديم لعظمة الرحمن ـ عز وجل ـ فلا يكون لرجل من بنى آدم فيه إلا موضع قدميه ، ثم أُدْعَى أول الناس فأخر ساجدا ، ثم يؤذن لى ، فأقول : يارب أخبرنى جبريل هذا ـ وجبريل عن يمين العرش ـ أنك أرسلته إلىَّ ، وجبريل ساكت ، ثم يؤذن لى فى الشفاعة ، فأقول : أى رب عبادك عبدوك فى أطراف الأرض . فذلك المقام المحمود .(٣٣١)

قال أبو نعيم : صحيح . . تفرد بهذه الألفاظ على بن الحسين ـ لم يروه عنه إلا الزهرى ولا عنه إلا إبراهيم بن سعد .

وعلى بن الحسين هو أفضل وأنقى من أن يَرْوِه عن رجل لا يعتمده ، فينسبه إلى العلم ويطلق القول به .

---

(٣٣٠) الحلية ١٤٥/٣

(٣٣١) المصدر السابق

لقد وثقه أبو نعيم بهذه العبارة . .

لقد غرس الله فى قلب على بن الحسين علماً زَكَتْ أصوله وبسقت غصونه ونمت فروعه وآتى أكله ، وتلقفه عنه الناس ، وذاع فى الآفاق . . . وكانت طريقته أنه لا يكتم علماً يعرف أنه يفيد غيره منه .

حدث موسى بن أبى حبيب عنه قال : التارك للأمر بالمعروف والنهى عن المنكر كنابذ كتاب الله وراء ظهره إلا أن يتقى تقاة .

قيل : وما تقاته ؟

قال : يخاف جباراً عنيداً أن يفرط عليه أو أن يطغى .

وكان يقول : من كتم علما عن أحد ، أو أخذ عليه أجراً رفداً فلا ينفعه أبداً .[٣٣٢]

حدث أبوحمزة الثمالى عنه : قال : كنت عند على بن الحسين فإذا عصافير يطرن حوله يصرخن ، فقال : يا أبا حمزة ، هل تدرى ما يقول هؤلاء العصافير ؟

فقلت : لا .

قال : فإنها تقدس ربها عز وجل ، وتسأله قوت يومها .[٣٣٣]

إن إخباره عن ذلك من العلم الذى أفاضه عليه ربه ببركة ورعه وتقواه . . وحدث أبوحمزة أيضاً قال :

أتيت باب على بن الحسين ، فكرهت أن أضرب الباب ، فقعدت حتى خرج فسلمت عليه ودعوت له ، فرد على السلام . ودعا لى .

---

(٣٣٢) المرجع السابق صـ١٤٠

(٣٣٣) المرجع السابق

ثم انتهى إلى حائط له ، فقال : يا أباحمزة ترى هذا الحائط ؟

قلت : بلى يا بن رسول الله ـ ﷺ ـ

قال : فإنى اتكأت عليه يوما وأنا حزين ، فإذا رجل حسن الوجه حسن الثياب ينظر فى تجاه وجهى .

ثم قال : يا على بن الحسين ، مالى أراك كئيباً حزيناً ؟ أعلى الدنيا ـ فهو رزق حاضر ، يأكل منها البر والفاجر ؟

فقلت : ما عليها أحزن لأنها كما تقول .

فقال : أعلى الآخرة ؟ هو وعد صادق ، يحكم فيها ملك قاهر . .

قلت : ماعلى هذا أحزن . . لأنه كما تقول .

قال : وما حزنك يا على بن الحسين ؟

قلت : ما أتخوف من الفتنة بين المسلمين .

فقال لى : يا على ، هل رأيت أحداً سأل الله فلم يعطه ؟

قلت : لا .

ثم قال : هل رأيت أحداً خاف الله فلم يكفه ؟

قلت : لا .

ثم غاب عنى . فقيل لى : يا على هذا الذى ناجاك هو العبد الصالح الذى جعله الله من آياته . . . وقال كثير من العلماء إن الله يظهره لمن شاء من خلقه ـ وإن الأنبياء لتتعلم على يديه . . . وهو المعنى بقوله تعالى : « وعلمناه من لدنا علما » وقد دل الله موسى عليه .

مهابة على بن الحسين :

قال عليه الصلاة والسلام : « من تواضع لله رفعه » .

وما تحلى عبد بحلية التواضع إلا أعطاه الله هيبة ورفعة فى قلوب الناس .
وحلية العلم التواضع ، وكان زين العابدين من أخشى الناس وأكثرهم ورعا لله ، وأشدهم تواضعاً لله - حتى إنه ليؤثر عنه أنه قال : « ما أحب أن لى بنصيبى من التواضع حمر النعم » .

ويلغ من ورعه أنه قاله : « من ضحك ضحكة مج من العلم مجة » .

ويعلل العلماء الرفعة التى يتحلى بها المتواضع بقولهم : إن المتواضع أذل نفسه لله وبذلها فى ذاته فأكسبه الله بذلك عزة ومهابة فى عيون الخلق .

ومعنى التواضع : خفض الجناح للناس ولين الجانب لهم .

وسئل الفضيل بين عياض عن التواضع فقال : تخضع للحق وتنقاد له وتقبله ممن قاله . .

وشرطه أن يتواضع دون تكلف ، وألا يرى فى نفسه أنه متواضع . . قال الفضيل : من رأى لنفسه قيمة فليس له فى التواضع نصيب .[334]

وقال ابن عطاء الله السكندرى : « ليس المتواضع الذى إذا تواضع رأى أنه فوق ما صنع ، ولكن المتواضع الذى إذا تواضع رأى أنه دون ما صنع » .

وقال : « من أثبت لنفسه تواضعاً فهو المتكبر حقاً إذ ليس التواضع إلا عن رفعة فمتى أثبت لنفسك تواضعاً فأنت المتكبر حقاً » .[335]

وبهذا الشرط يتجلى الله على المتواضع بصفة الرفعة ، فيخلع عليه المهابة ويحليه بالعزة التى تعنو لها جباه العصاة .

---

(٣٣٤) الرسالة القشيرية صـ٧٥

(٣٣٥) ابن عطاء الله جـ٢ صـ٦١

وقد كان على بن الحسين متواضعاً حقاً .. لأنه مدرك لجلال الله مستحضر لهيبته ، وقد مر بنا من سيرته ما يدل على ذلك .

وقد أكسبه التواضع رفعة وهيبة فى قلب من يراه .. ونستشهد على ذلك بمثالين ...

أما أحدهما فيقصه علينا أبونعيم ـ يقول :

بعد أن تولى عبدالملك بن مروان الحكم أمر أن يحمل إليه على بن الحسين ...

فقال ابن شهاب الزهرى : شهدت على بن الحسين يوم حمل إلى عبدالملك بن مروان من المدينة إلى الشام ، ووكل به عبدالملك حراسا ..

قال : فاستأذنتهم فى التسليم عليه وتوديعه . فأذنوا لى ..

فدخلت عليه ،وهو فى قبة فبكيت وقلت : وددت أنى فى مكانك وأنت سالم .

فقال : يا زهرى ، أتظن أن هذا يكربنى ؟ إننى بعون من الله ومشيئته لو شئت أن لا يكون ذلك ما كان .

ثم قال : يا زهرى ، لا جزت معهم على ذا منزلتين من المدينة .

قال : فما لبثنا إلا أربع ليال حتى قدم الموكلون به يطلبونه بالمدينة فما وجدوه . فكنت فيمن سألهم عنه . فقال لى بعضهم : إنا لنراه متبوعاً ، إنه لنازل ونحن حوله لا ننام نرصده ، وإذ أصبحنا فما وجدناه فى محمله ..

قال الزهرى : فقدمت بعد ذلك على عبدالملك بن مروان ، فسألنى عن على بن الحسين فأخبرته الخبر .

فقال لى : إنه قد جاءنى فى يوم فقده الأعوان ، فدخل علىَّ . فقال : ما أنا وأنت ؟

فقلت : أقم عندى .

فقال : لا أحب .

ثم خرج ، فوالله لقد امتلأ ثوبى منه خيفة .

قال الزهرى : فقلت : يا أمير المؤمنين ، ليس على بن الحسين حيث تظن ـ إنه مشغول بنفسه .

فقال : حبذا شغل مثله ، فنعم ما شغل به .

قال راوى الخبر : وكان الزهرى إذا ذكر على بن الحسين يبكى ويقول : زين العابدين . .[٣٣٦]

فانظر كيف امتلأ قلب عبدالملك بن مروان فى سلطانه ورياسته خوفاً من على بن الحسين . وإن عبدالملك بين حشمه وأعوانه ، وإن علياً لأعزل مجرد من السلاح ، إلا سلاح تواضعه لله ، وتقواه لله ، وخوفه منه . .

أما القصة الثانية فهى ذائعة شائعة يرويها الرواة ويتناقلونها فيما بينهم ، ونحن ننقلها من مهذب الأغانى . . قال :

حج الفرزدق بعد ما كبر ، وقد أتت له سبعون سنة ، وكان هشام بن عبدالملك قد حج فى ذلك العام ، فرأى على بن الحسين فى غمار الناس فى الطواف فقال : من هذا الشاب الذى يلتف حوله الناس . .

فقالوا : هذا على بن الحسين بن على بن أبى طالب ـ فقال الفرزدق :

هذا الذى تعرف البطـــحاء وطـأته والبيت يعـــــرفه والحل والحرم
هذا ابن خـــير عباد الله كلهـــم هذا التقـــى النقى الطاهر العلم

---

(٣٣٦) الحلية جـ٣ صـ٦٣٥

هذا ابن فاطمة إن كنت جاهله ... بجده أنبياء الله قد ختموا
وليس قولك من هذا بضائرة ... العرب تعرف من أنكرت والعجم
إذا رأته قريش قال قائلها ... إلى مكارم هذا ينتهي الكرم
يغضى حياءً ويُغْضَى من مهابته ... فما يُكلَّم إلا حين يبتسم
يكاد يمسكه عرفان راحته ... ركن الحطيم إذا ما جاء يستلم
الله شرفه قِدْماً وعظَّمة ... جرى بذاك له فى لوحه القلم
أى الخلائق ليست فى رقابهم ... لأوَّلية هذا أو له نعم
من يشكر الله يشكر أوَّلية ذا ... فالدين من بيت هذا ناله الأمم
ينمى إلى ذروة الدين التى قصرت ... عنها الأكف وعن إدراكها القدم
من جده دان فضل الأنبياء له ... وفضل أمته دانت له الأمم
مشتقة من رسول الله نبعته ... طابت مغارسه والخيم والشيم
ينشق نور الدجى عن نور غرته ... كالشمس تنجاب عن إشراقها الظلم
من معشر حبهم دين وبغضهم ... كفر وقربهم منجى ومعتصم
مقدم بعد ذكر الله ذكرهم ... فى كل بدء ومختوم به الكلم
إن عد أهل التقى كانوا أئمتهم ... أو قيل : من خير أهل الأرض ؟ قيل : همُ
لا يستطيع جواد بعد جودهم ... ولا يدانيهم قوم وإن كرموا
يستدفع الشر والبلوى بحبهم ... ويسترب به الإحسان والنعم . .

فغضب هشام ، وحبس الفرزدق بين مكة والمدينة فى مكان اسمه عسفان فقال الفرزدق :

أتحبسنى بين المدينة والتى ... إليها قلوب الناس يهوى مُنيهُا
يُقَلِّبُ رأساً لم يكن رأس سيد ... وعيناً له حولاء بادٍ عيوبُها

فبلغ هشاماً شعره فأطلقه . .[٣٣٧]

وماأطلقه هشام إلا خوفا من لسانه . . فانظر ، كيف لم ترفع هشاما سلطته ورئاسته فى عين الناس ، كما رفعت علياً خشيته لله وتواضعه له . .

ولم يخش الفرزدق صولة هشام على الرغم من سجنه فقد هجاه وهو فى السجن . وأرسل إليه على بن الحسين وهو فى سجنه باثنى عشر ألف درهم ، فلم يقبلها ، وقال : إنما قلت ماقلت لله والحق وقياما بحق رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى ذريته ، ولست أعتاض عن ذلك بشيء . فأرسل إليه على بن الحسين يقول : قد علم الله صدق نيتك فى ذلك وقد أقسمت عليك بالله لتقبلنها . فقبلها منه .

وقد روى ابن كثير هذه القصة من طرق أخرى كثيرة . . ذكر فى أولها أن هشام بن عبدالملك حج فى خلافة أبيه وأخيه الوليد ، فطاف بالبيت ، فلما أراد أن يستلم الحجر لم يتمكن حتى نصب له فاستلم وجلس عليه . وقام أهل الشام حوله ، فبينما هم كذلك إذ أقبل على بن الحسين ، فلما دنا من الحجر ليستلمه تنحى عنه الناس إجلالا له وهيبة واحتراما . .

فقال أهل الشام لهشام : من هذا ؟

فقال : لاأعرفه ـ تجاهلا ـ لئلا يرغب فيه أهل الشام . فقال الفرزدق وكان حاضرا : أنا أعرفه . . فقالوا : من هو؟ فأنشأ القصيدة .[٣٣٨]

على بن الحسين وشيعته

موقفه من المختار : كان على بن الحسين يستريب بالمختار ويظنه غير

---

(٣٣٧) مهذب الأغانى ـ محمد الخضرى جـ٥ صـ١٤٩

(٣٣٨) البداية والنهاية جـ٩ صـ١٠٨

صادق فى موقفه من أهل البيت . وحين أرسل المختار برأس ابن زياد إلى ابن الحنفية فى مكة ـ وكان معه على بن الحسين ، أثنى كثير من الناس على المختار . . .

فلما رأى على بن الحسين رأس ابن زياد ترحم على أبيه وقال : أُتِى عبيدالله بن زياد برأس الحسين وهو يتغدى ، وجىء لنا برأس عبيدالله بن زياد ونحن نتغدى ولم يزد .

وكان ابن عباس يمتدح المختار ويقول : أصاب بثأرنا وآثرنا ووصلنا . أما على بن الحسين ، فكان ظنه فيه غير ذلك ، كان لايثق فيه ـ وكان رأيه فيه كرأى عمه ـ محمد بن الحنفية .

قال ابن سعد : أخبرنا الفضل بن وليد قال : أخبرنا عيسى بن دينار المؤذن قال : سألت أبا جعفر عن المختار فقال : إن على بن الحسين قام على باب الكعبة وهاجم المختار . فقال له رجل : جعلنى الله فداك ، تهاجمه وإنما قاتل من أجلكم ؟

فقال : إنه كذاب يكذب على الله ورسوله .(٣٣٩)

وأرسل المختار إلى على بن الحسين مائة ألف درهم ، فتورع عن قبولها وكره أن يردها . وكتب بذلك إلى عبدالملك بن مروان حين استقر له الأمر وقال له : أرسل من يقبضها . .

فقال له عبدالملك : يابن عم هى طيبة لك . فقبلها ـ وكان يطلب من شيعته أن لايغالوا فى حبهم ، وكان يقول : يأيها الناس أحبونا حب الإسلام ، فما برح بنا حبكم حتى صار علينا عيباً . . وقال يحيى بن سعيد :

---

(٣٣٩) الطبقات ٥ /١ /١٥٨

قال على بن حسين : أحبونا حب الإسلام فو الله مازال بنا ماتقولون حتى بغضتمونا إلى الناس .

وأخبر سفيان عن عبدالله بن عبدالرحمن بن موهب قال : جاء نفر إلى على بن الحسين فأثنوا عليه وغالوا فى ذلك فقال : ماأكذبكم وما أجرأكم على الله نحن من صالحى قومنا ، ويحسبنا أن نكون من صالحى قومنا .(٣٤٠)
لقد كان يغضب حين يصفه بعض الناس بمايرى أنه ليس فيه ، أو يخلع عليه من المناقب مايعلم أن ذلك مخالف للواقع .

وكان يقدر صحابة رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ كان يثنى على أبى بكر وعمر وعثمان ـ رضى الله عنهم ـ وقد رأينا كيف غضب على هؤلاء القوم الذين أرادوا أن ينتقصوا من قدرهم . وكان دائم الترحم على أبى بكر وعمر وعثمان .

وقال عن عثمان رضى الله عنه ـ: والله ماقتل عثمان على وجه الحق . .

موقفه من الأمويين :

وكان على بن الحسين محبوباً من الأمويين وكانوا يقدرونه حق قدره ، وحين وقع عبدالملك فى شباك الوشاة فأرسل يستدعى على بن الحسين مقيداً ، سرعان ماثاب إلى رشده وأدرك أنه كان على خطأ فى إساءة الظن به ، فرده مكرما إلى المدينة . .

قال الزهرى : كان أكثر مجالستى مع على بن الحسين ومارأيت أفقه منه وكان قليل الحديث ، وكان من أفضل أهل بيته وأحسنهم طاعة وأحبهم إلى الناس وكان يسمى زين العابدين .

---

(٣٤٠) المصدر السابق

وذكره مرة فقال : كان أقصد أهل بيته وأحسنهم طاعة وأحبهم إلى مروان وعبدالملك .

حتى فى أيام يزيد وبعد أن اشتعلت المدينة غضباً عليه وجرد عليها جيشا كثيفا لم يستطع أحد من الأمويين أن يوجه إليه كلمة فيها غلظة أو شدة .

وقد احترس أهل البيت من هذه الفتنة ـ فقد كانوا حديثى عهد بفاجعة أودت بخيرة شيوخهم وشبابهم . . عن يحيى بن شبل قال : سألت أبا جعفر عن يوم الحرة فقال : ماخرج فيها أحد من آل أبى طالب ولاخرج فيها أحد من بنى عبدالمطلب لزموا بيوتهم .

فلما قدم مسرف وهزم الناس وسار إلى العقيق سأل عن أبى على بن حسين ، أحاضر هو؟

فقيل له : نعم

فقال : مالى لا أراه ؟

قال أبو جعفر : فبلغ أبى ذلك ، فجاءه ومعه أبو هاشم عبدالله ، والحسن ـ ابنا محمد بن على ابن الحنفية . فلما رأى أبى رحب به وأوسع له على سريره ، ثم قال له : كيف كنت بعدى ؟

قال : إنى أحمد الله . .

فقال مسرف . إن أمير المؤمنين أوصانى بك خيرا .

فقال على بن حسين : وصل الله أمير المؤمنين

قال : ثم سألنى عن أبى هاشم والحسن ابنى محمد ـ فقلت : هما ابنا عمى فرحب بهما وانصرفوا من عنده .[٣٤١]

---

(٣٤١) المصدر السابق صـ١٥٩

مأثوراته

لقد أثر عن علي بن الحسين كثير من الحكم والمواعظ والأدعية التي تدل على علمه وفهمه وورعه وتقواه ويقينه وصدقه . .

ومن ذلك أنه كان إذا مرت به جنازة يتمثل بهذين البيتين :

نراع إذا الجنائز قابلتنا ونلهو حين تمضي ذاهبات
كروعة ثلة لمغار سبع فلما غاب عادت راتعات

ومأأصدق البيتين وأشدهما انطباقاً على حالنا . .

ومن حكمه قوله : الرضا بمكروه القضاء أرفع درجات اليقين

وقوله : من كرمت عليه نفسه هانت عليه الدنيا

قال رجل بحضرته :

اللهم أغنني عن خلقك .

فقال : ليس هكذا ، إنما الناس بالناس ، ولكن قل : اللهم أغنني عن شرار خلقك .

وكان ينفر من الكذب ويقول في ذلك :

اتقوا الكذب ـ الصغير منه والكبير ، في كل جد وهزل ، فإن الرجل إذا كذب في الصغير اجترأ على الكبير .

وينصح ابنه قائلا :

يابني انظر خمسة فلا تصاحبهم ولاتحادثهم ولاترافقهم في طريق :

فقال ابنه : ياأبي ـ من هم ؟

قال : إياك ومصاحبة الكذاب فإنه بمنزلة السراب يقرب لك البعيد ويبعد لك القريب .

وإياك ومصاحبة الفاسق فإنه بائعك بأكله أو بأقل من ذلك . .

وإياك ومصاحبة البخيل فإنه يخذلك وقت ماتكون أحوج إليه .

وإياك ومصاحبة الأحمق فإنه يريد أن ينفعك فيضرك .

وإياك ومصاحبة القاطع رحمه فإنى وجدته ملعونا فى كتاب الله .[٣٤٢]

ومن أقواله :

خمس لو رحلتم فيهن لألفيتموهن وماقدرتم على مثلهن :

لايخاف عبد إلا ذنبه

ولايرجو إلا ربه

ولايستحى الجاهل إذا سئل عما لايعلم أن يتعلم

والصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد

ولاإيمان لمن لاصبر له .

ومن حكمه التى صدقتها تجربات الأمور :

كم من مفتون بحسن القول فيه

وكم من مغرور بحسن الستر عليه

وكم من مستدرج بالإحسان إليه

ومن كلامه الدقيق الذى يحتاج إلى فطنة فى فهمه :

ياسوأتاه لمن غلبت إحداته عشراته .

يقصد بذلك غلبة السيئات على الحسنات . لأن السيئة بواحدة والحسنة بعشر أمثالها .

---

(٣٤٢) يشير إلى قوله ـ تعالى ـ « فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا فى الأرض وتقطعوا أرحامكم . أولئك الذين لعنهم الله فأصمهم وأعمى أبصارهم » سورة محمد ٢٢ ، ٢٣

ومن متعجباته :

عجبت للمتكبر الفخور الذى كان بالأمس نطفة وهو غداً جيفة .

وعجبت لمن شك فى الله وهو يرى عجائب مخلوقاته

وعجبت لمن يشك فى النشأة الأخرى وهو يرى النشأة الأولى

وعجبت لمن عمل لدار الفناء وترك دار البقاء

وعجبت لمن يحتمى من الطعام لمضرته كيف لا يحتمى من الذنب لمعرته ؟

ومن أقواله :

أربع لهن ذل :

البنت ولو مريم

والدَّيْن ولو درهم

والغربة ولو ليلة

والسؤال ولو أين الطريق

وله فى فلسفة المرض :

إن الجسد إذا لم يمرض أشر ، ولاخير فى جسد يأشر

وكان كثير البر بأمه ، ولايأكل معها ، فسئل عن ذلك فقال :

أخاف أن تسبق يدى إلى ماتسبق إليه عينها فأكون قد عققتها .

مواعظه :

ومن مواعظه التى كان لها أثر كبير فى النفوس تلك الموعظة التى رواها ابن كثير فى كتابه ـ البداية والنهاية(٣٤٣) ونقلها عن ابن عساكر فى تاريخه ، ونحن ننقلها عنه للانتفاع بها :

---

(٣٤٣) البداية والنهاية جـ٩ صـ١٠٩

روى الحافظ ابن عساكر من طريق محمد بن عبدالله المقرى ، حدثنى سفيان ابن عيينة عن الزهرى قال : سمعت على بن الحسين ـ سيد العابدين ـ يحاسب نفسه ويناجى ربه :

« يانفس ، حتام إلى الدنيا سكونك ، وإلى عمارتها ركونك ، أما اعتبرت بمن مضى من أسلافك ، ومن وارته الأرض من ألافك ، ومن فجعت به من إخوانك ، ونقل إلى الثرى من أقرانك ؟

فهم فى بطون الأرض بعد ظهورها ـ محاسنهم فيها بالية داثرة .

خلت دورهم منهم وأقوت عراصهم   وساقتهم نحو المنايا المقادر
وخلوا عن الدنيا وما جمعوا لها   وضمهم تحت التراب الحفائر

كم خرمت أيدى المنون من قرون بعد قرون ، وكم غيرت الأرض ببلائها ، وغيبت فى ترابها ممن عاشرت من صنوف ، وشيعتهم إلى الأرماس ، ثم رجعت عنهم إلى عمل أهل الإفلاس :

وأنت على الدنيا مكب منافس   لخطابها فيها حريص مكاثر
على خطر تمشى وتصبح لاهيا   أتدرى بماذا لو عقلت تخاطر
وإن امرءا يسعى لدنياه دائبا   ويذهل عن أخراه لا شك خاسر

فحتام على الدنيا إقبالك ، وبشهواتها اشتغالك

وقد أتاك النذير ، وأنت عما يراد بك ساه ، وبلذة يومك وغدك لاه ، وقد رأيت انقلاب أهل الشهوات ، وعاينت ماحل بهم من المصيبات :

وفى ذكر هول الموت والقبر والبلى   عن اللهو واللذات للمرء زاجر
أبعد اقتراب الأربعين تربص   وشيب قذال منذر للمكابر
كأنك معنى بما هو ضائر   لنفسك عمدا وعن الرشد حائر

انظر إلى الأمم الماضية ، والملوك الفانية ، كيف اختطفتهم عقبان الأيام ، ووافاهم الحمام ، فانمحت من الدنيا آثارهم ، وبقيت فيها أخبارهم ، وأضحوا رمما فى التراب ، إلى يوم الحشر والمآب .

أمسوا رميما فى التراب وعطلت ‏ ‏ مجالسهم منهم وأخلت مقاصر
وحلوا بدار لا تزاور بينهم ‏ ‏ وأنى لسكان القبور التزاور
فما أن ترى إلا قبورا ثووا بها ‏ ‏ مسطحة تسفى عليها الأعاصر

كم من ذى منعة وسلطان ، وجنود وأعوان ، تمكن من دنياه ، ونال فيها ماتمناه ، وبنى فيها القصور والدساكر ، وجمع فيها الأموال والذخائر ، وملح السرارى والحرائر :

فما صرفت كف المنية إذ أتت ‏ ‏ مبادرة تهوى إليه الذخـــائر
ولا دفعت عنه الحصون التى بنى ‏ ‏ وحـــف بها أنهاره والدســاكر
ولا قارعــــت عنه المنية حيلة ‏ ‏ ولا طــمعت فى الذب عنه العساكر

أتاه من الله مالا يرد ، ونزل به من قضائه مالا يصد ، فتعالى الله الملك الجبار المتكبر ، العزيز القهار ، قاصم الجبارين ، ومبيد المتكبرين ، الذى ذل لعزه كل سلطان ، وأباد بقوته كل ديان .

مليــك عـــزيز لا يرد قضــاؤه ‏ ‏ حــكيم عليم نافذ الأمر قاهــر
جـــثا كل ذى عز لعزة وجهه ‏ ‏ فكم من عزيز للمهيمن صاغر
لقد خضعت واستسلمت وتضاءلت ‏ ‏ لعزة ذى العرش الملوك الجبابر

فالبدار البدار ، والحذار الحذار من الدنيا ومكايدها ، وما نصبت لك من مصايدها ، وتحلت من زينتها ، وأظهرت لك من بهجتها ، وأبرزت لك من شهواتها ، وأخفت عنك من قواتلها وهلكاتها .

وفى دون ما عاينت من فجعاتها إلى دفعهـــا داع وبالزهد آمر
فجـــد ولا تغفل وكن متيقظا فعما قـــليل يترك الدار عامر
فشـــمر ولا تفتر فعمرك زائل وأنت إلى دار الإقـــامة صائر
ولا تطـــلب الدنيا فإن نعيمها وإن نلت منها غـــبه لك ضائر

فهل يحرص عليها لبيب ؟ أو يسر بها أريب ؟ وهو على ثقة من فنائها ، وغير طامع فى بقائها . . أم كيف تنام عينا من يخشى البيات ، وتسكن نفس من توقع فى جميع أموره الممات .

ألا لا ولكنا نغـــر نفوسنا وتشـــغلنا اللذات عما نحاذر
وكيف يلذ العيش من هو موقف بموقف عـــدل يوم تبلى السرائر
كأنا نرى أن لا نشـــور وأننا سدى مالنا بعد الممات مصـــادر

وماعسى أن ينال صاحب الدنيا من لذتها ، ويتمتع به من بهجتها ، مع صنوف عجائبها ، وقوارع فجائعها ، وكثرة عذابه فى مصابها وفى طلبها ، وما يكابد من أسقامها وأوصابها وآلامها .

أما قـــد نرى فى كل يوم وليلة يروح علينا صـــرفها ويباكر
تعاورنا آفاتهـــا وهمومهـــا وكم قد ترى يبقـــى لها المتعاور
فلا هو مغبـــوط بدنياه آمن ولا هو عن تطـــلابها النفس قاصر

كم قد غرت الدنيا من مخلد إليها ، وصرعت من مكب عليها ، فلم تنعشه من عثرته ، ولم تنقذه من صرعته ، ولم تشفه من ألمه ، ولم تبرئه من سقمه ، ولم تخلصه من وصمه :

بل أوردته بعد عز ومنعة موارد سوء ما لهن مصادر
فلما رأى أن لا نجاة وأنه هو الموت لا ينجيه منه التحاذر

تندم إذ لم تغن عنه ندامة　　عليه وأبكته الذنوب الكبائر

إذ بكى على ما سلف من خطاياه ، وتحسر على ما خلف من دنياه ، واستغفر حتى لا ينفعه الاستغفار ، ولا ينجيه الاعتذار ، عند هول المنية ونزول البلية .

أحاطت به أحزانه وهمومه　　وأبلس لما أعجـــزته المقادر

فليس له من كربة الموت فارج　　وليس له مما يحـــاذر ناصر

وقد جشأت خوف المنية نفسه　　ترددها منه اللها والحناجـــر

هنالك خف عواده ، وأسلمه أهله وأولاده ، وارتفعت البرية بالعويل ، وقد أيسوا من العليل ، فغمضوا بأيديهم عينيه ، ومد عند خروج روحه رجليه ، وتخلى عنه الصديق ، والصاحب الشفيق :

فكم موجع يبكى عليه مفجع　　ومستنجد صبرا وما هو صابر

ومسترجع داع له الله مخلصا　　يعدد منه كل ماهو ذاكر

وكم شامت مستبشر بوفاته　　وعما قليل للذى صار صائر

فشقت جيوبها نساؤه ، ولطمت خدودها إماؤه ، وأعول لفقده جيرانه ، وتوجع لرزيته إخوانه ، ثم أقبلوا على جهازه ، وشمروا لإبرازه ، كأنه لم يكن بينهم العزيز المفدى ، ولا الحبيب المبدى :

وحل أحب القوم كان بقربه　　يحث على تجهيزه ويبادر

وشمر من قد أحضروه لغسله　　ووجه لما فاض للقبر حافر

وكفن فى ثوبين واجتمعت له　　مشيعة إخوانه والعشائر

فلو رأيت الأصغر من أولاده ـ وقد غلب الحزن على فؤاده ، ويخشى من

الجزع عليه ، وخضبت الدموع عينيه ـ وهو يندب أباه ، ويقول : ياويلاه ، واحراه :

لعاينت من قبح المنية منظـــرا يهال لمرآه ويرتاع ناظـــر
أكابر أولاد بهيـــج اكتئابهم إذا ماتناســاه البنون الأصاغر
وربة نســـوان عليه جوازع مدامعهم فوق الخــدود غوازر

ثم أخرج من سعة قصره ، إلى ضيق قبره .. فلما استقر فى اللحد ، وهيىء عليه اللبن ، احتوشته أعماله ، وأحاطت به خطاياه ، وضاق ذرعا بما رآه ، ثم حثوا بأيديهم عليه التراب ، وأكثروا البكاء عليه والانتحاب ، ثم وقفوا ساعة عليه ، وأيسوا من النظر إليه ، وتركوه رهنا بما كسب وطلب :

فولـــوا عليه معولين وكلهم لمثل الذى لاقى أخوه محـــاذر
كشــاء رتاع آمنين بدا لها بمديته باد الذراعين حـــاسر
فريعت ولم ترتع قـليلا وأجفلت فلما نأى عنها الذى هو جــازر

عادت إلى مرعاها ، ونسيت مافى أختها دهاها .. أبأفعال الأنعام اقتدينا ، أم على عادتها جرينا ؟ عد إلى ذكر المنقول من دار البلى ، واعتبر بموضعه تحت الثرى ، المدفوع إلى هول ماترى ..

ثوى مفردا فى لحـــده وتوزعت مواريثـه أولاده والأصـــاهر
وأحنوا على أمواله يقســمونها فلا حـــامد منهم عليها وشاكر
فيا عامر الدنيا ويا ســاعيا لها ويا آمنا من أن تدور الدوائر

كيف أمنت هذه الحالة وأنت صائر إليها لامحالة ؟ .. أم كيف ضيعت

حياتك وهى مطيتك إلى مماتك ؟ . . أم كيف تشبع من طعامك وأنت منتظر حمامك ؟ أم كيف تهنأ بالشهوات وهى مطية الآفات :

ولم تتزود للرحـــيل وقد دنا وأنت على حال وشيك مســـافر
فيا لهف نفســـى كم أسوف توبق وعمــــرى فان والردى لى ناظر
وكل الذى أسلفت فى الصحف مثبت يجــازى عليه عادل الحكم قادر

فكم ترقع بآخرتك دنياك ، وتركب غيك وهواك ؟ أراك ضعيف اليقين ، يا مؤثر الدنيا على الدين . أبهذا أمرك الرحمن ؟ . . أم على هذا نزل القرآن ؟ . . أما تذكر حال من جمع وثمر ، ورفع البناء وزخرف وعمر ؟ أما صار جمعهم بورا ، ومساكنهم قبورا ؟

تخرب مايبقى ، وتعمــــر فانيا فلا ذاك موفور ولاذاك عامر
وهل لك إن وافاك حتفك بغتة ولم تكتسب خيرا لدى الله عاذر
أترضـــى بأن تفنى الحياة وتنقضى ودينك منقـــوص ومالك وافر ؟

هل له مؤلفات ؟

يذكر العلماء أن زين العابدين من السابقين إلى التأليف وإن كان ليس تأليفا بالمعنى المعروف حاليا ، وانما هو إملاءات نقلها عنه التلاميذ والمتعلمون .

ولعل هذه الرسالة المسماة « رسالة الحقوق » أكبر دليل على مدى ماوصل إليه من علم ومعرفة ودقة فى الفهم والاستنباط والتعليل .

ونحن ننقل عن فضيلة الإمام الأكبر الدكتور عبدالحليم محمود ـ رحمه الله ـ التعريف بهذه الرسالة التى أفرد لها جزءاً خاصاً من كتابه « زين العابدين » . . يقول الدكتور عبدالحليم محمود :ـ

ومن مؤلفات الإمام زين العابدين « رسالة الحقوق » . . وهى رسالة نفيسة تبين كثيرا من الحقوق .

ومن مؤلفاته أيضا كثير من الأدعية . . وقد كان رحمه الله يكثر من الدعاء والتضرع وهذا من شيم الأتقياء ونحن نذكر هنا رسالة الحقوق كاملة ، ثم ننقل بعض الأدعية .

وما من شك فى أن سيدنا زين العابدين لو اتجه إلى التأليف لألف الكثير فى الحديث والفقه والتفسير ولكنه كان متجها دائما إلى تزكية النفس ، فبلغ ذلك مدى يعز على من رامه ـ اللهم إلا من وفقه الله وهداه إلى الصراط المستقيم .

وهذه الرسالة أوردها الصدوق فى الخصال بسند معتبر ، وأوردها الحسن ابن على بن شعبة الحلبى فى تحف العقول ـ وبينهما تفاوت بالزيادة والنقصان وغير ذلك . ورواية التحف أطول ، وقد تزيد عنها رواية الخصال ـ أحياناً ـ لبعض الألفاظ ، ونحن نوردها برواية تحف العقول فإذا وجدنا ما يخالفها فى رواية الخصال ذكرناه بعدها .

روى الصدوق فى الخصال ، عن على بن أحمد بن موسى ، عن محمد الأسدى ، عن جعفر بن مالك الفزارى ، عن خيران بن داهر ، عن أحمد ابن سليمان الجبلى ، عن أبيه ، عن محمد بن على ، عن محمد بن فضيل ، عن أبى حمزة الثمالى قال : هذه رسالة على بن الحسين عليهما السلام إلى بعض أصحابه :

وفى تحف العقول : رسالة على بن الحسين (رضى الله عنه) المعروفة برسالة الحقوق :

اعلم رحمك الله أن لله عليك حقوقا محيطة بك فى كل حركة تحركتها ، أو سكنة سكنتها (أو حال حللتها) أو منزلة نزلتها ، أو جارحة قلبتها ، أو آلة تصرفت بها ، بعضها أكبر من بعض .

وأكبر حقوق الله عليك ، ما أوجبه لنفسه تبارك وتعالى ، من حقه الذى هو أصل الحقوق ، ومنه تتفرع ـ ثم ما أوجبه عليك لنفسك من قرنك إلى قدميك على اختلاف جوارحك :

فجعل لبصرك عليك حقا .

ولسمعك عليك حقا .

وللسانك عليك حقا .

وليدك عليك حقا .

ولرجلك عليك حقا .

ولبطنك عليك حقا .

ولفرجك عليك حقا .

فهذه الجوارح السبع التى بها تكون الأفعال ، ثم جعل لأفعالك عليك حقوقا :

لصلاتك عليك حقا .

ولصومك عليك حقا .

ولصدقتك عليك حقا .

ولهديك عليك حقا .

ولأفعالك عليك حقا .

ثم تخرج الحقوق منك إلى غيرك من ذوى الحقوق الواجبة عليك ،

وأوجبها عليك : حق أئمتك ، ثم حقوق رعيتك ، ثم حقوق رحمك . فهذه حقوق يتشعب منها حقوق :

فحقوق أئمتك ثلاثة : أوجبها عليك حق سائسك بالسلطان ، ثم سائسك بالعلم ، ثم حق سائسك بالملك ، وكل سائس إمام .

وحقوق رعيتك ثلاثة : أوجبها عليك : حق رعيتك بالسلطان ، ثم حق رعيتك بالعلم ، فإن الجاهل رعية العالم ، وحق رعيتك بالملك من الأزواج وما ملكت الأيمان .

وحقوق رحمك كثيرة متصلة بقدر اتصال الرحم فى القرابة ـ فأوجبها عليك : حق أمك ، ثم حق أبيك ، ثم حق ولدك ، ثم حق أخيك ، ثم الأقرب فالأقرب ، والأولى فالأولى .

ثم حق ذى المعروف لديك ، ثم حق مؤذنك بالصلاة ، ثم حق إمامك فى صلاتك ، ثم حق جليسك ، ثم حق جارك ، ثم حق صاحبك ، ثم حق شريكك ، ثم حق مَالِكَ ، ثم حق غريمك الذى تطالبه ، ثم حق غريمك الذى يطالبك ، ثم خليطك ، ثم حق خصمك المدعى عليك ، ثم حق خصمك الذى تدعى عليه ، ثم حق مستشيرك ، ثم المشير عليك ، ثم مستنصحك ، ثم الناصح لك ، ثم حق من هو أكبر منك ، ثم من هو أصغر منك ، ثم حق سائلك ، ثم حق من سألته ، ثم حق من جرى لك على يديه مساءة بقول أو فعل ، أو مسرة بقول أو فعل عن تعمد منه أو غير تعمد ، ثم حق أهل ملتك عامة ، ثم حق أهل الذمة ، ثم الحقوق الجارية بقدر علل الأحوال ، وتصرف الأسباب ، فطوبى لمن أعانه الله على قضاء ما أوجب عليه من حقوقه ووفقه وسدده .

(١) فأما حق الله الأكبر عليك :

فأن تعبده لا تشرك به شيئا ، فإذا فعلت ذلك بإخلاص جعل لك على نفسه أن يكفيك أمر الدنيا والآخرة ، ويحفظ لك ما تحب منهما .

(٢)وأما حق نفسك عليك :

فأن تستوفيها فى طاعة الله (وفى الخصال أن تستعملها بطاعة الله عز وجل) فتؤدى إلى لسانك حقه ، وإلى سمعك حقه ، وإلى بصرك حقه ، وإلى يدك حقها ، وإلى رجلك حقها ، وإلى بطنك حقه ، وإلى فرجك حقه ، وتستعين بالله على ذلك .

(٣) وأما حق اللسان :

فإكرامه عن الخنا وتعويده على الخير ، وحمله على الأدب ، وإجمامه إلا لموضع الحاجة والمنفعة للدين والدنيا ، وإعفاؤه من الفضول الشنعة القليلة الفائدة التى لا يؤمن ضررها مع قلة عائدتها ، ويعد شاهد العقل والدليل عليه ، وتزين العاقل بعقله حسن سيرته فى لسانه ، ولا قوة إلا بالله العلى العظيم .

(وفى الخصال) : وحق اللسان إكرامه عن الخنا وتعويده الخير ، وترك الفضول التى لا فائدة فيها ، والبر بالناس ، وحسن القول فيهم .

(٤) وأما حق السمع :

فتنزيهه عن أن تجعله طريقا إلى قلبك إلا لفوهة كريمة تحدث فى قلبك خيرا أو تكسب خلقا كريما ، فإنه باب الكلام إلى القلب ـ يؤدى إليه ضروب المعانى على مافيها من خير أو شر ، ولا قوة إلا بالله .

(وفى الخصال) : وحق السمع تنزيهه عن سماع الغيبة ، وسماع مالايحل سماعه .

(٥) وأما حق بصرك :

فغضه عما لا يحل لك ، وترك ابتذاله إلا لموضع عبرة تستقبل بها بصرا أو تستفيد بها علما ، فان البصر باب الاعتبار .

(وفى الخصال) : وحق البصر أن تغمضه عما لايحل لك ، وتعتبر بالنظر به .

(٦) وأما حق رجليك :

فأن لاتمشى بهما إلى ما لا يحل لك ، ولا تجعلهما مطيتك فى الطريق المستخف بأهلها فيها ، فإنها حاملتك وسالكة بك مسلك الدين والسبق لك ، ولاقوة إلا بالله .

(وفى الخصال) : وحق رجليك أن لاتمشى بهما إلى ما لايحل لك فيهما ، ولابد لك أن تقف بهما على الصراط ، فانظر أن لا تزلا بك فتردى إلى النار .

(٧) وأما حق يدك :

فأن لا تبسطها إلى مالا يحل لك ، فتنال بما تبسطها إليه من الله العقوبة فى الآجل ، ومن الناس اللائمة فى العاجل ، ولا تقبضها عما افترض الله عليها ، ولكن توقرها بقبضها عن كثير مما لا يحل لها وبسطها إلى كثير مما ليس عليها ، فإذا هى قد عقلت وشرفت فى العاجل ووجب لها حسن الثواب من الله فى الآجل .

(وفى الخصال) : وحق يدك أن لا تبسطها إلى ما لا يحل لك .

(٨) وأما حق بطنك :

فأن لا تجعله وعاء لقليل من الحرام ولا لكثير ، وأن تقصد له فى الحلال ، ولا تخرجه من حد التقوية إلى حد التهوين وذهاب المروءة ، فإن الشبع المنتهى بصاحبه مكسلة ومثبطة ومقطعة عن كل بر وكرم ، وإن الرى المنتهى بصاحبه إلى السكر مسخفة ومجهلة ومذهبة للمروءة :

(وفى الخصال) : وحق بطنك أن لا تجعله وعاء للحرام ، ولا تزايد على الشبع .

(٩) وأما حق فرجك :

فحفظه مما لا يحل لك ، والاستعانة عليه بغض البصر ، فإنه من أعون الأعوان ، وضبطه بالجوع والظمأ وكثرة ذكر الموت والتهدد لنفسك بالله والتخويف لها به ، وبالله العصمة ، والتأييد ، ولا حول ولا قوة إلا بالله .

(وفى الخصال) : وحق فرجك أن تحصنه عن الزنا ، وتحفظه من أن ينظر إليه .

(١٠) فأما حق الصلاة :

فأن تعلم أنها وفادة إلى الله ، وأنك قائم بين يدى الله ، فإذا علمت ذلك كنت خليقا أن تقوم فيها مقام الذليل الراغب الراهب ، والخائف الراجى ، والمسكين المتضرع المعظم من قام بين يديه بالسكون أو الإطراق ، وخشوع الأطراف ولين الجناح وحسن المناجاة له والرغبة إليه فى فكاك رقبتك التى أحاطت بها خطيئتك واستهلكتها ذنوبك ولا قوة إلا بالله .

(وفى الخصال) : وحق الصلاة أن تعلم أنها وفادة إلى الله عز وجل ، وأنك فيها قائم بين يدى الله عز وجل ، فإذا علمت ذلك قمت مقام الذليل المتواضع ، الراغب الراهب ، الراجى الخائف ، المستكين المتضرع لمن كان بين يديه بالسكون والوقار ، وتقبل عليها بقلبك ، وتقيمها بحدودها وحقوقها ، ولم يذكر فى التحف حق الحج . . وذكره فى الخصال فقال :

وحق الحج :

أن تعلم أنه وفادة إلى ربك ، وفرار إليه من ذنوبك ، وبه قبول توبتك ، وقضاء الفرض الذى أوجبه الله عليك .

(١١) وأما حق الصوم :

فأن تعلم أنه حجاب ضربه الله على لسانك وسمعك وبصرك ، وفرجك وبطنك ، ليسترك به من النار ، وهكذا جاء فى الحديث : « الصوم جنة من النار »

فإن سكنت أطرافك فى حجبها رجوت أن تكون محجوبا ، وإن أنت تركتها تضرب فى حجابها وترفع جنبات الحجاب فتطلع إلى ماليس لها بالنظرة الداعية للشهوة ، والقوة الخارجة عن حد التقية لله لم تأمن أن تخرق الحجاب ، وتخرج منه ـ ولا قوة إلا بالله .

(وفى الخصال) : بعد قوله من النار : فان تركت الصوم خرقت ستر الله عليك .

(١٢) وأما حق الصدقة :

فأن تعلم أنها ذخرك عند ربك ، ووديعتك التى لاتحتاج إلى الإشهاد ،

فإذا علمت ذلك كنت بما استودعته سرا أوثق منك بما استودعته علانية ، وكنت جديرا أن لا تكون أسررت إليه أمرا أعلنته ، وكان الأمر بينك وبينه فيها سرا على كل حال ، ولم تستظهر عليه فيما استودعته منها بإشهاد الأسماع والأبصار عليه بها كأنها أوثق فى نفسك ، وكأنك لا تثق به فى تأدية وديعتك إليك ، ثم لم تمنن بها على أحد ، لأنها لك . . . فإذا امتننت بها لم تأمن أن يكون بها تهجين حالك إلى من مننت بها عليه ، لأن فى ذلك دليلا على أنك لم ترد نفسك بها ، ولو أردت نفسك بها لم تمنن بها على أحد ، ولا قوة إلا بالله .

(وفى الخصال) : وحق الصدقة أن تعلم أنها ذخرك عند ربك عز وجل ، ووديعتك التى لا تحتاج إلى الإشهاد عليها ، وكنت بما تستودعه سرا أوثق بما تستودعه علانية ، وتعلم أنها تدفع البلايا والأسقام عنك فى الدنيا وتدفع عنك النار فى الآخرة .

(١٣) وأما حق الهدى :

فأن تخلص به الإرادة إلى ربك ، والتعرض لرحمته وقبوله ، ولا تريد عيون الناظرين دونه ، فإذا كنت كذلك لم تكن متكلفا ولا متصنعا ، وكنت إنما تقصد إلى الله .

واعلم أن الله يراد باليسير ولا يراد بالعسير ، كما أراد بخلقه التيسير ولم يرد بهم التعسير ، وكذلك التذلل أولى بك من التدهق ، لأن الكلفة والمؤنة فى المتدهقين ، فأما التذلل والتمسكن فلا كلفة فيهما ، ولا مؤنة عليهما ، لأنهما الخلقة ، وهما موجودان فى الطبيعة ، ولا قوة إلا بالله .

(وفى الخصال) : وحق الهدى أن تريد به الله عز وجل ولا تريد به خلقه ، ولا تريد به إلا التعرض لرحمة الله ، ونجاة روحك يوم تلقاه .

ثم حقوق الأئمة

فأما حق سائسك السلطان :

فأن تعلم أنك جُعلتْ له فتنة ، وأنه مبتلى فيك بما جعل الله له عليك من السلطان ، وأن تخلص له فى النصيحة ، وأن لا تماحكه وقد بسطت يده عليك ، فتكون سبب هلاك نفسك وهلاكه ، وتذلل وتلطف لإعطائه من الرضا ما يكفه عنك ولا يضر بدينك ، وتستعين عليه فى ذلك بالله ولا تعانده ، فإنك إن فعلت ذلك عققته وعققت نفسك فعرضتها لمكروهه ، وعرضته للهلكة فيك ، وكنت خليقا أن تكون معينا له على نفسك ، وشريكا له فيما أتى إليك ، ولا قوة إلا بالله .

(وفى الخصال) : وحق السلطان أن تعلم ـ إلى قوله ـ من السلطان . وبعده : وأن عليك أن لاتتعرض لسخطه فتلقى بيديك إلى التهلكة ، وتكون شريكا له فيما يأتى إليك من سوء .

فأما حق سائسك بالعلم :

فالتعظيم له والتوقير لمجلسه ، وحسن الاستماع إليه ، والإقبال عليه ، والمعونة له على نفسك فيما لاغنى بك عنه من العلم ، بأن تفرغ له عقلك ، وتحضره فهمك ، وتذكى له قلبك ، وتجلى له بصرك ، بترك اللذات ، ونقص الشهوات ، وأن تعلم أنك فيما ألقى ـ رسوله إلى من لقيك من أهل الجهل ، فلزمك حسن التأدية عنه إليهم ، ولا تخنه فى تأدية رسالته ، والقيام

بها عنه إذا تقلدتها ، ولا حول ولا قوة إلا بالله .

(وفى الخصال) : وحق سائسك بالعلم : التعظيم له ، والتوقير لمجلسه ، وحسن الاستماع إليه ، والإقبال عليه ، وأن لا ترفع عليه صوتك ، ولا تجيب أحدا يسأله عن شيء حتى يكون هو الذى يجيب ، ولا تحدث فى مجلسه أحدا ، وأن تستر عيوبه وتظهر مناقبه ، ولا تجالس له عدوا ، ولا تعادى له وليا ، فإذا فعلت ذلك شهد لك ملائكة الله بأنك قصدته وتعلمت علمه لله ـ جل اسمه ـ لا للناس .

وأما حق سائسك بالملك :

فنحو من سائسك بالسلطان إلا أن هذا يملك ما لا يملكه ذاك ، تلزمك طاعته فيما دق وجل منك ، إلا أن يخرجك من وجوب حق الله ، ويحول بينك وبين حقه وحقوق الخلق ، فإذا قضيته رجعت إلى حقه فتشاغلت به ، ولا قوة إلا بالله .

(وفى الخصال) : فأما حق سائسك بالملك فأن تطيعه ولا تعصيه إلا فيما يسخط الله عز وجل ، فإنه لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق .

ثم حقوق الرعية

فأما حقوق رعيتك بالسلطان :

فأن تعلم أنك إنما استرعيتهم بفضل قوتك عليهم ، فإنه إنما أحلهم محل الرعية لك ضعفهم ، فما أولى من كفاكه ضعفه وذله ، حتى صيره لك رعية ، وصير حكمك عليه نافذا ، لا يمتنع منك بعزة ولا قوة ، ولا يستنصر فيما تعاظمه منك إلا بالرحمة والحياطة والأناة ، وما أولاك إذا عرفت ما أعطاك الله من فضل هذه العزة والقوة التى قهرت بها أن تكون لله شاكرا ،

ومن شكر الله أعطاه فيما أنعم عليه ، ولا قوة إلا بالله .

(وفى الخصال) : وأما حق رعيتك بالسلطان فأن تعلم أنهم صاروا رعيتك لضعفهم وقوتك ، فيجب أن تعدل فيهم وتكون لهم كالوالد الرحيم ، وتغفر لهم جهلهم ، ولا تعاجلهم بالعقوبة ، وتشكر الله عز وجل على ما أولاك ، وعلى ما آتاك من القوة عليهم .

وأما حق رعيتك بالعلم :

فأن تعلم أن الله قد جعلك لهم خازنا فيما آتاك من العلم ، وولاك من خزانة الحكمة ، فإن أحسنت فيما ولاك الله من ذلك ـ وقمت به لهم مقام الخازن الشفيق الناصح لمولاه فى عبيده ، الصابر المحتسب الذى إذا رأى ذا حاجة أخرج له من الأموال التى فى يديه ـ كنت راشدا ، وكنت لذلك آملا معتقدا وإلا كنت له خائنا ، ولخلقه ظالما ، ولسلبه وغيره معترضا .

وأما حق رعيتك بملك النكاح :

فأن تعلم أن الله جعلها سكنا ومستراحا ، وأنسا وواقية ، وكذلك كل واحد منكما يجب أن يحمد الله على صاحبه ويعلم أن ذلك نعمة منه عليه ، ووجب أن يحسن صحبة نعمة الله ويكرمها ويرفق بها ، وإن كان حقك عليها أغلظ وطاعتك بها ألزم فيما أحببت وكرهت مالم تكن معصية ـ فإن لها حق الرحمة والمؤانسة ، ولا قوة إلا بالله .

(وفى الخصال) : وأما حق الزوجة فأن تعلم أن الله عز وجل جعلها لك سكنا وأنسا فتعلم أن ذلك نعمة من الله عليك ، فتكرمها وترفق بها ، وإن كان حقك عليها أوجب فإن لها عليك أن ترحمها ، وتطعمها وتكسوها ، وإذا جهلتْ عفوت عنها .

وأما حق رعيتك بملك اليمين :

فأن تعلم أنه خلق ربك ولحمك ودمك ، وأنك لم تملكه لأنك صنعته دون الله ، ولا خلقت له سمعا ولا بصرا ، ولا أجريت له رزقا ، ولكن الله كفاك ذلك ثم سخره لك وائتمنك عليه ، واستودعك إياه لتحفظه فيه ، وتسير فيه بسيرته ، فتطعمه مما تأكل ، وتلبسه مما تلبس ، ولا تكلفه ما لا يطيق ، فإن كرهته خرجت إلى الله منه ، واستبدلت به ، ولا تعذب خلق الله ـ ولاقوة إلا بالله .

(وفي الخصال) : وأما حق مملوكك فأن تعلم أنه خلق ربك ، وابن أبيك وأمك ، ولحمك ودمك ـ ولم تملكه لأنك صنعته من دون الله ولا خلقت شيئا من جوارحه ، ولا أخرجت له رزقا ، ولكن الله عز وجل كفاك ذلك ثم سخره لك وائتمنك عليه ، واستودعك إياه ليحفظ لك ماتأتيه من خير إليه ، فأحسن إليه كما أحسن الله اليك ، وإن كرهته استبدلت له ولا تعذب خلق الله عز وجل ، ولا قوة إلا بالله .

وأما حق الرحم :

فحق أمك : أن تعلم أنها حملتك حيث لا يحمل أحد أحدا ، وأطعمتك من ثمرة قلبها ما لا يطعم أحد أحداً ، وأنها وقتك بسمعها وبصرها ويدها ورجلها وشعرها وبشرها وجميع جوارحها ، مستبشرة فرحة ، محتملة لما فيه مكروهها وألمها ، وثقلها وغمها ، حتى دفعتها عنك يد القدرة ، وأخرجتك إلى الأرض ، فَرَضِيَتْ أن تشبع وتجوع هي ، وتكسوك وتعرى ، وترويك وتظمأ ، وتظلك وتضحى ، وتنعمك ببؤسها ، وتلذذك بالنوم بأرقها ، وكان بطنها لك وعاء ، وحجرها لك حواء ، وثديها لك سقاء ، ونفسها لك

وقاء ، تباشر حر الدنيا وبردها لك ودونك ـ فتشكرها على قدر ذلك ، ولا تقدر عليه إلا بعون الله وتوفيقه .

(وفى الخصال) : وأما حق أمك فأن تعلم أنها حملتك حيث لا يحتمل أحد أحداً ، وأعطتك من ثمرة قلبها مالا يعطى أحد أحداً ، ووقتك بجميع جوارحها ولم تبال أن تجوع وتطعمك وتعطش وتسقيك ، وتعرى وتكسوك وتضحى وتظللك ، وتهجر النوم لأجلك ، ووقتك الحر والبرد لتكون لها ، فإنك لا تطيق شكرها إلا بعون الله وتوفيقه .

وأما حق أبيك :

فأن تعلم أنه أصلك وأنت فرعه ، وأنك لولاه لم تكن ، فمهما رأيت فى نفسك مما يعجبك فاعلم أن أباك أصل النعمة عليك فيه ، واحمد الله واشكره على قدر ذلك ، ولاقوة إلا بالله .

وأما حق ولدك :

فأن تعلم أنه منك ومضاف إليك ، فى عاجل الدنيا بخيره وشره ، وأنك مسئول عما وليته من حسن الأدب والدلالة على ربه ، والمعونة له على طاعته فيك وفى نفسه ـ فمثاب على ذلك ومعاقب ، فاعمل فى أمره عمل المتزين بحسن أثره عليك فى عاجل الدنيا ، المعذر إلى ربه فيما بينك وبينه ، بحسن القيام عليه ، والأخذ له منه ـ ولاقوة إلا بالله .

(وفى الخصال) : فاعمل فى أمره عمل من يعلم أنه مثاب على الإحسان إليه ، معاقب على الإساءة إليه .

وأما حق أخيك :

فأن تعلم أنه يدك التي تبسطها ، وظهرك الذي تلتجيء إليه ، وعزك الذي تعتمد عليه ، وقوتك التي تصول بها ، فلا تتخذه سلاحا على معصية الله ، ولا عدة للظلم لخلق الله ، ولا تدع نصرته على نفسه ، ومعونته على عدوه ، والحول بينه وبين شياطينه ، وتأدية النصيحة إليه ، والإقبال عليه في الله ، فان إنقاد لربه ، وأحسن الإجابة له ، وإلا فليكن الله آثر عندك ، وأكرم عليك منه .

(وفي الخصال) : ولا تدع نصرته على عدوه ، والنصيحة له ـ فإن أطاع الله وإلا فليكن الله أكرم عليك منه ، ولا قوة إلا بالله .

وأما حق المنعم عليك بالولاء :

فأن تعلم أنه أنفق فيك ماله ، وأخرجك من ذل الرق ووحشته إلى عز الحرية وأنسها ، وأطلقك من أسر الملك ، وفك عنك حُلَقَ العبودية ، وأوجدك رائحة العز ، وأخرجك من سجن القهر ، ودفع عنك العسر وبسط لك لسان الإنصاف ، وأباحك الدنيا كلها ـ فملكك نفسك وحل أسرك ، وفرغك لعبادة ربك ، واحتمل بذلك التقصير في ماله . . . فتعلم أنه أولى الخلق بك بعد أولي رحمك في حياتك وموتك ، وأحق الخلق بنصرك ومعونتك ومكانتك في ذات الله ، فلا تؤثر عليه نفسك ما احتاج إليك .

(وفي الخصال) : وإن نصرته عليك واجبة بنفسك وما احتاج إليه منك ولاقوة إلا بالله .

وأما حق ذي المعروف عليك :

فأن تشكره وتذكر معروفه وتنشر له المقالة الحسنة وتكسبه الفالة الحسنة

وتخلص له الدعاء فيما بينك وبين الله سبحانه ، فإنك إذا فعلت ذلك كنت قد شكرته سرا وعلانية ، ثم إن أمكن مكافأته بالفعل كافأته وإلا كنت مرصدا له ، موطنا نفسك عليها .

(وفى الخصال) : ثم إن قدرت على مكافأته يوما كافأته .

وأما حق المؤذن :

فأن تعلم أنه مذكرك بربك ، وداعيك إلى حظك ، وأفضل أعوانك على قضاء الفريضة التى افترضها الله عليك ، فتشكره على ذلك شكرك للمحسن إليك ، وإن كنت فى بيتك متهما وعلمت أنه نعمة من الله عليك لاشك فيها ، فأحسن صحبة نعمة الله بحمد الله عليها على كل حال ، ولاقوة إلا بالله .

وأما حق إمامك فى صلواتك :

فأن تعلم أنه قد تقلد السفارة فيما بينك وبين الله ، والوفادة إلى ربك ، وتكلم عنك ولم تتكلم عنه ، ودعا لك ولم تدع له ، وطلب فيك ولم تطلب فيه ، وكفاك هم المقام بين يدى الله والمساءلة له فيك ولم تكفه ذلك ، فإن كان فى شيء من ذلك تقصير كان به دونك ، وإن كان إثما لم تكن شريكه فيه ، ولم يكن لك عليه فضل ، فقد وقى نفسك بنفسه ، ووقى صلاتك بصلاته ، فتشكر له على ذلك ولا حول ولاقوة إلا بالله .

(وفى الخصال) : فإن كان نقص كان به دونك ، وإن كان تمام كنت شريكه ، ولم يكن له عليك فضل .. فتشكر له على قدر ذلك .

وأما حق الجليس :

فأن تلين له كنفك ، وتطيب له جانبك ، وتنصفه فى مجاراة اللفظ ، ولا

تغرق فى نزع اللحظ إذا لحظت ، وتقصد فى اللفظ إلى إفهامه إذا لفظت ، وإن كنت الجليس إليه كنت فى القيام عنه بالخيار ، وإن كان الجالس إليك كان بالخيار ، ولاتقوم إلا بإذنه ، ولا قوة إلا بالله .

(وفى الخصال) : ولا تقوم من مجلسك إلا باذنه ، ومن يجلس إليك يجوز له القيام عنك بغير إذنك . . . تنسى زلاته ، وتحفظ خيراته ، ولا تسمعه إلا خيرا .

أما حق الجار :

فحفظه غائبا ، وكرامته شاهدا ، ونصرته ومعونته فى الحالين جميعا . لا تتبع له عورة ، ولا تبحث له عن سوءة لتعرفها ، فإن عرفتها منه عن غير إرادة منك ولا تكلف ، كنت لما علمت حصنا حصينا ، وسترا ستيرا ، لو بحثت الأسنة عنه ضميرا لم تصل إليه لانطوائه عليه .

لا تستمع عليه من حيث لا يعلم ، لا تسلمه عند شديدة ، ولا تحسده عند نعمة ، تقيل عثرته ، وتغفر زلته ، ولا تدخر حلمك عنه إذا جهل عليك ، ويجب أن تكون سِلْما له ، ترد عنه لسان الشتيمة ، وتبطل كيد من يكيده ، وتعاشره معاشرة كريمة ، ولا حول ولا قوة إلا بالله .

(وفى الخصال) : ونصرته إذا كان مظلوما ، فإن علمت عليه سوءا سترته عليه ، وإن علمت أنه يقبل نصيحتك نصحته فيما بينك وبينه .

وأما حق الصاحب :

فأن تصحبه بالفضل ما وجدت إليه سبيلا ، وإلا فلا أقل من الإنصاف ، وأن تكرمه كما يكرمك ، وتحفظه كما يحفظك ، ولا يسبقك فيما

بينك وبينه إلى مكرمة ، فإن سبقك كافأته ، ولا تقصر به عما يستحق من المودة ، تلزم نفسك نصيحته وحياطته ، ومعاضدته على طاعة ربه ، ومعونته على نفسه فيما يهم به من معصية ربه ، ثم تكون عليه رحمة ، ولا تكن عليه عذابا ، ولا قوة إلا بالله .

(وفى الخصال) : فأن تصحبه بالتفضل والإنصاف ، ولا تدعه يسبق إلى مكرمة ، وتوده كما يودك ، وتزجره عما يهم به من معصية .

وأما حق الشريك :

فإن غاب كفيته ، وإن حضر ساويته ، ولا تعزم على حكمك دون حكمه ، ولا تعمل برأيك دون مناظرته ، وتحفظ عليه ماله ، وتتقى خيانته فيما عز أو هان ، فإنه بلغنا أن يد الله مع الشريكين ما لم يتخاونا ، ولا قوة إلا بالله .

وأما حق المال :

فأن لا تأخذه إلا من حله ، ولا تنفقه إلا فى حله ، ولا تحرفه عن مواضعه ، ولاتصرفه عن حقائقه ، والمال من الله فلا تجعله إلا إلى الله ، وسببا إلى الله ، ولا تؤثر به على نفسك من لعله لا يحمدك ، وبالحرى أن لا يحسن خلافته فى تركتك ، ولا يعمل فيه بطاعة ربه ، فيذهب بالغنيمة وتبوء بالإثم والحسرة والندامة مع التبعة ، ولا قوة إلا بالله .

(وفى الخصال) : فاعمل فيه بطاعة ربك ، ولا تبخل به .

وأما حق الغريم المطالب لك :

فإن كنت موسرا أوفيته وكفيته ، وأغنيته ولم تردده وتمطله ، فإن رسول

الله صلى الله عليه وسلم قال : « مطل الغنى ظلم » .

وإن كنت معسرا أرضيته بحسن القول ، وطلبت إليه طلبا جميلا ورددته عن نفسك رداً لطيفا ، ولم تجمع عليه ذهاب ماله وسوء معاملته ، فإن ذلك لؤم ، ولا قوة إلا بالله .

وأما حق الخليط :

فأن لا تغره ولا تغشه ، ولا تكذبه ولا تغفله ، ولا تخدعه ، ولا تعمل فى انتقاضه عمل العدو الذى لا يبقى على صاحبه ، وإن اطمأن إليك استقصيت له على نفسك وعلمت أن غبن المسترسل ربا .

(وفى الخصال) : ولا تخدعه وتتقى الله تبارك وتعالى فى أمره .

وأما حق الخصم المدعى عليك :

فإن كان ما يدعى عليك حقا فلا تنفسخ فى حجته ، ولا تعمل فى إبطال دعوته ، وكنت خصم نفسك له والحاكم عليها ، والشاهد له بحقه دون شهادة الشهود ، فإن ذلك حق الله عليك ، وإن كان ما يدعيه باطلا رفقت به وردعته ، وناشدته بدينه ، وكسرت حدته عنك بذكر الله ، وابتعدت عن حشو الكلام ولغطه الذى لا يرد عنك عادية عدوك ، بل تبوء بإثمه ، وبه يشحذ عليك سيف عداوته ، لأن لفظة السوء تبعث الشر ـ والخير مقمعة للشر ، ولا قوة إلا بالله .

(وفى الخصال) : فإن كان ما يدعى عليك حقا كنت شاهده على نفسك ولم تظلمه وأوفيته حقه ، وإن كان ما يدعى به باطلا رفقت به ولم تأت فى أمره غير الرفق ولم تسخط ربك فى أمره .

وأما حق الخصم المدعى عليه :

فإن كان ما تدعيه حقا أجملت فى مقاولته بمخرج الدعوى ، فإن للدعوى غلظة فى سمع المدعى عليه ، وقصدت قصد حجتك بالرفق ، وأمهل المهلة ، وأبين البيان ، وألطف اللطف ، ولم تتشاغل عن حجتك بمنازعته وبالقيل والقال ، فتذهب عنك حجتك ، ولا يكون لك فى ذلك درك ، ولا قوة إلا باللّه .

(وفى الخصال) : إن كنت محقا فى دعواك أجملت مقاولته ولم تجحد حقه ، وإن كنت مبطلا فى دعواك اتقيت اللّه عز وجل وتبت إليه وتركت الدعوى .

وأما حق المستشير :

فإن حضرك له وجه رأى جهدت له فى النصيحة ، وأشرت عليه بما تعلم أنك لو كنت مكانه عملت به ، وليكن ذلك منك فى رحمة ولين ، فإن اللين يؤنس الوحشة ، وإن الغلظ يوحش موضع الأنس . . وإن لم يحضرك له رأى وعرفت له من تثق برأيه وترضى به لنفسك دللته عليه ، وأرشدته إليه ولا حول ولا قوة إلا باللّه .

(وفى الخصال) : إن علمت له رأيا حسنا أشرت عليه ، وإن لم تعلم أرشدته إلى من يعلم .

وأما حق المشير عليك :

فلا تتهمه فيما لا يوافقك من رأيه إذا أشار عليك ، فإنما هى الآراء وتصرف الناس فيها واختلافهم ، فكن عليه فى رأيه بالخيار إذا اتهمت رأيه .

فأما تهمته فلا تجوز لك إذا كان عندك ممن يستحق المشاورة ، ولا تدع شكره على ما بدا لك من إشخاص رأيه ، وحسن وجه مشورته ، فإذا وافقك حمدت الله وقبلت ذلك من أخيك بالشكر والإرصاد بالمكافأة فى مثلها إن فزع إليك ، ولا قوة إلا بالله .

(وفى الخصال) : أن لا تتهمه فيما لا يوافقك من رأيه ، وإن وافقك حمدت الله عز وجل .

وأما حق المستنصح :

فإن حقه أن تؤدى إليه النصيحة ، وتكلمه من الكلام بما يطيقه عقله ، فإن لكل عقل طبقة من الكلام يعرفه ويجتنبه ، وليكن مذهبك الرحمة ، ولا قوة إلا باللّه .

(وفى الخصال) : وليكن مذهبك الرحمة له ، والرفق به .

وأما حق الناصح :

فأن تلين له جناحك ، ثم تشرئب له قلبك ، وتفتح له سمعك حتى تفهم عنه نصيحته ، ثم تنظر فيها ـ فإن كان وفق لها وإلا رحمته ولم تتهمه ، وعلمت أنه لم يألك نصحا إلا أنه أخطأ . . إلا أن يكون عندك مستحقا للتهمة فلا تعبأ بشيء من أمره على كل حال ، ولا قوة إلا بالله .

(وفى الخصال) : وتصغى إليه بسمعك . فان أتى بالصواب حمدت الله ، وإن لم يوفق رحمته . الخ .

وأما حق الكبير :

فإن حقه توقير سنه وإجلال إسلامه إذا كان من أهل الفضل فى الإسلام

بتقديمه فيه ، وترك مقابلته عند الخصام ، ولا تسبقه إلى طريق ، ولا تؤمه فى طريق ، ولا تستجهله . . وإن جهل عليك تحملت ، وأكرمته بحق إسلامه مع سنه ، فإنما السن بقدر الإسلام ولا قوة إلا باللّه .

(وفى الخصال) : توقيره لسنه وإجلاله لتقدمه فى الإسلام قبلك .

وأما حق الصغير :

فرحمته وتثقيفه وتعليمه ، والعفو عنه والستر عليه ، والرفق به والمعونة له والستر على جرائر حداثته ، فإنه سبب للتوبة والمداواة له ، وترك مما حكته فإن ذلك أدنى لرشده .

(وفى الخصال) : رحمته فى تعليمه .

وأما حق السائل :

فإعطاؤه إذا تهيأت صدقه وقدرت على سد حاجته ، والدعاء له فيما تنزل به ، والمعاونة له على طلبته ، وإن شككت فى صدقه وسبقت إليه التهمة ولم تعزم على ذلك ـ لم تأمن أن يكون من كيد الشيطان ، أراد أن يصدك عن حظك ، ويحول بينك وبين التقرب إلى ربك ـ تركته بستره ، ورددته ردا جيلا ، وإن غَلَبتَ نفسك فى أمره وأعطيته على ما عرض فى نفسك منه ، فإن ذلك من عزم الأمور .

(وفى الخصال) : إعطاؤه على قدر حاجته .

وأما حق المسئول :

فحقه إن أعطى قبل منه ما أعطى بالشكر له والمعرفة لفضله ، وإن منع طلب وجه العذر فى منعه ، وأحسن به الظن ، واعلم أنه إن منع فماله منع ،

وأن ليس التثريب فى ماله ، وإن كان ظالما فإن الإنسان لظلوم كفار .

(وفى الخصال) : إن أعطى فاقبل منه بالشكر والمعرفة بفضله ، وإن منع فاقبل عذره .

وأما حق من سرك الله به وعلى يديه :

فإن كان تعمدها لك حمدت الله أولا . . ثم شكرته على ذلك فى موضع الجزاء ، وكافأته على فضل الابتداء ، وأرصدت له المكافأة ، وإن لم يكن تعمدها حمدت الله أولا ثم شكرته وعلمت أنه منه توحدك بها ، وأحببت هذا إذ كان سببا من أسباب نعم الله عليك ، وترجو له بعد ذلك خيرا - فإن أسباب النعم بركة حيث ما كانت ، وإن كان لم يتعمد ، ولا قوة إلا بالله .

(وفى الخصال) : أن تحمد الله عز وجل أولا ثم تشكره .

وأما حق من ساءك القضاء على يديه بقول أو فعل :

فإن كان تعمدها كان العفو أولى بك ، لما فيه له من القمع وحسن الأدب مع كثير من أمثاله من الخلق ، فإن الله يقول :

﴿ وَلَمَنِ انتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَٰئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ (٤١) إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٤٢) وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ (٤٣) ﴾ (٣٤٤)

---

(٣٤٤) سورة الشورى آية : ٤١ - ٤٣

وقال عز وجل :

﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ ﴿١٢٦﴾ ﴾ (٣٤٥)

هذا فى العمد ، فإن لم يكن عمدا لم تظلمه بتعمد الانتصار منه ، فتكون قد كافأته فى تعمد على خطأ ، ورفقت به ، ورددته بألطف ما تقدر عليه ولا قوة إلا بالله .

(وفى الخصال) : أن تعفو عنه ، وإن علمت أن العفو يضر انتصرت ، قال الله تبارك وتعالى :

« ولمن انتصر بعد ظلمه فأولئك ما عليهم من سبيل » .

وأما حق أهل ملتك عامة :

فإضمار السلامة ، ونشر جناح الرحمة ، والرفق بمسيئهم ، وتألفهم واستصلاحهم ، وشكر محسنهم إلى نفسه وإليك ، فإن إحسانه إلى نفسه إحسان إليك ـ إذ كف عنك أذاه ، وكفاك مؤنته ، وحبس عنك نفسه ، فعمهم جميعا بدعوتك وانصرهم جميعا بنصرتك ، وأنزلهم جميعا منك منازلهم . . كبيرهم بمنزلة الوالد ، وصغيرهم بمنزلة الولد ، وأوسطهم بمنزلة الأخ ، فمن أتاك تعاهدته بلطف ورحمة ـ وَصِلْ أخاك بما يجب للأخ على أخيه .

---

(٣٤٥) النحل آية : ١٢٦

(وفى الخصال) : والرحمة لهم ، وكف الأذى عنهم ، وتحب لهم ما تحب لنفسك ، وتكره لهم ما تكره لنفسك ، وأن يكون شيوخهم بمنزلة أبيك ، وشبابهم بمنزلة إخوتك ، وعجائزهم بمنزلة أمك ، والصغار بمنزلة أولادك .

وأما حق أهل الذمة :

فالحكم فيهم أن تقبل منهم ما قبل الله ، وكفى بما جعل الله لهم من ذمته وعهده ، وتكلهم إليه فيما طلبوا من أنفسهم ، وتحكم فيهم بما حكم اللّه به على نفسك فيما جرى بينك وبينهم من معاملة ، وليكن بينك وبين ظلمهم من رعاية ذمة الله والوفاء بعهده وعهد رسوله صلى الله عليه وسلم ـ حائل ، فإنه بلغنا أنه قال :

« من ظلم معاهدا كنت خصمه ، فاتق الله ، ولا حول ولا قوة إلا بالله » .

فهذه خمسون حقا محيطا بك ، لا تخرج منها فى حال من الأحوال . . . يجب عليك رعايتها ، والعمل فى تأديتها ، والاستعانة باللّه جل ثناؤه على ذلك ولا حول ولا قوة إلا بالله . والحمد لله رب العالمين .

(وفى الخصال) : أن تقبل منهم ما قبل اللّه عز وجل منهم ، ولا تظلمهم ما وفوا اللّه عز وجل بعهده .

وإن كان هناك من تعليق على هذه الرسالة فهو : أن زين العابدين قد استوفى مسئولية كل فرد من أفراد الأمة الاسلامية تجاه الآخرين ، وبين بما لا يدع مجالاً للشك واجب كل مسلم نحو غيره ومجتمعه . . ولو أدى كلٌ واجبه كما شرع الله ، وكما دعا هذا الدين الحنيف لسعد الأفراد وتقدم المجتمع ، وضمنوا النجاة فى الآخرة . .

من أدعيته وأوراده ..

ولزين العابدين أدعية مأثورة مجربة ـ حبذا لو واظبنا عليها ، ودعونا الله بها ، وهو ـ سبحانه ـ خير مسئول وأكرم مجيب :

من دعائه فى كيد الأعداء ورد بأسهم

إلهى هديتنى فلهوت ، ووعظت فقسوت ، وأبليت الجميل فعصيت ، ثم عرفت ما أصدرت إذ عرفتنيه فاستغفرت فأقلت ، وعدت فسترت ، فلك إلهى الحمد ، تقحمتُ أودية الهلاك ، وحللتُ شعاب تلف تعرضتُ فيها لسطواتك ، وبحلولها عقوباتك ، ووسيلتى إليك التوحيد ، وذريعتى أنى لم أشرك بك شيئاً ، ولم أتخذ معك إلها ، وقد فررت إليك بنفسى ، وإليك مفر المسيء ، ومفزع المضيع لحظ نفسه .. فكم من عدو انتضى[٣٤٦] علىَّ سيف عداوته ، وشحذ لى ظبة مديته ، وأرهف[٣٤٧] لى شبا حده ، وداف[٣٤٨] لى قواتل سمومه ، وسدد نحوى صوائب سهامه ، ولم تنم عنى عين حراسته ، وأضمر أن يسومنى المكروه ، ويجرعنى زعاق مرارته ، فنظرت يا إلهى إلى ضعفى عن احتمال الفوادح ، ووحدتى فى كثير عدد من ناوانى ، وأرصد لى بالبلاء فيما لم أعمل فيه فكرى ، فابتدأتنى بنصرك ، وشددت أزرى بقوتك ، ثم فللت لى حده ، وصيرته من بعد جمع عديد وحده ، وأعليت كعبى عليه ، وجعلت ما سدده مردوداً عليه ، فرددته لم يشف غيظه ، ولم يسكن غليله ، قد عض على شواه ، وأدبر مولياً قد أخلفت سراياه .

---

(٣٤٦) انتضى : جرد

(٣٤٧) ارهف : سن

(٣٤٨) داف : وجَّه

وكم من باغ بغانى[٣٤٩] بمكائده ، ونصب لى شرك مصائده ، ووكل بى تفقد رعايته ، وأضبأ إلىّ إضباء السبع لطريدته ، انتظاراً لانتهاز الفرصة لفريسته ، وهو يظهر لى بشاشة الملق ، وينظرنى على شدة الحنق .

فلما رأيت يا إلهى تباركت وتعاليت دغل[٣٥٠] سريرته وقبح ما انطوى عليه أركسته[٣٥١] لأم رأسه ورددته فى مهوى حفرته ، فانقمع بعد استطالته ، ذليلاً فى ربق حبالته ، التى كان يقدر أن يرانى فيها ، وقد كاد يحل بى لولا رحمتك . . . وكم من حاسد قد شرق بى بغصته ، وشجى منى بغيظه ، وسلقنى بحد لسانه ، ووحرنى[٣٥٢] بقرف عيوبه ، وجعل يرضى غرضا لمراميه ، وقلدنى خلالا لم تزل فيه ، ووحرنى بكيده ، وقصدنى بمكيدته .

فناديتك يا إلهى مستغيثاً بك ، واثقا بسرعة إجابتك ، عالماً أنه لا يضطهد من أوى إلى ظل كنفك ، ولا يفزع من لجأ إلى معقل انتصارك ، فحصنتنى من بأسه بقدرتك .

وكم من ظن حسن حققت ، وعُدْم جبرت ، وصرعة انعشت ، ومسكنة حولت ، كل ذلك إنعاما وكرما منك ، وفى جميعه انهماكا منى على معاصيك ، لم تمنعك إساءتى عن إتمام إحسانك ، ولا حجرنى ذلك عن ارتكاب مساخطك .

---

(٣٤٩) اضبأ : اعد مخبأ

(٣٥٠) دغل : غش

(٣٥١) أركسته : القيته مقلوبا

(٣٥٢) وحر : استضمر الوحر وهو الحقد والغيظ والغش

لا تسأل عما تفعل ، ولقد سئلت فأعطيت ، ولم تُسأل فابتدأت ، واستميح فضلك فما أكديت[٣٥٣] .

أبيتَ يا مولاى إلا إحسانا وامتنانا ، وكرما وإنعاما . وأبيتُ إلا تقحما[٣٥٤] لحرماتك ، وتعديا لحدودك ، وغفلة عن وعيدك .

فلك الحمد إلهى على كل حال وفى كل زمان ومكان ـ هذا مقام من اعترف بسبوغ النعم وقابلها بالتقصير ، وشهد على نفسه بالتضييع .

اللهم فإنى أتقرب إليك بالمحمدية الرفيعة ، والرسالة البديعة أن تفيدنى من شر كذا وكذا ، فإن ذلك لا يضيق عليك فى وجدك[٣٥٥] ، ولا يتكادك[٣٥٦] فى قدرتك وأنت على كل شيء قدير .

فهب لى يا إلهى من رحمتك ودوام توفيقك ما أتخذه سلما أعرج به إلى رضوانك ، وآمن به من عقابك يا أرحم الراحمين .

وكان من دعائه ـ رضى الله عنه ـ فى الرهبة :

اللهم إنك خلقتنى سويا ، وربيتنى صغيرا ، ورزقتنى مكفيا .

اللهم إنى وجدت فيما أنزلت من كتابك ، وبشرت به عبادك أن قلت :

« يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً .

---

(٣٥٣) أى تعبت

(٣٥٤) اعتداء على حرماتك

(٣٥٥) وجدك : نعمك وعطاؤك

(٣٥٦) يتكادك : يضيق بك

وقد تقدم منى ما قد علمت وما أنت أعلم به منى . . . فيا سوأتا مما أحصاه علىّ كتابك ، فلولا المواقف التى أؤمل من عفوك الذى شمل كل شىء لألقيت بيدى ، ولو أن أحداً استطاع الهرب من ربه لكنت أنا أحق بالهرب منك ، وأنت لا تخفى عليك خافية فى الأرض ولا فى السماء إلا أتيت بها ، وكفى بك جازيا ، وكفى بك حسيبا .

اللهم إنك طالبى إن أنا هربت ، ومدركى إن أنا فررت ، فها أنا ذا بين يديك خاضع ذليل راغم ـ إن تعذبنى فإنى لذلك أهل ، وهو يا رب منك عدل ، وإن تعف عنى فقديما شملنى عفوك ، وألبستنى عافيتك .

فأسألك اللهم بالمخزون من أسمائك ، وبما وارته الحجب من بهائك ، إلا رحمت هذه النفس الجزوعة ، وهذه الرمة الهلوعة ، التى لا تستطيع حر شمسك ، فكيف تستطيع حر نارك ، والتى لا تستطيع صوت رعدك ، فكيف تستطيع صوت غضبك ، فارحمنى .

اللهم فإنى امرؤ حقير ، وخطرى يسير ، وليس عذابى مما يزيد فى ملكك مثقال ذرة ، ولو أن عذابى مما يزيد فى ملكك لسألتك الصبر عليه ، وأحببت أن يكون ذلك لك ، ولكن سلطانك اللهم أعظم ، وملكك أدوم من أن تزيد فيه طاعة المطيعين ، أو تنقص منه معصية المذنبين ، فارحمنى يا أرحم الراحمين ، وتجاوز عنى يا ذا الجلال والإكرام ، وتب علىّ إنك أنت التواب الرحيم .

وكان من دعائه عليه السلام فى التضرع والاستكانة :

إلهى ، أحمدك ـ وأنت للحمد أهل ـ على حسن صنيعك إلىّ ، وسبوغ

نعمائك عليَّ ، وجزيل عطائك عندى ، وعلى ما فضلتنى من رحمتك ، وأسبغت عليَّ من نعمتك .

فقد اصطنعت عندى ما يعجز عنه شكرى ، ولولا إحسانك إليَّ ، وسبوغ نعمائك عليَّ ما بلغت إحراز حظى ، ولا إصطلاح نفسى ، ولكنك ابتدأتنى بالإحسان ، ورزقتنى فى أمورى كلها الكفاية ، وصرفت عنى جهد البلاء ، ومنعت منى محذور القضاء .

إلهى ، فكم من بلاء جاهد قد صرفت عنى ، وكم من نعمة سابغة أقررت بها عينى ، وكم من صنيعة كريمة لك عندى .

أنت الذى أجبت عند الاضطرار دعوتى ، وأقلت عند العثار زلتى ، وأخذت لى من الأعداء بظلامتى .

إلهى ، ما وجدتك بخيلاً حين سألتك ، ولا منقبضا حين أردتك ، بل وجدتك لدعائى سامعا ، ولمطالبى معطيا ، ووجدت نعماك عليَّ سابغة فى كل شأن من شأنى ، وكل زمان من زمانى .

فأنت عندى محمود ، وصنيعك لدى مبرور ، تحمدك نفسى ولسانى وعقلى حمداً يبلغ الوفاء وحقيقة الشكر ، حمداً يكون مبلغ رضاك عنى .

فنجنى من سخطك يا إلهى حين تعيينى المذاهب ، ويا مقيل عثرتى ، فلولا سترك عوراتى لكنت من المفضوحين ، ويا مؤيدى بالنصر ، فلولا نصرك إياى لكنت من المغلوبين ، ويا من وضعت له الملوك نير المذلة على أعناقها فهم من سطوته خائفون ، ويا أهل التقوى ، ويا من له الأسماء الحسنى ـ أسألك أن تعفو عنى وتغفر لى ، فلست بريا فاعتذر ، ولا بذى قوة فأنتصر ، ولا مفر لى فأفر ، وأستقيلك عثراتى ، وأتنصل إليك من ذنوبى التى

قد أوبقتنى[٣٥٧] ، وأحاطت بى فأهلكتنى . . . منها فررت إليك رب تائباً فتب على ، متعوذا فأعذنى ، مستجيرا فلا تخذلنى ، سائلاً فلا تحرمنى ، معتصماً فلا تسلمنى ، داعياً فلا تردنى خائباً .

دعوتك يا رب مسكيناً مستكيناً ، مشفقاً خائفاً ، وجلاً فقيراً ، مضطراً إليك ، أشكو إليك يا إلهى ضعف نفسى عن المسارعة فيما وعدته أولياءك ، والمجانبة عما حذرته أعداءك ، وكثرة همومى ، ووسوسة نفسى .

إلهى ، لم تفضحنى بسريرتى ، ولم تهلكنى بجريرتى ، أدعوك فتجيبنى ، وإن كنتُ بطيئاً حيت تدعونى ، وأسألك كلما شئت من حوائجى ، وحيث ما كنت وضعت عندك سرى ، فلا أدعو سواك ، ولا أرجو غيرك .

لبيك لبيك ، تسمع من شكا إليك ، وتعين من توكل عليك ، وتخلص من اعتصم بك ، وتفرج عمن لاذ بك .

إلهى فلا تحرمنى خير الآخرة والأولى لقلة شكرى ، واغفر لى ما تعلم من ذنوبى - إن تعذب فأنا الظالم المفرط المضيع ، الآثم المقصر ، المغفل حظ نفسى ، وإن تغفر فأنت أرحم الراحمين .

وكان من دعائه عليه السلام فى الإلحاح على الله تعالى

يا ألله الذى لا يخفى عليه شىء فى الأرض ولا فى السماء ، وكيف يخفى عليك يا إلهى ما أنت خلقته ، وكيف لا تحصى ما أنت صنعته ، أو كيف يغيب عنك ما أنت تدبره ، أو كيف يستطيع أن يهرب منك من لا حياة له إلا برزقك ، أو كيف ينجو منك من لا مذهب له فى غير ملكك .

---

(٣٥٧) أوبقتنى : أهلكتنى

سبحانك - أخشى خلقك لك أعلمهم بك ، وأخضعهم لك أعلمهم بطاعتك ، وأهونهم عليك من أنت ترزقه وهو يعبد غيرك .

سبحانك - لا ينقص سلطانك من أشرك بك ، وكذب رسلك ، وليس يستطيع من كره قضاءك أن يرد أمرك ، ولا يمتنع منك من كذب بقدرتك ، ولا يفوتك من عَبَدَ غيرك ، ولا يعمر فى الدنيا من كره لقاءك .

سبحانك ، ما أعظم شأنك ، وأقهر سلطانك ، وأشد قوتك ، وأنفذ أمرك ،

سبحانك قضيت على جميع خلقك الموت ، مَنْ وَحَّدَكَ ومن كفر بك ، وكل ذائق الموت ، وكل صائر إليك ، فتباركت وتعاليت ، لا إله إلا أنت وحدك لا شريك لك .. آمنت بك ، وصدقت رسلك ، وقبلت كتابك ، وكفرت بكل معبود غيرك ، وبرئت ممن عبدَ سواك .

اللهم إنى أصبح وأمسى مستقلا لعملى ، معترفا بذنبى ، مقرا بخطاياى ، أنا بإسراف على نفسى ذليل ، عملى أهلكنى ، وهواى أردانى ؟ وشهواتى حرمتنى .

فأسألك يا مولاى سؤال من نفسه لاهية لطول أمله ، وبدنه غافل لسكون عروقه ، وقلبه مفتون بكثرة النعم عليه ، وفكره قليل لما هو صائر إليه ، سؤال من قد غلب عليه الأمل ، وفتنه الهوى ، واستمكنت منه الدنيا ، وأظله الأجل .

سؤال من استنكر ذنوبه ، واعترف بخطيئته ، سؤال من لا رب له غيرك ، ولا ولى له دونك ، ولا منفذ له منك ، ولا ملجأ له منك إلا إليك .

إلهى : أسألك بحقك الواجب على جميع خلقك ، وباسمك العظيم

الذى أمرت رسولك أن يسبحك به ، وبجلال وجهك الكريم الذى لا يبلى ولا يتغير ، ولا يحول ولا يفنى ، أن تصلى على محمد وآل محمد ، وأن تغنينى عن كل شيء بعبادتك ، وأن تسلى نفسى عن الدنيا بمخافتك ، وأن تنجينى برحمتك .

فإليك أفر ، ومنك أخاف ، وبك أستغيث ، وإياك أرجو ، ولك أدعو ، وإليك ألجأ ، وبك أثق ، وإياك أستعين ، وبك أؤمن ، وعليك أتوكل ، وعلى جودك وكرمك أتكل .

وكان من دعائه عليه السلام فى التذلل لله عز وجل :

رب أفحمتنى ذنوبى ، وانقطعت مقالتى فلا حجة لى ، فأنا الأسير ببليتى ، المرتهن بعملى ، المتردد فى خطيئتى ، المتحير عن قصدى ، المنقطع بى .

قد أوقفت نفسى موقف الأذلاء المذنبين ، موقف الأشقياء المتجرين عليك ، المستخفين بوعدك .

سبحانك ، أى جرأة اجترأت عليك ، وأى تغرير غررت بنفسى .

مولاى : ارحم كبوتى لحر وجهى ، وزلة قدمى ، وعُدْ بحلمك على جهلى ، وبإحسانك على إساءتى ، فأنا المقر بذنبى ، المعترف بخطيئتى ، وهذه يدى وناصيتى ، أستكين بالقود من نفسى .

ارحم شيبتى ، ونفاد أيامى ، واقتراب أجلى ، وضعفى ومسكنتى ، وقلة حيلتى ، مولاى وارحمنى إذا انقطع من الدنيا أثرى ، وكنت فى المنسيين كمن قد نسى .

مولای وارحمنی عند تغیر صورتی وحالی ، إذا بلی جسمی ، وتفرقت أعضائی ، وتقطعت أوصالی .

یا غفلتی عما یراد بی . . . مولای وارحمنی فی حشری ونشری ، واجعل فی ذلك الیوم فی أولیائك موقفی ، وفی أحبائك مصدری ، وفی جوارك مسكنی یا رب العالمین .

وكان من دعائه علیه السلام فی استكشاف الهموم :

یا فارج الهم ، وكاشف الغم ، یا رحمن الدنیا والآخرة ورحیمها ، صل علی محمد وآل محمد ، وافرج همی ، واكشف غمی . یا واحد ، یا أحد ، یا صمد ، یا من لم یلد ولم یولد ولم یكن له كفواً أحد ، اعصمنی وطهرنی واذهب ببلیتی .

واقرأ آیة الكرسی والمعوذتین وقل هو الله أحد ، ثم قل : اللهم انی أسألك سؤال من اشتدت فاقته ، وضعفت قوته ، وكثرت ذنوبه .

سؤال من لا یجد لفاقته مغیثا ، ولا لضعفه مقویا ، ولا لذنبه غافراً غیرك ، یا ذا الجلال والإكرام . . . أسألك عملاً تحب به من عمل به ، ویقیناً تنفع به من استیقن به حق الیقین . اللهم صل علی محمد وآل محمد ، واقبض علی الصدق نفسی ، واقطع من الدنیا حاجتی ، واجعل فیما عندك رغبتی ، شوقاً إلی لقائك ، وهب لی صدق التوكل علیك .

أسألك خوف العابدین لك ، وعبادة الخاشعین لك ، ویقین المتوكلین علیك ، وتوكل المؤمنین علیك .

اللهم اجعل رغبتی فی مسألتی مثل رغبة أولیائك فی مسائلهم ، ورهبتی مثل رهبة أولیائك ، واستعملنی فی مرضاتك عملاً لا أترك معه شیئاً من

دينك مخافة أحد من خلقك .

اللهم هذه حاجتى فأعظم فيها رغبتى ، وأظهر فيها عذرى ، ولقنى فيها حجتى ، وعاف فيها جسدى .

اللهم من أصبح له ثقة أو رجاء غيرك ـ فقد أصبحت وأنت ثقتى ورجائى فى الأمور كلها فاقض لى بخيرها عاقبة ، ونجنى من مضلات الفتن برحمتك يا أرحم الراحمين .

وصلى الله على سيدنا محمد رسول الله المصطفى ، وعلى آله الطاهرين .

مما ألحق ببعض نسخ الصحيفة وكانت من تسبيحه : أعنى زين العابدين ـ رضى الله عنه ـ

سبحانك اللهم وحنانيك ، سبحانك اللهم وتعاليت ، سبحانك اللهم والعز إزارك ، سبحانك اللهم والعظمة رداؤك ، سبحانك اللهم والكبرياء سلطانك ، سبحانك من عظيم ما أعظمك ، سبحانك سُبِّحت فى الملأ الأعلى ، تسمع وترى ما تحت الثرى .

سبحانك أنت شاهد كل نجوى ، سبحانك موضع كل شكوى ، سبحانك حاضر كل ملأ ، سبحانك عظيم الرجاء ، سبحانك ترى ما فى قعر الماء ، سبحانك تسمع أنفاس الحيتان فى قعور البحار ، سبحانك تعلم وزن السماوات ، سبحانك تعلم وزن الأرضين ، سبحانك تعلم وزن الشمس والقمر ، سبحانك تعلم وزن الظلمة والنور ، سبحانك تعلم وزن الفىء والهواء ، سبحانك تعلم وزن الريح كم هى من مثقال ذرة ـ سبحانك عجباً لمن عرفك كيف لا يخافك ، سبحانك اللهم وبحمدك ، سبحان العلى العظيم .

ومن دعائه رضي الله عنه في الأيام السبعة :

دعاء يوم الجمعة

الحمد لله الأول قبل الإنشاء والإحياء ، والآخر بعد فناء الأشياء ، العليم الذى لا ينسى من ذكره ، ولا ينقص من شكره ، ولا يخيب من دعاه ، ولا يقطع رجاء من رجاه .

اللهم إنى أشهدك وكفى بك شهيداً ، وأُشهد جميع ملائكتك ، وسكان سمواتك ، وحملة عرشك ، ومن بعثت من أنبيائك ورسلك ، وأنشأت من أصناف خلقك ـ أنى أشهد أنك أنت الله لا إله إلا أنت وحدك لا شريك لك ولا عديل ، ولا خلف لقولك ولا تبديل ، وأن محمدا صلى الله عليه وعلى آله عبدك ورسولك ، أدى ما حملته إلى العباد ، وجاهد فى الله عز وجل حق الجهاد ، وأنه بَشَّر بما هو حق من الثواب ، وأنذر بما هو صدق من العقاب .

اللهم ثبتنى على دينك ما أحييتنى ، ولا تزغ قلبى بعد إذ هديتنى ، وهب لى من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب ، اللهم صل على محمد وعلى آل محمد ، واجعلنى من أتباعه وشيعته ، واحشرنى فى زمرته ، ووفقنى لأداء فرض الجمعات ، وما أوجبت علىَّ فيها من الطاعات ، وقسمت لأهلها من العطاء فى يوم الجزاء ، إنك أنت العزيز الحكيم .

دعاء يوم السبت

بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله ، كلمة المعتصمين ، ومقالة المتحرزين ، وأعوذ بالله تعالى من

جور الجائرين ، وكيد الحاسدين ، وبغى الظالمين . . وأحمده فوق حمد الحامدين . .

اللهم أنت الواحد بلا شريك ، والملك بلا تمليك ، لا تضاد فى حكمك ، ولا تنازع فى ملكك ، أسألك أن تصلى على محمد عبدك ورسولك ، وأن توزعنى مِنْ شكر نعماك ما تبلغ بى غاية رضاك ، وأن تعيننى على طاعتك ، ولزوم عبادتك ، واستحقاق مثوبتك بلطف عنايتك . . . وأن تصدنى عن معاصيك ما أحييتنى ، وتوفقنى لما ينفعنى ما أبقيتنى ، وأن تشرح بكتابك صدرى ، وتحط بتلاوته وزرى ، وتمنحنى السلامة فى دينى ونفسى ، ولا توحش بى أهل أنسى ، وتتم إحسانك فيما بقى من عمرى ، كما أحسنت فيما مضى منه يا أرحم الراحمين .

دعاء يوم الأحد

بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الذى لا أرجو إلا فضله ، ولا أخشى إلا عدله ، ولا أعتمد إلا قوله ، ولا أمسك إلا بحبله ، بك أستجير يا ذا العفو والرضوان من الظلم والعدوان ، ومن غِيرَ الزمان وتواتر الأحزان ، ومن انقضاء المدة قبل التأهب والعدة . . وإياك أسترشد لما فيه الصلاح والإصلاح ، وبك أستعين فيما يقترن به النجاح والإنجاح ، وإياك أرغب فى إلباسى العافية وتمامها ، وشمول السلامة ودوامها .

وأعوذ بك يا رب من همزات الشياطين ، وأحترز بسلطانك من جور السلاطين ، فتقبل ما كان من صلواتى وصومى ، واجعل غدى وما بعده أفضل من ساعتى ويومى ، وأعزنى فى عشيرتى وقومى ، واحفظنى فى يقظتى

ونومى ، فأنت الله خير حافظاً وأنت أرحم الراحمين .

واللهم إنى أبرأ إليك فى يومى هذا وما بعده من الآحاد ، من الشرك والالحاد ، وأخلص لك دعائى تعرضا للإجابة ، وأقيم على طاعتك رجاء للإنابة ، فصل على محمد خير خلقك ، الداعى إلى حقك ، وأعزنى بعزك الذى لا يضام ، واحفظنى بعينك التى لا تنام ، واختم بالانقطاع إليك أمرى ، وبالمغفرة عمرى ، إنك أنت الغفور الرحيم .

دعاء يوم الاثنين

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذى لم يُشْهِد أحداً حين فطر السموات والأرض ، ولا اتخذ معيناً حين برأ النسمات . لم يُشارك فى الإلهية ، ولم يُظَاهرَ فى الوحدانية ، كلت الألسن عن غاية صفته ، والعقول عن كنه معرفته ، وتواضعت الجبابرة لهيبته ، وعنت الوجوه لخشيته ، وانقاد كل عظيم لعظمته ، فلك الحمد متواترا متسقاً ، ومتوالياً مستوثقاً ، وصلواته على رسوله أبدا ، وسلامه دائماً سرمدا .

اللهم اجعل أول يومى هذا صلاحاً ، وأوسطه فلاحاً ، وآخره نجاحاً ، وأعوذ بك من يوم أوله فزع ، وأوسطه جزع ، وآخره وجع .

اللهم إنى أستغفرك لكل نذر نذرته ، وكل وعد وعدته ، وكل عهد عاهدته ثم لم أف به . وأسألك فى مظالم عبادك عندى ، فأيما عبد من عبيدك ، أو أمة من إمائك كانت له قبلى مظلمة ظلمتها إياه فى نفسه أو فى عرضه أو فى ماله أو فى أهله وولده ، أو غيبة اغتبته بها ، أو تحامل عليه بميل

أو هوى ، أو أنفة[٣٥٨] أو حمية أو رثاء أو عصبية ، غائباً كان أو شاهداً ، أو حياً كان أو ميتاً ، فقصرت يدى وضاق وسعى عن ردها إليه ، والتحلل منه ، فأسألك يا من يملك الحاجات وهى مستجيبة لمشيئته ، ومسرعة إلى إرادته ، أن تصلى على محمد وعلى آل محمد ، وأن ترضيه عنى بما شئت ، وتهب لى من عندك رحمة ، إنه لا تنقصك المغفرة ، ولا تضرك الموهبة ، يا أرحم الراحمين .

اللهم أولنى فى كل يوم اثنين نعمتين منك ثنتين : سعادة فى أوله بطاعتك ، ونعمة فى آخره بمغفرتك ، يا من هو الإله ولا يغفر الذنوب سواه .

دعاء يوم الثلاثاء

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله والحمد حقه كما يستحقه حمداً كثيراً ، وأعوذ به من شر نفسى إن النفس لأمارة بالسوء إلا ما رحم ربى ، وأعوذ به من شر الشيطان الذى يزيدنى ذنباً إلى ذنبى ، وأحترز به من كل جبار فاجر ، وسلطان جائر ، وعدو قاهر .

اللهم اجعلنى من جندك فإن جندك هم الغالبون ، واجعلنى من حزبك فإن حزبك هم المفلحون ، واجعلنى من أوليائك فإن أولياءك لا خوف عليهم ولا هم يحزنون .

اللهم أصلح لى دينى فإنه عصمة أمرى ، وأصلح لى آخرتى فإنها دار

---

(٣٥٨) أى : كبر

مقرى ، وإليها من مجاورة اللئام مفرى ، واجعل الحياة زيادة لى فى كل خير ، والوفاة راحة من كل شر .

اللهم صل على محمد خاتم النبيين ، وتمام عدة المرسلين ، وعلى آله الطيبين الطاهرين ، وأصحابه المخلصين الصادقين ، وهب لى فى الثلاثاء ثلاثاً :

لا تدع لى ذنباً إلا غفرته ، ولا غماً إلا أذهبته ، ولا عدواً إلا دفعته . . . بسم الله رب الأرض والسماء ، أستدفع كل مكروه أوله سخطه ، وأستجلب به كل محبوب أوله رضاه ، فاختم لى منك بالغفران ، يا ولى الإحسان .

دعاء يوم الأربعاء

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذى جعل الليل لباساً ، والنوم سباتاً ، وجعل النهار نشوراً . لك الحمد أن بعثتنى من مرقدى ، ولو شئت جعلته سرمداً . . حمداً دائماً لا ينقطع أبداً ، ولا يحصى له الخلائق عدداً .

اللهم لك الحمد أن خلقت فسويت ، وقدرت وقضيت ، وأمتَّ وأحييت ، وأمرضت وشفيت ، وعافيت وأبليت ، وعلى العرش استويت ، وعلى الملك احتويت .

أدعوك دعاء من ضعفت وسيلته ، وانقطعت حيلته ، واقترب أجلُه ، وتدانى فى الدنيا أمله ، . واشتدت إلى رحمتك فاقته ، وعظمت لتفريطه حسرته ، وكثرت زلته وعثرته ، وخلصت لوجهك توبته ، فصل على محمد خاتم النبيين ، وعلى أهل بيته الطاهرين . وارزقنى شفاعة محمد صلى الله

عليه وسلم وآله ، ولا تحرمنى من صحبته إنك أنت أرحم الراحمين .

اللهم اقض لى فى يوم الأربعاء أربعاً :

اجعل قوتى فى طاعتك ، ونشاطى فى عبادتك ، ورغبتى فى ثوابك ، وزهدى فيما يوجب أليم عقابك ، إنك لطيف لما تشاء .

دعاء يوم الخميس

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذى أذهب الليل مظلماً بقدرته ، وجاء بالنهار مبصراً برحمته ، وكسانى ضياءه ، وأنا فى نعمته .

اللهم فكما أبقيتنى له فأبقنى لأمثاله ، وصل على النبى محمد وآله ، ولا تفجعنى فيه وفى غيره من الليالى والأيام ، بارتكاب المحارم واكتساب المآثم ، وارزقنى خيره وخير ما فيه وخير ما بعده ، واصرف عنى شره وشر ما فيه وشر ما بعده .

اللهم إنى بذمة الإسلام أتوسل إليك ، وبحرمة القرآن أعتمد عليك ، وبمحمد المصطفى صلى الله عليه وسلم وآله أستشفع لديك ، فاقض اللهم لى حاجتى ، يا أرحم الراحمين .

اللهم أقض لى فى الخميس خمساً لا يتسع لها إلا كرمك ، ولا يطيقها إلا نعمك ، سلامة أقوى بها على طاعتك ، وعبادة أستحق بها جزيل مثوبتك ، وسعة فى الحال من الرزق الحلال ، وأن تؤمننى فى مواقف الخوف بأمنك ، وتجعلنى من طوارق الهموم والغموم فى حصنك .

اللهم صل على محمد وعلى آل محمد ، واجعل توسلى به شافعاً يوم القيامة نافعاً ، إنك أنت أرحم الراحمين .

دعاء ختم القرآن :

ونختتم هذه الأدعية بدعاء ختم القرآن الذى أثر عنه :

« اللهم إنك أعنتنى على ختم كتابك الذى أنزلته نوراً ، وجعلته مهيمناً على كل كتاب أنزلته وفضلته على كل حديث غيره ، وفرقانا فرقت به بين حلالك وحرامك ، وقرآنا أعربت به عن شرائع أحكامك ، وكتاباً فصلته لعبادك تفصيلاً ، ووحياً أنزلته على نبيك محمد صلواتك عليه وآله تنزيلاً ، وجعلته نورا نهتدى من ظلم الضلالة والجهالة باتباعه وشفاء لمن أنصت بفهم التصديق إلى استماعه ، وميزان قسط لا يحيف عن الحق لسانه ، ونور هدى لا يطفأ عن الشاهدين برهانه ، وعلم نجاة لا يضل من أم قصد سنته ولا تنال أيدى الهلكات من تعلق بعروة عصمته .

اللهم فإذا أفدتنا المعونة على تلاوته ، وسهلت بحسن عبارته فاجعلنا ممن يرعاه حق رعايته ، ويدين لك باعتقاد التسليم لمحكم آياته ، ويفزع إلى الإقرار بمتشابهه ، وموضحات بيانه .

اللهم إنك أنزلته على نبيك محمد صلى اللّه عليه وآله مجملاً ، وألهمته علم عجائبه مكملاً وورثتنا علمه مفسراً ، وفضلتنا على من جهل علمه ، وقويتنا عليه لترفعنا فوق من لم يطق حمله .

اللهم فكما جعلت قلوبنا له حملة وعرفتنا برحمتك شرفه وفضله ، فصل على محمد الخطيب به ، وعلى آله الخزان له ، واجعلنا ممن يعترف بأنه من عندك ، حتى لا يعارضنا الشك فى تصديقه ولا يختلجنا الزيغ عن قصد طريقه .

اللهم صل على محمد وآله ، واجعلنا ممن يعتصم بحبله ، ويأوى من

المتشابهات إلى حرز معقله ويسكن فى ظل جناحه ، ويهتدى بضوء صباحه ، ويقتدى بتبلج أسفاره ويستصبح بمصباحه ، ولا يلتمس الهدى فى غيره .

اللهم وكما نصبت به محمداً علماً للدلالة عليك ، وأنهجت بآله سبل الرضا إليك فصل على محمد وآله ، واجعل القرآن وسيلة لنا إلى أشرف منازل الكرامة وسلماً نعرج فيه إلى محل السلامة ، وسبباً نجزى به النجاة فى عرصة القيامة ، وذريعة نقدم بها على نعيم دار المقامة .

اللهم صل على محمد وآله واحطط بالقرآن عنا ثقل الأوزار ، وهب لنا حسن شمائل الأبرار ، واقف بنا آثار الذين قاموا لك به آناء الليل وأطراف النهار ، حتى تطهرنا من كل دنس بتطهيره ، وتقفو بنا آثار الذين استضاءوا بنوره ولم يلههم الأمل عن العمل فيقطعهم بخدع غروره .

اللهم صل على محمد وآله ، واجعل القرآن لنا فى ظلم الليالى مؤنساً ، ومن نزغات الشيطان وخطرات الوساوس حارساً ولأقدامنا عن نقلها إلى المعاصى حابساً ، ولألسنتنا عن الخوض فى الباطل مخرساً ، ولجوارحنا عن اقتراف الآثام زاجراً ، ولما طوت الغفلة عنا من تصفح الاعتبار ناشراً ، حتى توصل إلى قلوبنا فهم عجائبه وزواجر أمثاله التى ضعفت الجبال الرواسى على صلابتها عن احتماله .

اللهم صل على محمد وآله ، وأدم بالقرآن صلاح ظاهرنا ، واحجب به خطرات الوساوس عن صحة ضمائرنا ، واغسل به درن قلوبنا وعلائق أوزارنا ، واجمع به منتشر أمورنا وارو به فى موقف العرض عليك ظمأ هواجرنا واكسنا به حلل الأمان يوم الفزع الأكبر فى نشورنا .

اللهم صل على محمد وآله واجبر بالقرآن خلتنا من عدم الإملاق ، وسق

إلينا به رغد العيش وخصب سعة الأرزاق ، وجنبنا به الضرائب المذمومة ومدانى الأخلاق واعصمنا به من هوة الكفر ودواعى النفاق ، حتى يكون لنا فى القيامة إلى رضوانك وجناتك قائداً ، ولنا فى الدنيا عن سخطك وتعدى حدودك ذائداً ، ولما عندك بتحليل حلاله وتحريم حرامه شاهداً .

اللهم صل على محمد وآله وهون بالقرآن عند الموت على أنفسنا جهد الأنين ، وترادف الحشارج إذا بلغت النفوس التراقى وقيل من راق ، وتجلى ملك الموت لقبضهامن حجب الغيوب ، ورماها عن قوس المنايا بأسهم وحشة الفراق ، وداف لها من زعاف الموت كأساً مسمومة المذاق ، ودنا منا إلى الآخرة رحيل وانطلاق ، وصارت الأعمال قلائد فى الأعناق ، وكانت القبور هى المأوى إلى ميقات يوم التلاق .

اللهم صل على محمد وآله ، وبارك لنا فى حلول دار البلى ، وطول المقامة بين أطباق الثرى ، واجعل القبور بعد فراق الدنيا خير منازلنا ، وافسح لنا برحمتك فى ضيق ملاحدنا ، ولا تفضحنا فى حاضرى القيامة بموبقات آثامنا ، وارحم بالقرآن فى موقف العرض عليك ذل مقامنا ، ونجنا به من كل كرب يوم القيامة ، وشدائد أهوال يوم الطامة ، وبيض وجوهنا يوم تسود وجوه الظلمة فى يوم الحسرة والندامة ، واجعل لنا فى صدور المؤمنين وداً ، ولا تجعل الحياة علينا نكداً ،

اللهم صل على محمد عبدك ورسولك كما بلَّغ رسالتك وصدع بأمرك ونصح لعبادك .

اللهم اجعل نبينا ـ صلواتك عليه وعلى آله ـ يوم القيامة أقرب النبيين

منك مجلسا وأمكنهم منك شفاعة ، وأجلهم عندك قدراً ، وأوجههم عندك جاهاً .

اللهم صل على محمد وآل محمد وشرف بنيانه ، وعظم برهانه ، وثقل ميزانه ، وتقبل شفاعته ، وقرب وسيلته وبيض وجهه ، وأتم نوره وارفع درجته ، وأحينا على سنته ، وتوفنا على ملته ، وخذ بنا منهاجه واسلك بنا سبيله ، واجعلنا من أهل طاعته ، واحشرنا فى زمرته ، وأوردنا حوضه ، واسقنا بكأسه . وصل اللهم على محمد وآله صلاة تبلغه بها أفضل ما يأمل من خيرك وفضلك وكرامتك ، إنك ذو رحمة واسعة ، وفضل كريم .

اللهم اجزه بما بلّغ رسالاتك ، وأدى من آياتك ، ونصح لعبادك ، وجاهد فى سبيلك أفضل ما جزيت أحداً من ملائكتك المقربين وأنبيائك المرسلين المصطفين ـ والسلام عليه وعلى آله الطيبين الطاهرين ، ورحمة الله وبركاته .

وفاة زين العابدين وأولاده :

قال ابن كثير : وقد اختلف أهل التاريخ فى السنة التى توفى فيها على بن الحسين « زين العابدين » .

والمشهور عند الجمهور أنه توفى فى سنة أربع وتسعين ـ عن ثمان وخمسين سنة . وصُلِّيَ عليه بالبقيع ودفن به .

وقال : مات على بن الحسين ، وسعيد بن المسيب ، وعروة بن الزبير ، وأبوبكر بن عبدالرحمن فى هذه السنة ، ولذلك يقال لها : سنة العلماء .

قال : وقال بعضهم : توفى سنة اثنتين أو ثلاث وتسعين . . . وأغرب المدائنى فى قوله : إنه توفى سنة تسع وتسعين . .

وذكر ابن سعد عن حسين بن على بن حسين أن أباه مات سنة أربع وتسعين . قال : وصلينا عليه بالبقيع . .

وتهافت الناس على شهود جنازته ، وكان قد أوصى أن يسرع به فى المشى ، وأن يكفن فى قطن ، وألا يجعل فى حنوطه مسك .

أما أولاده فهم :

الحسن بن على . مات صغيراً .

والحسين بن على . مات صغيراً .

ومحمد بن على . وكنيته أبوجعفر ، ولقبه الباقر .

وعبدالله بن على .

وأم هؤلاء الأربعة هى أم عبدالله بنت الحسن بن على ، وهى ابنة عمه .

ومن أولاده أيضاً :

عمر بن على .

وزيد بن على ـ الذى تنسب إليه الطائفة الزيدية ، وقد قتل بالكوفة ، قتله يوسف بن عمر الثقفى فى خلافة هشام بن عبدالملك ، وهو مدفون بالقاهرة فى الضريح المنسوب إلى والده . ـ وسنتحدث عنه إن شاء الله ـ

وعلى بن على .

وخديجة ـ وأم هؤلاء الأربعة أم ولد .

ومن أولاده أيضاً :

حسين الأصغر بن على .

وعلية بنت على .

وأم كلثوم بنت على .

وسليمان بن علي - ولا عقب له .
ومليكة بنت علي .
والقاسم بن علي .
وأم الحسن ، واسمها حسنة .
وأم الحسين .
وفاطمة -

فجميع أولاد زين العابدين علي ما ذكرهم ابن سعد سبعة عشر ولداً منهم : عشرة ذكور - وسبع إناث .

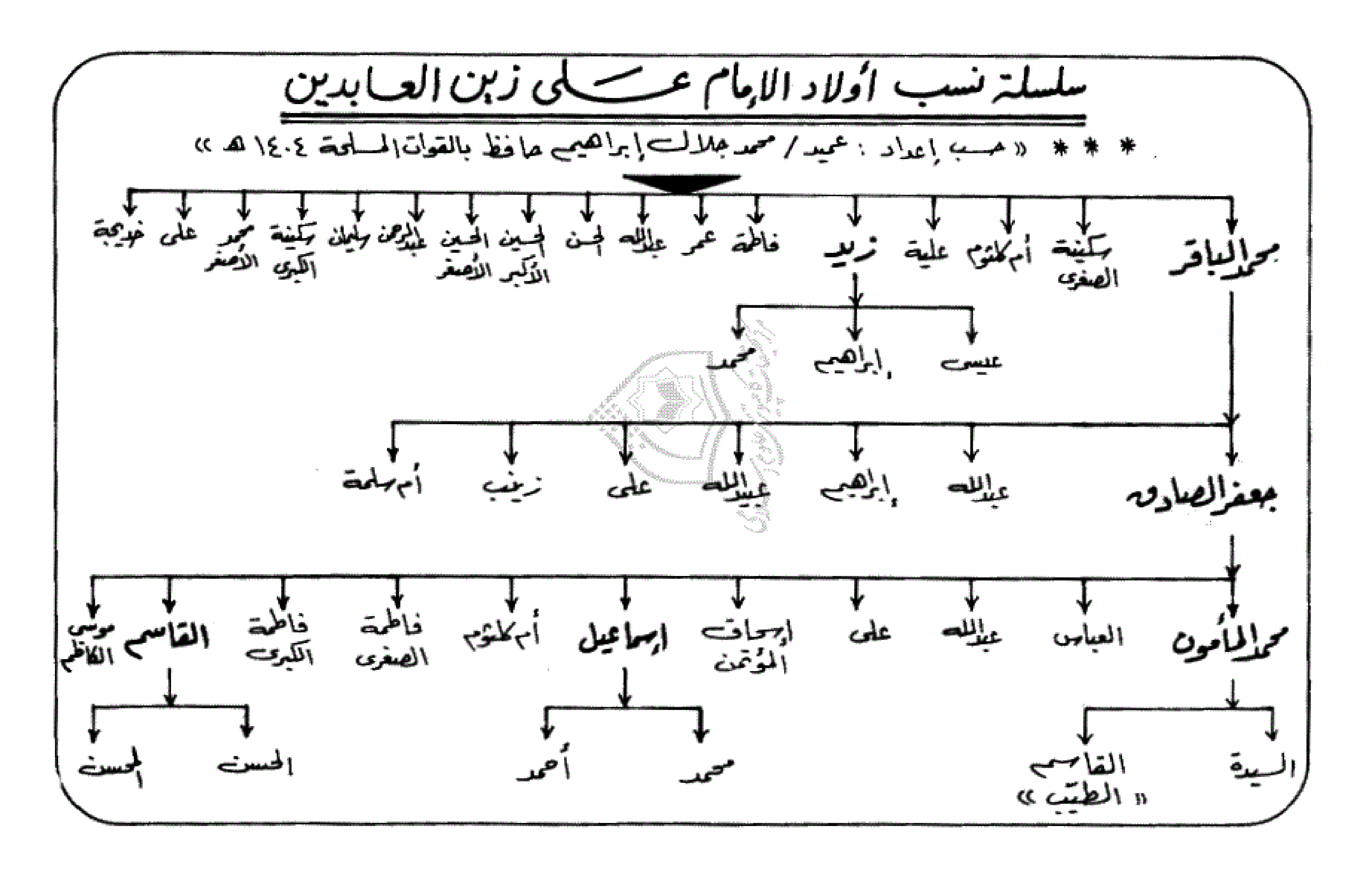
هذا ما حكاه ابن سعد في طبقاته .

وقال الشبلنجي : أولاده - رضي الله عنهم - أربعة عشر ولداً ما بين ذكر وأنثى . منه عشرة ذكور ، وأربع إناث .

وهم : محمد المكنى بأبي جعفر والملقب بالباقر ، وزيد وعمر ، وعبدالله ، والحسن والحسين ، والحسين الأصغر وعبدالرحمن وسليمان . . وعَلِي - وكان أصغر ولده ، وخديجة ، وفاطمة ، وعلية ، وأم كلثوم .

وهناك سلسلة نسب لأولاد الإمام علي زين العابدين أعدها العميد محمد جلال إبراهيم حافظ ونشرتها مجلة المجاهد سنة ١٩٨٤ م - ١٤٠٤ هـ .

وننشرها رفق هذا : -



سلسلة نسب أولاد الإمام علي زين العابدين
* * * « حسب إعداد : عميد / محمد جلال إبراهيم حافظ بالقوات المسلحة ١٤٠٤ هـ »
محمد الباقر
سكينة الصغرى
أم كلثوم
علية
زيد
فاطمة
عمر
عبد الله
الحسن
الحسين الأكبر
الحسين الأصغر
عبد الرحمن
سليمان
سكينة الكبرى
محمد الأصغر
علي
خديجة
عيسى
إبراهيم
محمد
جعفر الصادق
عبد الله
إبراهيم
عبيد الله
علي
زينب
أم سلمة
محمد المأمون
العباس
عبد الله
علي
إسحاق المؤتمن
إسماعيل
أم كلثوم
فاطمة الصغرى
فاطمة الكبرى
القاسم
موسى الكاظم
السيدة
القاسم « الطيب »
محمد
أحمد
الحسن
الحسين

الإمام محمد الباقر

نسبه

علمه

من عاصر من الخلفاء

أهل البيت فى حياته

الباقر والكميت الشاعر

لماذا تشيع الكميت

هاشميات الكميت

منزلة الباقر العلمية

قصد العلماء إياه

مروياته

حكمه

بصره بالشعر

أخلاقه

موقفه من الشيعة

وفاته

مآثر خالدة



الإمام مُحمَّدُ الباقِر

وُلد لعلى بن الحسين أولادٌ كانوا قمة فى الشرف والسؤدد والكمال ، وبلغوا أعظم منزلة فى العلم والدين . . .

نذكر منهم محمد بن على بن الحسين الملقب بالباقر . . .

وهذا اللقب تعليل ذكره العلماء هو أنه بقر العلوم واستنبط الحكم . . (٣٥٩)

أمه هي أم عبدالله بنت حسن بن على بن أبي طالب ـ فهى ابنة عم والده . .

ولدته سنة سبع وخمسين من الهجرة فى الثالث من صفر ـ بالمدينة المنورة قبل قتل جده بثلاث سنين .

وكنى بابنه الأكبر جعفر الصادق ـ رضى الله عنه ـ فكان يقال له : أبوجعفر . . وكما لقب بالباقر فقد لقب أيضاً بالهادى وبالذاكر

أما تلقيبه بالهادى فهو من ألقاب أهل البيت الذين جعلهم الله منارات هُدَى وأعلام هداية .

وأما تلقيبه بالذاكر فلكثرة ذكره لله تعالى وشكره على نعمه .

ويؤثر عنه قوله فى فضل الذكر : الصواعق تصيب المؤمن وغير المؤمن ولاتصيب الذاكر (٣٦٠)

وروى الزبير بن محمد بن مسلم المكى قال : كنا عند جابر بن عبدالله

---

(٣٥٩) البداية والنهاية جـ٩ صـ٣٠٩

(٣٦٠) رواه عنه أبو نعيم فى الحلية جـ٣ صـ١٨١

ـ رضي الله عنه ـ فأتاه علي بن الحسين ، ومعه ابنه محمد وهو صبى ، فقال على لابنه محمد وهو صبى : قبل رأس عمك ـ فدنا محمد من جابر فقبل رأسه . فقال جابر : من هذا ؟ ـ وكان قد كف بصره ـ

فقال له على بن الحسين : هذا ابنى محمد .

فضمه جابر إليه ، وقال : يامحمد ـ محمد رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقرئك السلام .

فقالوا : كيف ذلك ياأبا عبدالله ؟

قال ـ جابر ـ : كنت عند رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ والحسين فى حجره ، وهو يلاعبه ، فقال : ياجابر ، يولد لابنى الحسين ابن يقال له على ، فإذا كان يوم القيامة ينادى مناد ليقم سيد العابدين ، فيقوم على بن الحسين . . . ويولد لعلى بن الحسين ابن يقال محمد ـ ياجابر إن أدركته فاقرئه منى السلام ، وأعلم أن بقاءك بعده قليل . فلم يعش جابر بعد ذلك غير ثلاثة أيام(٣٦١)

ويروى أن الباقر سأل جابراً حين دخل عليه عن السيدة عائشة وما جرى بينها وبين على ـ رضى الله عنهما ـ

فقال له جابر : دخلت عليها يوماً ، وقلت لها : ماتقولين فى على بن أبى طالب ـ رضى الله عنه ـ ؟

فأطرقت برأسها ثم رفعته وقالت ـ رضى الله عنها ـ ماقال الشاعر :

إذا ما التبر حُكَّ على مَحَكٍّ تبيَّن غشُّه من غير شكٍّ

---

(٣٦١) نور الأبصار للشبلنجي صـ١٤٣

وفينـا الغـش والذهـب المصـفّى علـيٌّ بيننـا شـبه المحـك[٣٦٢]

وهو تقرير من أم المؤمنين ـ رضى الله عنها ـ عن علىٍّ يفيد قوته فى الحق ، وصدقه ، وعمق تجربته ، وصبره على تقلبات الدنيا وأحوالها ، وعدم اغتراره بما غرَّ غيره من الناس . .

علمه

تلقى الباقر العلم على يد والده زين العابدين ، وكان زين العابدين بحراً فى العلم ـ ورث علوم أهل البيت عن أبيه عن جده ، وقد أشرنا فى الحديث عنه إلى بعض آثاره المفيدة ، وحكمه الفريدة ، ومواعظه الحميدة .

من عاصر من الخلفاء ؟

وعاصر الباقر كثيراً من الخلفاء الأمويين ـ فقد ولد فى عهد معاوية ، وعاصر ابنه يزيد ، ثم مروان وابنه عبدالملك ، ثم ابنه الوليد بن عبدالملك وأخاه سليمان بن عبدالملك ، ثم عمر بن عبدالعزيز ، ثم يزيد بن عبدالملك ، ثم هشام بن عبدالملك ، الذى توفى الباقر فى عهده سنة سبع عشرة ومائة . .

وقيل : بل توفى فى عهد الوليد بن يزيد الذى تولى بعد هشام بن عبدالملك .

والذى ذكر أنه توفى فى عهد الوليد ـ هو المسعودى فى مروج الذهب فى بعض الأقوال عن وفاته ـ بل إن بعضهم قال : إنه توفى فى عهد يزيد بن عبدالملك .

---

(٣٦٢) المرجع السابق .

أهل البيت فى هذه الفترة

وكان أهل البيت فى هذه الحقبة مازالوا يعيشون مأساة الإمام الحسين - رضى الله عنه - فقد كانوا يشعرون أنه قتل ظلماً -

وقد أدت هذه المأساة إلى مصرع أغلب رجالات أهل البيت ، فلم يبق على قيد الحياة منهم بعد الحسين إلا عبدالله بن جعفر - وقد استشهد له ولدان فى كربلاء - ومحمد بن الحنفية - وكان فى المدينة لم يشهد خروج الحسين إلى كربلاء - وعبدالله بن عباس وعبيدالله بن عباس ، ولم يقدرا أن الأمر سيصل إلى هذه الغاية الأليمة ؟ وكان عبدالله قد كف بصره فى هذه الآونة فله عذره فى عدم الخروج مع الحسين . .

وبعد المأساة ضعفت أجْنحة أهل البيت ، وفرض عليهم الاستسلام . . . وخرجت السيدة زينب إلى مصر ، ومن بقى منهم فى الحجاز بقى ولا صوت له . .

وقد مر بنا أن محمد بن الحنفية وهو أخو الحسين أبى أن يشترك فى ثورة المدينة ضد الأمويين ، لأنه رأى بثاقب فكره أن الثورة لن تنجح - وقد كان - وترك المدينة إلى مكة لائذاً بها ، ورفض أهل البيت أن يشاركوا فى ثورة ضد الأمويين ، وإن كانوا يشعرون فى قرارة أنفسهم أنهم ظُلِموا حقهم .

ولكن مشاعر الناس أبت إلا أن تعبر عن نفسها . .

وهكذا وجد أهل البيت أنفسهم محاطين بسياج من حب الناس وتعاطفهم ، ولكن الناس - مع ذلك - يرهبون ويَفْرَقون من السيف ، ويخافون من البطش والعنف ، فكان أصدق وصف لهم هو ماسبق أن قاله

الفرزدق ذات يوم للحسين بن علي ـ رضى الله عنهما ـ قبل أن يستشهد : قلوب الناس معك وسيوفهم عليك ..

وقامت حركة التوابين ومعها حركة المختار التي تتبعت قتلة الحسين وأدركت ثأره ، ولكن هاتين الحركتين لم تستطيعا أن تضعا واحداً من أهل البيت في مكان الصدارة حيث يبايعه الناس خليفة ، يدينون له بالطاعة ، وتصدر باسمه القوانين في البلاد ..

لقد خمدت الثورتان ، وقضى على حركة التوابين ، ثم قضى على المختار الثقفي ، وقضى أيضاً على حركة عبدالله بن الزبير بعد أن قتلوا أخاه مصعب بن الزبير الذى كان واليا على العراق ..

وخلص الأمر للأمويين ، ولكن ظل كثير من الناس .. يتعاطفون مع أهل البيت من الهاشميين الذين آثروا السلام ..

ونظر الناس إليهم على أنهم أئمة هدى ومنارات علم وأعلام تقوى ..

وصار الناس يقصدونهم من كل مكان لا على أنهم خلفاء في يدهم مقاليد الحكم ، بل على أنهم أبناء الرسول الذى جاء بهذا الدين الحنيف الذى يدينون به ، وعلى أنهم ورثته في هذا العلم الذى يجب على الناس تعلمه وفهمه والتعمق فيه ..

وبذلك يمكن القول بأنه أصبحت هناك سلطتان : سلطة زمنية تصدر المراسيم والقوانين ، وتضرب باسمها السكة وتجبى الأموال وتسير الجيوش إلى كل مكان ـ وهذه في يد الأمويين .

وسلطة روحية تدين لها القلوب بالولاء ، وتمتلىء الأفئدة لها حباً ، وهذه في يد أهل البيت ..

وكان أهل البيت قمماً أخلاقية شماء ، ومثلاً عليا فى الفضائل ، يجد الناس فى ظلهم الأمن الروحى ، والسعادة الحقيقية .

لقد جعلوا من أنفسهم منارات تهدى إلى الله ، وتدعو إلى معرفته ، وفى معرفة الله أمان من كل خوف . .

من أجل هذا أحبهم الناس ـ والتفوا حولهم . . ولكن ذلك كان يؤرق بعض الخلفاء ـ ولعلهم كانوا يتساءلون :

لماذا يحب الناس هؤلاء الذين لاسلطة فى أيديهم ؟

لقد غفل هؤلاء كما يغفل غيرهم عبر الأجيال عن المطلب الأسمى فى الحياة . .

لقد غفلوا عن حقيقة كبرى هى أن المال وحده ليس كل شىء ، والقوة وحدها ليست كل شىء ، والجاه وحده ليس كل شىء . .

إن الذى يجب أن يعلو على المال والقوة والجاه ـ هو الخوف من الله ـ والخوف من الله أمان لصاحبه ، وسعادة له فى دنياه وأخراه . .

هذه المعالم الدينية كانت فى نفوس أهل البيت يبشرون بها الناس ويعرفونهم بها .

كان يدعو إليها محمد بن الحنفية وأولاده الذين كان يعاصرهم محمد الباقر ، وكان يدعو إليها أولاد الحسن بن على ـ رضى الله عنهم ـ

وكان يدعو إليها على زين العابدين والد محمد الباقر ، ويعلمها أولاده . .

وكان يعاصر الباقر من ذرية أهل البيت ـ زيد الأبلج ـ والد حسن الأنور ، وحسن بن حسن بن على ـ رضى الله عنهم ـ

وكان يعاصره على بن عبدالله بن عباس ، وكان قمة شامخة فى العلم والورع .

وقد ولد على بن عبدالله ـ ليلة مقتل أمير المؤمنين على بن أبى طالب ـ كرم الله وجهه ـ فسمى باسمه وكنى بكنيته .

فكان يقال له : أبا الحسن . .

وكان على بن عبدالله بن عباس أصغر أولاد أبيه سناً ، وأكثرهم صلاة ـ وكان يلقب بالسجّاد لكثرة عبادته وفضله . . .

وابن علىٍّ هذا ـ واسمه محمد ـ هو الذى أفضت إليه الخلافة فأقامها للعباسيين . . .

وكان يعاصر الباقر أيضاً عبدالله بن عبيد الله بن العباس ، وكان عبدالله هذا يروى عن عمه عبدالله بن عباس ، وكان ثقة مأمونا ، وله أحاديث رواها عنه ابنه حسين بن عبدالله . . وعاصر الباقر غير هؤلاء من أهل البيت ، كما عاصر كثيراً من العلماء الذين كان يموج بهم العصر من أمثال الزهرى الذى كان يلازم أباه ـ زين العابدين ـ .

والضحاك بن مزاحم الهلالى ـ وكان قد روى عن أنس وابن عمر وأبى هريرة وجماعة من التابعين وكان إماماً فى التفسير ، ثقة مأموناً . .

وعاصر أيضاً مجاهد بن جبير أحد أئمة التابعين والمفسرين ، وكان من أخصاء ابن عباس ، وكان أعلم أهل زمانه بالتفسير ، ويقال : إنه عرض القرآن على ابن عباس ثلاثين مرة ، وتوفى سنة إحدى ومائة ، وقيل سنة اثنتين ومائة ، وقيل سنة ثلاث ومائة ، وقد جاوز الثمانين من عمره .

كما عاصر الشعبى ، وخالد بن معدان الكلاعى ، وعامر بن سعد بن أبى

وقاص ، وأبو بردة بن أبي موسى الأشعرى ، وسليمان بن يسار ، وعكرمة مولى ابن عباس ، والقاسم بن محمد بن أبي بكر ، ومحمد بن كعب القرظى . . وغيرهم من العلماء الأجلاء الذين كانت تضرب لهم أكباد الإبل من كل فج ، ويقصدهم الناس من كل مكان .

وكل هؤلاء العلماء على تقدمهم العلمى كانوا يسعون إلى أهل البيت ليأخذوا مما عندهم من العلم ـ كما كان أهل البيت لايترفعون أن يجلسوا بين أيديهم ليأخذوا عنهم ، وقد رأينا كيف كان زين العابدين يقصد حلقة زيد بن أسلم ليجلس إليه . . ويستفيد منه . .

الباقر والكميت الشاعر

لقد وقف كثير من الشعراء أنفسهم على أهل البيت . .

وقد رأينا كيف أن الفرزدق امتدح عليا زين العابدين بقصيدة رائعة ذكرناها قبل ذلك . .

وكافأ زين العابدين الفرزدق على قصيدته ، ولكنه أبى أن يقبل المكافأة وقال : إنما قلت ذلك لله ، ولكن عليًّا عزم عليه بشدة فقبلها .

وكان كثيرٌ يمتدح محمد بن الحنفية ، وكان معروفاً بميله الشديد للعلويين . وكان عبدالملك حينما يريد أن يستوثق منه يقول له : يا كُثيِّر : قل وحق أبي تراب لقد حدث هذا ، أو لأفعلن هذا . . وأبو تراب هى كنية على بن أبي طالب ـ كرم الله وجهه ـ

وهو الذى امتدح عمر بن عبدالعزيز بما يدل على حبه الشديد لعلى بن أبي طالب فقال له :

وليت فلم تشتم عليا ولم تُخِف بريا ولم تقبل إشارة ظالم
وصدقت بالفعل المقال مع الذى أتيت فأمسى راضياً كل مسلم(٣٦٣)

وهى قصيدة توضح تمام التوضيح كيف كان عمر بن عبدالعزيز مختلفاً عمن كانوا قبله وكيف أنه ـ رضى الله عنه ـ كان يستحق بجدارة لقب : خامس الخلفاء الراشدين .

ومن الشعراء الذين وقفوا أنفسهم على أهل البيت الكميت بن زيد وكان قد اختص نفسه بمدح أهل البيت عامة ، والباقر خاصة . .

من الكميت ؟

هو الكميت بن زيد بن خُنَيْس ، ينتهى نسبه إلى مضر بن نزار ، وهو كوفى نشأ فى الكوفة ، وكانت ولادته سنة ستين ، وهى السنة التى قتل فيها الحسين بن على ـ رضى الله عنهما ـ ثم كانت وفاته سنة ست وعشرين ومائة بعد وفاة الباقر بما يقرب من عشر سنوات ، كما أنه ولد بعده بثلاث سنوات .

وكان الكميت شاعراً وخطيباً وعالماً بمفاخر العرب ومثالبها وزاجراً للطير ، وعارفاً بالنجوم ، وكان عصبيا محتجاً لرأيه ، دامغ الحجة فى الدفاع عنه . وكان من نباهة الشأن بحيث عد من ذوى العصبيات ، لأنه ذو رأى يتمسك به .

ونشأ الكميت فى الكوفة وهى بيئة الشعر والخطابة ومدرسة اللغة ومجال المفاخرات ومقر شيعة أهل البيت ، فكان بارعاً فى اللغة عارفاً بأيام

---

(٣٦٣) البداية والنهاية جـ٩ صـ٢٥٢

العرب ، وقد تحداه حماد الراوية فغلبه الكميت ولم تقم لحماد قائمة معه .

سئل معاذ الهراء من أشعر الناس ؟

فقال : من الجاهليين امرؤ القيس ، وزهير ، وعبيد بن الأبرص .

ومن الإسلاميين : الفرزدق ، وجرير ، والأخطل

فقيل : ياأبا محمد : مارأيناك ذكرت الكميت ؟

فقال : ذلك أشعر الأولين والآخرين[٣٦٤]

وفيه يقول أبوعكرمة الضبِّي : لولا شعر الكميت لم يكن للغة ترجمان ولا للبيان لسان .

وقيل : كان فى الكميت خصال لم تكن فى شاعر : كان خطيب بنى أسد وفقيه الشيعة ، وحافظ القرآن ، وكان ثبت الجنان ، وكان كاتباً حسن الخط ، وكان نسَّابة ، وكان جدليًّا ، وهو أول من ناظر فى التشيع مجاهراً بذلك .

لماذا تشيع الكميت ؟

قال المرحوم محمود مصطفى فى كتابه الأدب العربى وتاريخه :

كانت نشأة الكميت بالكوفة . . ومن هنا نستطيع أن نقدر الأسباب التى حملته على أن يكون شيعيا ، فقد كانت الكوفة بيئة العلويين وأنصارهم ، وقد قتل فيها كثير منهم ـ كما سجن بها كثير منهم ، ولهذا كان أهلها يتبنون قضية أهل البيت كما كانوا مصدر الثورة على بنى أمية . .

فإذا تشيع الكميت فقد تجمعت أمامه أسباب هذا التشيع ـ من مناظر

---

(٣٦٤) وهذا رأى فيه من العصبية مافيه ـ كما ترى

رآها وحوادث سمع بها . . .

ولم يكن لمثله وسيلة إلا وسيلة الشعر وقد عرف وقعه فى النفوس ووقعه بين أهل زمانه ، وقلق الحكام فى عصره من اتخاذ هذا السلاح فى محاربتهم[٣٦٥]

أول شعر قاله الكميت

روى أبوالفرج فى أغانيه عند حديثه عن الكميت قال : عن محمد بن على النوفلى قال : سمعت أبي يقول : لما قال الكميت بن زيد الشعر كان أول ماقال الهاشميات ، فسترها . . . ثم أتى الفرزدق فقال له : ياأبا فراس ، إنك شيخ مضر وشاعرها ، وأنا ابن أخيك .

قال : فما حاجتك ؟

قال : نفث علىَّ لسانى فقلت شعراً ، فأحببت أن أعرضه عليك ، فإن كان حسناً أمرتنى بإذاعته ، وإن كان قبيحاً أمرتنى بستره ، وأنت أولى من سَتَرَه .

فقال الفرزدق : أما عقلك فحسن ، وإنى أرجو أن يكون شعرك على قدر عقلك ، فأنشدنى .

فأنشده : « طربت وما شوقاً إلى البيض أطرب . .

قال : ففيم تطرب ؟

قال : ولا لعباً منى ، وذو الشيب يلعب ؟

قال الفرزدق : بلى يابن أخى فالعب فإنك فى أوان اللعب .

فقال :

---

(٣٦٥) الأدب العربى وتاريخه لمحمود مصطفى جـ١ صـ٣٣٧

ولم يلهني دار ولا رسم منزل ولم يتطربني بنان مخضب

قال : مايطربك يابن أخي ؟

فقال :

ولا السانحات البارحات عشية أمر سليم القرن أم مر أعضب

فقال الفرزدق : أجل لاتتطير .

فقال الكميت :

ولكن إلى أهل الفضائل والتقى وخير بني حواء والخير يطلب

فقال : من هؤلاء ؟ ويحك .

قال :

إلى النفر البيض الذين بحبهم إلى الله فيما نالني أتقرب

قال الفرزدق : أرحني ويحك ، من هؤلاء ؟

قال :

بني هاشم رهط النبي فإنني بهم ولهم أرضى مرارا وأغضب

خفضت لهم مني جناحي مودة إلى كنف عطفاه أهل ومرحب

وكنت لهم من هؤلاء وهؤلا مجناً على أني أذَمُّ وأُقْصَبُ

فقال الفرزدق : يابن أخي ، أذع ، ثم أذع ، فأنت والله أشعر من مضى ، ومن بقي .

وأخذ الكميت يقول شعره في أهل البيت لايبتغي من وراء ذلك دنيا يصيبها أو منصباً يتولاه ، فما كان في يد أهل البيت شيء من ذلك ، كان يبتغي من مدحه إياهم وجه الله وثوابه . .

التقاؤه بالباقر

وتوجه إلى الباقر وأنشده قصيدته المشهورة التى يقول فيها :

من لقلب متيم مستهام غير ما صبوة ولا أحلام[366]

طارقات ولا ادكار غوانٍ واضحات الخدود كالأرام[367]

بل هواى الذى أجِنُّ وأبدى لبنى هاشم فروع الأنام[368]

وفيها يقول :

أسرة الصادق الحديث أبى القاسم فرع القدامس القدام[369]

خير حى وميت من بنى آدم طرًا مأمومهم والإمام

ذو الجناحين وابن هالة منهم أسد الله والكمى المحامى[370]

ما أبالى إذا حفظت أبا القاسم فيهم ملامة اللوام

فهم شيعتى وقسمى من الأمة حسبى من سائر الأقسام

وهى قصيدة طويلة اقتطفنا منها هذه الأبيات . فقال له الباقر : اللهم اغفر للكميت ـ اللهم اغفر للكميت . .

وكان هذا حسب الكميت ، لايطمع إلا فى هذا الدعاء .

وذهب إليه مرة أخرى ، فأعطاه ألف دينار وكسوة . فقال الكميت : والله ماأحببتكم للدنيا ، ولو أردتها لأتيت من هى فى أيديهم ، ولكن

---

(٣٦٦) المتيم : العاشق ، والمستهام : الهائم ، والصبوة : الجهل والفتوة

(٣٦٧) ادكار : تذكر ، الأرام : جمع ريم وهو الظبى

(٣٦٨) أجن : أخفى ، فروع الأنام : أعلاهم

(٣٦٩) القدامس : جمع قدموس وهو السيد ، القُدَّام : القديم المقدم

(٣٧٠) ذو الجناحين : جعفر بن أبى طالب ، ابن هالة : حمزة وهو أسد الله ـ الكمى : الشجاع

أحببتكم للآخرة ، فأما الثياب التى أصابت أجسامكم فإنى أقبلها لبركتها ، ثم رد المال وقبل الثياب[٣٧١]

أثر الهاشميات

ولقد بلغت هذه الهاشميات ـ ومجموعها ست قصائد تحتوى على ثلاثة وستين وخمسمائة بيت ـ حدا كبيراً من الذيوع والانتشار ، أدى إلى إثارة المشاعر والأحاسيس نحو أهل البيت وضد خصومهم الأمويين . .

وقد اشتملت هذه القصائد الست على تمجيد أهل البيت وبيان فضلهم وأنهم أحق الناس بقيادة هذه الأمة ، وقد كان لما اتصف الكميت من قدرة على الحِجَاج والمناقشة ، وما أوتيه من فصاحة وبيان أثره فى إنصات الناس له وإقبالهم على شعره ، حتى تلفَّت الأمويون له وطلبوه ليقتلوه بأى ثمن .

محنة تعرض لها الكميت

واستمع هشام بن عبدالملك إلى شعر الكميت فى أهل البيت فاستشاط غضباً وغيظاً ، وكتب إلى عامله بالكوفة خالد القسرى وقال له : أرسل إلى برأس الكميت . .

وقبض عليه خالد وحبسه . .

واحتال الكميت فى الفرار من السجن ، فأرسل إلى زوجته فجاءت إليه ، فطلب منها أن تقيم مكانه فى السجن ، وهرب هو لابساً ثيابها حتى وصل إلى هشام بن عبدالملك . .

ولكنه قبل أن يصل إليه ، أرسل أخاه وَرْداً إلى أبى جعفر محمد الباقر

---

(٣٧١) الأدب العربى وتاريخه جـ١ صـ٣٣٩

يقول له : إن الكميت أرسلنى إليك وقد سُدَّتْ أمامه المنافذ ، فهل تأذن له أن يمدح بنى أمية لعله يجد مخرجاً مما هو فيه ؟

فقال الباقر : هو فى حل فليقل ماشاء ..

ووصل الكميت إلى هشام فامتدحه ، فعفا عنه ووصله ..

وبعض الناس يصفون الكميت بالتلون ، فهو قد هجا الأمويين ثم وضع يده فى أيديهم ، وهو قد مدح أهل البيت ثم أعرض عنهم ..

ولكنه كان جاريا فى ذلك على مذهب التقية ، والتقية ـ جائزة عند الشيعة يلجأون إليها إذا وجدوا فيها مخلصاً لهم .. ويستندون فى جوازها إلى قوله ـ تعالى ـ

﴿ لَا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨﴾ ﴾ (٣٧٢)

وقد ذكر الرواة أنه استأذن الباقر فى ذلك فأذن له ..

وقال بعض النقاد : إنه فى مدحه الأمويين بعد أن هجاهم إنما كان محتالاً بارع الحيلة ، وقصة ذلك ـ كما يذكرونها ـ

أن هناك شاعراً من أهل الشام اسمه حكيم بن عياش الكلبى كان يهجو بنى هاشم ، وكان منقطعاً إلى بنى أمية ، فانتدب له الكميت فهجاه ، فكان الكميت يظهر أن هجاءه للعصبية التى بين عدنان وقحطان .. وقد سأل ابنُ الكميت أباه فى سبب فخره ببنى أمية فقال :

---

(٣٧٢) آل عمران ٢٨

يابني أنت تعلم انقطاع الكلبى إلى بنى أمية فلو ذكرت أهل البيت وافتخرت بهم لترك ذكرى وأقبل عليهم يهجوهم ، وأكون قد عرضتهم له ولا أجد من بنى أمية ناصراً . .

ولكنى افتخرت عليه ببنى أمية ومدحتهم ـ وقلت : إن نقض علىَّ ماأقول قتلوه ، وإن أمسك عن ذكرهم قتلته غما وغلبته . فكان كما قال . فقد أمسك الكلبى عن جواب الكميت وغُلب[٣٧٣]

وإذن فقد كان تشيع الكميت صادقاً . . . وإن لجوءه إلى بنى أمية كان حيلة احتالها لينجو . .

وفى مهذب الأغانى : أن الكميت دخل على فاطمة بنت الحسين ـ رضى الله عنها ـ فقالت : هذا شاعرنا أهل البيت ، وجاءته بقدح فيه سويق وحركته بيدها وأعطته الكميت فشربه ، ثم أمرت له بثلاثين ديناراً ، فهملت عيناه وقال : والله لاأقبلها ، إنى لم أحبكم للدنيا . وروى أنه لما حضرته الوفاة فتح عينيه وقال : اللهم آل محمد ، اللهم آل محمد ، اللهم آل محمد .

لقد ظل الكميت وفيا لأهل البيت حتى آخر يوم فى حياته . .

فقد روى الرواة أنه كان قد قصد عبدالله بن الحسن بن على ، فأنشده فقال له : ياأبا المستهل ـ إن لى ضيعة قد أعطيت فيها أربعة آلاف دينار وهذا كتابها ، وقد أشهدت بذلك شهوداً وناوله إياه .

فقال الكميت : بأبى أنت وأمى ، إنى كنت أقول الشعر فى غيركم أريد

---

(٣٧٣) التشيع فى الأدب العربى لمحمد سيد كيلانى صـ١٠٩

بذلك الدنيا والمال ، ولا والله ماقلت فيكم شيئاً إلا لله ، وماكنت لآخذ على شيء جعلته لله مالا ولا ثمناً ، فألح عليه عبدالله فأخذ الكميت الكتاب ومضى .

فمكث أياماً ثم جاء إلى عبدالله فقال : بأبي أنت وأمي يابن رسول الله ، إن لي حاجة .

قال : وما هي ؟ وكل حاجة لك مقضية بإذن الله . .

قال : كائنة ماكانت ؟

قال : نعم

قال الكميت : هذا الكتاب تقبله ، وترتجع الضيعة ، ووضع الكتاب بين يديه فقبله عبدالله .

منزلة الباقر العلمية

إن لقبه الباقر يهدى إلى منزلته العلمية ، فقد لقب به لأنه يبقر العلم ويستخرج درره ، وقد قال له شاعر :

ياباقــــر العلـم لأهـل التقــى وخيــر من لــبى علــى الأجبــل

قال جابر الجعفى : لم يظهر لأحد من ولد الحسن والحسين من علم الدين والسنن وعلوم القرآن والسير وفنون الأدب ماظهر عن أبي جعفر الباقر وفيه يقول القائل :

إذا طلب الناس علم القرآن كانوا عليه عيالا .

قال له أعرابي : هل رأيت الله حين عبدته ؟

فقال : لم أكن لأعبد من لم أره

قال : فكيف رأيته ؟

قال : لم تره الأبصار بمشاهدة العيان ، ورأته القلوب بحقائق الإيمان ، لايدرك بالحواس ، ولايشبه بالناس ، معروف بالآيات ، منعوت بالعلامات .. ذلك الله الذى لاإله إلا هو .

فقال الأعرابى : الله أعلم حيث يجعل رسالته[٣٧٤]

وكان الجاحظ يعجب بدقائقه العلمية فمما أعجبه من ذلك قوله : صلاح شأن الدنيا بحذافيرها فى كلمتين لأن صلاح شأن جميع الناس التعاشر ، وهو ملء مكيال : ثلثاه فطنه وثلثه تغافل .

وقد علق الجاحظ على هذه الكلمة التى تدل على ثاقب فكر وقوة عقل بقوله : لم يجعل ـ الباقر ـ لغير الفطنة نصيباً من الخير ، ولا حظاً من الصلاح ، لأن الإنسان لايتغافل عن شىء إلا وقد عرفه وفطن له . قال الطائى :

ليس الغبى بسيد فى قومه   لكن سيد قومه المتغابى

وقال ابن الرومى لأبى محمد بن وهب :

تظل إذا نامت عيون ذوى العمى   وإن جددوا زرقا إليك جواحظا

تغاضى لهم وسنان بل متواسنا   وتوقظهم يقظان بل متياقظاً[٣٧٥]

ولقد عرف عنه خلفاء بنى أمية كثرة علمه وعمق فقهه ومعرفته بالأحكام والتأويل ، فكانوا يدسون له من يختبره ولعله يستطيع أن يُعَثِّره .. فما يجدون طائلاً من وراء ذلك .

---

(٣٧٤) زهر الآداب جـ١ صـ١١٦

(٣٧٥) المصدر السابق

روى الزهرى قال : حج هشام بن عبدالملك ، فدخل المسجد الحرام متوكئاً على سالم مولاه ـ ومحمد بن على ـ الباقر ـ فى المسجد . .

فقال سالم لهشام : ياأمير المؤمنين ، هذا محمد بن على بن الحسين الذى يجله أهل العراق .

فقال هشام : اذهب إليه وقل له : يقول لك أمير المؤمنين : ماالذى يأكله الناس ويشربونه إلى أن يفصل بينهم يوم القيامة ؟

فمضى سالم إليه ، وألقى عليه السؤال .

فقال محمد بن على ـ قل له : يحشر الناس على أرض بيضاء مثل قرص من نَقِّى[٣٧٦] فيها أنهار متفجرة يأكلون ويشربون منها حتى يفرغوا من الحساب

فعاد سالم إلى هشام بالجواب . فلما سمعه رأى أنه قد ظفر به ، فقال : الله أكبر ، ارجع إليه ، فقل له : ماأشغلهم عن الأكل والشرب يومئذ !

فلما سمع محمد مارجع به سالم إليه قال له : قل له : أهل النار أَشْغَلُ ولم يُشْغَلُوا ـ بل قالوا « أفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله »

فسكت هشام ولم يعقب[٣٧٧]

وقدم العلاء بن عمرو بن عبيد على محمد الباقر يمتحنه ، فقال : جعلت فداك ـ مامعنى قوله ـ تعالى ـ

﴿ أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا

---

(٣٧٦) قطعة من كثيب الرمل الأبيض

(٣٧٧) نور الأبصار للشبلنجى صـ١٤٣

﴿مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ۝٣٠﴾ (٣٧٨)

مامعنى الرتق والفتق ؟

فقال له أبوجعفر : كانت السماء رتقاً لاتنزل المطر ، وكانت الأرض رتقاً لاتخرج النبات ، ففتقهما الله بنزول المطر وخروج النبات .

فسكت عمرو ولم يبد اعتراضاً . .

وهذا من أفضل ماقيل فى تفسير هذه الآية ، وهو مايتناسب مع العقل والمنطق .

وإن كان المفسرون قد أشاروا إلى بعض الدقائق فى تفسير الآية بما لايتعارض مع ذوق الإمام محمد بن على فى فهمه .

فقد قالوا : كانتا رتقاً أى ملتصقتين ففصلناهما ، وهذا مايدور حوله علماء العصر الحديث من أن الأرض كانت من المجموعة الشمسية فانفصلت عنها . .

وقالوا : كانت السموات مؤتلفة طبقة واحدة فجعلها سبعاً ، وكانت الأرض كذلك فجعلها سبعاً . .

وقد وافق محمد بن على فى تفسيره الذى أشرنا إليه تفسير ابن عباس الذى قيل عنه : إنه ترجمان القرآن ـ وكان الباقر يروى عنه ويتلقى منه . . وكلاهما من معين النبوة يرتوى . . .

---

(٣٧٨) الأنبياء ٣٠

قال ابن عباس : ونظير ذلك قوله تعالى :

﴿ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ ﴿١١﴾ وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ ﴿١٢﴾ ﴾[379]

وسأله العلاء بن عمرو أيضاً عن قوله ـ تعالى ـ

﴿ كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي ۖ وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَىٰ ﴿٨١﴾ ﴾[380]

قال له : ماغضب الله تعالى ؟

فقال له : غضب الله طرده للعبد وعقابه ياأبا عمرو ، ومن ظن أن الله يغيره شيء فقد كفر .

وكأنَّ العلاء أراد أن يستفسر عن طروء الغضب على الله بعد الرضا ، فكأن الأغيار تتعاقب على الله ـ تقدست أسماؤه ـ

فبين له الباقر أن الله ـ عز وجل ـ لايتغير . . .

وعلى هذا فمعنى يحلل عليه غضبي : ينزل عليه غضبي بما استوجبه الحالُّ به من أفعال ، وليس معناه أن الله كان بحال رضاً ثم اعتوره حال غضب ، فإن ذلك من شأن الأحداث ـ تعالى الله عن ذلك علوا كبيراً ـ

قصد العلماء إياه ـ محاورة بينه وبين أبي حنيفة

وكان العلماء ـ وبخاصة علماء الفقه الإسلامي ـ يقصدونه للاستفادة من علمه ، ومن هؤلاء الذين قصدوه سفيان الثورى ، وسفيان بن عيينة

---

(٣٧٩) الطارق ١١ ، ١٢

(٣٨٠) طه ٨١

وأبوحنيفة شيخ فقهاء العراق .

وهناك محادثة مشهورة جرت بين أبي حنيفة ومحمد الباقر ، تناولت موضوع القياس الذى أشيع أن أبا حنيفة كان يعتمد عليه فى فقهه .

فحين التقى أبوحنيفة بمحمد الباقر ، قال الباقر له : أنت الذى حولت قول جدى وأحاديثه بالقياس ؟

فرد عليه أبوحنيفة قائلاً : اجلس مكانك كما يحق لك ، حتى أجلس كما يحق لى ، فإن لك عندى حرمة كحرمة جدك ـ صلى الله عليه وسلم ـ . . . . . .

فجلس محمد الباقر ، وجلس أبوحنيفة بين يديه ـ ثم قال أبو حنيفة ـ وهو يريد أن يبرىء ساحته مما وجهه إليه محمد الباقر من اتهام ـ :

إنى سائلك عن ثلاث كلمات فأجبنى .

فقال الباقر : سل .

قال أبوحنيفة : آلرجل أضعف أم المرأة ؟

فقال الإمام الباقر : المرأة

قال أبوحنيفة : كم سهم المرأة ؟ ـ يعنى فى الميراث ـ

فقال الإمام الباقر : للرجل سهمان ، وللمرأة سهم .

فقال أبوحنيفة : هذا قول جدك ، ولو حولت دين جدك لكان ينبغى فى القياس أن يكون للرجل سهم وللمرأة سهمان ، لأن المرأة أضعف من الرجل .

ثم قال أبوحنيفة : آلصلاة أفضل أم الصوم ؟

فقال الإمام الباقر : الصلاة أفضل .

فقال أبوحنيفة : هذا قول جدك ، ولو حولت قول جدك لكان القياس أن المرأة إذا طهرت من الحيض أمرتها أن تقضي الصلاة ولا تقضي الصوم .

ثم قال أبوحنيفة : آلبول أنجس أم النطفة ؟
قال الباقر : البول أنجس .
قال أبوحنيفة : لو حولت دين جدك بالقياس لكنت أمرت أن يغتسل الإنسان من البول ويتوضأ من النطفة ، ولكن معاذ الله أن أحول دين جدك بالقياس .
فقام محمد الباقر فعانق أبا حنيفة وقبَّل وجهه وأكرمه . .

ومن هذا الحوار الهادىء الرزين نتبين أى منزلة كانت للإمام الباقر فى نفوس العلماء ، وانظر كيف قال له أبوحنيفة : « إن لك عندى حرمة كحرمة جدك ـ صلى الله عليه وسلم ـ

وتبين منها أيضاً أن الباقر ـ على الرغم من تبحره فى العلم وقصد العلماء إياه ـ لم يكن متعصباً أو متحجر الرأى ، بل كان متفهما لآراء العلماء مستفيداً منها .
متواضعاً لهم ، وهو لم يمنعه غلبة أبي حنيفة بحجته عليه ، أن يعرف لأبى حنيفة قدره ، وأن يقوم له فيعانقه ويقبله ويكرمه .

وهذا هو ماينبغى أن تكون عليه أخلاق العلماء . . .
ويعلق الأستاذ محمد أبوزهرة على هذه القصة بقوله : ومن هذا الحديث نتبين إمامة الباقر للعلماء ، يحاسبهم على مايبدر منهم ، وكأنه الرئيس يحاكم مرؤوسيه ليحملهم على الجادة ، وهم يقبلون طائعين تلك

الرياسة[381]

وقال أيضاً : كان ـ رضى الله عنه ـ مفسراً للقرآن ومفسراً للفقه الإسلامى ، مدركا حكمة الشريعة ، فاهما أجل الفهم لمراميها ، وكان راوية للأحاديث . .

روى أحاديث آل البيت ، وروى أحاديث الصحابة من غير تفرقة .

شذرات من حكمه وأقواله

قال عبدالله بن عطاء : مارأيت العلماء عند أحدٍ أصغر منهم عند أبي جعفر محمد بن على[382]

ولكمال نفسه ونور قلبه وعظمة مداركه نطق بالحكمة الرائعة . . .

وروى عنه من العبارات فى الأخلاق الشخصية والاجتماعية مالو نظم فى سلك لَتكَوَّن منه مذهب خلقى سام يعلو بمن يأخذ به إلى مدارج السمو الإنسانى . . . ومن ذلك قوله : « مادخل قلب امرىء شىء من الكبر إلا نقص من عقله مثلما دخله » ومن وصيته لابنه جعفر : « يابنى إياك والكسل والضجر فإنهما مفتاح كل شر ، إنك إن كسلت لم تؤد حقاً ، وإن ضجرت لم تصبر على حق »

ومن ذلك قوله : « إذا رأيتم القارىء ـ ويعنى به العالم ـ يحب الأغنياء فهو صاحب دنيا ، وإذا رأيتموه يلزم السلطان من غير ضرورة فهو لص .

ومن رأيه فى العلم أن طلبه مع أداء الفرائض خير من الزهد ، ويقول فى

---

(٣٨١) دائرة معارف الشعب جـ٢ صـ٤٦٩ موضوع « جعفر الصادق » للشيخ محمد أبوزهرة

(٣٨٢) البداية والنهاية جـ٩ صـ٣١١

ذلك : « والله لموت عالم أحب إلى إبليس من موت سبعين عابداً »[٣٨٣]

ومن أقواله التى تدل على فطنة ومعرفة بدقائق النفوس :

« الإيمان ثابت فى القلوب ، واليقين خطرات ، فيمر اليقين بالقلب فيصير كأنه زُبَر الحديد ، ويخرج منه فيصير كأنه خِرَقٌ بالية »[٣٨٤]

كم من الناس يعرف الفرق بين الإيمان واليقين ، بل منزلة اليقين من الإيمان ؟

وإننا لنخلط كثيراً بين مفهوم اللفظين حتى لانكاد نفرق بينهما ، فما أسرع أن نقول : إن فلانا مؤمن ، ونصفه أيضاً من قبيل الترادف اللفظى فنقول : إنه موقن .

ولكن الباقر ـ رضى الله عنه ـ تنبه إلى دقيقة من الدقائق لايتنبه لها الناس فى غفلاتهم .

فالإيمان ماوقر فى النفس وصدقه العمل ، واليقين هو الذى يثبت قلب المؤمن على الإيمان فلا يتزحزح ، واليقين درجات فهو تارة علم اليقين ، وهو تارة عين اليقين ، وهو تارة حق اليقين . .

ومن أذواقه فى التفسير ـ ماروى عن عبد الله بن محمد بن عمر بن على قال : كنت جالساً عند خالى محمد بن على وعنده يحيى بن سعيد وربيعة الرأى ، إذ جاءه الحاجب فقال : هؤلاء قوم من أهل العراق ، فدخل أبو إسحاق السبيعى ، وجابر الجعفى ، وعبدالله بن عطاء ، والحكم بن

---

(٣٨٣) المرجع السابق

(٣٨٤) حلية الأولياء جـ٣ صـ١٨٠

عيينة ، فتحدثوا ، فأقبل محمد بن عليٍّ عَلَى جابر ، فقال : مايروى فقهاء أهل العراق فى قوله ـ عز وجل ـ

﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ ۚ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾ (٣٨٥)

.. ماالبرهان ؟

قال جابر : أُرِىَ يعقوب ـ عليه السلام ـ عاضاً على إبهامه .

فقال محمد بن على : لا ، حدثنى أبى عن جدى على بن أبى طالب ـ رضى الله عنه ـ أنه لما همت به ـ وتهيأت وتزينت ـ قامت إلى صنم مكلل بالدر والياقوت فى ناحية البيت فسترته بثوب أبيض بينها وبينه .

فقال يوسف : أى شيء تصنعين ؟

فقالت : أستحى من إلهى أن يرانى على هذه الصورة .

فقال يوسف ـ عليه السلام ـ : تستحين من صنم لا يأكل ولا يشرب ، ولا أستحى أنا من إلهى الذى هو قائم على كل نفس بما كسبت ، والله لا يكون ما تريدين منى أبدا .. فهو البرهان الذى رأى(٣٨٦) .

مروياته

وقد يكون هذا الذوق فى التفسير من مروياته ، ولكنه يدل كذلك على رأيه الذى ارتآه ، لأنه أراد أن يوضحه لأهل العزاق بعد أن سألهم عن رأيهم فى فهم هذه الآية . ولو كان مجرد رواية ، لاكتفى بسردها دون أن يسألهم عن رأيهم ..

---

(٣٨٥) يوسف ٢٤

(٣٨٦) الحلية جـ١ صـ١٨١

وهناك مرويات كثيرة له تدور حول أحاديث الرسول ـ ﷺ ـ وحول أقوال أبيه وجده . .

فممن رَوَى عنهم أحاديث النبى ـ ﷺ ـ جابر بن عبد الله .

ومن الأحاديث التى رواها عنه قوله : حدثنا عبد الله بن المبارك ، حدثنا سفيان ، عن جعفر بن محمد ، عن أبيه ، عن جابر ـ رضى الله تعالى عنه ـ قال : كان رسول الله ـ ﷺ ـ يقول فى خطبته : يحمد الله ويثنى عليه بما هو أهله ، ثم يقول : « من يهد الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادى له ، إن أصدق الحديث كتاب الله ، وأحسن الهدى هدى محمد ، وشر الأمور محدثاتها ، وكل محدثة بدعة ، وكل بدعة ضلالة ، وكل ضلالة فى النار ، ثم يقول : بعثت أنا والساعة كهاتين ـ وكان إذا ذكرت الساعة احمرت وجنتاه وعلا صوته واشتد غضبه كأنه نذير جيش ـ

ثم يقول : من ترك مالاً فلأهله ، ومن ترك ضَيَاعا أو دينا فإلىَّ أو علىَّ ، وأنا أول المؤمنين »(٣٨٧)

قال أبو نعيم : هذا حديث صحيح ثابت من حديث محمد بن على . . رواه وكيع وغيره عن الثورى .

ومن مروياته أيضا :

حدثنا سفيان عن جعفر بن محمد عن أبيه عن جابر ـ رضى الله عنه ـ قال : قال رسول الله ـ ﷺ ـ : « كيف أنعم وصاحب القرن قد التقمه ، وحنى جبهته وأصغى بسمعه ينتظر متى يؤمر فينفخ . قالوا : يارسول الله ، فما تأمرنا ؟ قال : قولوا حسبنا الله ونعم الوكيل » .

---

(٣٨٧) الحلية جـ٣ صـ١٨٩

هذا حديث غريب من حديث الثورى عن جعفر ـ تفرد به الرملى . . ومشهوره ما رواه أبو نعيم وغيره عن الثورى عن الأعمش عن عطية عن أبى سعيد الخدرى . . [٣٨٨]

ومعنى هذا أن هناك طريقا آخر لهذا الحديث .

ومن مروياته أيضا :

حدثنا محمد بن أحمد بن حمدان ، ثنا الحسن بن سفيان ، ثنا سويد بن سعيد ، ثنا الفضل بن عبد الله بن جابر ، عن أبى جعفر محمد بن على ، عن جابر ـ رضى الله تعالى عنه ـ قال : سمعت رسول الله ـ ﷺ ـ يقول : « إن ابن آدم لفى غفلة مما خلقه الله ـ عز وجل ـ له ، إن الله لا إله إلا هو إذا أراد خلقه قال للملك : اكتب رزقه وأثره وأجله ، واكتب شقيا أو سعيدا ، ثم يرتفع ذلك الملك ويبعث إليه ملكا آخر فيحفظه حتى يدرك ، ثم يبعث له ملكين يكتبان حسناته وسيئاته ، فإذا جاء الموت ارتفع ذانك الملكان ، ثم جاء ملك الموت فيقبض روحه ، فإذا دخل حفرته رد الروح فى جسده ، ثم يرتفع ملك الموت ، ثم ينزل ملكا القبر فيمتحناه ثم يرتفعان ، فإذا قامت الساعة نزل ملك الحسنات وملك السيئات فأنشطا كتابا معقودا فى عنقه ، ثم حضرا معه ـ واحد سائق والآخر شهيد ، ثم قال ـ الله تعالى ـ

﴿ لَقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴾ [٣٨٩]

---

(٣٨٨) الحلية جـ٣ صـ١٨٩

(٣٨٩) سورة ق آية ٢١

قال رسول الله - ﷺ - : وقوله الله - عز وجل :

﴿ لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ ﴾ (٣٩٠)

قال : حال بعد حال ، ثم قال النبى - ﷺ - : إن قدامكم أمراً عظيما فاستعينوا بالله العظيم »(٣٩١)

ومن مروياته أيضا : عن سويد عن أبى جعفر عن جابر بن عبد الله قال : قال رسول الله - ﷺ - « من كان حسن الصورة ، فى حسب لا يشينه ، متواضعا كان من خالصى الله - عز وجل يوم القيامة »(٣٩٢)

ومن الأحاديث التى رواها أيضا . . من نقله الله - عز وجل - من ذل المعاصى إلى عز التقوى أغناه بلا مال ، وأعزه بلا عشيرة وآنسه بلا أنيس ، ومن خاف الله أخاف الله - تعالى - منه كل شيء ، ومن لم يخف الله أخافه الله - تعالى - من كل شيء ، ومن رضى من الله - تعالى - باليسير من الرزق - رضى الله تعالى - عنه باليسير من العمل ، ومن لم يستحى من طلب المعيشة خفَّت مئونته ، ورخى باله ونعم عياله ، ومن زهد فى الدنيا ثبَّت الله الحكمة فى قلبه ، وأنطق الله بها لسانه وأخرجه من الدنيا سالما إلى دار القرار .(٣٩٣)

قال أبو نعيم : هذا حديث غريب لم يروه مرفوعا مسندا إلا العترة الطيبة

---

(٣٩٠) الانشقاق ١٩

(٣٩١) الحلية لأبى نعيم جـ٣ صـ١٩٠

(٣٩٢) المصدر السابق

(٣٩٣) المرجع السابق

خلفها عن سلفها ، وما كتبناه إلا عن هذا الشيخ . وسند هذا الحديث هو : حدثنا محمد بن عمر ، ثنا القاسم بن محمد بن جعفر بن محمد بن عبد الله بن محمد بن عمر بن على بن أبى طالب ـ رضى الله تعالى عنهم ـ وفى رواية ـ حدثنى أبى عن أبيه عن أبى عبد الله جعفر بن محمد بن على عن أبيه عن على بن الحسين بن على عن أمير المؤمنين على ـ رضى الله تعالى ـ عنهم .

وهى السلسلة الذهبية التى يقولون عنها : لو تليت على مجنون لأفاق . .

وروى الرواة عن أبى جعفر محمد بن على ـ الباقر ـ مأثورات أخرى رواها عن أبيه من ذلك :

حدثنا عنبسة بن مخلد العابد عن جعفر بن محمد بن على عن أبيه قال : « إياكم والخصومة فإنها تفسد القلب وتورث النفاق » .

أما الذين روى عنهم محمد الباقر فهم كثيرون ثقات .

فقد أسند عن جابر بن عبد الله الأنصارى ، وروى عن ابن عباس وأبى هريرة وأبى سعيد الخدرى ، وأنس ، وعن الحسن والحسين .

ومن التابعين أسند عن سعيد بن المسيب وعبيد الله بن أبى رافع .

وروى عنه كثير من التابعين من أمثال عمرو بن دينار ، وعطاء بن أبى رباح ، وجابر الجعفى ، وأبان بن تغلب .

وروى عنه من الأئمة والأعلام ابنه جعفر الصادق ، وليث بن أبى سليم ، وابن جريج ، وعطاء ، وعمرو بن دينار ، والزهرى ، والحكم بن عيينة ، والأعمش ، والأوزاعى ، وحجاج بن أرطاة وآخرين .

وقال سفيان بن عيينة عن جعفر الصادق قال : حدثنى أبى ـ وكان من خير المسلمين يومئذ على وجه الأرض .

وقال العجلى : هو مدنى تابعى ثقة .

وقال ابن سعد : كان ثقة كثير الحديث[٣٩٤]

ماترشد إليه حِكَمه .

أما ماروى عنه من حكمه فهو من روائع الحكمة الدالة على عقل مضىء ، وقلب واعٍ ، ومعرفة واسعة .

روى أبو الأحوص عن منصور عن أبى جعفر محمد بن على قوله : « لكل شىء آفة - وآفة العلم النسيان »

إنه يوصى فى هذه الحكمة بمذاكرة العلم ، فحياة العلم فى مذاكرته ، وحياته أكثر فى العمل به .

إن مذاكرة العلم وحدها لا تفيد فى إحيائه ، وكم من عالم لا يكف عن المطالعة دون فائدة ، لأنه لا يطبق ما يعلمه على حياته فيفيد نفسه قبل أن يفيد الآخرين .

وروى الأصمعى قال : قال محمد بن على لابنه : « يا بنى إياك والكسل والضجر ، فإنهما مفتاح كل شر ، إنك إن كسلت لم تؤد حقا وإن ضجرت لم تصبر على حق . » .

انظر إلى التعليل الطريف الذى يعلل به مقولته ليدعمها فى الأذهان .

واستمع إلى مارواه عنه حجاج ـ قال : « أشد الأعمال ثلاثة : ذكر الله

---

(٣٩٤) البداية والنهاية جـ٩ صـ٣٠٩

على كل حال ، وإنصافك من نفسك ، ومواساة الأخ فى المال »

وربما كانت العلة فى شدة هذه الأشياء أنها أقوى سلاح فى قهر الشيطان الذى قال متوعداً ـ كما حكى القرآن الكريم : « **لأقعدن لهم صراطك المستقيم** »

وماكانت رسالة الشيطان إلا الصد عن ذكر الله ، قال ـ تعالى ـ

﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ ﴿٩١﴾ ﴾ (٣٩٥)

كما أن الشيطان يريد أن يركب فى الإنسان ملكة الغرور والكبر ، فهو ينفخ فيه من شره ليعميه عن مطالب غيره قِبَلَه ، ومايزال يفعل به كذلك حتى ليغريه بادعاء الألوهية لو استطاع ، كما فعل بفرعون والنمروذ وأضرابهما ، فزعما أن لهما حقوقاً على الناس وليس لأحد عندهما حق .

أما مواساة الأخ فى المال فهى التى يقعد الشيطان فى طريقها كل مقعد محاولاً التزهيد فى المكارم ، والصد عن اصطناع المعروف ، والترغيب فى عبادة المال وجمعه من كل طريق ، وحب الدنيا رأس كل خطيئة . .

ومن الوصايا التى تلقاها محمد الباقر عن أبيه زين العابدين ـ مارواه أبوحمزة الثمالى قال : حدثنى أبوجعفر محمد بن على قال : أوصانى أبى فقال : لاتصحبن خمسة ولا تحادثهم ولا ترافقهم فى طريق :

قال : قلت : جعلت فداك ياأبى من هؤلاء الخمسة ؟

---

(٣٩٥) المائدة ٩١

قال : لاتصحبن فاسقاً فإنه بائعك بأكلة فما دونها .

قال : قلت : وما دونها ؟

قال : يطمع فيها ثم لا ينالها .

قال : قلت : ومن الثانى ؟

قال : لاتصحبن بخيلاً فإنه يقطع بك فى ماله أحوج ماكنت إليه .

قال : قلت : ياأبى ومن الثالث ؟

قال : لاتصحبن كذاباً ، فإنه بمنزلة ، السّراب يبعد منك القريب ، ويقرب منك البعيد .

قال : قلت : ياأبة ومن الرابع ؟

قال : لاتصحبن أحمق فإنه يريد أن ينفعك فيضرك .

قال : قلت : ياأبة ومن الخامس ؟

قال : لاتصحبن قاطع رحم فإنى وجدته ملعوناً فى كتاب الله فى ثلاثة مواضع(٣٩٦)

ولعله يريد ببعض هذه المواضع قوله ـ تعالى ـ

﴿ وَالَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَٰئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ﴿٢٥﴾ ﴾(٣٩٧)

---

(٣٩٦) الحلية جـ٣ صـ١٨٣

(٣٩٧) الرعد ٢٥

وقوله ـ تعالى ـ

﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰ أَبْصَارَهُمْ ﴿٢٣﴾ ﴾ (٣٩٨)

بصره بالشعر

كانت لأبى جعفر محمد بن على دراية واسعة بثقافة عصره ..

وثقافة العصر تتمثل فى علوم القرآن والسنة والبصر بالشعر وروايته ونقده ، ومما يروى من بصره بالشعر ـ مارواه عبدالرحمن بن يحيى بن سعيد ، قال : حدثنى رجل من بنى هاشم قال : كنا عند محمد بن على بن الحسين ، وأخوه زيد جالس ، فدخل رجل من أهل الكوفة فقال له محمد ابن على: إنك لتروى طرائف من نوادر الشعر ـ فكيف قال الأنصارى لأخيه ؟ فأنشده :

لعمرك ما إنْ أبو مالك بوانٍ ولا بضعيف قواه
ولا بألدَّ له نازع يعادى أخاه إذا مانهاه
ولكنه غير مِخْلافةٍ كريم الطبائع حلو ثناه
وإن سدته سدت مِطْواعَةً ومهما وكلت إليه كفاه

فوضع محمد يده على كتف زيد ، وقال : هذه صفاتك ياأخى ، وأعيذك بالله أن تكون قتيل أهل العراق ..

وصدقت فراسة الباقر فى أخيه ، فقد كان قتيل أهل العراق بعد قليل

---

(٣٩٨) محمد ٢٢ ، ٢٣

حين خرج على هشام بن عبدالملك ـ وسيأتى تفصيل ذلك بعد .

قصة هذه الأبيات

أما هذه الأبيات فتروى للمتنخل ـ واسمه مالك بن عويمر بن عثمان بن سُوَيْد بن حُبَيْش .

وكان المتنخل وأبوه عمرو بن عثمان شاعرين . فلما مات عمرو رثاه ابنه بقصيدة فيها :

ألا من ينادى أبا مالك أفى أمرنا أمره أم سواه

فوالله ما إنْ أبو مالك بوان ولا بضعيف قواه

ولا بألدَّ له نازع يعادى أخاه إذا ما نهاه[399]

ولكنه هيِّن ليِّنٌ كعالية الرمح عَرْدٌ نساه[400]

إذا سدته سدت مطواعة ومهما وكلت إليه كفاه

أبومالك قاصر فقره على نفسه ومشيع غناه

قال أبوالفرج : كان أبوجعفر محمد بن على ـ عليهما السلام ـ إذا نظر إلى أخيه زيد تمثل بهذه الأبيات ، ثم يقول : « لقد أَنْجَبتْ أم ولدتك يازيد ، اللهم اشدد أزرى بزيد »[401]

أخلاقه

أما أخلاقه فهى أخلاق بيت النبوة بعامة ـ وأخصها التواضع والورع والكرم والإيثار والزهد . .

---

(٣٩٩) ألد : الألد شديد الخصومة

(٤٠٠) عَرْدٌ نساه : شديد ساقه

(٤٠١) الأغانى جـ٢٤ صـ١٠٥ ط الهيئة المصرية للكتاب ١٩٧٤

ومن وصاياه التى تشير إلى زهده وورعه . . . .

قال جابر الجعفى : قال لى محمد بن على : ياجابر إنى لمحزون ، وإنى لمشتغل القلب ـ يعنى مهموم القلب ـ

فقال : قلت له : وما حزنك وشغل قلبك ؟

قال : ياجابر إنه من دخل قلبه صافى دين الله عز وجل شغله عما سواه .
ياجابر ، ماالدنيا ؟ وما عسى أن تكون ؟ إنها ليست إلا مركباً ركبته ؟ أو ثوباً لبسته ؟

ياجابر ـ إن المؤمنين لم يطمئنوا إلى الدنيا لبقاء فيها ، ولم يأمنوا قدوم الآخرة عليهم ، ولم يصممهم عن ذكر الله ماسمعوا بآذانهم من الفتنة ، ولم يعمهم عن نور الله مارأوا بأعينهم من الزينة ، ففازوا بثواب الأبرار .
إن أهل التقوى أيسر أهل الدنيا مئونة ، وأكثرهم لك معونة ، إن نسيت ذكروك ، وإن ذكرت أعانوك ، قوَّالين بحق الله ، قوامين بأمر الله ، قُطِعوا لمحبة ربهم ـ عز وجل ـ ونظروا إلى الله وإلى محبته بقلوبهم .
وتوحشوا من الدنيا لطاعة محبوبهم ، وعلموا أن أمرها زائل ، فأنزلوا الدنيا حيث أنزلها مليكهم ـ كمنزل نزلوه ثم ارتحلوا عند وتركوه ، وكماء أصبته فى منامك ، فلما استيقظت إذ ليس فى يدك منه شيء ، فاحفظ الله فيما استرعاك من دينه وحكمته(٤٠٢) .

هذه الوصية تتضمن خلاصة وافية لأخلاق محمد بن على بن الحسين ـ رضى الله عنهم ـ فهو من الذين تصدق أفعالهم أقوالهم ، وليس هو من الذين يأمرون الناس بالبر وينسون أنفسهم ، ولكنه كان صادق القول

---

(٤٠٢) البداية والنهاية جـ٩ صـ٣١٠

والفعل معا ، لقد انشغل قلبه بالله ، وأحزنه بُعْد الناس عن الله وغفلتهم عن طريق السعادة التى دعاهم الله ـ تعالى ـ إليها .

كان زاهدا فى الدنيا زهدا جعله يعزف عن أبواب السلطان ، وماوقف بباب أحد منهم ، ولا لقيهم إلا فى رحاب البيت الحرام حين كانوا يتوجهون حاجين فى المواسم .

وإن عطاءه يصله فلا يؤثر به نفسه ، ولكنه يصل به الناس ويكرم به الضيف ، ويعين به على نوائب الدهر ، وثقته فى الله مكفولة وتوكله عليه قوى ومن كان كذلك فإن الله لايدعه ولايقطع عنه مدد الخير ولايطوى عنه بساط العطاء . .

حكت سلمى مولاته قائلة : كان يدخل على أبى جعفر الباقر بعض إخوانه فلايخرجون من عنده حتى يطعمهم الطعام الطيب ، ويكسوهم فى بعض الأحيان ويعطيهم الدراهم .

قالت : فكنت أكلمه فى ذلك لكثرة عياله . وتوسط حاله فيقول : ياسلمى ماحسنة الدنيا إلا صلة الإخوان والمعارف ، قالت : فكان يصل بالخمسمائة درهم وبالستمائة درهم[٤٠٣]

وإن هذه القصة تعكس لنا فلسفة الباقر فى علاقته بإخوانه . وهى علاقة قائمة على الحب والبذل دون عوض أو ثواب أو كلفة أو طمع .

قال لجلسائه : أيدخل أحدكم يده فى كم صاحبه فيأخذ منه مايريد ؟

قالوا : لا .

قال : فلستم إخوانا كما تزعمون .[٤٠٤]

---

(٤٠٣) نور الأبصار صـ١٤٤

(٤٠٤) البداية والنهاية جـ٩ صـ٣١١

ووصف صديقا له فقال : كان لى أخ فى عينى عظيم ، وكان الذى عظمه فى عينى صغر الدنيا فى عينه .

ومقياس المودة بين الأصدقاء ـ الإخلاص ، وهو يقول : اعرف مودة أخيك لك بماله فى قلبك من المودة ، فإن القلوب تتكافأ .[٤٠٥]

والصديق الحق هو الذى يؤثر الله على ماعداه ، فإذا رزق المرء صديقا صالحا مؤثرا الله على غيره ، فقد ظفر بأعظم سعادة فى الدنيا . فإذا ظفر الإنسان بهذا الصديق وجبت رعايته وبذل الخير له . وإيثاره بالمودة والنصح والصفح . .

ومن وصاياه التى يجب أن يتواصى بها الناس : « إن أسرع الخير ثوابا البر ، وأسرع الشر عقوبة البغى ، وكفى بالمرء عيبا أن يبصر من الناس مايعمى عليه من نفسه ، وأن يؤذى جليسه بمالا يعنيه » . . . . قال ابن كثير عن هذه الكلمات : إنها كلمات جوامع موانع لاينبغى لعاقل أن يغفلها .

ومرعاة الصديق والإخلاص له واجب لاينبغى التقصير فيه . وكان أبو جعفر الباقر كثيرا مايقص هذا الخبر : صحب عمرَ بن الخطاب رجل إلى مكة فمات فى الطريق ، فاحتبس عليه عمر ، حتى صلى عليه ودفنه ، فقلَّ يوم إلا كان عمر يتمثل بهذا البيت :

وبالغ أمر كان يأمل دونه ومختلج من دون ماكان يأمل[٤٠٦]

وقبل هذا البيت :

لقد غرت الدنيا رجالا فأصبحوا بمنزلة مابعدها متحول

---

(٤٠٥) المرجع السابق

(٤٠٦) البداية والنهاية جـ٩ صـ٣١٢

فساخط أملا لايبدل غيره   وراض بأمر غيره سيبدل

وذِكْر أبي جعفر لقصة عمر تفيد إعجابه بعمله وحرصه على الاقتداء به في مراعاة الصديق مهما كانت منزلة الإنسان . . . . لأن للصداقة حقها يلتزم بها الكبير والصغير ، والسلطان والشعب .

ومن أقوال الباقر في ذلك : بئس الأخ أخ يرعاك غنيا ويقطعك فقيرا .(٤٠٧)

أما عن ورعه وتقواه ، فقد قال عنه ابن كثير إنه كان عارفا بأمور دينه كثير البكاء والعبرات ، معرضا عن الجدال والخصومات .

كان لايبكي على شيء يفوت من الدنيا ، لأن الدنيا في نظره لاقيمة لها . وربما كان الكفاف آثر عنده من الغنى ، وقد سئل عن « الغرفة » في قوله ـ تعالى « أولئك يجزون الغرفة بما صبروا » فقال : الجنة بما صبروا على الفقر في الدنيا .

وقد وصفه أبو نعيم فقال : هو الحاضر الذاكر ، الخاشع الصابر ، جمع بين حسب الدين والأبوة ، وتكلم في العوارض والخطرات ، وسفح الدموع والعبرات . كان كثير القيام في الليل . . .

وروى عنه جعفر ابنه قال : كان في جوف الليل يقول : أمرتني فلم أئتمر ، وزجرتني فلم أزدجر . . . هذا عبدك بين يديك ولاأعتذر . .

ومن تمام ورعه فهمه عن الله عز وجل وركونه إلى قضائه وقدره . روى عمرو بن دينار قال : قال محمد بن علي : ندعو الله فيما نحب ، فإذا وقع الذي نكره لم نخالف الله ـ عز وجل ـ فيما أحب .

---

(٤٠٧) المرجع السابق

وهذا هو اليقين الصادق ، والرضا بالمقدور ، وعدم التبرم بالقضاء.وإن من علامات الورع والتقوى صدق التوجه إلى الله بالدعاء ، وقد قال أبو جعفر : « مامن شيء أحب إلى الله ـ عز وجل ـ من أن يُسْأل ، ومايدفع القضاء إلا الدعاء ، وإن أسرع الخير ثوابا البر ، وأسرع الشر عقوبة البغى ، وكفى بالمرء عيبا أن يبصر من الناس مايعمى عليه من نفسه ، وأن يأمر الناس بما لايستطيع التحول عنه . وأن يؤذى جليسه بما لايعنيه .

ومن تمام الورع التأدب مع الله ، فلا يقال عنه مالاينبغى أن يقال ، ولايوصف كلامه بما لايصح أن يوصف به . . . . ، وكانت هناك فتنة أوشكت أن تنشب ثم أفرخت بعد ذلك بسنين . تلك هى فتنة القول بخلق القرآن التى تلقفها المعتزلة فى عصر المأمون وروجوها ، وأوذِىَ كثير من العلماء بسببها .

هذه الفتنة بدأت إطلالتها فى عهد الأمويين ، وإنا لنسمع بساما الصيرفى يقول : سألت أباجعفر محمد بن على بن الحسين عن القرآن ، فقال : كلام الله ـ عز وجل ـ غير مخلوق .

وروى عنه يونس بن بكير عن جعفر بن محمد عن عبدالله بن محمد قال : سئل على بن الحسين عن القرآن فقال : هو كلام الخالق ـ عز وجل ـ[٤٠٨]

وكان الباقر ـ رضى الله عنه ـ تقيا بكاء ، شديد الخوف من الله مع رجاء كبير فى جنابه ـ وهذه هى التقوى كما فسرها بعض أهل العلم الذين قالوا : التقوى أن يكون المرء بين مقامى الخوف والرجاء ، حتى لاييئسه الخوف من

---

(٤٠٨) الحلية جـ٣ صـ١٨٨

الرحمة ، ولايوقعه الرجاء فى التفريط .

حكى مولاه أفلح قال : حججت مع أبى جعفر محمد الباقر ، فلما دخل المسجد نظر للبيت وبكى ، فقلت له : بأبى أنت وأمى ـ إن الناس ينظرون إليك ، فلو خفضت صوتك قليلا ؟

فقال : ويحك ياأفلح ، ولم لاأرفع صوتى بالبكاء لعل الله ينظر إلىّ برحمة منه فأفوز بها غدا ؟

ثم طاف بالبيت ، وجاء حتى ركع خلف المقام ، فلما فرغ إذا موضع سجوده مبتل من دموع عينيه[٤٠٩]

موقفه من الشيعة :

كان موقف أبى جعفر بن محمد من شيعته هو موقف التوجيه والتصحيح ، كان يرفض منهم مايزعمونه كذبا من ادعاءات أو افتراءات ، وكان دائم الثناء على صحابة رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وفى مقدمتهم أبوبكر وعمر ـ رضى الله عنهما ـ

قال ابن سعد : حدث ليث عن أبى جعفر قال : لا تجالسوا أصحاب الخصومات ، فإنهم الذين يخوضون فى آيات الله .

وحدث زهير عن جابر قال قلت لمحمد بن على : أكان منكم أهل البيت أحد يزعم أن ذنبا من الذنوب شرك ؟

قال : لا .

قال : قلت : أكان منكم أهل البيت أحد يقر بالرجعة ؟

قال : لا .

---

(٤٠٩) نور الأبصار صـ١٤٣

قال : قلت : أكان منكم أهل البيت أحد يسيء إلى أبي بكر وعمر ؟

قال : لا ـ فأحبهما وعظمهما واستغفر لهما .(٤١٠)

والشيعة الحقيقيون فى نظره هم الذين يحبون الله ورسوله . . ويقول فى ذلك : « شيعتنا من أطاع الله عز وجل واتقاه »

قال عروة بن عبد الله : سألت أبا جعفر عن حلية السيف

فقال : لابأس بها . فقد حلى أبو بكر الصديق سيفه .

قلت : ونقول : الصديق ؟

قال : فوثب وثبة واستقبل القبلة ثم قال : نعم الصديق ، نعم الصديق ، فمن لم يقل الصديق فلاصدّق الله له قولا فى الدنيا ولافى الآخرة . .

هؤلاء الذين يخطّئون الصديق وعمر وغيرهما من الصحابة ـ هم الروافض الذى يرفضون خلافة غير علىّ ظلما وبغيا . .

ولكن ليس الشيعة ـ والحق يقال ـ كلهم كذلك ـ بل هناك شيعة معتدلون يحبون أهل البيت لله ، ولقرابتهم من رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ والمسلمون عامة يحبون أهل البيت ، ولذلك كان إطلاق اسم الشيعة ـ وهو لقب سياسى ـ فيه كثير من التجوز .

فإن لقب الشيعى بمفهومه السياسى ـ **يطلق** على من انتمى إلى مذهب الشيعة وهو مذهب له مبادئه وتعاليمه .

يقول الشهرستانى فى الملل والنحل : الشيعة هم الذين شايعوا عليا على وجه الخصوص وقالوا بإمامته وخلافته نصا ووصية . .

---

(٤١٠) الطبقات لابن سعد جـ٥ قسم ١ صـ٢٣٦

والواقع أن عليا ناصره كثير من الصحابة فى خلافه مع معاوية وهؤلاء هم الذين اعتقدوا أحقيته فى الخلافة بعد مبايعة الناس له عقب مقتل الخليفة عثمان ـ رضى الله عنه ـ .

وهذا لايمنع أن يكون بعضهم كان يميل إليه بادىء ذى بدء ، لما عرفوا من أخلاقه، ولما ورد فى حقه من نصوص نبوية تثنى عليه ثناء مستطابا . وهؤلاء الذين كانوا يميلون إليه كان ميلهم نزعة عاطفية صادقة مبنية على أساس متين من معرفتهم بقوة إيمانه وعدله وشجاعته وقرابته من رسول الله . .

ولكن هذه النزعة طورتها السياسة وحولتها إلى مذهب سياسى تشعب تشعبا كبيرا ودان به كثير من الذين لهم أهداف واتجاهات يريدون تحقيقها . ومنهم من أصبحت لهم آراء فقهية ، وآراء فلسفية وكلامية كالقول بالرجعة والتناسخ والبداء وغير ذلك .

ومن أمثلة ذلك ماكان يزعمه المختار بين أبى عبيد الثقفى ـ وقد اتخذ التشييع طريقا لتحقيق أهدافه ـ فقد زعم أنه يجوز البداء على الله ـ تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا ـ

كان الباقر ـ رضى الله عنه ـ يغضب من هؤلاء الذين يزعمون أنهم شيعة ثم يتهمون الصحابة ويسيئون إلى أبى بكر وعمر ، أو تصدر عنهم آراء تتناقض مع الدين الحنيف ، أو يصفون أهل البيت بصفات تجعلهم فوق مستوى البشر .

قال جابر الجعفى : قال لى محمد بن على : ياجابر بلغنى أن قوما بالعراق يزعمون أنهم يحبوننا ويتناولون أبا بكر وعمر ، ويزعمون أنى أمرتهم بذلك فأبلغهم عنى أنى إلى الله منهم برىء ، والذى نفس محمد بيده ـ يعنى نفسه ـ

لو ولّيتَ لتقربت إلى اللهِ بدماء هؤلاء - لانالتنى شفاعة محمد - صلى الله عليه وسلم - إن لم أكن أعظّم أبابكر وعمر وأترحم عليهما ، إن أعداء الله لغافلون عن فضلهما وسابقتهما ، فأبلغهم أنى برىء منهم وممن أساء إلى أبى بكر وعمر - رضى الله عنهما -

وقال: من لم يعرف فضل أبى بكروعمر فقدجهل السنة .

وقال فى قوله - تعالى -

« إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون »(٤١١)

قال : هم أصحاب محمد - صلى الله عليه وسلم -

قال جابر : فقلت : هم يقولون : هو علىّ .

فقال الباقر : على من أصحاب محمد - صلى الله عليه وسلم -(٤١٢)

ذلك أن الشيعة كانوا يقصرون الوصف الوارد فى هذه الآية على علىّ - كرم الله وجهه - ويقولون : إنها نزلت فى حقه خاصة - ولكن الباقر نفى هذا التخصيص ، وذكر أن الوصف منطلق إلى كل أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فكلهم يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة - وعلى - رضى الله عنه - منهم .

وكان الباقر يقول : اللهم إنى أبرأ إليك من المغيرة بن سعيد ، وبيان(٤١٣) . وكان كلاهما من غلاة الشيعة الرافضين الذين قالوا بغير الحق .

---

(٤١١) المائدة ٥٥

(٤١٢) البداية والنهاية جـ٩ صـ٣١١

(٤١٣) الطبقات جـ٥ قسم ١ صـ٢٣٦

من هذان الشيعيان ؟

والمتأمل فى تاريخ هذين الرجلين يدرك مدى خطورتهما التى تستوجب التبرؤ منهما ، وتبين حرص الإمام الباقر على سلامة دينه وعقيدته . ونصاعة موقفه ، وسلامة مبدئه ، وصدقه فى دعوته إلى الله . فهو ليس انتهازيا يفرح بالتفاف الناس حوله ، وهتافهم باسمه . . ثم يستغل ذلك فى الوصول إلى تحقيق مايدعو إليه . .

لأن الوصول إلى تحقيق أى أمر لايمكن أن يكون عن طريق هذا الزيف الذى يروج على ألسنة المتاجرين بالسياسة .

بل إنه يؤمن بأن تحقيق أى هدف لن يكون إلا بواسطة أناس مخلصين لايزيفون الحقائق ، ولايروجون الأكاذيب ، ولايدعون بغير الحق . . لا على يد من يروجون الأباطيل ويذيعون الكذب .

وكان الباقر ـ رضى الله عنه ـ صائب التفكير ، منطقيا يحسن تحليل الأحداث والحكم على الأمور . ولنعرف لماذا تبرأ من المغيرة بن سعيد وبيان . .

من المغيرة بن سعيد ؟

المغيرة بن سعيد العجلى ، هو زعيم طائفة شيعية كبيرة تنسب إليه ، وقد استغل التشيع استغلالا سيئا . . . فقد اختلق أشياء تتنافى مع الدين والمنطق .

وزعم أن الإمام حى لم يمت ، والإمام فى نظره ـ هو محمد الباقر ـ ولكنها انتقلت منه إلى محمد بن عبد الله بن الحسين بن الحسن الملقب بالنفس الزكية

وكان المغيرة مولًى لخالد بن عبد الله القسرى . ثم ادعى الإمامة لنفسه ثم ادعى النبوة لنفسه ، واستحل المحارم ، وغلا فى حق على - رضى الله عنه - غلوا لايعتقده عاقل .

وزاد على ذلك قوله بالتشبيه ، فقال : إن الله - تعالى - صورة . . وله جسم ذو أعضاء على مثل حروف الهجاء . وصورته صورة رجل من نور على رأسه تاج من نور ، وله قلب تنبع منه الحكمة .

ومن تخاريفه زعمه أن الله - تعالى - لما أراد خلق العالم تكلم بالاسم الأعظم - فطار - أى الاسم الأعظم - فوقع على رأسه تاجا ، وذلك قوله « سبح اسم ربك الأعلى الذى خلق فسوى »

وأنه اطلع على أعمال العباد ، وقدكتبها فى كفه فغضب من المعاصى فعرق ، فاجتمع من عرقه بحران - أحدهما مالح والآخر عذب . . . والمالح مظلم ، والعذب نير . . ثم اطلع فى البحر النير فأبصر ظله . فانتزع عين ظله ، فخلق منها الشمس والقمر ، وأفنى باقى ظله ، وقال : لاينبغى أن يكون معى إله غيرى .

قال : ثم خلق الخلق كله من البحرين ، فخلق المؤمنين من البحر النير . وخلق الكفار من البحر المظلم .

وخلق ظلال الناس أول ماخلق . . وأول ماخلق ظل محمد - صلى الله عليه وسلم - وظل على قبل خلق ظلال الكل . .

ويزعم هذا المخرف أن الناس تآمروا على منع على بن أبى طالب من الإمامة . وأن عمر بن الخطاب أمر أبا بكر أن يتحمل منعه من ذلك ، وضمن له أن يعينه على الغدر بعلى على شرط أن يجعل الخلافة له من بعده

فقبل منه ، وأقدما على المنع متظاهرين .. فذلك قوله تعالى -

﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾ ﴾ (٤١٤)

لقد كان موقف محمد بن على بن الحسين من صاحب هذه الآراء الضالة صريحا قاطعا ، وبخاصة بعد أن تمادى فى تلك الآراء الضالة ..

لقد تبرأ منه الباقر ولعنه ..

ولكن هذا الرجل لم يزد لعن الباقر إياه إلا ضلالا ، فبعد أن مات الباقر قال لأصحابه : انتظروه - فإنه سيرجع وجبريل وميكائيل يبايعانه بين الركن والمقام(٤١٥)

من هو بيان ؟

أما بيان فهو بيان بن سمعان التميمى .

وهو أحد الداعين إلى إمامة محمد الباقر - وقال : إن الإمامة انتقلت من أبى هاشم بن محمد بن الحنفية إليه .

ولهذا الرجل آراء متطرفة غريبة لاتمت إلى الإسلام بصلة . ومن أجل ذلك تبرأ منه الباقر كما تبرأ من المغيرة .

كان بيان هذا من الغلاة القائلين : بنبوة أمير المؤمنين على - رضى الله عنه -

قال : لقد حل فى على جزء إلهى واتحد بجسده ، وبهذا الجزء كان يعلم

---

(٤١٤) الأحزاب ٧٢

(٤١٥)الملل والنحل جـ٢٧٥

الغيب ـ كما يزعم هذا الكاذب ـ والدليل على ذلك كما يقول ـ أنه أخبر عن الملاحم ، وبه كان يحارب الكفار ، وله النصرة والظفر عليهم .

وبه قلع باب خيبر ـ وعن هذا قال : والله ماقلعت باب خيبر بقوة جسدانية ولابحركة غذائية ولكن قلعته بقوة رحمانية ملكوتية بنور ربها مضيئة .

وزعم أن عليا ربما يظهر فى بعض الأزمات .

وقال : إن عليا هو الذى سوف يأتى فى ظلل من الغمام ، والرعد صوته والبرق تبسمه . .

ثم زعم بيان أن هذا الجزء الإلهى قد حل فيه هو ، ولذلك استحق أن يكون إماما وخليفة . .

وغالى فى الضلال حتى ادعى أن الله جل جلاله على صورة إنسان ـ عضوا فعضوا وجزءا فجزءا . وتهلك هذه الأجزاء إلا وجهه ـ قال ـ تعالى « كل شىء هالك إلا وجهه » . .

ومع هذا الخزى الفاضح كتب إلى محمد بن على بن الحسين ـ الباقر ـ ودعاه إلى مبايعته ، وقال له فى كتاب أرسله إليه : « أتسلم تسلم ، ويرتقى من سلم ـ فإنك لاتدرى حيث يجعل الله النبوة »

وقد اعتقل خالد بن سعيد القسرى بيانا هذا فقتله ، وكان هذا أقل جزاء له .(٤١٦)

لقد ابتلى الباقر ـ رضى الله عنه ـ بأمثال هؤلاء الشيعة المتطرفين فكانوا

---

(٤١٦) الملل والنحل للشهر ستانى

عبئا عليه ، وكان لزاما عليه أن يتبرأ منهم ويطردهم ، ولو كان لديه القدرة على قتلهم لقتلهم ، فكانت مسئولية قتلهم ملقاة على عاتق الحكومة النظامية التى تحارب الضلال وتجاهد أعداء الإسلام .

وما ابتلى الإسلام إلا بأبنائه من أمثال هؤلاء المنحرفين الذين يروجون الشبه ويزيفون الحق ، ويذيعون الباطل ، ويزرعون فى نفوس الناس الشكوك .

كل هذا وأهل البيت براء من هؤلاء الضالين . وكل ماكانوا يستطيعون أن يفعلوه هو التحذير منهم ، والرد على أكاذيبهم .

لقد كان هؤلاء الشيعة الذين يزعمون أنهم يحبون أهل البيت أشبه بالدبة التى قتلت صاحبها وهى تزعم أنها تحبه .

وفاته وأولاده :

سبق أن قلنا : إن وفاته كانت فى عام خمسة عشر ومائة ـ ذكر ذلك ابن كثير فى كتابه .(٤١٧)

وإن كان المسعودى قد ذكر أن وفاته كانت سنة سبع عشرة ومائة . . . . . وقال : بعضهم : إنه توفى فى خلافة الوليد بن يزيد سنة خمس وعشرين ومائة .

ويرجح ابن سعد أنه توفى سنة سبع عشرة ومائة وهو ابن ثلاث وسبعين سنة . وقال ابن خلكان : توفى فى شهر ربيع الأول سنة ثلاث عشرة ومائة وقيل فى الثالث والعشرين من صفر سنة أربع عشرة ومائة . ومات

(٤١٧) البداية والنهاية جـ٩ صـ٣٠٩

بالحميمة ، ونقل إلى المدينة ودفن بالبقيع . فى القبر الذى دفن فيه أبوه وعم أبيه الحسن بن على - فى القبة التى فيها قبر العباس - رضى الله عنهم .(٤١٨)

ويذكر الشبلنجى أنه توفى سنة سبع عشرة ومائة - عن ثلاثة وستين عاما ، وقيل : عن ثمانية وخمسين عاما . وقيل : غير ذلك .

وأوصى أن يكفن فى قميصه الذى كان يصلى فيه .

وذكر ابنه جعفر الصادق قال : كنت عند أبى فى اليوم الذى قبض فيه ، فأوصانى بأشياء فى غسله وتكفينه ودفنه ودخول القبر - فقلت : ياأبت - والله ما رأيتك منذ اشتكيت أحسن منك اليوم ، ولا أرى عليك أثر الموت .

فقال : يا بنى ، أما سمعت على بن الحسين من وراء الجدار ينادينى : يا محمد عَجِّل .(٤١٩)

وأما أولاده فهم :

جعفر الصادق ، وعبدالله - وأمهما أم فروة بنت القاسم بن محمد بن أبى بكر الصديق .

وإبراهيم - وأمه أم حكيم بنت أسيد بن المغيرة من ثقيف ....

وعلى ، وزينب وأم سلمة - وأمهم أم ولد .(٤٢٠)

رضى الله عنهم أجمعين ... .

مآثر خالدة :

انطوت صفحة الباقر فى الحياة ، ولحق بمن سبقه من الآباء والأجداد ،

---

(٤١٨) وفيات الأعيان جـ٢ صـ٢٢١

(٤١٩) نور الأبصار صـ١٤٤

(٤٢٠) الطبقات جـ٥ قسم ١ صـ٢٢٥

ولكنه ترك بعده صفحة نقية وأثراً خالداً ، وفي الحديث الشريف «إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث : صدقة جارية ، أوعلم ينتفع به ، أوولد صالح يدعو له » .

وقد ترك الباقر ثروة علمية سخية مازال الناس يتناقلونها ويستفيدون منها ، وترك بعده مناقب جليلة ملأت القلوب إجلالاً له ، وإشادة به ، وثناء عليه ، وترك ذرية طاهرة طيبة ممتدة إلى ما شاء الله . .

ويكفى أنه من سلالة الطيبين الأطهار الذين أثنى الله عليهم وطهرهم من الرجس تطهيراً .

لقد غرس الله محبة الصالحين فى قلوب الناس ، وهى محبة تلقائية غير متكلفة ، أشار إليها الحق ـ سبحانه وتعالى ـ

﴿ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَٰنُ وُدًّا ﴾(٤٢١)

وقد علق القرطبى فى تفسيره على هذه الآية بقوله :

« أى يجعل لهم حبا فى قلوب عباده . . . »

روى الترمذى من حديث سعد وأبى هريرة أن ـ النبى ـ ﷺ ـ قال : « إذا أحب الله عبداً نادى جبريل . . . . إنى قد أحببت فلاناً فأحبّه . قال : فينادى فى السماء ، ثم تنزل له المحبة فى أهل الأرض ، فذلك قوله ـ تعالى : « سيجعل لهم الرحمن وداً »

---

(٤٢١) مريم ٩٦

وإذا أبغض الله عبداً نادى جبريل : إنى أبغضت فلانا ، فينادى فى السماء ، ثم تنزل البغضاء فى الأرض »[222]

وروى عن ابن عباس - رضى الله عنه - أن النبى - ﷺ - قال : « إن الله أعطى المؤمن الألفة والملاحة والمحبة فى صدور الصالحين والملائكة المقربين ، ثم تلا .. « إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمن وداً » .

وهذا الود يظل باقيا أبد الدهر ، يتجدد على الأيام ، ولا يعتريه البلاء ، والنسيان . وهذا هو الذى يفسر طول بقاء ذكر الصالحين فى قلوب الناس وخواطرهم ، فهم لا يفترون عن ترديد سيرتهم ، وإحياء ذكراهم ، وحفظ آثارهم ، والدعاء لهم ، والاستغفار لهم ، وغير ذلك من صور التخليد والإحياء ..

ولقد ذكرنا بعض مناقب للباقر ... وأجل هذه المناقب ما أذيع من حكم ونصائح ووصايا وعلوم ، وكلها آثار باقية تحفظ الذكرى وتجدد العمل الصالح . وقد حكى له بعض الرواة كرامات ، هى من المحافات المولى للصالحين من عباده ، ونحن لا ننكر الكرامات التى أيدها القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة .

ونحن فى ذكرنا لبعض ما أثر من كرامات للباقر لا نضيف إليه مناقب جديدة ، ولا نرفعه بها أكثر من منزلته ، فإن فضله مشهود بدونها ، ولكنا نذكرها من باب الوفاء بالموضوع ، والالتزام بأمانة النقل والاتباع .

---

(٢٢٢) القرطبى جـ١١ صـ١٦١ سورة مريم ، وقال : حديث حسن صحيح ، وخرجه البخارى ومسلم بمعناه

فمن كراماته . ما ذكره أبوبصير قال : قلت يوماً للباقر : أنتم ورثة رسول الله - ﷺ -

قال : نعم .

قلت : ورسول الله - ﷺ - وارث الأنبياء جميعهم .

قال : وأورث جميع علومهم .

قلت : وأنتم ممن ورث علوم رسول الله - ﷺ -

قال : نعم .

قلت : فأنتم تقدرون أن تحيوا الموتى وتبرئوا الأكمه والأبرص - بإذن الله - .

قال : نحن ندعو والله يجيب دعاء من دعاه .. إن شاء .

ثم قال : ادن منى يا أبا بصير ، وكان أبوبصير مكفوف البصر - قال : فدنوت منه ، فمسح بيده على وجهى ، ودعا الله - فأبصرت السماء والجبل والأرض .

فقال : أتحب أن تكون هكذا تبصر وحسابك على الله ، أو تكون كما كنت ولك الجنة ؟

قال أبوبصير : قلت : الجنة . فمسح بيده على وجهى - ودعا الله - فعدت كما كنت .(٤٢٣)

نصيحة غالية :

ونختم حديثنا عن الإمام الباقر بهذه النصيحة الغالية التى وجهها لابنه

---

(٤٢٣) نور الأبصار جـ١٤٤

جعفر الصادق ـ رضى الله عنهما ـ لعلنا ننتفع بها فى حياتنا ـ قال له : يا بنى إذا أنعم الله عليك نعمة فقل : الحمد لله .

وإذا حزبك أمر فقل : لا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم . وإذا أبطأ عليك الرزق فقل : أستغفر الله . .

وقال : يابنى إن الله خبأ ثلاثة أشياء فى ثلاثة أشياء : خبأ رضاه فى طاعته ، فلا تحقرن من الطاعات شيئاً . فلعل رضاه فيه .

وخبأ سخطه فى معصيته ، فلا تحقرن من معصيته شيئاً فلعل سخطه فيه .

وخبأ أولياءه فى خلقه فلا تحقرن أحداً فلعله ذلك الولى .(٤٢٤)



(٤٢٤) المرجع السابق

الإمام زيد بن على بن الحسين :

تمهيد :

كان لعلى بن الحسين ـ الملقب بزين العابدين ـ أولاد أشرنا إليهم فى ترجمته ، وتحدثنا تفصيلاً عن ابنه الأكبر محمد الباقر .

وكان له أولاد . آخرون وكلُّهم نابهُ الذكر عظيمُ الفضل ، إلا أن ابنه ـ زيد بن على الذى تنتسب إليه الطائفة الزيدية الشيعية قد بلغ من الشهرة والمكانة شأوا كبيراً . . . . وقد نازع الأمويين وخرج عليهم ، وانتهى أمره فى ثورته ضدهم بما انتهت إليه ثورات من سبقه ، وثورات من تبعه .

وسنعرض لتفصيل ذلك إن شاء الله تعالى ـ ولكنا قبل أن نفصل ذلك نشير إلى بعض أولاد علىّ بن الحسين ـ إخوة زيد ـ فمنهم :

عبدالله بن على :

وهو شقيق الباقر فأمه ـ هى أم عبدالله بن الحسن بن على بن أبى طالب . وقد ولد لعبدالله هذا عدة أولاد : هم محمد بن عبدالله بن على ، وكان يلقب بالأرقط .

وإسحاق بن عبدالله ، ويلقب بالأبيض . . . . والقاسم ، وأم كلثوم ، وأم على . . ولم يذكر الرواة تاريخ وفاة عبدالله بن على ولا مكان وفاته .

عمر بن على :

وعمر بن على زين العابدين ـ أمه أم ولد .

وقد تزوج عمر من أم إسحاق بنت محمد بن عبدالله بن الحارث بن نوفل من بنى عبدالمطلب ، فولدت له جعفراً ، وكان يلقب بالبشير .

وتزوج من أم موسى بنت عمر بن علي بن أبي طالب ، وأنجبت له محمداً ، وموسى ، وخديجة ، وحبّة ، ومُحبّة ، وعَبْدة .

وله من الأولاد أيضاً : علي ، وإبراهيم وخديجة . . .

وكان عمر بن علي - ورعاً تقياً يخشى الله ، وكانت له صولة ترد على الشيعة تجاوزاتهم ، وتوقفهم عند الحدود . .

قال ابن سعد : أخبرنا فُضَيْل بن مرزوق قال : سألت عمر بن علي وحُسَيْن بن علي - قلت : هل فيكم أهلَ البيت إنسان مفترضة طاعته تعرفون له ذلك ، ومن لم يعرف له ذلك كان مسيئاً جاهلاً ؟

فقالا : لا والله ما هذا فينا ، من قال هذا فينا فهو كذاب .

قال : فقلت لعمر بن علي : رحمك الله - إن هذه منزلة تزعمون أنها كانت لعلي . . . وتقولون - إن النبي - ﷺ - أوصى إليه ، ثم كانت للحسن لأن عليا أوصى اليه ، ثم كانت للحسين ، لأن الحسن أوصى إليه ، ثم كانت لعلي بن الحسين لأن الحسين أوصى اليه ، ثم كانت لمحمد بن علي لأن عليا أوصى إليه . .

فقال : والله لقد مات أبي فما أوصى بحرفين - قاتلهم الله - والله إنْ هؤلاء إلا متأكلون بنا . وقد أضلهم ابن الخنيس .

قال : قلت : المعلّ بن خُنَيس - الفاسد الفاسق ؟

قال : نعم ، المعلى بن خنيس - والله لقد فكرت على فراشي طويلاً أتعجب من قوم لَبّس الله عقولهم حين أضلهم المعلى بن خنيس .

وكان المعلى بن خنيس أحد غلاة الرافضة قد ضل به أقوام من الشيعة بما

أدخله عليهم من كلام ما أنزل الله به من سلطان .

وإنك لتدرك شدة غضب عمر بن على عليه بما أضافه من وصف إليه ، وإنه لدون ما يستحقه .

حسين الأصغر

وكان أصغر أولاد أبيه ـ على زين العابدين ـ ولحسين هذا عقب كثير .

نذكر منهم : عبدالله ، وعبيدالله ، وعلياً ، وهشيمه ، وأم هؤلاء الإخوة أم خالد بنت حمزة بن مصعب بن الزبير . . . . . .

وله : حسن ـ الملقب بالأحول

وله : أمينة ـ وأمها امرأة من الأنصار من بنى حارثة

وله : إبراهيم وفاطمة ومحمد

ولم يذكر الرواة سنة وفاته ـ إلا أنهم قالوا : إنه عاش حتى أدركه محمد بن عمر ابن عمه فروى عنه . .(٤٢٥)

ونأتى الآن للحديث عن :

الإمام زيد

هو زيد بن على بن حسين بن على بن أبى طالب ـ رضى الله عنه ـ أبوه هو على زين العابدين

ولد زيد بالمدينة المنورة سنة ثمانين تقريباً ، فلم يعرف تاريخ مولده على وجه التحديد ، والذين ذكروا مقتله سنة اثنتين وعشرين ومائة ـ قالوا : إنه مات وسنة ثنتان وأربعون سنة . .

---

(٤٢٥) الطبقات جـ٥ قسم ١ صـ٢٣٨ ومابعدها

ونشأ فى أحضان الأسرة الهاشمية الكريمة ، فأبوه زين العابدين ، وارث علوم أبيه الحسين ، وعمه الحسن ، وعمه محمد بن الحنفية . . ومن حوله أولاد عمه الذين يقصدهم الناس يتلقون منهم حقائق العلم وآداب الدين . .

وكانت المدينة آنذاك مهد العلم والدين ، وبها من الصحابة بقية صالحة ومن التابعين جم غفير مشهود لهم بالمقدرة العلمية والمنزلة السامية . . فقد أووا إليهم حين كثرت الفتن والاضطرابات . .

وفوق ذلك فالبيت العلوى بيت دين وعلم ـ وفيه نشأ زيد بن على ـ يرى أباه الملقب بزين العابدين تفد إليه الوفود تغرف من بحر علمه وتصدر بما يفيض عليها من ذخائر وفيوضات . .

وكان ابن عمه عبدالله بن الحسن بن الحسن أحد الأعلام الذين يقصد إليهم الناس من كل صوب ، وقد بلغ عبدالله منزلة عليا لدى الخلفاء ، فوفد إلى عمر بن عبدالعزيز فأكرمه ، ووفد على أبى العباس السفاح فعظمه . . . وأكرمه أبوجعفر المنصور فى أول خلافته ، ولكنه تغير عليه بعد ذلك ـ فألقى القبض عليه وسجنه وعذبه حتى مات فى سجنه ، وقد سبقت الإشارة إلى ماذكره الرواة فى ذلك .

ولكنا نذكر هنا مدى ماكان عليه أهل البيت من تقدم علمى يجعل الناس يَقْدُمون عليهم ويُقَدِّمُونهم ـ وقد كان زيد بن على أحد أبناء هذه السلالة ، ومعاصراً لأفذاذ منهم .

وقد توفى والد زيد عام أربع وتسعين ، ولزيد من العمر أربعة عشر

عاماً . فظل زيد فى رعاية أخيه محمد الباقر ، فأكرمه واعتنى به وأحبه حباً شديداً ، وكان ينظر إليه على أنه عماد من أعمدة أهل البيت ، ويطلب من الله أن يقوى أزره به .

كانت نظرة الباقر فى أخيه صادقة ، ولكنه كان يشفق عليه من المصير الذى ينتظره ، فقد توسم فيه أنه لن يصبر على الضيم ، وأنه سيثور ضد الذل ، وأن هذه الثورة ستورده حتفه ، وكان ذلك من قبيل الفراسة الصادقة التى ورد فيها قوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله »

ورد فى كتاب الدلائل للحميرى ـ عن زيد بن حازم قال : كنت مع أبى جعفر محمد بن على الباقر ، فمر بنا زيد بن على ـ أخوه ـ فقال أبوجعفر : أمّا رأيت هذا ؟ ليخرجن بالكوفة وليقتلن وليطافن برأسه ، فكان كما قال .(٤٢٦)

ولم يقتصر تلقى زيد العلم على يد من ذكرنا من أهل البيت الذين عاصروه ، ولكنه كان يطلب العلم من مظانه وأماكنه ، ويرحل إليه فى نواحيه .

فهو لم يكتف بعلم أهل المدينة مع أن المدينة كانت مقصودة من جميع الجهات ، وكان عمر بن عبدالعزيز الخليفة الأموى يرسل إليها الرسل ليسأل التابعين المقيمين بها عن سنن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ثم يرسل إلى بقية الأمصار يعلمها سنن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ

---

(٤٢٦) نور الأبصار صـ١٤٤

رحلاته فى سبيل الله .

لقد اختلف زيد بن على عن أبيه على وأخيه محمد الباقر فى تلقيه العلم ، فهما لم يخرجا من المدينة فى طلب العلم ، بل لزماها ولم يخرجا منها إلا إلى حجٍّ أو عمرة ، لقد سئما التجوال وأدركا أنه لم يلق أحد من أهل البيت من التجوال خيراً ، فقد خرج على بن أبى طالب من المدينة فلم يعد إليها ، وقتل فى الكوفة غريباً شهيداً .

وخرج الحسين بن على من المدينة فقتل فى كربلاء غريباً شهيداً . . وهاهم الآن يتجرعون غصة مصرع الحسين الذى قتل معه خيرة أولاده وإخوته وأولاد عمومته . .

ولم يخرج محمد بن الحنفية أخو الحسين إلى مكة إلا مضطراً ، لأن الناس أرادوا أن يكرهوه على الثورة ضد الأمويين ، وهو يدرك أن الثورة لن تأتى بنتيجة فآثر السلامة . .

ويقى زين العابدين فى المدينة واهباً نفسه للعلم والعبادة حتى وافاه أجله راضياً مرضياً . وقد أبلى بلاء حسنا فى نشر العلم والفقه والحديث . . . والتزم الباقر بما التزم به والده .

ولكن زيداً غادر المدينة ، ورحل إلى البصرة ، ولابد أن يكون قد التقى بمن فيها من العلماء من أمثال الحسن البصرى وغيره . .

وقال الرواة : إنه التقى فيها بواصل بن عطاء إمام المعتزلة والمعتزلة يعتنون بالعقل ، ويبالغون فى تقديره ، وربما أوردتهم هذه المبالغة بحور الشطط فقالوا بما لم يقله أحد قبلهم ، وتعصبوا له . . . . ومن ذلك

قولهم بخلق القرآن الذى امْتَحَنَ به المأمون العلماء امتحاناً عسيراً ، وعرضهم لكثير من الأذى. . . ومن هؤلاء الذين تعرضوا لهذه المحنة ـ إمام وقته أحمد بن حنبل ـ رضى الله عنه ـ

أثرى الإمام زيد بلقاء العلماء ثراء فكرياً عميقاً ، وأخذ يتنقل بفكره وعلمه فى أقاليم العراق والحجاز ، ويذاكر العلماء فيما درسه وتلقاه ، وتلتقى الآراء فتتلاقح وتزداد اتساعاً . .

ومع تنقله فى الأقاليم المشار إليها كان يلازم المدينة المنورة فى أكثر أيام السنة ، التزاما بنهج من تقدمه من أهل البيت ـ حيث كانوا لايحبون الترحل عزوفاً عن المشاكل التى تجرها الرحلات . .

ولكن شهرة زيد طارت فى الآفاق ، فأقبلت إليه الوفود تغرف من بحره ، وترتوى من فيضه . .

شهادة العلماء له

كان إلى جانب علمه الفياض كثير العبادة ، قرَّاءً للقرآن ، متفهماً لأحكامه غواصاً لإدراك أسراره ، قال عنه أبوحنيفة ـ رضى الله عنه ـ : شاهدت زيد بن على فما رأيت فى زمانه أفقه منه ، ولا أسرع جواباً ولا أبين قولاً . . لقد كان منقطع القرين . .

وناهيك بشهادة فقيه العراق هذه ، فهى تدل دلالة قاطعة على مدى ماوصل إليه الإمام زيد من منزلة علمية عالية ، ومقدرة فقهية بالغة . .

ولئن كانت هذه شهادة عالم العراق ، فهذه شهادة رجل من أهل البيت مشهود له بالعلم ـ هو عبدالله بن الحسن بن الحسن فى حق زيد . . وكان

عبدالله إماما من أئمة أهل البيت موصولاً إليه من كل مكان ، ولكنه أعجب بابن عمه زيد ، فقال لابنه حسين بن زيد : « إن أدنى آبائك زيد بن على ـ الذى لم أر فينا ولا فى غيرنا مثله »[٤٢٧]

وقيل لجعفر بن محمد الصادق عن الرافضة : إنهم تبرءوا من عمك زيد ، فقال : « برىء الله ممن تبرأ من عمى ، كان والله أقرأنا لكتاب الله وأفقهنا فى دين الله ، وأوصلنا للرحم ، والله ماترك فينا لدنيا ولا لآخرة مثله »[٤٢٨]

وقال أبو إسحاق السبيعى : « رأيت زيد بن على ، فلم أر فى أهله مثله ، ولا أعلم منه ، ولا أفضل ، وكان أفصحهم لساناً ، وأكثرهم زهداً وبياناً »[٤٢٩]

وقال الشعبى : « والله ماولدت النساء أفضل من زيد بن على ولا أفقه ولا أشجع ولا أزهد »[٤٣٠]

وقال الأعمش : « ماكان فى أهل زيد بن على مثل زيد ، ولا رأيت فيهم أفضل منه ، ولا أفصح ولا أعلم ولا أشجع ، ولقد وفى له من تابعه لإقامتهم على المنهج الواضح »[٤٣١]

وقال عاصم بن عبدالله بن عمر بن الخطاب : « لقد أصيب عندكم

---

(٤٢٧) دائرة معارف الشعب جـ٢ صـ٣٥٦ ـ موضوع الإمام زيد للشيخ محمد أبوزهرة .
(٤٢٨) خطط المقريزى جـ٣ صـ٤٣٨
(٤٢٩) المرجع السابق
(٤٣٠) المرجع السابق
(٤٣١) المرجع السابق

رجل ماكان فى زمانكم مثله ، ولا أراه يكون بعده مثله : زيد بن علي ، لقد رأيته وهو غلام حدث ، وإنه ليسمع الشيء من ذكر الله فيغشى عليه ، حتى يقول القائل : ماهو بعائد إلى الدنيا »[٤٣٢]

فى معترك السياسة

أشرنا فيما سبق إلى أن أهل البيت كانوا قد اعتزلوا السياسة ، واكتفوا بالعلم ينشرونه بين الناس ، وأصبحوا أئمة روحيين يدين لهم الناس فى هذا الجانب بالولاء .

واعترف أهل البيت للقائمين بالأمر بالولاء ، وكانوا ينادونهم بلقب أمير المؤمنين .

ومع ذلك فقد كثر المتشيعون لأهل البيت فى أماكن كثيرة ، وكان اعتزال أهل البيت عن شيعتهم سبباً فى الانحرافات التى ظهرت فى المذاهب الشيعية .

ولكن أهل البيت لم يكونوا يسكتون على هذا الانحراف إذاما بلغهم أو سمعوا عنه ، وقد رأينا فيما سبق عرضه أن هؤلاء الأئمة كانوا يوجهون الناس ويبصرونهم ويصححون لهم أخطاءهم ويعلنون براءتهم ممن ضل من شيعتهم سواء السبيل .

كان أهل البيت كلما التقوا بشيعتهم فى المدينة زجروهم وعنفوهم لخروجهم عن المنهج السليم ، ولانحرافهم عن الطريق المستقيم .

---

(٤٣٢) المرجع السابق

وكانت مهمة الإمام زيد فى رحلاته التى قام بها فى أقاليم العراق والحجاز ليست قاصرة على طلب العلم والالتقاء برجاله ، ولكنها كانت تتناول مع ذلك تصحيح مفاهيم الشيعة ، وإرشادهم إلى الحق ، ونهيهم عن الانحراف والمغالاة .

ولم تكن الدولة الأموية وعلى رأسها فى ذلك الوقت هشام بن عبدالملك غافلة عما يفعله زيد .

بل كان البعض يرصد تحركاته ، وكان البعض يظن به الظنون ، ولكن ليس هناك دليل واحد يثبت أن زيداً بتنقلاته تلك كان يطلب حكماً ، أو يرمى إلى ثورة ، أو يطعن فى حاكم .

كان كل مايفعله طلب العلم والالتقاء بالعلماء ، فإذا مالقى شيعة لأهل البيت نصحهم وأرشدهم وفقههم فى دينهم ، وعلمهم كيف يكون الفهم الصحيح للدين .

ليس هناك دليل ضد زيد على أنه يرغب فى ثورة ، ولكن هناك شبهة غذاها بعض الخائفين على الحكم ، الحريصين عليه من ازدياد النفوذ الروحى لأهل البيت .

هشام بن عبدالملك وزيد

لعلنا نذكر كيف أحرج الفرزدق الشاعر ـ هشام بن عبدالملك حين امتدح زين العابدين والد زيد بقصيدته الرائعة فى البيت الحرام ، ليرد بها على تجاهل هشام لزين العابدين ، وقد سأله أهل الشام عنه ـ فقال : لاأعرفه . . . وقد مرت بنا هذه القصة وتلك القصيدة .

ولعل هذا الأمر قد أوجد شيئاً فى نفس هشام بن عبدالملك جعله يقف موقف شك وريبة وخوف من أهل البيت . .

ويقول الرواة إنه أغرى عماله بالمدينة أن يغضوا من شأن أهل البيت ، وأن يحاولوا إثارة الفرقة بينهم ، وأن يظهروهم أمام الناس فى مظهر المتنابذين المختلفين . وأن يحاولوا إبعاد الناس عنهم . .

فإذا كانت هناك خصومة عادية تحدث أحياناً بين الأقرباء فإنه إذا حدث شيء من ذلك بين أهل البيت ، فإن بعض خصومهم كان يحاول أن يحولها إلى قضية كبرى حتى يتسع الخلاف ويكثر الشقاق وتطول المخاصمة .

ولم يفت ذلك على فطنة زيد بل تنبه له ، فكان يعمل على إزالة الخصومة ولو أداه ذلك إلى التنازل عن حقه .

جاء فى زهر الآداب مايلى :

كانت بين جعفر بن الحسين بن الحسن بن على ، وبين زيد بن على زين العابدين ـ رضوان الله عليهم ـ منازعة فى وصية ، فكانا إذا تنازعا تجمع الناس عليهما ليسمعوا محاورتهما .

فكان الرجل يحفظ على صاحبه اللفظة من كلام جعفر ، ويحفظ الآخر اللفظة من كلام زيد ، فإذا انفصلا وتفرق الناس عنهما ، قال هذا لصاحبه : قال فى موضع كذا ـ كذا وكذا ، فيكتبون ماقال ، ثم يتعلمونه كما يتعلمون النادر من الشعر ، والسائر من المثل . .(٤٣٣)

---

(٤٣٣) زهر الآداب جـ١ صـ١١٨

وقال ابن الأثير فى شأن هذه المنازعة : باتت المدينة تغلى كالمرجل ، ويقول قائل : قال زيد كذا ، ويقول قائل : قال عبدالله كذا . فلما كان الغد جلس الوالى فى المسجد ، واجتمع الناس ، فمن شامتٍ ومن مهموم ، فدعا بهما الوالى وهو يحب أن تزداد حدة الخلاف ، فذهب عبدالله يتكلم فقال زيد : « لاتعجل ياأبا محمد ، أعتق زيد مايملك إن خاصمك إلى الوالى أبداً .

ثم أقبل على الوالى ـ فقال له : « أجَمَعْتَ ذرية رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ لأمر ماكان يجمعهم عليه أبوبكر ولا عمر » ؟(٤٣٤)

ويلاحظ أن هناك خلافاً فى اسم المتخاصم مع زيد فالحصرى أسماه جعفراً ، وابن الأثير أسماه عبدالله . . ولكنهما على أى حال أخوان . . . والقضية واحدة . تحدث الحصرى عن يوم من أيامها ، وتحدث ابن الأثير عن يوم آخر من أيامها .

أما الوالى فهو خالد بن عبدالملك بن الحارث ، وكان واليا على المدينة فى فترة من فترات خلافة هشام .

ولئن كان خالد بن عبدالملك قد خسر الجولة التى حسمها زيد بتنازله عن حقه لابن عمه ، فإنه أغرى بعض أتباعه فجعلوا يغيظون زيداً ويحرضونه . ولكن زيداً تجمل بالحلم ، وتذرع بالصبر لأنه عرف الهدف من ذلك ، وقال لمن يحرضه : إنا لانجيب مثلك .

---

(٤٣٤) الكامل لابن الأثير جـ٥ صـ٨٥

التضييق على زيد

وكان زيد كلما خرج من المدينة وعاد لقى من الوالى عنتاً وتضييقاً وتجهماً . .

ولكن زيداً على الرغم من ذلك يقابل كل هذا بالحلم والصبر .

كان الحلم سلاحه دائماً ، وكان إذا كلمه إنسان وخاف أن يهجم على أمر يخاف منه مأثماً قال له : ياعبدالله ، أمسك أمسك ، كف كف ، إليك إليك ، عليك بالنظر إلى نفسك .

ثم لايلتفت إليه ولا يكلمه . .

ولكن الحلم أحياناً له حدود ، وقد يحدث من الأمور مالايمكن الصبر عليه أو التجاوز عنه . . .

ونحن نقص القصة التى أوردها المقريزى لنتبين منها كيف ينفد صبر الحليم ويخرج الهادىء عن طوره ـ أحياناً . .

ذكرنا أنه لما دعا خالدٌ زيداً وعبدالله بن الحسن للفصل فى خصومتهما ، وكان يحب أن تتسع الهوة بينهما ـ حسم زيد الأمر بالتنازل عن المنازعة . . واغتاظ خالد بعد أن سمع قول زيد له : لقد جمعت ذرية رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ لأمر ماكان يجمعهم عليه أبوبكر ولا عمر .

لقد كشف زيد أمره ، وأظهر نيته وفوّت عليه غرضه . .

فقال خالد : أما لهذا من أحد ؟

فوقف رجل من آل عمرو بن حزم ـ وكان ممن يمالىء السلطان ـ فقال :

يابن أبي تراب ـ كنية عليّ ـ وابن حسين ـ أما ترى لوالٍ عليك حقاً ولا طاعة ؟

فقال زيد : اسكت أيها القحطانى فإنا لانجيب مثلك .

قال : ولم ترغب عنى ؟ فوالله إنى لخير منك . . .

فتضاحك زيد وقال : يامعشر قريش إذا كان الدين قد ضعف أفتذهب الأحساب ؟ فوالله إنه ليضعف دين قوم وما تذهب أحسابهم .

فقام عبدالله بن واقد بن عبدالله بن عمر بن الخطاب ـ فقال للقحطانى : كذبت والله أيها القحطانى ، فوالله لهو خير منك نفساً وأباً وأماً ومحتداً .

وتناوله بكلام كثير ، وأخذ كفا من حصباء وضرب بها الأرض ، وقال : والله إنه مالنا على هذا من صبر ثم قام .

ـ لقد غضب عبدالله بن واقد لغضب زيد بن على ، وكلاهما قرشى ، وإن الذى أغرى القحطانى بزيد ـ وهو خالد بن عبدالملك بن الحارث ـ يعرف نسب زيد وحسبه جيداً ، ويعرف تماماً أن فضل أهل البيت لايجحده أحد ، ولايمكن أن يمارى فيه أحد ، وكان أولى به ألا يثير هذا التضاغن بين الناس ، وهو يعلم أن تبعته كحاكم تفرض عليه إشاعة السلام بين الناس .

ولكنه التضييق على زيد والإغراء به ، فى محاولة للغض من شأنه ، بعد أن ارتفعت مكانته ، وعرف الناس له حقه ، وأصبحت المدينة تستقبل

أنصاره الذين يقصدونه من كل مكان دائنين له بالفضل والطاعة .

زيد فى دمشق

وأراد زيد أن يضع حداً لهذه التصرفات التى يقصد منها الحط من شأن أهل البيت ، فتوجه إلى دمشق فى محاولة للقاء الخليفة هشام بن عبدالملك . .

وطلب مقابلة هشام ، ولكن هشاما لم يأذن له .

وبقى أياماً فى دمشق ، وهشام لم يأذن له . .

ويرفع زيد إلى هشام الرقاع تلو الرقاع يطلب فيها لقاءه ، فيوقع هشام فى أسفلها : ارجع إلِى منزلك .

ولكن كيف يرجع دون أن يعرض على هشام قضيته ؟ ولماذا كان المجىء إذن ؟

لقد أصر على مقابلة هشام مهما طالت مدة الانتظار .

وأذن هشام له بعد طول منع ، فصعد زيد . . . فوقف فى بعض الدرج وهو يقول : لايحب الدنيا أحد إلا ذل ـ ثم صعد . . . وقد جمع هشام له أهل الشام ، فلما دخل لم يجد مكاناً يجلس فيه .

فجلس حيث انتهى به المجلس . .

وجابه هشام زيداً بكلام فيه غلظة ، وكان مما قاله له : أخوك الباقر .

فرد عليه زيد : سماه رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ الباقر الذى يبقر العلم لشد ما اختلفتما فى الدنيا ولتختلفان فى الآخرة فاتق الله . .

واستكثر هشام أن يقول له زيد ذلك .

فقال له زيد : ياأمير المؤمنين ليس أحد يكبر عن تقوى الله ، ولا يصغر دون تقوى الله .

فقال له هشام : اسكت أنت الذى تنازعك نفسك فى الخلافة وأنت ابن أمة تزوجها أبوك ؟

فقال زيد : إن لك عندى جواباً لو أردت .

قال هشام : أجب .

قال زيد : لا أعلم أحداً أفضل عند الله من نبى بعثه الله ، ولقد بعث الله نبينا أنجبته أمة تزوجها أبوه ، ولو كان به تقصير عن منتهى غاية لم يبعثه ، وهو إسماعيل بن إبراهيم ، والنبوة أعظم منزلة من الخلافة عند الله ، ثم لم يمنعه الله من أن جعله أبا للعرب وأبا لخير البشر محمد - صلى الله عليه وسلم - وما يقصر برجل أبوه رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ..... وبعد أمى فاطمة لا أفخر بأم .

فوثب هشام من مجلسه ، وتفرق الشاميون عنه ، وقال لحاجبه : لايبيت هذا هنا أبداً .

فخرج زيد وهو يقول : ماكره قوم قط جر السيوف إلا ذلوا ، وسار إلى الكوفة .[٤٣٥]

ثورة زيد

لقد اضطر هشام زيداً إلى الثورة .. فقد حجبه عن لقائه فترة طويلة دون أن يأذن له ، وهو يعلم أنه قصده للإنصاف ، ومجلس الخلفاء قديماً كان

---

(٤٣٥) خطط المقريزى جـ٣ صـ٤٤٠

يتناصف فيه الناس ، فإذا به يضيق بأحق الناس فى النصفة ..

ولم يكتف هشام بحجب زيد ، بل تعمد أن يضيق عليه فى المجلس ، وتعمد أن يثير مشاعره ويؤذيه بالكلام .

واعتبر زيد ذلك إهانة لايحق له أن يسكت عليها

لقد خرج ساخطاً ثائراً ميمما وجهه ناحية الكوفة وهو يقول :

بكـرت تخـوفنى الحتـوف كأننى أصبحت عن غرض الحياة بمعـزل
فأجبتهـا إن المنيـة منهـل لابد أن أسـقى بكأس المنهـل
إن المنيـة لـو تُمثـل مثلـت مثلى إذا نزلـوا بضـيق المنـزل
فاقنى حيـاءك لاأبـالك فاعلمى إنى امرؤ سـأموت إن لم أُقْتَـل

لقد سار إلى الكوفة التى سبق أن قتل بها جده الأعلى ـ على بن أبى طالب ، وكانت سبباً فى مقتل جده الحسين بن على ..

إنها البلدة التى لقى منها أهل البيت الأمَرَّين ـ وهى بالرغم من ذلك ـ تمتلىء بشيعتهم ـ ولكنهم إذا جدُّ الجدُّ لاتقبض منهم إلا على الماء ..

لقد لقى زيداً ابنُ عمه محمد بن عمر بن على بن أبى طالب ـ فقال له : يازيد أذكرك الله لما لحقت بأهلك ، ولاتأت أهل الكوفة ، فإنهم لايفون لك .

ولكن زيداً لم يقبل وقال : خرج بنا هشام أسراء على غير ذنب من الحجاز إلى الشام ، ثم إلى الجزيرة ، ثم إلى العراق ...

وقال له أخوه محمد الباقر : لاتركن إلى أهل الكوفة ، لأنهم أهل غدر

ومكر ، لقد قتلوا جدك علياً ، وطعنوا عمك الحسن ، وبها قتل أبوك الحسين . . .

فأبى زيد إلا ماعزم عليه من المطالبة بالحق ، فقال له : إنى أخاف عليك ياأخى أن تكون غدا المصلوب بكناسة الكوفة ، وودعه أبوجعفر ، وأعلمه أنهما لايلتقيان .[٤٣٦]

ويقصد زيد بعبارته : خرج بنا هشام أسراء . . إلخ ـ ماضطره إليه هشام من الخروج إليه شاكياً من واليه على المدينة ، ثم أمره إياه بالرجوع ، مما جعله يلجأ إلى الكوفة حيث توجد شيعته . . .

قصة أخرى

وهناك قصة أخرى حول اضطرار زيد للثورة ، وهى تشير أيضاً إلى ماتعرض له من ظلم وإحراج .

فقد قال الرواة : إن زيد بن على ، وداود بن على بن عبدالله بن عباس ، ومحمد بن عمر بن على بن أبى طالب قدموا على خالد بن عبدالله القسرى وكان واليا على العراق ، فأجازهم وأكرمهم ورجعوا إلى المدينة .

فلما عزل هشام خالداً من العراق ، وولى مكانه يوسف بن عمر الثقفى ، كتب يوسف إلى هشام يقول له : إن خالداً ابتاع أرضاً بالمدينة من زيد بعشرة آلاف دينار ، ثم رد الأرض عليه .

فكتب هشام إلى عامل المدينة أن يسيرهم إليه ففعل ، فسألهم هشام عن

---

(٤٣٦) مروج الذهب للمسعودى جـ٢ صـ١٦١

ذلك ، فأقروا بالجائزة وأنكروا ماسوى ذلك فصدقهم ، وأمرهم بالمسير إلى العراق ليقابلوا خالداً ، فساروا على كره وقابلوا خالداً فصدقهم ، ثم ساروا نحو المدينة . فلما نزلوا القادسية راسل أهل الكوفة زيداً فعاد إليهم . .

فاعتبروا أن أمر هشام بحشدهم إليه ، ثم أمره بتوجيههم إلى العراق ليقابلوا خالداً إهانة لهم - إضافة إلى مافيه من التنديد بهم وعدم الثقة بهم . فهم فى توجيههم من هنا إلى هناك كأنهم أسرى بين يديه يفعل بهم ماشاء .

وقيل : بل إن خالداً القسرى ادعى على زيد ، وداود بن على ، ونفر من قريش أنه أودعهم مالاً ، فكتب يوسف بن عمر الذى تولى بعد خالد إلى هشام بذلك ، فأحضرهم هشام من المدينة وسيرهم إلى يوسف - الذى لقبه زيد بتيس ثقيف - ليجمعهم وخالداً .

فقدموا عليه ، فقال يوسف لزيد : إن خالداً يزعم أنه أودع عندك مالا .

قال زيد : كيف يودعنى مالا وهو يسىء إلينا دائماً ؟

فأرسل يوسف إلى خالد فأحضره فى عباءة ، وقال له : هذا زيد قد أنكر أنك أودعته شيئاً .

فنظر خالد إلى زيد وإلى داود وقال ليوسف : أتريد أن تجمع إثمك مع إثمنا فى هذا ؟ أنا لم أودع عنده أى شىء . .

فقال زيد لخالد : مادعاك إلى ماصنعت ، أى إلى ادعائك أن لك عندنا مالا ؟

فقال : شدد على العذاب فادعيت ذلك ، وأملت أن يأتى الله بفرج قبل قدومك .

وقيل : إن يزيد بن خالد القسرى هو الذى ادعى أن المال وديعة عند زيد ، فلما أمرهم هشام بالمسير إلى العراق إلى يوسف رفضوا خوفاً من شر يوسف وظلمه .

فقال هشام : أنا أكتب إليه بأن لايسىء إليكم ، وألزمهم بذلك .

فساروا على كره ، فجمع يوسف بينهم وبين يزيد ـ فقال يزيد : ليس لى عندهم قليل ولا كثير .

فقال له يوسف : أتهزأ بأمير المؤمنين ؟

ثم عذبه عذاباً كاد يهلكه ، وترك زيداً ومن معه بعد أن استحلفهم ، فلحقوا بالمدينة ، ولكن زيداً أقام بالكوفة .

فهذا ماعناه زيد بقوله : سيرنا أسراء من هنا إلى هنا :

الثورة

استقر زيد بن على فى الكوفة ، وأقام بها متخفيا . . . . لقد أصر على الثورة ضد هشام ، لأنه تضايق منه بعد أن سخر منه ، وسيَّره من شخص إلى شخص ، ومن مكان إلى مكان بقصد إذلاله .

لقد انصرف من مجلس هشام ـ حين لقيه آخر مرة وهو يقول :

شـــرده الخـــوف وأزرى بـــه ... كذلـك مـــن يكـره حـــر الجـلاد

منخـــرق الكفـــين يشكو الجـوى ... تنكـثه أطـــراف مـــرد جــداد

قد كان فى الموت له راحة   والموت حتم فى رقاب العباد
إن يحدث الله له دولة   يترك آثار العدا كالرماد

وأقبلت الشيعة إليه فى الكوفة يبايعنه ، وكانت بيعته : إنا ندعوكم إلى كتاب الله وسنة نبيه ، وجهاد الظالمين ، والدفع عن المستضعفين ، وإعطاء المحرومين ، وقسم هذا الفىء بين أهله بالسواء ، ورد المظالم ، وفعل الخير ونصرة أهل البيت . أتبايعون على ذلك ؟

لقد أوضح منهجه كاملاً أمام مبايعته ، حتى لاتكون البيعة على غير وضوح أو إعلام .

فإذا قال من يسمع هذا المنهج : نعم - وضع يده على يده ، وقال : عليك عهد الله وميثاقه ، وذمته وذمة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لتوفين بيعتى ولتقاتلن عدوى ، ولتنصحن لى فى السر والعلانية ، فإذا قال : نعم ، وضع يده على يده ، ثم قال : اللهم فاشهد .

فبايعه خمسة عشر ألفاً ، وقيل أربعون ألفاً .

فأمر أصحابه بالاستعداد ، فأقبل من يريد أن يفى ويخرج معه ، وأخذ يستعد ويتهيأ ، حتى شاع أمره فى الناس . .

قال المقريزى : هذا على قول من قال إنه أتى إلى الكوفة من الشام ثائراً بعد مقابلته لهشام ، والحوار العنيف الذى دار بينهما .

أما على قول من قال إنه أتى إلى يوسف بن عمر لمرافعة خالد القسرى أو ابنه يزيد - فإنه أقام بالكوفة ظاهراً ومعه داود بن على بن عبدالله بن عباس ، وأقبلت الشيعة تبايعه وتغريه بالخروج وتقول له : إنا لنرجو أن

تكون أنت المنصور . . . . وكان يوسف بن عمر والى العراق يحثه على الخروج من الكوفة لما بلغه من اجتماع الناس إليه ، فلما ألح عليه يوسف خرج حتى أتى القادسية .

فتبعه أهل الكوفة وقالوا له : نحن أربعون ألفاً لم يتخلف عنك أحد ، نضرب عنك بأسيافنا ، وليس هاهنا من أهل الشام إلا عدة يسيرة ، وبعض قبائلنا يكفيهم بإذن الله ، وحلفوا له بالأيمان المغلظة .

فجعل يقول : إنى أخاف أن تخذلونى وتسلمونى كفعلكم بأبى وجدى ، فيحلفون له .

داود بن على ينصحه

فقال له داود بن على : يابن عم ، لايغرنك هؤلاء ، أليس قد خذلوا من كان أعز عليهم منك ـ جدك على بن أبى طالب حتى قتل ـ والحسن من بعده بايعوه ثم وثبوا عليه وانتزعوا رداءه ؟ ـ أوليس قد أخرجوا جدك الحسين وحلفوا له ، ثم خذلوه وأسلموه ، ولم يرضوا بذلك حتى قتلوه ؟ ـ فلا ترجع معهم .

ويبدو أن كلام أهل الكوفة لزيد قد لقى منه قبولاً حين قالوا له : نحن معك ونؤيدك بسيوفنا ونفديك بأرواحنا . . فالتفت إلى داود يقول له : إن جدى علياً كان يقاتله معاوية بأموال أهل الشام ، وإن الحسين قاتله يزيد والأمر مقبل عليهم . .

فقال داود : إنى أخاف إن رجعت معهم ألا يكون أحد أشد عليك منهم . وأنت أعلم .

ولم يعجب هذا الكلام أهل الكوفة ، فقالوا لزيد : إن هذا لايريد أن تظهر أنت ، ويزعم أنه وأهل بيته أولى بهذا الأمر منكم . .

لقد وضعوا بذوراً للفتنة . .

ولما لم يلتفت زيد لكلام داود ، تركه داود ومضى منصرفاً إلى المدينة وعاد زيد إلى الكوفة مع هؤلاء .

نصائح أخرى

وفشا خبر زيد فى الكوفة وأنه عازم على ثورته ، ولكن بعض الناصحين أشفقوا عليه من عاقبة هذا العمل ، وأرادوا أن يبينوا له أن أهل الكوفة قوم لاأمان لهم ، وأنهم حين يجد الجد لابد أنهم منصرفون عنه .

كما قال له ابن عمه داود بن على ، وكما قال له غيره . .

جاءه رجل مخلص من أهل الكوفة اسمه سلمة بن كهيل . فذكر له قرابته من رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وحقه فأحسن فى القول .

ثم قال له : نشدتك الله كم بايعك ؟

قال : أربعون ألفا

قال له : فكم بايع جدّك ؟

قال : ثمانون ألفاً .

قال : فكم صدق معه ؟

قال : ثلاثمائة .

قال له : نشدتك الله . أأنت خير أم جدك ؟

قال : جدى .

قال : فهذا القرن خير أم ذلك القرن ؟

قال زيد : ذلك القرن

قال سلمة : أفتطمع أن يفى لك هؤلاء وقد غدر أولئك بجدك ؟

قال زيد : قد بايعونى ، ووجبت البيعة فى عنقى وعنقهم .

ولما لم يجد سلمة قبولاً لنصحه عند زيد قال له : أفتأذن لى أن أخرج من هذا البلد ، فلا آمن أن يحدث حدث فأهلك نفسى ؟

فأذن له زيد ، فخرج إلى اليمامة .

وبلغ عبدالله بن الحسن بن الحسن وهو فى المدينة نبأ زيد فكتب إليه ناصحاً ومشيراً :

« أما بعد فإن أهل الكوفة نفج العلانية ، خُور السريرة ،(٤٣٧) هُوج فى الرد ، جُزُع فى اللقاء تقدمهم ألسنتهم ، ولا تتابعهم قلوبهم ، ولقد تواترت إلىَّ كتبهم بدعوتهم ، فَصَمَمْت عن ندائهم ، وألبست قلبى غشاء من ذكرهم ، يأسا منهم ، واطراحاً لهم ، ومالهم مَثَل إلا ماقال على بن أبى طالب ـ رضى الله عنه ـ : « إن أهملتم خضتم ، وإن خُوِّرتم خرتم ، وإن اجتمع الناس على إمام طعنتم ، وإن أجبتم إلى مشاقة نكصتم » . . . .

ولكن زيداً ـ كان قد قرر الخروج وثوقاً بما بدا له من أهل الكوفة ـ فلم يصغ إلى هذه النصائح(٤٣٩)

---

(٤٣٧) نفج العلانية : يظهرون الشجاعة ، خور السريرة : يخفون الخوف والجزع ـ يعنى أنهم شجعان فى الظاهر جبناء فى الواقع والحقيقة

(٤٣٨) خورتم : أخِفْتُم .

(٤٣٩) خطط المقريزى جـ٣ صـ٤٤١ ومابعدها

ظهور الرافضة

علم يوسف بن عمر الثقفى بإقبال أهل الكوفة على زيد ومبايعتهم له ، واستعداد زيد للخروج بثورته ضد الأمويين فأعد للأمر عدته . .

ويعث يوسف إلى زيد يطلبه ، فلم يجده ، وخشى زيد أن يؤخذ فعجل بثورته قبل أجلها الذى أعده لها . وربما كان هذا أحد أسباب فشل خطته . .

ولما علم أهل الكوفة أن يوسف بن عمر جادٌّ فى طلب زيد ، وأيقنوا أن الأمر جدٌّ لاهزل فيه سقط فى أيديهم ، وظهروا على حقيقتهم ، وعادوا إلى طبيعتهم التى كانوا عليها مع من سبق من أهل البيت ، ولكنهم فى هذه المرة أرادوا أن يلتمسوا لأنفسهم عذراً فى التحلل من بيعتهم .

فأقبل رءوس الشيعة إلى زيد يقولون له :
رحمك الله ، ماذا تقول فى أبى بكر وعمر ؟

فقال زيد : رحمهما الله وغفر لهما ، ماسمعت أحداً من أهل بيتى يقول فيهما إلا خيراً . . .

وقد وَلُوا فعدلوا فى الناس ، وعملوا بالكتاب والسنة .
فقالوا : فَلِمَ يظلمك هؤلاء إذا كان أولئك لم يظلموا ؟ وإذا كان هؤلاء لم يظلموا فلم تدعو إلى قتالهم ؟

قال : إن هؤلاء ليسوا كأولئك ، هؤلاء ظالمون لى ولأنفسهم ولكم ، وإنما ندعوهم إلى كتاب الله وسنة نبيه محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ وإلى السنن أن تُحيا ، وإلى البدع أن تُطفأ ، فإن أجبتمونا سعدتم ، وإن أبيتم

فلست عليكم بوكيل .[٤٤٠]

فألحوا عليه أن يتبرأ من أبي بكر وعمر - فرفض ، ففارقوه ونكثوا بيعته ، وقالوا : قد سبق الإمام ، يعنون الإمام محمداً الباقر ، وكان قد مات .

وقالوا : إن إمامنا الذى يجب أن نتولاه هو جعفر الصادق بن محمد الباقر ، ورفضوا زيداً ودعوته ، فسموا الرافضة ، وبقى زيد فى عدد قليل ممن ثبت على بيعته .

القتال

كان نائب يوسف بن عمر على الكوفة هو الحكم بن الصلت . فكتب إليه ينبهه ويأمره بأن يجمع الناس فى المسجد الأعظم يحصرهم فيه حتى لايخرج أحد مع زيد ، ففعل .

وكان زيد قد واعد أصحابه على الخروج ليلة الأربعاء من مستهل صفر سنة اثنتين وعشرين ومائة .

وخرج زيد ومعه نفر ، ونادوا بشعارهم يامنصور ، يامنصور . ولكن الذين استجابوا إليه عدد قليل لايتجاوز مائتين وثمانية عشر رجلاً . فجعل زيد يقول : ياسبحان الله ، أين الناس ؟

فقيل له : إنهم فى المسجد محصورون ، قد أخذ عليهم الحكم بن الصلت الطريق ، وأغلق دونهم الأبواب والسكك . .

---

(٤٤٠) البداية والنهاية جـ٩ صـ٣٣٠

وأرسل يوسف بن عمر من الحيرة ألفى فارس وثلثمائة مقاتل .. وعلى الرغم من قلة عدد المناصرين لزيد إلا أنهم أبلوا بلاءً حسناً ، فقد حملوا على أهل الشام وهم جنود يوسف بن عمر وأخذوا يقاتلونهم ..

واستمر القتال دائراً حتى لم يبق مع يوسف بن عمر سوى مائتين ، ولو قصد زيدٌ يوسف بن عمر حينئذ لقتله ، كان يوسف واقفاً فوق تل على يسار زيد .

ولكن زيداً اتجه إلى اليمين ، يهزم كل من يلقاه فى طريقه ، وجعل أصحابه ينادون أهل الكوفة : ياأهل الكوفة - اخرجوا إلى العز والدنيا ، فإنكم لستم فى دين ولا عز ولا دنيا .. ولكن لامجيب .

واستمر القتال حتى المساء ، وزيد منتصر ، وقد انضم إليه جماعة كبيرة من أهل الكوفة .

وفى اليوم التالى بدأ القتال ، ولازم النصرُ زيداً وقتل من أهل الشام سبعين رجلاً ، حتى انصرف يوسف ومن معه وهم بِشرٍّ حال ... وكان المساء قد حل ، فوقف القتال ، وأعاد يوسف ترتيب جنوده وعبَّأ جيشه تعبئة جيدة .

ثم أصبحوا وبدأ القتال ، فكشفهم زيد ، ثم شد عليهم بمن معه ، فهزمهم وتبعهم ..

ووجد يوسف أن من الأفضل أن يستخدم السهام فأرسلها كالمطر نحو زيد وأتباعه ، فأصاب سهم منها جبهة زيد ، وكان المساء قد حل وتوقف القتال ..

وبحث أنصار زيد عمن ينزع السهم من جبهته ، فجاء طبيب وانتزع السهم ـ فمات زيد من ساعته . .

وتفرق أصحاب زيد عند ذلك . . وقد اختلفوا أين يدفنونه ؟

فقال بعضهم : ألبسوه درعه وألقوه فى الماء .

وقال بعضهم اتركوه بين القتلى . .

وقال بعضهم : ادفنوه فى العباسية ـ مكان تدفن فيه الموتى ـ

وقال بعضهم : ادفنوه فى الحفرة التى يؤخذ منها الطين وأجروا عليه الماء .

وكان هذا الاختلاف حتى لايتنبه العدو لموضعه فيمثل به . . ثم دفنوه فى الموضع الأخير .

وتذكر بعض الروايات أنه أخرج من ذلك المكان وقطعت رأسه . .

لقد انتهت المعركة لصالح يوسف بن عمر ، وكان لايتوقع ذلك . . . .

ولم يقصر زيد ولا من معه فى القتال ، ولكن الذين قصروا هم الذين تخلوا عن الخروج معه وتفرقوا عنه وخذلوه . .

والذين حصرهم الحكم بن الصلت فى المسجد ، وكان فى إمكانهم أن يكسروا الحصار ويخرجوا ـ لو أرادوا .

لقد ناداهم زيد وهم محصورون فى المسجد يقول لهم : « والله ماخرجت ولا قمت مقامى هذا حتى قرأت القرآن وأتقنت الفرائض وأحكمت السنن والآداب ، وعرفت التأويل كما عرفت التنزيل ، وفهمت الناسخ والمنسوخ

والمحكم والمتشابه والخاص والعام ، وما تحتاج إليه الأمة فى دينها مما لابد منه ولا غنى لها عنه ، وإنى لعلى بينة من أمرى »

فرماه أهل المسجد بالحجارة من فوق المسجد . فانصرف زيد فيمن معه .

وعلى الرغم من العدد القليل الذى بقى معه استطاع أن يصمد فى مواجهة يوسف بن عمر أكثر من يومين ، واستطاع أن يقتل من جنود يوسف عدداً كثيراً حتى كاد يوسف ييأس من النصر . ولولا أنه لجأ إلى السهام التى لجأ إليها قبل ذلك جنود عبيد الله بن زياد مع الحسين فى كربلاء ـ لما تمكن من النصر . .

تمثيل وتشويه

وتفرق أنصار زيد ، فقد أصبحوا ولا رئيس لهم ، وتوجه ابنه يحيى إلى كربلاء ثم إلى خراسان بعد ذلك ، وقتل بعد حين .

وتتبع يوسف بن عمر الجرحى فى الدور . .

وقد ذكرنا أن بعض الروايات تذكر أنهم احتزوا رأس زيد ـ

ويقال إن الرأس أرسلت إلى هشام بن عبدالملك بدمشق .

وقيل إن هشام أرسله إلى المدينة ، ومنها سار إلى مصر ودفن بها بالمشهد المعروف بزين العابدين . .

وهو مشهد يتبرك الناس بزيارته . .

قال المقريزى : العامة تسميه زين العابدين ، وهو وَهْم ، لأنه مشهد زيد ابنه . . . وقد بنى هذا المشهد ـ الأفضل ـ أمير الجيوش . واهتم ببنائه

اهتماماً كبيراً ، وأصبح مقصد الزائرين والمحبين . .

نظرة تأمل فى هذه الأحداث

كان فى الإمكان أن تتجه الأحداث إلى غير هذه النتائج الدامية لو أن هشاماً أحسن لقاء زيد . . ولو أنه أنصفه من عامله لاكتسب ولاءه وحسن ظنه . ولكنه دفعه إلى الثورة بسبب سوء المعاملة ، وعدم الإنصاف من الخصوم .

ويذكر ابن سعد فى طبقاته أن هشاماً قد ندم بعد ذلك حين وصله رأس زيد ـ وإن كان قد ذكر سبباً آخر فى قصد زيدٍ لهشام .

قال ابن سعد : أخبرنا محمد بن عمر ، قال : أخبرنا عبدالله بن جعفر : قال : دخل زيد بن على على هشام بن عبدالملك يشكو إليه عامله ، فلم يقض له هشام حاجة وتجهمه وأسمعه كلاماً شديداً .

فخرج من عند هشام وهو يقول : مايحب الحياة أحد قط إلاذل ، ثم مضى فكان وجهه إلى الكوفة ، فخرج بها على هشام حتى قتل وصلب .

قال سالم ـ مولى هشام ـ : فأخبرت هشاماً بعد ذلك بما كان ، وبما قال زيد يوم خرج من عنده ـ فقال : ثكلتك أمك ـ ألا كنت أخبرتنى بذلك قبل اليوم ؟ وماكان يرضيه حتى أفعله ؟ لقد كان ذلك أهون علينا مما صار إليه الأمر بعد ذلك .

وقال ابن سعد : أخبرنا محمد بن عمر قال : أخبرنا سَحْبَل بن محمد قال : مارأيت أحداً من الخلفاء يكره الدماء والقتل أكثر من هشام بن

عبدالملك ، ولقد دخله من مقتل زيد بن على ويحيى بن زيد هَمٌّ شديد ، وقال : وددت أنى كنت افتديتهما . .(٤٤١)

ويعض الرواة يرى أنه كان بإمكان هشام أن يمنع ماحدث . .

ويقولون إن ماروى عن هشام من قوله : إنه دخله هَمٌّ بسبب مقتل زيد وابنه يحيى مردود عليه بأن يحيى بن زيد لم يقتل فى عهد هشام ، بل قتل فى عهد الخليفة من بعده ـ الوليد بن يزيد ، كما ذكر ذلك ابن كثير فى البداية والنهاية .

حين بلغ حسين بن على بن حسين مصرع أخيه بهذه الصورة الفظيعة قال ـ فيما يرويه عنه ابنه عبدالله ـ : « اللهم إن هشاماً رضى بقتل زيد فاسلبه ملكه ، وإن يوسف بن عمر قتل زيداً ، فسلط عليه من لايرحمه . . . . . »

قال عبدالله بن حسين : فرأيت والله الملك وقد ذهب ـ لما أخذه بنو العباس ، ورأيت يوسف بن عمر بدمشق مقطعا على أبوابها دمشق .

فقلت : ياأبتاه وافقت دعوتك ليلة القدر . .

صفات زيد

نستطيع أن نستخلص من متابعتنا لمسيرة زيد أخلص صفاته .

فمن تلك الصفات ـ الإخلاص فى العقيدة والعمل ، والإخلاص هو الذى ينير الطريق لاكتساب الحقائق ، ونيل درجات القرب من الله . .

---

(٤٤١) الطبقات الكبرى جـ٥ قسم ١ صـ٢٣٩

قال الشيخ أبو زهرة : وأولى ثمرات الإخلاص التقوى ، وكان نور التقوى يبدو فى وجه زيد وعلى لسانه وأفعاله . قال عنه بعض معاصريه : « كنت إذا رأيت زيد بن على رأيت أسارير النور فى وجهه »

ومن تقواه أنه كان ملازماً للقرآن لايكف عن تلاوته والتدبر فى معانيه ومن تقواه أنه كان يرعى محارم الله . . . ويقول الرواة عنه فى ذلك : « إن زيد بن على لم يهتك لله محرماً منذ عرف يمينه من شماله »

وهو يعرف أن التقوى هى أقرب طريق إلى القلوب ، ويقول فى ذلك : « من أطاع الله أطاعه خلق الله »

ومن إخلاصه أنه كان يضع أمة محمد فى المرتبة الأولى ، وكان فى كل أموره يراعى ذلك ـ فهو يعمل لمصلحتهم وجمع شملهم وإصلاح مابينهم ، ولذلك كان يقول لأنصاره : اخرجوا من الذل إلى العز ، ومن الشقاء إلى السعادة ومن الضعة إلى الرفعة .

قال مرة لأحد أصحابه : « أما ترى هذه الثريا ؟ أترى أحداً ينالها ؟ » قال صاحبه : لا .

قال : « والله لوددت أن يدى ملتصقة بها فأقع إلى الأرض أو حيث أقع فأقطع قطعة قطعة وأن الله يجمع أمة محمد »[٤٤٢]

ومن إخلاصه أنه كان سمحاً عفواً ، ومن سماحته وعفوه تنازله عن حقه لابن عمه عبدالله بن الحسن . .

---

(٤٤٢) مقاتل الطالبين لأبى الفرج صـ١٢٩

شجاعته

ومن أخص صفاته الشجاعة . وكان مثالاً صادقاً فى الشجاعة الأدبية ـ يقول كلمة الحق ، لايخشى فيها لومة لائم ، وقد رأينا كيف ناقش هشاماً ورد عليه حتى أفحمه .

وكيف رد على الشيعة الرافضة الذين طلبوا منه أن يتبرأ من أبى بكر وعمر . ولم ينظر إلى ماكان يجنيه من وراء ذلك من مكاسب مادية ودنيوية لو أطاعهم . .

إنه لايريد أن يتخذ الباطل طريقاً إلى حقه . .

ورفض أن يلجأ إلى ذلك لأنه ينافى الصدق والشجاعة التى عرفت عن أهل البيت .

أما الشجاعة فى ميدان الحروب فيكفى فى الدلالة عليها هذه المعركة التى خاضها ومعه حفنة قليلة من أنصاره ، يواجه بهم جيشاً كبيراً معدًا ومسلحاً يحيط به ، ووراء هذا الجيش مدد مستمر . . ومع ذلك فقد استطاع أن يصمد أمامهم أكثر من يومين . . .

الإباء والمحافظة على الكرامة

ماأحبَّ أحد الحياة إلا ذل . . هذه كلمة زيد ، وهى شعاره ، وقد طبق هذا الشعار تطبيقاً عمليا ، فهو لم يحرص على الحياة ، ولو حرص عليها لصبر على ماوجه إليه من إساءة ، واستساغ الطعان التى توجه إليه وإلى أهل البيت ، وقد رأينا كيف رد على خالد بن عبدالملك بن الحارث فى المدينة ؟

وكيف رد على هشام بن عبدالملك فى دمشق ؟

لقد كان يعرف أن الإنسان لايعيش إلا مرة واحدة ، وأن الكرامة لو جرحت لاتلتئم .

قال بعض مُشايعيه : أردت الخروج للحج فمررت بالمدينة ، فدخلت على زيد بن على فسمعته يتمثل بقول الشاعر :

ومن يطلب المال المقنع بالقنا ... يعش ماجداً أو تخترمه المخارم
متى تجمع القلب الذكى وصارماً ... وأنفاً حمياً تجتنبك المظالم
وكنت إذا قوم غزونى غزوتهم ... فهل أنا فى ذا ياآل همدان ظالم ؟[٤٤٣]

الصبر

والصبر عدة الشجاعة ، وهل الشجاعة إلا صبر ساعة ـ كما تقول الحكمة المشهورة ؟

والصبر يحتم على صاحبه الحلم ، والأناة ، وعدم الاندفاع ، وتحمل الشدائد ـ والأمثلة على حلم زيد وعدم اندفاعه رأيناها فى محاورته مع القحطانى الذى أساء إليه . . . فقال له زيد فى هدوء : « إن مثلى لايرد على مثلك »

وكان نقش خاتمه : « اصبر تؤجر ، وتوق تنج »

وقد حدثت محاورة بينه وبين ابن عمه عبدالله بن الحسن ، أغلظ عبدالله القول فيها لزيد ـ فقد قال له : ياابن السندية ـ وهو يعنى بذلك أن أمه كانت أمة تزوجها أبوه . .

---

(٤٤٣) الإمام زيد ـ الشيخ محمد أبوزهرة ـ دائرة معارف الشعب جـ٢ صـ٣٦٠

ولكن زيداً ضحك وقال : قد كان إسماعيل ـ عليه السلام ـ مثلى . . .
ولما علمت أم عبدالله بن الحسن بما قاله ابنها لزيد ـ وكانت عمة زيد ـ أرسلت إليه ، وقالت له :

يابن أخى ، إنى لأعلم أن أمك عندك كأم عبدالله عنده ، وقالت لابنها عبدالله : بئسما قلت لابن عمك أما والله لنعم دخيلة القوم كانت أم زيد .(٤٤٤)

هكذا كان صبر زيد وسعة صدره ، فلم يكن يقابل السيئة بالسيئة ـ بل كان دائماً يقابل السيئة بالحسنة . .

وعيه وذكاؤه

لقد كان الذكاء فطرة موروثة فى أهل البيت ، وقد تميز زيد بكثرة الذكاء الذى يدل عليه جمعه للعلوم والمعارف التى حصلها . .

قال الشيخ أبوزهرة فى ذلك : ورث زيد عن أمه السندية ذكاء وعمق تفكير وقوة تأمل . . . وهذه الصفات كانت شائعة فى قوم أمه . .

وورث عن آل أبيه الذكاء والعقل المفكر الملهم ، والنفس المتوثبة التى تدفع الفكر إلى العمل والاستقصاء فى التفكير ، ولذلك كان أقوى مايوصف به ذلك الإمام النابغة : الوعى الفكرى الكامل ـ فقد كان ذا ذكاء نافذ ـ لم يهمله ـ بل انصرف به إلى العلم يطلبه ، وقد أوتى ذاكرة تحفظ كل مايقرأ

---

(٤٤٤) الخطط للمقريزى جـ٣ صـ٤٤٠

ويسمع . . . . كان يحفظ أحاديث آل بيته التي يروونها عن علي وعن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأخذ كل أنواع العلوم الإسلامية من ينابيعها ، وكان ذا بديهة حاضرة ، تحضر إليه المعاني عند الحاجة إليها . . وكان إذا تكلم انثالت إليه انثيالا ، يرد الجواب في أسرع وقت ، وكان وعيه الفكري يظهر في أجلى مظاهره في تعليله للوقائع وربطه بين الأسباب والمسببات .[٤٤٥]

هل تناقض نتيجة المعركة ذكاءه ؟

وإنا لنعجب كيف لايكون لرجل مثل زيد في فطنته وذكائه ووعيه وتوقعه لنتائج الأحداث ـ وازع يمنعه من الوثوق في أهل الكوفة الذين خذلوه بهذه الصورة التي خذلوا بها من سبقوه من أهله . . . وكيف لا ينتفع بالأحداث القديمة في قياس مايجد من الأحداث ؟

أين الفراسة الصادقة والإلهام الصائب ؟

ولكنا إذا أدركنا أن المقادير لابد أن تنفذ ، وأن سهام القضاء لابد أن تقع ـ علمنا أن الفراسة لاتجدي في كثير من الأحيان . . . والإلهام كثيراً مايخيب ، وأن الحذر لاينجي من القدر ـ هذا مع أن زيداً ـ رضي الله عنه ـ لم يفته الإعداد والتأهب والحذر ، إن فراسته لم تذهب حين رأى تخاذل أهل الكوفة وهو في الميدان فقال : إنها حسينية إذن .

وتحسُّبُه لم يفته حين بايع أهل الكوفة في المسجد ، ولم يبايعهم في غيره ،

---

(٤٤٥) الإمام زيد للشيخ أبوزهرة صـ٣٦١

لأنه أراد أن يشهدهم أن وجودهم فى هذا المكان سيكون شاهداً عليهم ، وأن هذه البيعة لها جلالها الذى لايقل عن جلال الصلاة التى يستحضر فيها الإنسان عظمة ربه ومراقبته .

وكان يعلم أن البيعة لاتمنعهم من الغدر إذا أرادوا ، أو التخاذل إن جد الجد ، ولكنه وازن بين الأمور فرجح أن الموت فى عزة خير من العيش فى ذل . .

ولقد ظل مذكِّراً لشيعته حتى آخر وقت ، حتى وهو فى ميدان المعركة ، فقد ظل يذكرهم بخروجه وسببه ، ويذكرهم بمنهجه وسياسته ، ويدعوهم إلى التمسك بالعز ورفض الذل .

ولم يتوان عن تدبير المعركة كأحسن مايكون القائد الماهر ، فنظم الصفوف وأعد الرجال ، وهجم على العدو فى صلابة ، وانتصر فى بداية الأمر ونال من عدوه نيلاً عظيماً .

لقد فر جنود الشام أمامه كما فروا أمام جده على ، ولم يستطيعوا أن ينالوا منه إلا بالسهام التى وجهوها إليه وهم بعيدون عنه . . . .

وخلاصة القول أنه لم يقصر فى رأى ، ولم يغفل عن تدبير ، ولم يلْه عن توقع - بل سلك كل الأسباب المؤدية إلى النصر . . . . ولكن أمر الله كان قدراً مقدوراً

فصاحته وبيانه

والفصاحة والبيان من أخص صفات البيت الهاشمى - كما هو معروف - وميراث الإمام زيد من آبائه وأجداده منها كبير . . . ولاعجب أن يكون قد

ورث عن جده الأعلى على بن أبى طالب صاحب نهج البلاغة روعة البيان وفصاحة اللسان .

وقد كان نهج البلاغة عند أهل البيت يتوارثونه فيما بينهم ويروونه لأبنائهم فينشأون على نهج من البلاغة قوى وَعَلَى سنن من القول رصين

وقد مرت بنا كلمة الحصرى فى زهر الآداب التى ذكرناها ، ومنها علمنا أن الناس كانوا يجتمعون لسماع أحاديث بنى على ـ يتناقلونها بينهم ويحفظونها ليتعلموا منها كيف تكون البلاغة وكيف يكون البيان . .

وكان بنو أمية يدركون مدى خطورة بيان زيد فى الناس ، فكتب هشام إلى عامله فى الكوفة يقول له : « امنع أهل الكوفة من حضور مجلس زيد ، فإن له لساناً أقطع من ظبة ـ حد ـ السيف ، وأحد من شبا الأسنة ، وأبلغ من السحر والكهانة ، وكل نفث فى عقدة »[٤٤٦]

وكان الإمام زيد راوية للشعر ، وقد مر بنا ذكر بعض ماستشهد به فى بعض مناسبات الأحوال ـ فالأبيات التى استشهد بها حين قال :

بكرت تخوفنى الحتوف كأننى أصبحت من غرض الحياة بمعزل

هى من قصيدة لعنترة العبسى

والأبيات التى تمثل بها حين قال :

ومن يطلب المال المقنع بالقنا يعش ماجدا أو تخترمه المخارم

يذكر بعضهم أن الامام علياً ـ كرم الله وجهه ـ كان يتمثل بها

---

(٤٤٦) زهر الآداب ، وشبا الرمح : حده ، نفث العقد : عمل السحرة

أحياناً ..... والأبيات التى تمثل بها وهى :

منخرق السربال يشكو الوجى تنقفه أطراف صخر حداد

يروى أن ابن الأشعث قالها بعد أن انهزم فى طريقه إلى سجستان[٤٤٧]

وقد نسب بعضهم إلى الإمام زيد شعراً كان يستشهد به سيبويه لجزالته .. من ذلك قوله :

ومن فضل الأقوام يوماً برأيه فإن علياً فضلته المناقب
وقول رسول الله والحق قوله وإن رغمت منه الأنوف الكواذب
بأنك منى ياعلى مُعَالِناً كهارون بن موسى أخىٌ وصاحب
دعاه ببدر فاستجاب لأمره فبادر فى ذات الإله يضارب[٤٤٨]

آراء الإمام زيد

يقول الشيخ أبوزهرة : إن الإمام زيداً أول إمام من أهل البيت بعد الإمام الحسين يخرج إلى الناس حاملاً رأياً يدعو إليه ، منتهجاً لنفسه سبيلاً فى الدعوة .

وحقاً ذلك فقد عرفنا كيف خرج الإمام زيد على خط من سبقه من أهل البيت ، من الالتزام بالبقاء فى المدينة ـ اعتزالاً للسياسة والأحداث العامة ـ فقرر الخروج والتجوال طلباً للعلم ، والتقاء بالناس ، وتوجيهها للشيعة .

---

(٤٤٧) ذيل الأمالى لأبى على القالى صـ١٥٨

(٤٤٨) نور الأبصار صـ١٩٧

وكانت له آراء فى السياسة والفقه أدت إلى ظهور مذهب فقهى مشهور اسمه المذهب الزيدى . .

وخلاصة آرائه فى السياسة تدور حول مايأتى : تصحيح المفاهيم السائدة حول قضية الخلافة ، فقد كان بعض الشيعة يعتقدون أن الخلافة بالوراثة لا بالاختيار ، وأن علياً قد أُوصىَ إليه بالشخص لا بالوصف ، وأن أبابكر وعمر قد اغتصبا حقه ، وأن الإمام لابد أن يكون معصوماً من الخطأ ، وأن هناك مهديا منتظراً يقوم بالحق ويملأ الأرض عدلاً كما ملئت جوراً .

جاء الإمام زيد ـ رضى الله عنه ـ فلم يعتبر الخلافة وراثة . . .

وقال : إن علياً ـ رضى الله عنه ـ لم يُوص إليه بالخلافة بالشخص . . . وأنه يجوز إمامة المفضول مع وجود الفاضل لمصلحة المسلمين مادام المفضول يقيم العدل ويقر الحق . . .[٤٤٩]

إن مصلحة المسلمين ـ فى رأى الإمام زيد ـ فوق كل اعتبار ، ولم يقل الإمام زيد بأن الأئمة معصومون من الخطأ ، وإن كان أتباعه بعده قرروا أن أربعة من آل البيت معصومون من الخطأ ـ هم على وفاطمة والحسن والحسين .

وَرَأى الإمام زيد ـ أن الإمام لاينبغى أن يكون مستوراً ، وعلى ذلك فهو لايقول بالمهدى المنتظر ـ ولا رجعة عنده إلا يوم البعث حين يبعث الله العباد

---

(٤٤٩) راجع الملل والنحل للشهر ستانى فى بيان المذهب الزيدى

جميعاً ، ولكن الشيعة الغالية يرون بالرجعة ، ويرون أن الإمام لايموت بل يختفى إلى أن يرجع مرة أخرى .

هذا موجز لآراء الإمام زيد السياسية فى قضية الخلافة ، وهى كما نرى آراء معتدلة خالية من التطرف الذى ذهبت إليه الشيعة . .

هل تأثر الإمام زيد بالمعتزلة ؟

عرفنا فى صدر حديثنا أن الإمام زيداً التقى بواصل بن عطاء رأس المعتزلة فى عصره وتحدث معه . . . .

فمن هو واصل بن عطاء ؟

كان واصل بن عطاء رئيساً من رؤساء المعتزلة ، واسمه أبوحذيفة واصل بن عطاء المعروف بالغزّال ، مولى بنى ضبة ـ وقيل : مولى بنى مخزوم .

وكان واصل أحد الأئمة البلغاء المتكلمين فى علوم الكلام وغيره ، وكان يلثغ بالراء فيجعلها غيناً ، قال المبرد عنه : فكان يخلص من هذا الحرف ولاينطق به فى كلامه لمقدرته . حتى قال فيه أحد الشعراء :

ويجعل البر قمحا فى تصرفه وخالف الراء حتى احتال للشعر
ولم يطق مطراً والقول يعجله فعاد بالغيث إشفاقاً من المطر

ولاشك أنها مقدرة لغوية وبيانية كبيرة أن يستطيع إسقاط الراء من كلامه ، وهى حرف يكثر دورانه فى العربية . .

وقيل : هو الذى عرضت عليه رقعة يقرؤها وكان فيها : أمر أمير الأمراء أن تحفر بئر فى الصحراء يشرب منها الصادر والوارد ـ فقرأها : حكم حاكم

الحكام أن يبحث عن عين فى البادية يستقى منها الحادى والبادى » . . . فعل ذلك بداهة ودون تردد .

قال ابن خلكان عنه : ذُكِر أمامه بشار بن برد فقال : أما لهذا الأعمى المكتنى بأبى معاذ من يقتله ، أما والله لولا أن الغيلة خلق من أخلاق الغالية لبعثت إليه من يبعج بطنه على مضجعه ، ثم لايكون سدوسياً ولا عقيلياً .

فقال : هذا الأعمى ـ ولم يقل بشارا ، ولا ابن برد ، ولا الضرير . . . وقال ـ من أخلاق الغالية المغيرية ولا المنصورية وقال : لبعثت : ولم يقل لأرسلت .

وقال : على مضجعه ، ولم يقل : على مرقده ولا على فراشه

وقال : يبعج بطنه ، ولم يقل يبقر بطنه .

وكل ذلك حتى يتفادى النطق بالراء التى يلثغ فيها ، فانظر إلى أى حد وصلت مقدرته اللغوية . .

وكان واصل من أتباع الحسن البصرى ، ثم اعتزل مجلسه فسمى هو وأتباعه بالمعتزلة[٤٥٠] . . . والمعتزلة فرقة كبيرة من فرق المسلمين لها آراؤها ومذهبها ، وربما اعتمدت على العقل اعتماداً كبيراً ، وغالت فى تقديره إلى درجة الانحراف عن الجادة أحياناً كثيرة ، وقد أدت مقولتهم فى عهد المأمون ـ بخلق القرآن ـ إلى فتنة كبيرة أوذى بسببها كثير من العلماء الأجلاء إيذاء كثيراً ، ومن بينهم الإمام العظيم أحمد بن حنبل ـ رضى الله عنه ـ

---

(٤٥٠) وفيات الأعيان لابن خلكان جـ٣ صـ٨٧

التقى زيد بن على فى البصرة بواصل بن عطاء ، وتدارس معه مذهب المعتزلة . وربما تأثر زيد بقضية من قضايا المعتزلة هى قضية مرتكب الكبيرة . . .

وكان المعتزلة يقولون : إن مرتكب الكبيرة فى منزلة بين المنزلتين أى بين الكفر والإيمان وأنه مخلد فى النار مالم يتب .

فقال زيد : إن مرتكب الكبيرة فى منزلة بين المنزلتين ، ولكنه لايخلد فى النار ، بل يعاقبه الله بمقدار ماأذنب .

ومذهب زيد هنا هو مذهب وسطى لم يتطرف تطرف الخوارج الذين حكموا بالكفر عليه ، ولم يشتط كما اشتط المعتزلة . . .

ولم يمل إلى ماقاله الحسن البصرى بأن مرتكب الكبيرة منافق يظهر غير مايبطن ، ولا إلى ماقاله المرجئة بأن أمره مرجأ إلى الله ، وأنه لاتضر مع الإيمان معصية ولا تنفع مع الكفر طاعة .

إن مذهبه وسط بين جموح المعتزلة ، وتفريط المرجئة

وحقيقة هذا المذهب تقوم على أن الإيمان عقيدة يصدقها العمل ، فإذا لم يوجد العمل الصالح لدى المؤمن كان ذلك دليلاً على عدم وجود الإيمان ولكنه مُسْلم على أى حال ، والتخليد فى النار لايكون إلا للكافر الذى حكم الله بكفره ، وهو الذى لاينطق الشهادتين .

آراؤه الفقهية

كان الإمام زيد فقيهاً عالماً إماما من أئمة الدين والهدى . وله منزلته بين القراء والفقهاء ، وله تلاميذ أذاعوا فقهه وعلومه ـ والذى أثر من آرائه الفقهية قد تضمنها كتابان هما مجموع الحديث ، ومجموع الفقه .

والذى روى هذين المجموعين هو تلميذه أبوخالد عمرو بن خالد الواسطى الهاشمى بالولاء ...... وكان أبوخالد ملازماً للإمام زيد فى رحلاته ، كما لازمه وقتاً طويلاً فى المدينة .

وقد طعن بعضهم فى أبى خالد هذا وإن كان الزيدية قد وثقوه .

ولكن المأثور من فقه الإمام زيد لايخرج عن آراء فقهاء الأمصار فى الجملة ، وإن خالفت رأى إمام نجدها تتفق مع رأى إمام آخر ، ولاتخرج فى جملتها عن مجموع آرائهم .

ومنهج الإمام زيد فى الاستنباط لايخرج عن منهج الذين عاصروه فى ذلك كالإمام أبى حنيفة ـ رضى الله عنه ـ وعبدالرحمن بن أبى ليلى ، وابن شبرمة ، والزهرى ، وغيرهم .

وهو يأخذ بالكتاب والسنة ويجتهد برأيه فيما لايجد فيه نصا . .

كما كان يعتمد كثيراً على أقوال وآراء جده ـ الإمام على بن أبى طالب ـ كرم الله وجهه ـ

وربما خالف بعض ماروى عن الإمام على فى شأن الزكاة من أموال اليتامى ، فقد روى أن علياً ـ رضى الله عنه ـ أفتى بأخذها ، ولكن زيداً أفتى بعدم أخذها(٤٥١)

أولاده

من أولاد زيد بن على ـ يحيى بن زيد ، وقد خرج بخراسان فقتل . . قتله سَلْم بن أحوز ، بعثه إليه نصر بن سيَّار ـ وأم يحيى هى ريطة بنت أبى

---

(٤٥١) رجعنا فى بيان ذلك إلى الشيخ أبى زهرة « الإمام زيد » فى دائرة معارف الشعب جـ٢ صـ٣٦٧ ومابعدها

هاشم عبدالله بن محمد بن الحنفية .

ومن أولاده : عيسى بن زيد ، وحسين بن زيد ـ المكفوف ـ ومحمد بن زيد . .

ولم يترك إناثاً .

يحيى بن زيد

وقصة قتل يحيى يرويها لنا ابن كثير قائلاً :

لما قتل زيد بن على اختفى يحيى فى خراسان عند الخريش بن عمر بن داود فى مدينة « بلخ »

وظل هناك حتى مات هشام بن عبدالملك ، فكتب عند ذلك يوسف بن عمر إلى نصر بن سيار يخبره بأمر يحيى بن زيد ، فكتب نصر بن سيار إلى نائب بلخ ، مع عقيل بن معقل العجلى ، فأحضر الخريش فضربه بالسياط فلم يدل عليه ، فجاء ولد للخريش فدل عليه فحبس .

وكتب نصر إلى يوسف بن عمر بذلك ، فبعث إلى الوليد بن يزيد وكان هو الذى تولى الخلافة بعد هشام .

فكتب الوليد إلى نصر بن سيار أن يطلق سراحه ويرسله مع أصحابه إليه فأطلقهم وسيرهم ، وفى الطريق توسم منه نصر غدراً ، فبعث إليه بقوة من جنده ، فهزمهم يحيى بن زيد ـ ولم يكن معه إلا سبعون رجلاً .

وقتل أمير جيش نصر وغنم منهم أموالاً كثيرة . . فأرسل نصر جيشاً آخر فهزموا يحيى وقتلوه وقتلوا جميع أصحابه(٤٥٢)

رحمهم الله

---

(٤٥٢) البداية والنهاية جـ١٠ صـ٥

الموضــــوع	الصفحـــة



تم بحمد الله المجلد الثانى
من سيرة آل البيت

ويليه بمشيئة الله المجلد الثالث